

الْعَبَرَات

مُصْطَفَى لُطْفِي الْمَنْفُلُوطِيّ

وَهِيَ مَجْمُوعَةٌ رَوَايَاتٍ قَصِيرَةٍ بَعْضُهَا مَوْضُوعٌ وَبَعْضُهَا مُتَرَجِّمٌ
إِهْدَاءً

الْأَشْقِيَاءَ فِي الدُّنْيَا كَثِيرٌ وَلَيْسَ فِي اسْتِطَاعَةٍ بَائِسٍ مِثْلِي أَنْ يَمْحُو شَيْئًا
مِنْ بُؤْسِهِمْ وَشَقَائِهِمْ فَلَا أَقَلَّ مِنْ أَنْ أَسْكُبَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ هَذِهِ الْعَبَرَاتِ ، عَلَيْهِمْ
يَجِدُونَ فِي بُكَائِي عَلَيْهِمْ تَعْزِيَةٌ وَسَلْوَى ،

مُصْطَفَى لُطْفِي الْمَنْفُلُوطِيّ

الْيَتِيم

"مَوْضُوعَة"

سَكَنَ الْغُرْفَةَ الْعُلْيَا أَوْ الْوُسْطَى فِي مِصْرَ فَقَدْ كُنْتُ أَرَاهُ مِنْ نَافِذَةِ غُرْفَةِ مَكْتَبِي وَكَانَتْ عَلَى كَتَبٍ مِنْ بَعْضِ نَوَافِذِ غُرْفَتِهِ فَأَرَى أَمَامِي فَتَى شَاحِبًا نَحِيلًا مُنْقَبِضًا جَالِسًا إِلَى مِصْبَاحٍ مِنْبَرٍ فِي إِحْدَى زَوَايَا الْغُرْفَةِ يَنْظُرُ فِي كِتَابٍ أَوْ يَكْتُبُ فِي دَفْتَرٍ

أَوْ يَسْتَظْهِرُ قِطْعَةً أَوْ يُعِيدُ دَرْسًا فَلَمْ أَكُنْ أَحْقُلُ بِشَيْءٍ مِنْ أَمْرِهِ حَتَّى عُدْتُ إِلَى مَنْزِلِي مِنْذُ أَيَّامٍ بَعْدَ مُنْتَصَفِ لَيْلَةِ قُرَّةٍ مِنْ لَيَالِي الشِّتَاءِ فَدَخَلْتُ غُرْفَةَ مَكْتَبِي لِبَعْضِ الشُّؤُونِ فَأَشْرَقْتُ عَلَيْهِ فَإِذَا هُوَ جَالِسٌ جَلَسَتِهِ تِلْكَ أَمَامَ مُصَاحِبِهِ وَقَدْ أَكْبَّ

بِوَجْهِهِ عَلَى دَفْتَرٍ مَنْشُورٍ بَيْنَ يَدَيْهِ عَلَى مَكْتَبِهِ فَظَنَنْتُ أَنَّهُ لَمَّا أَلَمَ بِهِ مِنْ تَعَبِ الدَّرْسِ وَالْأَمِّ السَّهَرِ قَدْ عُبِّتْ بِجَفْنَيْهِ سِنَةٌ مِنَ النَّوْمِ فَأَعْجَلْتُهُ مِنَ الذَّهَابِ إِلَى فَرَّاشِهِ وَسَقَطَتْ بِهِ مَكَانَهُ فَمَا رَمَتْ مَكَانِي حَتَّى رَفَعَ رَأْسَهُ فَإِذَا عَيْنَاهُ مَخْصِلَتَانِ مِنْ

الْبُكَاءِ وَإِذَا صَفْحَةٌ دَفْتَرِهِ الَّتِي كَانَ مُكَبًّا عَلَيْهَا قَدْ جَرَى دَمْعُهُ فَوْقَهَا فَمَحَا مِنْ كَلِمَاتِهَا مَا مَحَا وَمَشَى بِبَعْضِ مِدَادِهَا إِلَى بَعْضِ ثَمٍّ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ عَادَ إِلَى نَفْسِهِ فَتَنَاولَ قَلَمَهُ وَرَجَعَ إِلَى شَأْنِهِ الَّذِي كَانَ فِيهِ .

فَأَحْزَنَنِي أَنْ أَرَى فِي ظُلْمَةِ ذَلِكَ اللَّيْلِ وَسُكُونِهِ هَذَا الْفَتَى الْبَائِسَ الْمِسْكِينَ مُنْفَرِدًا بِنَفْسِهِ فِي غُرْفَةٍ عَارِيَةٍ بَارِدَةٍ لَا يَتَّقِي فِيهَا عَادِيَةَ الْبَرْدِ بِدَثَارٍ وَلَا

نَارٍ يَشْكُو هُمًا مِنْ هُمُومِ الْحَيَاةِ أَوْ رِزْءٍ مِنْ أَرْزَائِهَا قَبْلَ أَنْ يُبْلَغَ سِنَّ الْهُمُومِ
وَالْأَحْزَانِ مِنْ حَيْثُ لَا يُجَدُّ بِجَانِبِهِ مُوَاسِيًا وَلَا مُعِينًا وَقُلْتُ لَأَبْدَّ أَنْ يَكُونَ وَرَاءَ
هَذَا الْمَنْظَرِ الضَّارِعِ الشَّاحِبِ نَفْسَ قَرِيحَةٍ مُعَذِّبَةٍ تَذُوبُ بَيْنَ أَضْلَاعِهِ ذُوبًا
فَيَتَهَافَتُ

لَهَا جِسْمُهُ تَهَافَتَ الْخَبَاءِ الْمُقَوَّضِ فَلَمْ أَزَلْ وَاقِفًا مَكَانِي لَا أَرْبَحُهُ حَتَّى رَأَيْتُهُ قَدْ
طَوَى كِتَابَهُ وَفَارَقَ مَجْلِسَهُ وَأَوَى إِلَى فِرَاشِهِ فَانْصَرَفْتُ إِلَى مَخْدَعِي وَقَدْ
مَضَى اللَّيْلُ

إِلَّا أَقْلَهُ وَلَمْ يَبْقَ مِنْ سَوَادِهِ فِي صَفْحَةٍ هَذَا الْوُجُودِ إِلَّا بَقَايَا أُسْطُرٍ يُوشِكُ أَنْ
يَمْتَدَّ إِلَيْهَا لِسَانُ الصَّبَاحِ فَيَأْتِي عَلَيْهَا :
ثُمَّ لَمْ أَزَلْ أَرَاهُ بَعْدَ ذَلِكَ فِي كَثِيرٍ مِنَ اللَّيَالِي إِمَّا بَاكِيًا أَوْ مُطْرَقًا أَوْ ضَارِبًا
بِرَأْسٍ عَلَى صَدْرِهِ أَوْ مُنْطَوِيًا عَلَى نَفْسِهِ فِي فِرَاشِهِ يَبْنُ أَنْيْنَ الْوَالِهَةِ التَّكَلَّى أَوْ
هَائِمًا فِي غُرْفَتِهِ يَذْرَعُ أَرْضَهَا وَيَمْسَحُ جُذْرَانَهَا حَتَّى إِذَا نَالَ مِنْهُ الْجُهِدُ سَقَطَ
عَلَى

كُرْسِيَةً بَاكِيًا مُنْتَحِبًا فَاتَوَجَّعَ لَهُ وَأَبْكَى لِبُكَائِهِ وَأَتَمَنَّى لَوْ اسْتَطَعْتُ أَنْ أُدْخِلَهُ
مَدَاخِلَةَ الصَّدِيقِ لِصَدِيقِهِ وَأَسْتَبْثَهُ ذَاتَ نَفْسِهِ وَاشْرَكَهُ فِي هَمِّهِ لَوْلَا أَنَّنِي كَرِهْتُ
أَنْ

بِالْإِغْوَاءِ بِمَا لَا يُحِبُّ وَأَنْ أَهْجُمَ مِنْهُ عَلَى سِرِّ رُبَّمَا كَانَ يُؤْثِرُ الْبَاقِيَّ عَلَيْهِ فِي
صَدْرِهِ وَأَنْ يَكَاتِمَهُ النَّاسَ جَمِيعًا حَتَّى أَشْرَقَتْ عَلَيْهِ لَيْلَةٌ أَمْسَ بَعْدَ هَذِهِ مِنَ اللَّيْلِ
فَرَأَيْتُ غُرْفَتَهُ مُظْلِمَةً سَاكِنَةً فَظَنَنْتُ أَنَّهُ خَرَجَ لِبَعْضِ شَأْنِهِ ثُمَّ لَمْ أَلْبِثْ أَنْ
سَمِعْتُ فِي

جَوْفَ الْعُرْفَةِ أَنَّهُ ضَعِيفَةٌ مُسْتَطِيلَةٌ فَأَزْ عَجَنِي مُسْمِعَهَا وَخَيْلَ إِلَيَّ وَهِيَ صَادِرَةٌ
مِنْ

أَعْمَاقَ نَفْسِهِ كَأَنِّي أَسْمَعُ رَنِينَهَا فِي أَعْمَاقِ قَلْبِي وَقُلْتُ إِنَّ الْفَتَى مَرِيضٌ وَلَا
يُوجَدُ

بِجَانِبِهِ مَنْ يَقُومُ بِشَأْنِهِ وَقَدْ بَلَغَ الْأَمْرُ مَبْلَغَ الْجَدِّ بَدَّ لِي مِنَ الْمَصِيرِ إِلَيْهِ
فَتَقَدَّمْتُ إِلَى خَادِمِي أَنْ يَتَقَدَّمَ بِي بِمَصْبَاحٍ حَتَّى بَلَغْتُ مَنْزِلَهُ وَصَعِدْتُ إِلَى بَابِ
غُرْفَتِهِ

فَأَذْرَكَنِي مِنَ الْوَحْضَةِ عِنْدَ دُخُولِهَا مَا يُدْرِكُ الْوَاقِفَ عَلَى بَابِ قَبْرِ يُحَاوِلُ أَنْ
يَهْبِطَهُ

لِيُودِّعَ سَاكِنَهُ الْوَدَاعَ الْأَخِيرَ ثُمَّ دَخَلْتُ فَفَتَحَ عَيْنَيْهِ عِنْدَمَا أَحَسَّ بِي وَكَأَنَّمَا كَانَ
ذَاهِلًا أَوْ مُسْتَغْرِقًا فَأَذْهَشَهُ أَنْ يَرَى بَيْنَ يَدَيْهِ مَصْبَاحًا ضَيِّلًا وَرَجُلًا لَا يَعْرِفُهُ
فَلَبِثَ شَاحِصًا إِلَى هُنَيْهَةٍ لَا يَنْطِقُ وَلَا يَطْرِفُ فَاقْتَرَبْتُ مِنْ فَرَّاشِهِ وَجَلَسْتُ
بِجَانِبِهِ

وَقُلْتُ أَنَا جَارِكَ الْقَاطِنِ هَذَا الْمَنْزِلِ وَقَدْ سَمِعْتُكَ السَّاعَةَ تُعَالِجُ أَمْرَكَ فَجِئْتُكَ
عَلَنِيَّ

أَسْتَطِيعُ أَنْ أَكُونَ لَكَ عَوْنًا عَلَى شَأْنِكَ فَهَلْ أَنْتَ مَرِيضٌ؟ فَرَفَعَ يَدَهُ بِبُطْنٍ
وَوَضَعَهَا

عَلَى جَبْهَتِهِ فَوَضَعَتْ يَدِي حَيْثُ وَضَعَهَا فَشَعَرْتُ بِرَأْسِهِ يَلْتَهَبُ الْتِهَابًا فَعَلِمْتُ
أَنَّهُ

مَحْمُومٌ ثُمَّ أَمَرَّتْ نَظْرِي عَلَى جِسْمِهِ فَإِذَا خَيَالٌ سَارٌّ لَا يَكَادُ يَتَبَيَّنُهُ رَأْيُهُ وَإِذَا

قَمِيصَ فَضْفَاضٍ مِنَ الْجِلْدِ يَمْوُجُ فِيهِ بَدَنُهُ مَوْجًا فَأَمَرَتْ الْخَادِمَ أَنْ يَأْتِيَنِي
بِشَرَابٍ

كَانَ عِنْدِي مِنْ أَشْرَبَةِ الْحُمَى فَجَرَّعْتُهُ مِنْهُ بِضَعِ قَطْرَاتٍ فَاسْتَفَاقَ قَلِيلًا وَنَظَرَ
إِلَيَّ

نَظْرَةً عَذْبَةً صَافِيَةً وَقَالَ شُكْرًا لَكَ فَقُلْتُ مَا شَكَاتَكَ أَيُّهَا الْأَخُ قَالَ لَا أَشْكُو شَيْئًا
فَقُلْتُ فَهَلْ مَرَّ بِكَ زَمَنٌ طَوِيلٍ عَلَى حَالِكَ هَذِهِ قَالَ لَا أَعْلَمُ قُلْتُ أَنْتَ فِي حَاجَةٍ
إِلَيَّ

الطَّبِيبُ فَهَلْ تَأْذَنُ لِي أَنْ أَدْعُوهُ إِلَيْكَ لِنَنْظُرَ فِي أَمْرِكَ فَتَتَهَدَّ طَوِيلًا وَنَظَرَ إِلَيَّ
نَظْرَةً دَامِعَةً وَقَالَ إِنَّمَا يَبْغِي الطَّبِيبُ مَنْ يُؤَثِّرُ الْحَيَاةَ عَلَى الْمَوْتِ ثُمَّ أَغْمَضَ
عَيْنَيْهِ وَعَادَ إِلَى ذُھُولِهِ وَاسْتِغْرَاقِهِ فَلَمْ أَجِدْ بُدًّا مِنْ دُعَاءِ الطَّبِيبِ رَضِيَ أَمْ أَبِي
فَدَعَوْتُهُ فَجَاءَ مُتَأَفِّفًا مُتَذَمِّرًا يَشْكُو مِنْ حَيْثُ يَعْلَمُ أَنِّي أَسْمَعُ شَكْوَاهُ إِنْ عَاجَهُ مِنْ
مَرَقَدِهِ وَتَجَشِيمِهِ خَوْضَ الْأَزِقَّةِ الْمُظْلِمَةِ فِي اللَّيَالِي الْبَارِدَةِ فَلَمْ أَحْفَلْ بِتَعْرِيزِهِ
لِأَنِّي أَعْلَمُ طَرِيقَ الْإِعْتِذَارِ إِلَيْهِ فَجَسَّ نَبْضَ الْمَرِيضِ وَهَمَسَ فِي أُذُنِي قَائِلًا إِنَّ
عَلَيْكَ يَا سَيِّدِي مُشْرِفٌ عَلَى الْخَطَرِ وَلَا أَحْسَبُ أَنَّ حَيَاتِهِ تَطَوَّلَ كَثِيرًا إِلَّا إِذَا
كَانَ

فِي عِلْمِ اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُ وَجَلَسَ نَاحِيَةَ يَكْتُبُ ذَلِكَ الْأَمْرَ الَّذِي يُصَدِّرُهُ الْأَطِبَّاءُ
إِلَى عُمَالِهِمُ الصِّيَادِلَةَ أَنْ يَتَقَاضَوْا مِنْ عِبِيدِهِمُ الْمَرْضَى ضَرْبِيَّةَ الْحَيَاةِ ثُمَّ
أَنْصَرَفَ

لِشَأْنِهِ بَعْدَ مَا إِعْتَذَرْتُ إِلَيْهِ ذَلِكَ الْإِعْتِذَارَ الَّذِي يُؤَثِّرُهُ وَيَرْضَاهُ فَأَحْضَرْتُ الدَّوَاءَ
وَقَضَيْتُ بِجَانِبِ الْمَرِيضِ لَيْلَةً لَيْلَاءَ ذَاهِلَةِ النَّجْمِ بَعِيدَةً مَا بَيْنَ الطَّرْفَيْنِ أَسْقِيَهُ
الدَّوَاءَ مَرَّةً وَأَبْكِي عَلَيْهِ أُخْرَى حَتَّى انْبَثَقَ نُورُ الْفَجْرِ فَاسْتَفَاقَ وَدَارَ بَعَيْنُهُ حَوْلَ

فِرَاشِهِ حَتَّى رَأَيْتُ فَقَالَ :

أَنْتَ هُنَا ؟ قُلْتَ نَعَمْ وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ أَحْسَنَ حَالًا مِنْ ذِي قَبْلَ قَالَ أَرْجُو أَنْ أَكُونَ

كَذَلِكَ قُلْتَ هَلْ تَأْذَنُ لِي يَا سَيِّدِي أَنْ أَسْأَلَكَ مَنْ أَنْتَ وَمَا مَقَامُكَ وَحَدِّثْ فِي هَذَا الْمَكَانِ وَهَلْ أَنْتَ غَرِيبٌ فِي هَذَا الْبَلَدِ أَوْ أَنْتَ مِنْ أَهْلِيهِ وَهَلْ تَشْكُو دَاءَ ظَاهِرًا أَوْ

هَمًّا بَاطِنًا قَالَ أَشْكُوهُمَا مَعًا قُلْتَ فَهَلْ لَكَ أَنْ تُحَدِّثَنِي بِشَأْنِكَ وَتَقْضِيَ إِلَيَّ بِهِمَا كَمَا يُفْضِي الصَّدِيقُ إِلَى صَدِيقِهِ فَقَدْ أَصْبَحْتُ مَعْنِيًا بِأَمْرِكَ عِنَايَتَكَ بِنَفْسِكَ ؟ قَالَ هَلْ

تُعْذِنِي بِكِتْمَانِ أَمْرِي إِنْ قَسَمَ اللَّهُ لِي الْحَيَاةَ وَبِإِمْضَاءِ وَصِيَّتِي إِنْ كَانَتْ الْآخِرَى ؟

قُلْتَ نَعَمْ قَالَ قَدْ وَثِقْتُ بِوَعْدِكَ فَإِنْ مَنْ يَحْمِلُ فِي صَدْرِهِ قَلْبًا شَرِيفًا مِثْلَ قَلْبِكَ لَا يَكُونُ كَاذِبًا وَلَا غَادِرًا .

أَنَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ مَاتَ أَبِي مُنْذُ عَهْدٍ بَعِيدٍ وَتَرَكَنِي فِي السَّادِسَةِ مِنْ عُمْرِي مُعْدَمًا لَا أَمْلِكُ مِنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا شَيْئًا فَكَلَّفَنِي عَمِّي فُلَانٌ فَكَانَ خَيْرَ الْأَعْمَامِ وَأَكْرَمَهُمْ وَأَوْسَعَهُمْ بَرًّا وَإِحْسَانًا وَأَكْثَرَهُمْ عَطْفًا وَحَنَانًا فَقَدْ أَنْزَلَنِي مِنْ نَفْسِهِ مَنْزِلَةً لَمْ يَنْزِلْهَا أَحَدًا مِنْ قَبْلِي غَيْرَ ابْنَتِهِ الصَّغِيرَةِ وَكَانَتْ فِي عُمْرِي أَوْ أَصْغَرَ مِنِّي قَلِيلًا وَكَأَنَّمَا سَرَّهُ أَنْ يَرَى لَهَا بِجَانِبِهَا أَخًا بَعْدَ مَا تَمَنَّى عَلَى اللَّهِ ذَلِكَ زَمَنًا طَوِيلًا فَلَمْ يُدْرِكْ أُمْنِيَّتَهُ فَعَنِّي بِي عِنَايَتَهُ بِهَا وَأَدْخَلَنَا الْمُدْرَسَةَ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ فَأَنْسَتُ بِهَا أَنْسَ الْأَخِ بِأَخْتِهِ وَأَحْبَبْتُهَا حُبًّا شَدِيدًا وَوَجَدْتُ فِي عَشْرَتِهَا مِنَ السَّعَادَةِ وَالْغِبْطَةِ مَا ذَهَبَ بِتِلْكَ الْغَضَاظَةِ الَّتِي كَانَتْ لَا تَزَالُ تَعَاوِدُ نَفْسِي بَعْدَ فَقْدِ أَبِي

مِنْ حِينَ إِلَى حِينَ فَكَانَ لَا يَرَانَا الرَّائِي إِلَّا ذَاهِبِينَ إِلَى الْمَدْرَسَةِ أَوْ عَائِدِينَ مِنْهَا أَوْ لَاعِبِينَ فِي فَنَاءِ الْمَنْزِلِ أَوْ مُرْتَاضِينَ فِي حَدِيقَتِهِ أَوْ مُجْتَمِعِينَ فِي غُرْفَةِ الْمَذَاكِرَةِ أَوْ مُتَحَدِّثِينَ فِي غُرْفَةِ النَّوْمِ حَتَّى جَاءَ يَوْمَ حِجَابِهَا فَلَزِمْتُ خَدْرَهَا وَاسْتَمَرَّتْ فِي دِرَاسَتِي .

وَلَقَدْ عَقَدَ الْوَدَّ قَلْبِي وَقَلْبُهَا عَقْدًا لَا يُحِلُّهُ إِلَّا رَيْبُ الْمُنُونِ فَكُنْتُ لَا أَرَى لَذَّةَ الْعَيْشِ إِلَّا بِجَوَارِهَا وَلَا أَرَى نُورَ السَّعَادَةِ إِلَّا فِي فَجْرِ ابْتِسَامَتِهَا وَلَا أُثَرَّ عَلَى سَاعَةِ أَقْصِيَّتِهَا بِجَانِبِهَا جَمِيعَ لَذَاتِ الْعَيْشِ وَمَسَرَّاتِ الْحَيَاةِ وَمَا كُنْتُ أَشَاءُ أَنْ

أَرَى خَصْلَةً مِنْ خِصَالِ الْخَيْرِ فِي فَتَاةٍ مِنْ أَدَبٍ أَوْ ذَكَاءٍ أَوْ حُلْمٍ أَوْ رَحْمَةٍ أَوْ عِفَّةٍ أَوْ

شَرَفٍ أَوْ وِفَاءٍ إِلَّا وَجَدْتُهَا فِيهَا .

وَأَنِّي أَسْتَطِيعُ وَأَنَا فِي الظُّلْمَةِ الْحَالِكَةِ مِنَ الْهُمُومِ وَالْأَحْزَانِ أَنْ أَرَى عَلَى الْبُعْدِ تِلْكَ الْأَجْنَحَةَ النُّورَانِيَّةَ الْبَيْضَاءَ مِنَ السَّعَادَةِ الَّتِي كَانَتْ تُظِلُّنَا مَعَ أَيَّامِ طُفُولَتِنَا فَتُشْرِقُ لَهَا نَفْسَانَا إِشْرَاقَ الرَّاحِ فِي كَأْسِهَا وَأَنْ أَرَى تِلْكَ الْحَدِيقَةَ الْغَنَاءَ الَّتِي كَانَتْ مَرَّاحَ لَذَاتِنَا وَمَسْرَحَ آمَالِنَا وَأَحْلَامِنَا كَأَنَّهَا حَاضِرَةٌ بَيْنَ يَدَيِ أَرَى لِأَلَاءِ مَائِهَا وَلَمَعَانِ حَصْبَائِهَا وَأَقَانِينِ أَشْجَارِهَا وَالْوَانَ أَزْهَارِهَا تِلْكَ الْقَاعِدَةَ الْحَجَرِيَّةَ الَّتِي كُنَّا نَقْتَعِدُهَا مِنْهَا طَرْفِي النَّهَارِ فَتَجْتَمِعُ عَلَى حَدِيثِ نَتَجَادَبُهُ أَوْ طَاقَةَ تَوْلَفٍ بَيْنَ أَزْهَارِهَا أَوْ كِتَابِ نُقْلَبُ صَفَحَاتِهِ أَوْ رَسْمِ نَتَبَارَى فِي

إِتْقَانِهِ وَتِلْكَ الْخُمَائِلَ الْخَضِرَاءَ الَّتِي كُنَّا نَلْجَأُ إِلَى ظِلَالِهَا كُلَّمَا فَرَغْنَا مِنْ شَوْطِ مِنْ أَشْوَاطِ الْمُسَابَقَةِ فَتَشْعُرُ بِمَا تَشْعُرُ بِهِ أَفْرَاحُ الطُّيُورِ اللَّالِحَةِ إِلَى أَحْضَانِ

أَمَّهَاتَهَا وَتِلْكَ الْحَفَائِرَ الصَّغِيرَةَ الَّتِي نَحْتَفِرُهَا بِبَعْضِ الْأَعْوَادِ عَلَى شَاطِئِ
الْجَدَاوِلِ وَالْغَدْرَانِ فَنَمْلُوهَا مَاءً ثُمَّ نَجْلِسُ حَوْلَهَا لِنَصْطَادَ أَسْمَاكِهَا الَّتِي
الْقَيْنَاهَا فِيهَا بِأَيْدِينَا فَنَطْرَبُ إِنَّ ظُفْرَنَا بِشَيْءٍ مِنْهَا كَأَنَّا قَدْ ظَفَرْنَا بِغَنَمٍ عَظِيمٍ
وَتِلْكَ الْأَفْقَاصُ الذَّهَبِيَّةُ الْبَدِيعَةُ الَّتِي كُنَّا نُرَبِّي فِيهَا عَصَافِيرَنَا وَطُيُورَنَا ثُمَّ
نَقْضِي السَّاعَاتِ الطُّوَالَ بِجَانِبِهَا نَعْجَبُ بِمَنْظَرِهَا وَمَنْظَرِ مَنَاقِيرِهَا الْخَضِرَاءِ
وَهِيَ

تحسو الْمَاءَ مَرَّةً وَتَلْتَقِطُ الْح 00 ب أُخْرَى وَتُنَادِيهَا بِأَسْمَائِهَا الَّتِي سَمَّيْنَاهَا بِهَا
فَإِذَا سَمِعْنَا صَفِيرَهَا وَتَغْرِيدَهَا ظَنَّا أَنَّهَا تُلَبِّي نِدَاءَهَا وَلَا أَعْلَمُ هَلْ كَانَ مَا كُنْتُ
أُضْمِرُهُ فِي نَفْسِي لِابْنَةِ عَمِّي وَدَا وَإِخَاءٍ أَوْ حُبًّا وَغَرَامًا وَلَكِنِّي أَعْلَمُ أَنَّهُ كَانَ
بِلَا أَمَلٍ وَلَا رَجَاءٍ فَمَا قُلْتُ لَهَا يَوْمَ إِنِّي أَحَبُّهَا لَأَنِّي كُنْتُ أَضُنُّ بِهَا وَهِيَ ابْنَةُ
عَمِّي وَرَفِيقَةُ صِبَايَ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ فَاتِحٍ لِهَذَا الْجُرْحِ الْأَلِيمِ فِي قَلْبِهَا وَلَا قَدَّرْتُ
فِي نَفْسِي يَوْمًا مِنْ الْأَيَّامِ أَنْ أَصِلَ أَسْبَابَ حَيَاتِي بِأَسْبَابِ حَيَاتِهَا لَأَنِّي كُنْتُ أَعْلَمُ
أَنَّ أَبُوَيْهَا لَا يَسْخُورَانِ بِمِثْلِهَا عَلَى فَتَى بَائِسٍ فَقِيرٍ مِثْلِي وَلَا حَاوَلْتُ فِي سَاعَةٍ مِنْ
السَّاعَاتِ أَنْ أَتَسَقَّطُ مِنْهَا مَا يَطْمَعُ فِي مِثْلِهِ الْمُحِبُّونَ الْمَتَسَقِّطُونَ لَأَنِّي كُنْتُ
أَجْلُهَا

عَنْ أَنْ أُنْزَلَ بِهَا إِلَى مِثْلِ ذَلِكَ وَلَا فَكَّرْتُ يَوْمًا أَنْ أُسْتَشْفَى مِنْ رِوَاءِ نَظَرَاتِهَا
خَبِيئَةِ نَفْسِهَا لِأَعْلَمُ أَيَّ الْمَنْزِلَتَيْنِ أَنْزَلَهَا مِنْ قَلْبِهَا أَمِنْزَلَةِ الْأَخِ فَأَقْنَعُ مِنْهَا
بِذَلِكَ أَمْ مَنْزِلَةِ الْحَبِيبِ فَاسْتُعِينَ بِإِرَادَتِهَا عَلَى إِرَادَةِ أَبُوَيْهَا ؟ بَلْ كَانَ حَبِي
الرَّاهِبِ الْمُتَبَتِّلِ صُورَةَ الْعَذْرَاءِ الْمَائِلَةِ بَيْنَ يَدَيْهِ فِي صَوْمَعَتِهِ يَعْبُدُهَا وَلَا
يَنْتَظِعُ إِلَيْهَا .

وَلَمْ يَزَلْ هَذَا شَأْنِي وَشَأْنَهَا حَتَّى نَزَلَتْ بِعَمِّي نَازِلَةً مِنَ الْمَرَضِ لَمْ تُتَشَبَّ أَنْ
ذَهَبَتْ

بِهِ إِلَى جِوَارِ رَبِّهِ وَكَانَ آخِرَ مَا نَطَقَ بِهِ فِي آخِرِ سَاعَاتِ حَيَاتِهِ أَنْ قَالَ لِزَوْجَتِهِ
وَكَانَ يُحْسِنُ بِهَا ظَنًّا لَقَدْ أَعْجَلَنِي الْمَوْتُ عَنِ النَّظَرِ فِي شَأْنِ هَذَا الْغُلَامِ فَكُونِي
لَهُ

أَمَّا كَمَا كُنْتُ لَهُ أَبَا وَأَوْصِيكَ أَنْ لَا يَفْقِدَ مِنِّي بَعْدَ مَوْتِي إِلَّا شَخْصِي فَمَا مَرَّتْ
أَيَّامَ الْحِدَادِ حَتَّى رَأَيْتُ وَجُوهًا غَيْرَ الْوُجُوهِ وَنَظَرَاتٍ غَيْرَ النَّظَرَاتِ وَحَالًا
غَرِيبَةً

لَا عَهْدَ لِي بِمِثْلِهَا مِنْ قَبْلِ فَتَدَاخَلَنِي الْهَمُّ وَالْيَأْسُ وَوَقَعَ نَفْسِي لِلْمَرَّةِ الْأُولَى فِي
حَيَاتِي أَنَّنِي قَدْ أَصْبَحْتُ فِي هَذَا الْمَنْزِلِ غَرِيبًا وَفِي هَذَا الْعَالَمِ طَرِيدًا .
فَأَنَّنِي لَجَالَسَ فِي غُرْفَتِي صَبِيحَةَ يَوْمٍ إِذْ دَخَلْتُ عَلَيَّ الْخَادِمِ وَكَانَتْ امْرَأَةً مِنْ
النِّسَاءِ

الصَّالِحَاتِ الْمُخْلِصَاتِ فَتَقَدَّمَتْ نَحْوِي خِجْلَةً مُتَعَثِّرَةً وَقَالَتْ قَدْ أَمَرْتَنِي سَيِّدَتِي
أَنْ

أَقُولَ لَكَ يَا سَيِّدِي إِنَّهَا قَدْ عَزَمَتْ عَلَى تَزْوِيجِ ابْنَتِهَا فِي عَهْدٍ قَرِيبٍ وَإِنَّهَا تَرَى
أَنَّ

بَقَاءَكَ بِجَانِبِهَا بَعْدَ مَوْتِ أَبِيهَا وَبُلُو غُكْمَا هَذِهِ السَّنِّ الَّتِي بَلَغْتُمَاهَا رُبَّمَا
يُرَبِّيهَا عِنْدَ خَطِيبِهَا وَإِنَّهَا تُرِيدُ أَنْ تَتَّخِذَ لِلزَّوْجَيْنِ مَسْكَنًا هَذَا الْجَنَاحَ الَّذِي
تُسْكَنُهُ مِنَ الْقَصْرِ فَهِيَ تُرِيدُ أَنْ تَتَحَوَّلَ إِلَى مَنْزِلٍ آخَرَ تَخْتَارُهُ لِنَفْسِكَ مِنْ بَيْنِ
مَنَازِلِهَا عَلَى أَنْ تَقُومَ لَكَ فِيهِ بِجَمِيعِ شَأْنِكَ وَكَأَنَّكَ لَمْ تُفَارِقْهَا .

فَكَأَنَّمَا عَمَدَتْ إِلَى سَهْمٍ رَائِشٍ فَأَصُمْتُ بِهِ كَبِدِي إِلَّا أَنَّنِي تَمَاسَكْتُ قَلِيلًا رِيثَمًا
قُلْتُ

لَهَا سَأَفْعَلُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَلَا أُحِبُّ إِلَيَّ مِنْ ذَلِكَ فَانْصَرَفْتُ لِشَانِهَا فَخَلَوْتُ بِنَفْسِي
سَاعَةً أَطْلَقْتُ فِيهَا السَّبِيلَ لِعِبْرَاتِي مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ أَطْلُقَهَا حَتَّى جَاءَ اللَّيْلُ
فَعَمَدْتُ إِلَى حَقِيبَتِي فَأَوْدَعْتُهَا ثِيَابِي وَكُتُبِي وَقُلْتُ فِي نَفْسِي :
قَدْ كَانَ كُلُّ مَا أَسْعَدَ بِهِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ أَنْ أَعِيشَ بِجَانِبِ ذَلِكَ الْإِنْسَانِ الَّذِي
أَحْبَبْتُهُ وَأَحْبَبْتُ نَفْسِي مِنْ أَجْلِهِ وَقَدْ حِيلَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ فَلَا أَسْفَ عَلَى شَيْءٍ بَعْدَهُ .
ثُمَّ انْسَلَلْتُ مِنَ الْمَنْزِلِ انْسِلَالًا مِنْ حَيْثُ لَا يُشْعِرُ أَحَدٌ بِمَا كَانَ وَلَمْ أَتَزَوَّدْ مِنْ
ابْنَةِ عَمِّي قَبْلَ الرَّحِيلِ غَيْرَ نَظَرَةٍ وَاحِدَةٍ أَلْقَيْتُهَا عَلَيْهَا مِنْ خِلَالِ كِلْتَاهَا وَهِيَ
نَائِمَةٌ فِي سَرِيرِهَا فَكَانَتْ آخِرَ عَهْدِي بِهَا .

لِعُمُرِكَ مَا فَارَقْتُ بَغْدَادَ عَنْ قَلِي
لَوْ أَنَا وَجَدْنَا مِنْ فِرَاقٍ لَهَا بَدَا
كَفِّي حُزْنًا أَنْ رُحْتُ لِمَ اسْتَطَعْتُ لَهَا
وَدَاعًا وَلَمْ أُحَدِّثْ بِسَاكِنِهَا عَهْدًا
وَهَكَذَا فَارَقْتُ الْمَنْزِلَ الَّذِي سَعِدْتُ فِيهِ حِقْبَةً مِنَ الزَّمَانِ فِرَاقَ آدَمَ جَنَّتُهُ
وَوَخَرَجْتُ

مِنْهُ شَرِيدًا طَرِيدًا حَائِرًا مُلْتَاعًا قَدْ اصْطَلَحَتْ عَلَى الْهُمُومِ وَالْأَحْزَانِ فِرَاقُ
لِلْإِقَاءِ

بَعْدَهُ وَفَقَرٌ لَا سَادَ لَخْلَتِهِ وَغُرْبَةٌ لَا أَجِدُ عَلَيْهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ مُوَاسِيًا وَلَا
مُعِينًا .

وَكَانَتْ مَعِيَ صَبَابَةٌ مِنْ مَالٍ قَدْ بَقِيَتْ فِي يَدَيَّ مِنْ آثَارِ تِلْكَ النُّعْمَةِ الذَّاهِبَةِ

فَاتَّخَذَتْ هَذِهِ الْحُجْرَةَ الْعَارِيَّةَ فِي هَذِهِ الطَّبَقَةِ الْعُلْيَا مَسْكَنَا فَلَمْ أَسْتَطِيعَ الْبَقَاءَ
فِيهَا سَاعَةً وَاحِدَةً فَأَزْمَعْتُ الرَّحِيلَ إِلَى حَيْثُ أُجِدُّ فِي فِضَاءِ اللَّهِ وَمَنْسُوحِ آفَاقِهِ
عِلَاجَ نَفْسِي مِنْ هُمُومِهَا وَأَحْزَانِهَا فَرَحَلْتُ رِحْلَةً طَوِيلَةً قَضَيْتُ فِيهَا بَضْعَةَ
أَشْهُرٍ لَنَا

أَهْبِطُ بِلَدَةٍ حَتَّى تُتَازَرَ عَنِّي نَفْسِي إِلَى أُخْرَى وَلَا تَطْلُعَ عَلَيَّ الشَّمْسُ فِي مَكَانٍ
حَتَّى

تَغْرُبَ عَنِّي فِي غَيْرِهِ حَتَّى شَعَرْتُ فِي آخِرِ الْأَمْرِ بِسُكُونٍ فِي نَفْسِي يُشَبِّهُ
سُكُونَ الدَّمْعِ

الْمُعْلَقُ فِي مَحْجَرِ الْعَيْنِ لَا يَفِيضُ وَلَا يَغِيضُ .

فَقَعَيْتُ بِذَلِكَ وَكَانَ مِيعَادُ الدِّرَاسَةِ السَّنَوِيَّةِ قَدْ حَانَ فَعُدْتُ وَقَدْ اسْتَقَرَّ فِي نَفْسِي
أَنْ

أَعِيشَ فِي هَذَا الْعَالَمِ مُنْفَرِدًا كَمُجْتَمَعٍ وَغَائِبًا كَحَاضِرٍ وَبَعِيدًا كَقَرِيبٍ وَأَنْ أَلْهُوَ
بِشَأْنِ نَفْسِي عَنْ كُلِّ شَأْنٍ غُرَفَتِي وَمَدْرَسَتِي أَدَاوِلَ بَيْنَهُمَا لَا أَفَارِقُهُمَا وَلَمْ يَبْقَ
أَثَرُ

بِذَلِكَ الْعَهْدِ الْقَدِيمِ فِي نَفْسِي إِلَّا نَزَوَاتُ تَعَاوُدِ قَلْبِي مِنْ حِينٍ إِلَى حِينٍ فَأَسْتَعِينُ
عَلَيْهَا بِقَطَرَاتٍ مِنَ الدَّمْعِ أَسْكُبُهَا مِنْ جَفْنِي فِي خُلُوتِي مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُ إِلَّا اللَّهُ
مَا بِي فَأَجِدُّ بَرْدَ الرَّاحَةِ فِي صَدْرِي .

لَبِثْتُ عَلَى ذَلِكَ بُرْهَةً مِنَ الزَّمَانِ حَتَّى عُدْتُ بِالْأَمْسِ إِلَى تِلْكَ الْفَضْلَةِ الَّتِي كَانَتْ
فِي

يَدِي مِنَ الْمَالِ فَإِذَا هِيَ نَاضِبَةٌ أَوْ مُوشِكَةٌ وَكُنْتُ مَأْخُودًا بِأَنْ أَهِيَءَ لِنَفْسِي عَيْشًا
مُسْتَقْلًا وَأَنْ أُوْدِيَ لِلْمَدْرَسَةِ قِسْطًا مِنْ أَقْسَاطِهَا وَالْمَدْرَسَةُ فِي هَذَا الْبَلَدِ حَانُوتُ

قَاسَ لَا تُبَاعُ فِيهِ السِّلْعَةُ نَسِيئَةً وَالْعِلْمُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ مَرْتَرَقٌ يَرْتَرِقُ مِنْهُ
بِالْإِغْوَاءِ لَا مِئْخَرَةٍ يَمْنَحُهَا الْمُحْسِنُونَ فَأَهْتَمَنِي نَفْسِي وَعَلِمْتُ أَنِّي مُشْرِفٌ عَلَى
الْخَطَرِ

وَلَا أَعْرِفُ سَبِيلًا إِلَى الْقُوْتِ بِوَجْهِهِ وَلَا حِيلَةَ فَعَمَدْتُ إِلَى كُتُبِي فَاسْتَبَقَيْتُ مِنْهَا مَا
لَا غَنِيَّ لِي عَنْهُ وَحَمَلْتُ سَائِرَهَا إِلَى سُوقِ الْوَرَاqِينَ فَعَرَضْتُهُ هُنَاكَ يَوْمًا كَامِلًا
فَلَمْ

أَجِدَ مَنْ يُبْلَغُ بِهِ فِي الْمُسَاوَمَةِ رُبْعَ ثَمَنِهِ فَعُدْتُ بِهِ حَزِينًا مُنْكَسِرًا وَمَا عَلَى وَجْهِهِ
الْأَرْضُ أَحَدٌ أَذِلُّ مِنِّي وَلَا أَشَقَى .

فَلَمَّا بَلَغْتُ بَابَ الْمَنْزِلِ رَأَيْتُ فِي فَنَائِهِ امْرَأَةً تُسَائِلُ أَهْلَ الْبَيْتِ عَنِّي فَتَبَيَّنَتْهَا
فَإِذَا هِيَ الْخَادِمُ الَّتِي كَانَتْ تَخْدُمُنِي فِي مَنْزِلِ عُمِّي فَقُلْتُ : فُلَانَةُ قَالَتْ نَعَمْ قُلْتُ
مَاذَا تُرِيدِينَ قَالَتْ لِي إِلَيْكَ كَلِمَةٌ فَائْذَنِي لِي فَصَعِدْتُ مَعَهَا إِلَى غُرْفَتِي فَلَمَّا خَلَوْنَا
قُلْتُ هَاتِ قَالَتْ مَرَّتْ بِي ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ وَأَنَا أُفْتَشُ عَنْكَ فِي كُلِّ مَكَانٍ فَلَمْ أَجِدْ مَنْ
يَذُنُّنِي عَلَيْكَ حَتَّى وَجَدْتُكَ الْيَوْمَ بَعْدَ الْيَأْسِ مِنْكَ ثُمَّ أَنْفَجَرْتُ بِأَكِيَّةٍ بِصَوْتٍ عَالٍ
فَرَاغَنِي بِمَائِهَا وَخَفَتَ أَنْ يَكُونَ قَدْ حُلَّ بِالْبَيْتِ الَّذِي أُحِبُّهُ بِأَسِّ فَقُلْتُ :
مَا بُكَاءُكَ قَالَتْ أُمَّا تَعْلَمُ شَيْئًا مِنْ أَخْبَارِ بَيْتِ عَمِّكَ قُلْتُ لَا فَمَا أَخْبَارُهُ فَمَدَّتْ
يَدَهَا إِلَى رِدَائِهَا وَأَخْرَجَتْ مِنْ أَضْعَافِهِ كُتَابًا مُغْلَقًا فَتَنَاولَتْهُ مِنْهَا فَفَضَضَتْ
غِلَافَهُ فَإِذَا هُوَ بِخَطِّ ابْنَةِ عُمِّي فَقَرَأْتُ فِيهِ هَذِهِ الْكَلِمَةَ الَّتِي لَا أَزَالُ أَحْقُظُهَا
حَتَّى السَّاعَةِ إِنَّكَ فَارَقْتَنِي وَلَمْ تُودِّعْنِي فَاعْتَفَرْتُ لَكَ ذَلِكَ فَأَمَّا الْيَوْمَ وَقَدْ
أَصْبَحْتُ

عَلَى بَابِ الْقَبْرِ فَلَا أَعْتَظِرُ لَكَ أَلَّا تَأْتِيَ إِلَيَّ لِتُودِّعْنِي الْوَدَاعَ الْآخِرَ .
فَالْقَيْتُ الْكِتَابَ مِنْ يَدِي وَابْتَدَرْتُ أَلْبَابَ مُسْرِعًا فَتَعَلَّقْتُ الْخَادِمَ بِثَوْبِي وَقَالَتْ

أَيْنَ تُرِيدُ يَا سَيِّدِي قُلْتُ إِنَّهَا مَرِيضَةٌ وَلَا بُدَّ لِي مِنَ الْمَصِيرِ إِلَيْهَا فَصَمَّمْتُ
لَحْظَةً

ثُمَّ قَالَتْ بِصَوْتٍ خَافَتْ مُرْتَعِشَ لَا تَفْعَلْ يَا سَيِّدِي فَقَدْ سَبَقَكَ الْقَضَاءُ إِلَيْهَا .
هُنَالِكَ شَعَرْتُ أَنَّ قَلْبِي قَدْ فَارَقَ مَوْضِعَهُ إِلَى حَيْثُ لَا أَعْلَمُ لَهُ مَكَانًا ثُمَّ دَارَتْ بِي
الْأَرْضُ الْفَضَاءَ دَوْرَةَ سَقَطَتْ عَلَى أَثَرِهَا فِي مَكَانِي لَا أَشْعُرُ بِشَيْءٍ مِمَّا حَوْلِي
فَلَمْ

أَفْقُ إِلَّا بَعْدَ حِينٍ فَفَتَحْتُ عَيْنِي فَإِذَا اللَّيْلُ قَدْ أَظْلَلَنِي وَإِذَا الْخَادِمُ لَا تَرَالُ
بِجَانِبِي تُبْكِي وَتَتَحَبَّ فَدَنَوْتُ مِنْهَا وَقُلْتُ أَيَّتُهَا الْمَرْأَةُ أَحَقُّ مَا تَقُولِينَ قَالَتْ نَعَمْ
قُلْتُ قَصِّي عَلَيَّ كُلَّ شَيْءٍ فَأَنْشَأَتْ تَقُولُ :

إِنَّ ابْنَةَ عَمِّكَ يَا سَيِّدِي لَمْ تَنْتَفِعْ بَعْدَ رَحِيلِكَ فَقَدْ سَأَلْتَنِي فِي الْيَوْمِ الَّذِي رَحَلْتُ
فِيهِ عَنْ سَبَبِ رَحِيلِكَ فَحَدَّثْتَنِي حَدِيثَ الرِّسَالَةِ الَّتِي حَمَلْتَهَا إِلَيْكَ مِنْ زَوْجَةِ عَمِّكَ
فَلَمْ

تَرُدُّ عَلَيَّ أَنْ قَالَتْ وَمَاذَا يَكُونُ مَصِيرُ هَذَا الْبَائِسِ الْمِسْكِينِ إِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ مَنْ
أَمْرُهُ وَلَا مِنْ أَمْرِي شَيْئًا ثُمَّ لَمْ يَجِرْ ذِكْرُكَ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى لِسَانِهَا بِخَيْرٍ وَلَا بِشَرٍ
كَأَنَّمَا كَانَتْ تُعَالِجُ فِي نَفْسِهَا أَلَمًا مَمْضَا وَمَا هِيَ إِلَّا أَيَّامُ قَلَائِلٍ حَتَّى سَرَى دَاءُ
نَفْسِهَا إِلَى جِسْمِهَا فَاسْتَحَالَتْ حَالُهَا وَغَاضَ مَاءُ جَمَالِهَا وَانْطَفَأَتْ تِلْكَ
الْبَاتِسَامَاتُ

الْعَذْبَةُ الَّتِي كَانَتْ لَا تُفَارِقُ ثَغْرَهَا ثُمَّ سَقَطَتْ عَلَى فِرَاشِهَا مَرِيضَةً لَا تَبُلُّ يَوْمًا
حَتَّى تَنْتَكِسَ أَيَّامًا فَرَاعَ أُمُّهَا أَمْرَهَا وَوَرَدَ عَلَيْهَا مَا قَطَعَهَا عَنْ ذِكْرِ الْعُرْسِ
وَالْعُرُوسِ وَالْخُطْبَةِ وَالْخَطِيبِ وَكَانَتْ لَا تَرَالُ تَهْتَفُ بِذَلِكَ نَهَارَهَا وَلَيْلَهَا فَلَمْ
تَدَعِ

طَبِيبًا وَلَا عَائِدًا إِلَّا فَرَعْتُ إِلَيْهِ أَمْرَهَا فَمَا أُغْنِي الْعَائِدَ وَلَا الطَّبِيبَ
وَأَصْبَحْتُ الْفَتَاةُ تَدْنُو مِنَ الْقَبْرِ رُوَيْدًا رُوَيْدًا فَبَيْنَا أَنَا سَاهِرَةٌ بِجَانِبِ فِرَاشِهَا
مُنْذُ لَيَالٍ إِذْ شَعَرْتُ بِهَا تَتَحَرَّكُ فِي مَضْجَعِهَا فَدَنَوْتُ مِنْهَا فَأَشَارْتُ إِلَى أَنَّ أَخِذَ
بِيَدِهَا فَفَعَلْتُ فَاسْتَوَتْ جَالِسَةً وَقَالَتْ فِي أَيِّ سَاعَةٍ نَحْنُ مِنَ اللَّيْلِ قُلْتُ فِي الْهَزِيعِ
الْأَخِيرِ مِنْهُ قَالَتْ أَنْتِ وَحَدِّكِ هُنَا قُلْتُ نَعَمْ فَقَدْ هَجَعَ أَهْلُ الْبَيْتِ جَمِيعًا قَالَتْ
أَلَا تَعْلَمِينَ أَيْنَ مَكَانَ ابْنِ عَمِّي الْآنَ فَعَجِبْتُ لِكَلِمَةٍ لَمْ أَسْمَعْهَا مِنْهَا قَبْلَ الْيَوْمِ
وَقُلْتُ بَلَى يَا سَيِّدِي أَعْلَمَ مَكَانَهُ وَمَا كُنْتُ أَعْلَمُ شَيْئًا وَلَكِنِّي أَشْفَقْتُ عَلَى هَذَا
الْخَيْطِ الرَّقِيقِ الْبَاقِي فِي يَدِهَا مِنَ الْأَمَلِ أَنْ يَنْقَطِعَ بِانْقِطَاعِهِ آخِرَ خَيْطٍ مِنْ
خُيُوطِ

أَجَلِهَا فَقَالَتْ أَلَا تَسْتَطِيعِينَ أَنْ تَحْمِلِي إِلَيْهِ رِسَالَةً مِنِّي مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُ أَحَدٌ
بِشَأْنِي قُلْتُ لَا أَحِبُّ إِلَيَّ مِنْ ذَلِكَ يَا سَيِّدَتِي . .
فَأَشَارَتْ أَنَّ آيَتَهَا بِمَحْبَرَتِهَا فَجَبَّتْهَا بِهَا فَكَتَبَتْ إِلَيْكَ هَذَا الْكِتَابَ الَّذِي تَرَاهُ
فَلَمَّا أَصْبَحَ الصَّبَاحُ خَرَجَتْ أُسَائِلُ النَّاسِ عَنْكَ فِي كُلِّ مَكَانٍ وَاتَّصَفَحَ وَجُوهُ
الْغَادِينَ

وَالرَّائِحِينَ عَلَنِي أَرَاكَ وَأَرَى مَنْ يَهْدِينِي إِلَيْكَ فَلَمْ أَظْفَرْ بِطَائِلٍ حَتَّى انْحَدَرْتُ
الشَّمْسُ إِلَى مَغْرِبِهَا فَعُدْتُ إِلَى الْمَنْزِلِ وَقَدْ مَضَى شَطْرُ مِنَ اللَّيْلِ فَمَا بَلَغَتْهُ
حَتَّى

سَمِعْتُ النَّاعِيَةَ فَعَلِمْتُ أَنَّ السَّهْمَ قَدْ بَلَغَ الْمَقْتَلَ وَأَنَّ تِلْكَ الْوَرْدَةَ النَّاصِرَةَ الَّتِي
كَانَتْ تَمَلَأُ الدُّنْيَا جَمَالًا وَبَهَاءً قَدْ سَقَطَتْ آخِرَ وَرَقَةٍ مِنْ وَرَقَاتِهَا فَحَزِنْتُ عَلَيْهَا
حُزْنَ الثَّائِلِ عَلَى وَحِيدِهَا وَمَا رَأَيْتُ مِثْلَ يَوْمِهَا يَوْمَ كَانَ أَكْثَرُ بَاكِيَةٍ وَبَاكِيًا .
وَكَانَ أَكْبَرَ مَا أَهْمَنِي مَا أَمَرَهَا أَنْ كُلَّ مَا كَانَتْ تَرْجُوهُ فِي السَّاعَةِ الْآخِرَةِ مِنْ

سَاعَاتِ حَيَاتِهَا أَنْ تَرَكَ فَفَاتَهَا ذَلِكَ وَسَقَطَتْ دُونَ أُمْنِيَّتِهَا فَلَمْ أَزَلْ كَاتِمَةً أَمْرَ
الرَّسَالَةِ فِي نَفْسِي وَلَمْ أَزَلْ أَتَطَلَّبُ السَّبِيلَ إِلَيْكَ حَتَّى وَجَدْتُكَ فَشَكَرْتُ لَهَا

صَنِيعَهَا

وَأَذْنَتْهَا بِالْإِنْصِرَافِ فَانْصَرَفْتُ فَمَا إِنْفَرَدْتُ بِنَفْسِي حَتَّى شَعَرْتُ أَنَّ سَحَابَةَ
سُودَاءِ

تَهْبِطُ فَوْقَ عَيْنِي شَيْئًا فَشَيْئًا حَتَّى أَحْتَجِبُ عَنْ نَاطِرِي كُلِّ شَيْءٍ ثُمَّ لَا أَعْلَمُ مَاذَا
تَمَّ بَعْدَ ذَلِكَ حَتَّى رَأَيْتُكَ .

وَمَا وَصَلَ مِنْ حَدِيثِهِ إِلَيَّ هَذَا الْحَدِّ حَتَّى زَفَرَ زَفْرَةً خِلْتُ أَنَّ كَبِدَهُ قَدْ وَأَنَّ
هَذِهِ أَفْلَازِهَا فَدَنَوْتُ مِنْهُ وَقُلْتُ مَا بِكَ يَا سَيِّدِي قَالَ بِي أَنِّي أَطْلُبُ دَمْعَةً وَاحِدَةً
أَتَقَرَّجُ بِهَا مِمَّا أَنَا فِيهِ فَلَا أَجِدُهَا .

ثُمَّ صَمَتَ سَاعَةً طَوِيلَةً فَشَعَرْتُ أَنَّهُ يُهَمِّمُهُمْ بِبَعْضِ كَلِمَاتٍ فَأَصْغَيْتُ إِلَيْهِ فَإِذَا هُوَ
يَقُولُ

:

اَللّٰهُمَّ اِنَّكَ تَعْلَمُ اَنِّيْ غَرِيبٌ فِيْ هَذِهِ الدُّنْيَا لَا سَنَدَ لِيْ فِيْهَا وَلَا عَضُدٌ وَاَنِّيْ فَقِيْرٌ
لَا اَمْلِكُ مِنْ مَتَاعِ الْحَيَاةِ مَا اَعُوْدُ بَعْ عَلَى نَفْسِيْ وَاَنِّيْ عَاجِزٌ مُّسْتَشْعِفٌ لَا
اَعْرِفُ

السَّبِيلَ إِلَى بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الرِّزْقِ بِوَجْهِهِ وَلَا حِيلَةَ وَأَنَّ الضَّرْبَةَ الَّتِي أَصَابَتْ
قَلْبِي

قَدْ سَحَقَتْهُ سَحَقًا فَلَمْ يَبْقَ فِيهِ حَتَّى الذَّمَاءُ وَاَنِّيْ أُسْتَحْيِيْكَ أَنْ أُمِدَّ يَدَيَّ إِلَى هَذِهِ
النَّفْسِ الَّتِي أُوْدَعَتْهَا بِبَيْدِكَ بَيْنَ جَنْبِيْ فَأَنْتَزِعَهَا مِنْ مَكَانِهَا وَأُلْقِيْ بِهَا فِي وَجْهِكَ
سَاحِطًا نَاقِمًا فَتَوَلَّ أَنْتَ أَمْرَهَا بِبَيْدِكَ وَاسْتَرَدَّ وَدَيْعَتَكَ إِلَيْكَ وَأَنْقَلَبَهَا إِلَى دَارِ

كَرَّامَتِكَ فَنِعَمَ الدَّارِ دَارَكَ وَنِعَمَ الْجَوَارِ جَوَارَكَ .
 ثُمَّ أَمْسَكَ رَأْسَهُ بِيَدِهِ كَأَنَّمَا يُحَاوِلُ أَنْ يُحْسِسَهُ عَنْ الْفِرَارِ وَقَالَ بِصَوْتٍ ضَعِيفٍ
 خَافِتٍ

أَشْعُرُ بِرَأْسِي يَحْتَرِقُ احْتِرَاقًا وَقَلْبِي يَذُوبُ ذَوْبًا لَا أَحْسِبُنِي بَاقِيًا عَلَى هَذَا
 فَهَلْ تَعِدُنِي أَنْ تَدْفِنَنِي مَعَهَا فِي قَبْرِهَا وَتَدْفِنَ مَعِيَ كُتَابَهَا إِنْ قَضَى اللَّهُ فِي
 قَضَاءِهِ قُلْتَ نَعَمْ وَأَسْأَلُ اللَّهَ لَكَ السَّلَامَةَ قَالَ الْآنَ أَمُوتَ طَيِّبَ النَّفْسِ عَنْ كُلِّ
 شَيْءٍ

ثُمَّ انْتَقَضَ انْتِقَاضَةً نَفْسَهُ فِيهَا .
 لَقَدْ هَوَّنَ وَجَدِي عَلَى ذَا الْبَائِسِ الْمُسْكِينِ أَنِّي اسْتَطَعْتُ إِمْضَاءَ وَصِيَّتِهِ كَمَا أَرَادَ
 فَسَعَيْتُ فِي دَفْنِهِ مَعَ ابْنَةِ عَمِّهِ وَدَفَنْتُ مَعَهُ تِلْكَ الرِّسَالَةَ الَّتِي دَعَتْهُ فِيهَا أَنْ
 يُؤَافِيَهَا فَعَجَزَ عَنْ أَنْ يُلَبِّيَ نِدَاءَهَا حَيًّا فَلَبَّاهَا مَيِّتًا .
 وَهَكَذَا اجْتَمَعَ تَحْتَ سَقْفٍ وَاحِدٍ ذَانِكَ الصَّدِيقَانِ الْوَفِيَّانِ اللَّذَانِ ضَاقَ بِهِمَا فِي
 حَيَاتِهِمَا فِضَاءُ الْقَصْرِ فَوَسَّعَتْهُمَا بَعْدَ مَوْتِهِمَا حُفْرَةُ الْقَبْرِ .

الشهداء

مترجمة

لَمْ يَبْقَ لَهَا بَعْدَ مَوْتِ زَوْجِهَا وَأَبْوَيْهَا إِلَّا وَلَدٌ صَغِيرٌ يُؤْنِسُهَا وَأَخٌ شَفِيقٌ يَحْنُو عَلَيْهَا وَصَبَابَةٌ مِنَ الْمَالِ تَتَرَشَّفُ الرِّزْقَ مِنْهَا تَرَشُّفًا مُصَانَعَةً لِلدَّهْرِ فِيهَا .
أَمَّا الصَّبَابَةُ فَقَدْ نَضَبَتْ وَأَمَّا الْأَخُ فَقَدْ ضَمَّهُ الدَّهْرُ ضَمَّةً ذَهَبَتْ بِمَالِهِ وَبِجَمِيعِ مَا تَمَلَّكَ وَبِجَمِيعِ مَا تَمَلَّكَ يَدُهُ فَهَاجَرَ هَجْرَةً بَعِيدَةً لَا تَعْرِفُ مَصِيرَهُ فِيهَا فَأَصْبَحَتْ مِنْ

بَعْدَهُ لَا تَمَلِّكَ مَالًا وَلَا عَضُدًا .

لَقَدْ لَقِيتُ هَذِهِ الْمَرْأَةَ الْمُسْكِينَةَ مِنَ الشَّقَاءِ فِي طَلَبِ الْعَيْشِ مَا لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَحْتَمِلَهُ بَشَرٌ فَخَاطَتُ الْمَلَابِيسَ حَتَّى عَشَى بَصَرَهَا وَغَسَلْتُ الثِّيَابَ حَتَّى يَبِسَتْ أَطْرَافَهَا

وَدَخَلْتُ الْمَصَانِعَ حَتَّى كَلَّتْ وَخَدَمْتُ فِي الْمَنَازِلِ حَتَّى ذَلَّتْ وَلَكِنَّهَا اسْتَطَاعَتْ أَنْ تَحْيَا

وَيَحْيَا وَلَدَهَا بِجَانِبِهَا .

مَا كَانَ لِمِثْلِهَا أَنْ يَحْيَا عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ وَلَكِنَّ اللَّهَ كَانَ أَرْحَمَ بِهَا مِنْ أَنْ يَسْلُبَهَا السَّعَادَةَ وَيَسْلُبَهَا الْعِزَّاءَ عَنْهَا مَعًا فَقَدْ كَانَتْ إِذَا دَجَا لَيْلُ الْحَوَادِثِ حَوْلَهَا وَأَظْلَمَتِ الْحَيَاةُ أَمَامَ عَيْنَيْهَا رَأَتْ فِي الْإُفُقِ الْبَعِيدِ ثَلَاثَةَ أَشِعَّةٍ تَتْبَعُ مِنْ سَمَاءِ الرَّحْمَةِ إِلِلَهِيَّةٍ حَتَّى تَتَلَقَى فِي فُؤَادِهَا فَتَمْلَأُهُ عِزًّا وَصَبْرًا شُعَاعِ الْإِنْسِ

بَوْلَدِهَا وَشُعَاعَ الرَّجَاءِ فِي أَخِيهَا وَشُعَاعَ السُّرُورِ بِمَا وَفَّقَتْ إِلَيْهِ مِنْ صَيَانَةٍ
عَرَضَهَا

دَارَتْ الْأَيَّامُ دَوْرَتَهَا فَاكْتَهَلَتْ اللَّأْمَ وَشَبَّ الْوَلَدَ وَانْتَقَلَ قَلْبُهَا إِلَى قَلْبِهِ وَكَانَ
لَا بُدَّ لَهُ أَنْ يَعِيشَ وَأَنْ يُحْسِنَ إِلَى تِلْكَ الَّتِي طَالَمَا أَحْسَنْتَ إِلَيْهِ فَمَشَى يَتَصَفَّحَ
وُجُوهَ الرِّزْقِ وَجْهًا وَجْهًا وَيَرُدَّ مَنَاهِلَهُ مِنْهَا مَنْهًا حَتَّى وَجَدَهُ حَتَّى مَهْرَ فِيهَا
وَالْمَهَارَةَ لَا تَدُلُّ عَلَى صَاحِبِهَا وَحَدَّهَا بَلْ هُوَ الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهَا بِحِيلَتِهِ وَرَفَقَهُ وَمَا
كَانَ الْفَتَى يَمْلِكُ أَدَاةَ ذَلِكَ وَلَا يَعْرِفُ السَّبِيلَ إِلَيْهِ فَاسْتَمَرَ خَامِلًا مَغْمُورًا لَا
تَذُرُ لَهُ مِهْنَتَهُ إِلَّا الْقَطْرَةَ بَعْدَ الْقَطْرَةِ فِي الْفَيْنَةِ بَعْدَ الْفَيْنَةِ فَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ
يُسْعِدَ أُمَّهُ وَلَكِنَّهُ اسْتَطَاعَ أَنْ يَسُدَّ خَلَّتَهَا فَقَنِعَتْ مِنْهُ بِذَلِكَ وَلَزِمَتْ مَنْزِلَهَا
وَوَجَدَتْ

بَرْدَ الرَّاحَةِ فَدَصَدْرَهَا .

إِلَّا أَنَّهَا كَانَتْ إِذَا ذَكَرَتْ ذَلِكَ الْغَائِبَ النَّائِي عَنْهَا حَنَّتْ إِلَيْهِ حَنِينَ النِّيبِ إِلَى
فِصَالِهَا وَأَحْزَنَهَا أَنَّهَا لَمْ تَرَهُ مُنْذُ خَمْسَةِ عَشَرَ عَامًا وَلَمْ تَرَ مِنْهُ كِتَابًا مُنْذُ عَشْرَةِ
أَعْوَامٍ حَتَّى الْيَوْمِ فَلَا تُجِدُ لَهَا بُدًّا كُلَّمَا هَاجَهَا الْوَجْدُ إِلَيْهِ إِلَّا أَنْ تَلْجَأَ إِلَى
ذَلِكَ الْمَلْجَأِ الْوَحِيدِ الَّذِي يَفْزَعُ إِلَيْهِ جَمِيعُ الْبَائِسِينَ وَالْمَحْزُونِينَ فِي بَأْسَائِهِمْ
وَضُرَائِهِمْ خَلُوتَهَا وَدُمُوعَهَا فَتُبْكِي مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَفْعَلَ ثُمَّ تَخْرُجُ لِاسْتِقْبَالِ
وَلَدِهَا بِأَشَةِ بِاسِمَةِ مَنْ لَمْ تَكُنْ بِأَكِيَّةَ قَبْلَ ذَلِكَ .

دَخَلَ عَلَيْهَا وَلَدُهَا يَوْمًا فِي خَلُوتِهَا فَرَأَاهَا تَبْكِي وَرَأَى فِي يَدِهَا صُورَةَ فَتُبَيَّنَهَا
فَإِذَا هِيَ صُورَةُ خَالِهِ فَأَلَمَ بِسَرِيرَةِ نَفْسِهَا وَأَمْسَكَ بَيْنَ أَهْدَابِ عَيْنَيْهِ دَمْعَةً

مُتَرَقِّقَةً مَا تَكَادُ تَتَمَاسَكَ فَمَشَى إِلَيْهَا حَتَّى وَضَعَ يَدَهُ عَلَى عَاتِقِهَا وَقَالَ رَفِّهِ
عَنْ

نَفْسِكَ يَا أُمَّاهُ فَسَتَعَلِّمِينَ خَبَرَ غَائِبِكَ عَمَّا قَلِيلٍ فَتُطْلِقَ وَجْهَهَا وَأَضَاءَ وَقَالَتْ
كَيْفَ

السَّبِيلَ إِلَى ذَلِكَ قَالَ قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ مَعْرَضًا سَيُقَامُ لِلرَّسَمِ فِي وَاشْنُطُونَ حَاضِرَةً
أَمْرِيكَ بَعْدَ بَضْعَةِ شُهُورٍ وَأَنَّهُمْ قَدَّرُوا لَهُ جَوَائِزَ مُخْتَلِفَةً صُغْرَى وَكُبْرَى وَقَدْ
وَعَدَنِي

بَعْضُ أَصْدِقَائِي أَنَّ يُسَاعِدَنِي عَلَى الشُّخُوصِ إِلَيْهِ عَلَنِي اسْتَطِيعَ أَنْ أَنَالَ مَاتَ
أُقِيمَ بِهِ

وَجْهِي وَأُنْقِذَ بِهِ نَفْسِي وَنَفْسَكَ مِنْ هَذَا الشَّقَاءِ هُنَالِكَ أُفْتَش عَنْ غَائِبِكَ حَتَّى أَجِدَهُ
أَوْ

أَجِدُ مُنْقَطِعَ أَثَرِهِ فَاسْتَسِرَ بِشَرِّهَا الَّذِي كَانَ مُتَالِّئًا وَقَالَتْ لَا تَفْعَلْ يَا بَنِي فَمَا
أَنَا بِشَقِيَّةٍ مَا رَأَيْتُكَ بِجَانِبِي وَمَا أَنْتَ بِشَقِيٍّ مَا قَنِعْتُ بِمَاتِ قِسْمِ اللَّهِ لَكَ وَلَيْتَ
فَعَلْتُ لَا تَكُونَنَّ امْرَأَةً عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَعْظَمَ مِنِّي لَوْعَةً وَلَا أَشْقَى وَلَيْتَ بَكَيْتَ
لِفِرَاقِ أَخِي مَرَّةً فَسَابَكِي لِفِرَاقِكَ أَلْفَ مَرَّةٍ وَإِنِّي كُلَّمَا ذَكَرْتَهُ وَجِدْتُ فِي وَجْهِكَ
الْعِزَاءَ عَنْهُ فَمَنْ لِي بِالْعِزَاءِ عَنْكُمَا إِنْ فَقَدْتُ وَجْهَيْكُمَا مَعًا .

فَمَا زَالَ يُرَوِّضُهَا وَيَمْسَحُهَا وَيُمْنِيهَا فِي رِحْلَتِهِ الْأَمَانِي الْعَذَابَ حَتَّى أَسْلَسْتُ
وَهَدَّأْتُ

وَأَسْلَمْتُ إِلَى اللَّهِ أَمْرَهَا .

وَمَا هِيَ إِلَّا أَيَّامٌ قَلَائِلٌ حَتَّى ضَرَبَ الدَّهْرُ بَيْنَهُمَا بِضَرْبَاتِهِ فَإِذَا اللَّأْمُ وَحِيدَةً فِي
فَرَنْسَلَا لَا مُؤْنِسَ لَهَا وَإِذَا الْوَلَدُ غَرِيبٌ فِي أَمْرِيكَ لَا يَعْرِفُ لَهُ سَنَدًا وَلَا عَضْدًا

وَصَلَ الْفَتَى إِلَى مَعْرَضِ الرَّسْمِ فَعَرَّضَ رَسْمَهُ هُنَاكَ وَكَانَ يُمَثَّلُ فِيهِ مَوْقِفُ
الْوَدَاعِ الَّذِي

جَرَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ امِهِ عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ يَوْمَ رَحِيلِهِ وَكَانَ مَوْقِفًا مُحْزِنًا فَأَحْسَنَ
تَمَثُّلَهُ فَأَعْجَبَ الْقَوْمَ بِجَمَالِهِ وَأَثَرَ فِي نُفُوسِهِمْ مَنَظَرَهُ فَقَضَوْا لَهُ بِالْجَائِزَةِ الَّتِي
كَانَ يَمْنِي نَفْسَهُ بِهَا فَمَا حَصَلَتْ فِي يَدِهِ حَتَّى خُيِّلَ إِلَيْهِ أَنَّهُ أَسْعَدَ أَهْلَ الْأَرْضِ
طَرَا

وَأَنَّ هَذَا الْيَوْمَ هُوَ أَوَّلُ يَوْمٍ هَبَطَ فِيهِ عَالَمُ الْوُجُودِ وَأَنَّهُ مَا ذَاقَ قَبْلَ السَّاعَةِ
مَرَارَةَ الْعَيْشِ وَلَمَّا رَأَى صُورَةَ الشَّقَاءِ .
وَكَذَلِكَ يَعْثُرُ الدَّهْرُ بِالْإِنْسَانِ مَا يَعْثُرُ وَيُذِيقُهُ مَا يُذِيقُهُ نِمْنَ صُنُوفِ الشَّقَاءِ
وَالْوَانِ الْأَلَامِ حَتَّى إِذَا عَلِمَ أَنَّهُ قَدْ أَوْحَشَهُ وَأَرَابَهُ وَمَلَأَ قَلْبَهُ غَيْظًا وَحَنَقًا
أَطْلَعَ لَهُ فِي تِلْكَ السَّمَاءِ الْمُظْلِمَةِ الْمُدْلَهَمَةِ بَارِقَةً وَاحِدَةً مِنْ بَوَارِقِ الْأَمَلِ
الْكَاذِبِ فَاسْتَرَدَّهَا بِهَا إِلَى حَظِيرَتِهِ رَاضِيًا مُغْتَبِطًا كَمَا تَقَادِ السَّائِمَةُ الْبَلْهَاءُ
بِأَعْوَادِ الْكَلَأِ إِلَى مَصْرَعِهَا فَمَا أَسْعَدَ الدَّهْرُ بِالْإِنْسَانِ وَمَا أَشْقَى الْإِنْسَانِ بِهِ .
أَرْسَلَ الْفَتَى إِلَى أُمِّهِ بَعْضَ الْمَالِ وَاسْتَبَقَى لِنَفْسِهِ بَعْضًا وَكَتَبَ إِلَيْهَا أَنَّهُ لَنْ

يَبْرَحَ

هَذِهِ الْأَرْضَ حَتَّى يَفِي لَهَا بِمَا عَاهَدَهَا عَلَيْهِ وَمَشَى فِي طَرِيقِهِ يُفَتِّشُ عَنْ خَالِهِ

فِي

أَنْحَاءَ الْبِلَادِ وَيُسَائِلُ عَنْهُ كُلَّ مَنْ لَقِيَهُ مِنَ الْأَقَاطِينِ وَالطَّارِئِينَ وَحَتَّى حَدَّثَهُ
بَعْضُهُمْ أَنَّ آخِرَ عَهْدِهِمْ بِهِ رِحْلَةٌ رَحَلَهَا عَنْهُمْ مِنْ بَضْعِ سَنَوَاتٍ إِلَى بَعْضِ
الْجُزُرِ

الْجَنُوبِيَّةَ فِي التَّفْتِيشِ عَنْ مَعْدِنِ نَحَاسٍ هُنَاكَ ثُمَّ لَمْ عَدَّ بَعْدَ ذَلِكَ فَمَشَى فِي
الطَّرِيقِ

الَّتِي عَلِمَ أَنَّهُ سَلَكَهَا حَتَّى وَصَلَ إِلَى جَزِيرَةٍ مُوحِشَةٍ مُقْفَرَةٍ وَكَانَتْ لَا تَزَالُ
تَغْشَى

سَمَاءَ تِلْكَ الْبِلَادِ بَقِيَّةً مِنْ ظُلُمَاتِ الْعُصُورِ الْأُولَى فَمَرَّ بِقَبِيلَةٍ مِنْ قَبَائِلِ الزَّنْجِ
نَازِلَةٍ هُنَاكَ وَرَاءَ بَعْضِ الْجِبَالِ الْمُنْقَطِعَةِ فَمَا رَأَوْهُ حَتَّى هَاجَتْ فِي صُدُورِهِمْ
أَحْقَادُ

تِلْكَ الْعَدَاوَةِ اللَّوْنِيَّةِ الَّتِي لَا يَزَالُ يُضْمِرُهَا هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ لِكُلِّ شَيْءٍ أَبْيَضَ حَتَّى
لِلشَّمْسِ الْمَشْرِقَةِ وَالْكَوَاكِبِ الزَّاهِرَةِ فَدَارُوا بِهِ دَوْرَةَ سَقَطَ مِنْ بَعْدِهَا أُسِيرًا فِي
أَيْدِيهِمْ بِالْإِغْوَاءِ حَتَّى وَصَلُوا بِهِ إِلَى دِيَارِهِمْ فَاحْتَبَسُوهُ هُنَاكَ فِي نَفَقٍ تَحْتَ
الْأَرْضِ

كَانُوا يُسَمُّونَهُ سِجْنُ الْإِنْتِقَامِ .

هُنَاكَ عَلِمَ أَنَّ تِلْكَ الْبَارِقَةَ الَّتِي لَاحَتْ لَهُ فِي سَمَاءِ السَّعَادَةِ مِنَ الْأَمَلِ يَوْمَ
الْمَعْرِضِ إِنَّمَا هِيَ خُدْعَةٌ مِنْ خُدْعِ الدَّهْرِ وَأَكْذُوبَةٌ مِنْ أَكَاذِيْبِهِ وَأَنَّ مَا كَانَ
يُقَدَّرُ

لِنَفْسِهِ مِنْ سَعَادَةٍ وَهَنَاءٍ فِي مُسْتَقْبَلِ أَيَّامِهِ قَدْ ذَهَبَ بِذَهَابِ أَمْسِ الدَّابِرِ وَأَصْبَحَ
صَحِيفَةً بَالِيَةً فِي كِتَابِ الدَّهْرِ الْغَابِرِ .

وَلَقَدْ كَانَ فِي اسْتِطَاعَةٍ أَنْ يُخْلِدَ لِلنَّازِلَةِ الَّتِي نَزَلَتْ بِهِ وَيَسْتَمْسِكَ لَهَا لَوْ أَنَّهُ
اسْتَقَلَّ بِحَمْلِهَا وَلَكِنَّ الَّذِي آذَاهُ وَأَثَقَلَهُ أَنَّ هُنَاكَ إِنْسَانًا آخَرَ كَرِيمًا عَلَيْهِ يُقَاسِمُهُ
إِيَّاهَا فَقَدْ أَصْبَحَ يَحْمِلُ مُصِيبَتَهُ وَمُصِيبَةَ أُمِّهِ فِيهِ عَلَى عَاتِقٍ وَاحِدٍ .

نَزَلُوا بِهِ إِلَى الْمَحْبَسِ وَقَادُوهُ إِلَى سِلْسِلَةِ غَلِيظَةِ الْحَلَقَاتِ فَسَلَكُوهُ فِيهَا ثُمَّ

أَغْلَقُوا الْبَابَ مُنْذُ وَنَه وَتَرَكَوْهُ وَشَأْنَهُ فَمَا انْفَرَدَ بِنَفْسِهِ حَتَّى فَتَحَ عَيْنَيْهِ فَلَمْ
يَرَ أَمَامَهُ شَيْئًا فَلَمْ يَعْلَمْ هَلْ كَفَّ بَصَرَهُ أَمْ اِسْتَدَّتْ الظُّلْمَةُ أَمَامَ عَيْنَيْهِ فَحَجَبَتْ
عَنْ

نَاطِرَهُ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى نَفْسَهَا فَلَمْ يَزَلْ فِي حَيْرَتِهِ حَتَّى انْقَضَى اللَّيْلُ فَاِنْحَدَرَ إِلَيْهِ
مِنْ

تُقُبِّ صَغِيرٍ فِي حَائِطِ الْمَحْبِسِ خَيْطٌ أَبْيَضٌ دَقِيقٌ مِنْ شُعَاعِ الشَّمْسِ حَتَّى اِسْتَقَرَّ
بَيْنَ يَدَيْهِ

فَأَنْسَ بِهِ أَنْسَ الْغَرِيبِ وَشَكَرَ لِلشَّمْسِ رَسُولَهَا الَّذِي أَرْسَلَتْهُ إِلَيْهِ لِيُؤْنِسَهُ فِي
وَحْدَتِهِ

وَاسْتَمَرَ بَصَرَهُ عَالِقًا بِهِ لَا يُفَارِقُهُ أَيْنَمَا سَارَ وَحَيْثُمَا اِنْتَقَلَ حَتَّى رَأَاهُ يَتَقَبَّضُ
شَيْئًا فَشَيْئًا وَيَتَرَا جَعً قَلِيلًا قَلِيلًا ثُمَّ عَلَا إِلَى ثَقْبَةِ الَّذِي اِنْحَدَرَ مِنْهُ ثُمَّ طَارَ
إِلَى سَمَائِهِ الَّتِي هَبَطَ مِنْهَا فَحَزَنَ لِفِرَاقِهِ حُزْنَ الْعَشِيرِ لِفِرَاقِ عَشِيرِهِ وَدَارَ
بِعَيْنَيْهِ

حَوْلَ نَفْسِهِ فَإِذَا قَطَعَ سَوْدَاءَ مُظْلِمَةٍ تَتَدَجَّى وَتَتَكَاثَفُ مِنْ حَوْلِهِ وَيَمْلَسُ بَعْضَهَا
فِي

أَحْشَاءَ بَعْضٍ وَإِذَا هُوَ نَفْسَهُ قِطْعَةً مِنْ تِلْكَ الْقِطْعِ هَائِمَةً بَيْنَهَا هَيْمَانُ الرُّوحِ
الْحَائِرِ فِي ظُلُمَاتِ الْقُبُورِ فَمَا كَادَ يَعْرِفُ مَكَانَهُ مِنْهَا فَمَشَى فِي ذَلِكَ الْمُعْتَرَكِ
الْمَائِجِ يُفْتِّشُ عَنْ نَفْسِهِ وَيَتَلَمَّسُهَا بِيَدِهِ تَلَمَّسًا حَتَّى سَمِعَ صَلَصَلَةَ السِّلْسِلَةِ الْمُلتَفَّةِ
عَلَى قَدَمَيْهِ فَوَجَدَهَا وَكَانَ قَدْ أَجْهَدَهُ الْمُسِيرُ فَتَسَاقَطَ عَلَى نَفْسِهِ بَاكِيًا مُنْتَحِبًا .
وَكَذَلِكَ اِنْقَطَعَ هَذَا الْمَسْكِينُ عَنْ عَالَمِ كُلِّ خَيْرٍ وَشَرٍّ وَلَمْ يَبْقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ مِنْ

صِلَةَ إِلَّا ذَلِكَ الشُّعَاعَ الْأَبْيَضَ الَّذِي يَزُورُهُ كُلُّ صَبَاحٍ وَذَلِكَ السَّجَّانَ الْأَسْوَدَ
الَّذِي
يَطْرُقُهُ كُلُّ مَسَاءٍ .

وَمَا مَرَّتْ بِهِ عَلَى حَالِهِ تِلْكَ سَنَةٌ وَاحِدَةٌ حَتَّى نَسِيَ نَفْسَهُ وَنَسِيَ أُمَّهُ وَنَسِيَ الْعَالَمَ
الَّذِي كَانَ يَعِيشُ فِيهِ وَالْعَالَمَ الَّذِي انْتَقَلَ إِلَيْهِ وَنَسِيَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالظُّلْمَةَ
وَالنُّورَ وَالسَّعَادَةَ وَالشَّقَاءَ وَأَصْبَحَ فِي مَنْزِلَةٍ بَيْنَ مَنْزِلَتِي الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ فَلَا
يُفْرِحُ وَلَا يَتَأَلَّمُ وَلَا يُذَكِّرُ الْمَاضِي وَلَا يَرْجُو الْمُسْتَقْبَلَ وَلَا يَعْلَمُ هَلْ هُوَ حَجَرٌ
بَيْنَ تِلْكَ الْأَحْجَارِ أَوْ قِطْعَةٌ بَيْنَ قِطَعِ الظُّلَامِ أَوْ جَسَدٌ يَتَحَرَّكُ أَوْ خِيَالٌ يُسْرِي أَوْ
وَهُمْ مِنَ الْأَوْهَامِ أَوْ عَدَمٌ مِنَ الْإِعْدَامِ !

مَرَّتْ عَلَى تِلْكَ اللَّامِ الْمُسْكِينَةِ بَضْعَةُ أَعْوَامٍ لَا تَرَى وَلَدَهَا وَلَا تَجِدُ مَنْ يَذُلُّهَا
عَلَيْهِ فَأَصْبَحَ مَنْ يَرَاهَا فِي طَرِيقِهَا يَرَى عَجُوزًا حَدْبَاءَ وَالْهَيْةَ مُتَسَبِّلَةً مَذْهُوبًا
بِهَا

قَدْ تَوَكَّأَتْ عَلَى عَصَا مَا تَزَالُ تَضْطَرِبُ فِي يَدِهَا وَأَسْبَلَتْ جِسْمَهَا النَّاحِلَ
المحقوقف

أَهْدَامَا خُلُقَانَا يَحْسِبُهَا النَّاضِرُ إِلَيْهَا لِكَثْرَةِ مَا نَالَتْ يَدَ الْبُلَى مِنْهَا أَخْدَابًا
مُتَلَاصِقَةً أَوْ مَرَقًا مُتَطَايِرَةً تَقِفُ صَدْرُ النَّهَارِ بِأَبْوَابِ الْمَعَابِدِ وَالْكَنَائِسِ تَسْأَلُ
اللَّهُ أَنْ يَرْحَمَهَا وَالنَّاسُ أَنْ يُطْعِمُوهَا حَتَّى إِذَا زَالَتْ الشَّمْسُ عَنْ كَبِدِ السَّمَاءِ
أَخَذَتْ

سَمَتْهَا إِلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ وَجَلَسَتْ فَوْقَ بَعْضِ صُخُورِهِ تُتَاجِي أَمْوَاجَهُ وَرِمَالَهُ
وَتَرَقُبُ

أُفُقَهُ الْبَعِيدَ كَمَا يَرُقُبُ الْمُنَجِّمُ كَوْكَبَهُ فِي أُفُقِ السَّمَاءِ فَإِذَا سَرَّتْ إِلَيْهَا نِسْمَةٌ

وَجَدْتُ رِيحَ وَلَدِهَا فِيهَا وَإِذَا عَلَيْهَا مَوْجَةٌ ظَنَّتْ أَنَّهَا رَسُولٌ مِنْهُ إِلَيْهَا وَإِذَا
تَرَأَتْ لَهَا سَفِينَةً مَآخِرَةً عَلَى سَطْحِ الْمَاءِ حَسِبَتْهَا السَّفِينَةَ الَّتِي تَحْمِلُهُ فَلَا
يَزَالُ بَصَرُهَا عَالِقًا بِهَا لَا يُفَارِقُهَا حَتَّى تَرُسُو عَلَى الشَّاطِئِ فَتَقِفَ فِي طَرِيقِ
رُكْبَانِهَا تَتَصَفَّحُ الْوُجُوهَ وَتَتَفَرَّسُ الشَّمَائِلَ وَتَهْتِفُ بِاسْمِ وَلَدِهَا صَارِخَةً مُعَوَّلَةً
وَتَقُولُ

:

عِبَادَ اللَّهِ مَنْ يَدُلَّنِي عَلَى وَلَدِي أَوْ يَنْشُدُهُ لِي فِي مَعَالِمِ الْأَرْضِ وَمَجَاهِلِهَا فَقَدْ
أَضَلَّتهُ مِنْذُ عَهْدٍ بَعِيدٍ فَحَارَ بِي الدَّهْرُ مِنْ بَعْدِهِ فَلَا أَنَا سَالِيَةٌ عَنْهُ وَلَا وَاجِدَةٌ
إِلَيْهِ سَبِيلًا فَاحْتَسِبُوهَا يَدًا عِنْدَ اللَّهِ وَحَدِّثُونِي عَنْهُ هَلْ عَادَ مَعَكُمْ أَوْ تَخَلَّفَ
عَنْكُمْ لِيَأْتِيَ عَلَى أَثَرِكُمْ أَوْ انْقَطَعَ الدَّهْرُ بَعْدَ أَمَلٍ فِيهِ بَعْدَ الْيَوْمِ فَلَا يَلْتَقِ
إِلَيْهَا أَحَدٌ وَلَا يَفْهَمُ أَحَدٌ مَا تَقُولُ وَرُبَّمَا لَمَحَهَا بَعْضُ النَّاسِ فَظَنَّهَا امْرَأَةً
مِلَّتَانِ فَرَثِي لَهَا أَوْ سَائِلَةً فَتَصَدَّقَ عَلَيْهَا .

وَلَا يَزَالُ هَذَا شَأْنُهَا فِي مَوْقِفِهَا هَذَا حَتَّى تَرَى الْأُمَمَاتِ وَالْأَخَوَاتِ وَالْفَتَيَاتِ قَدْ
عُذْنَ بِأَوْلَادِهِنَّ وَإِخْوَانِهِنَّ وَأَبَائِهِنَّ إِلَى مَنَازِلِهِنَّ وَلَمْ يَبْقَ عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ مِنْ
غَادٍ وَلَا رَائِحٍ سِوَاهَا فَتَتَأَوَّلُ عَصَاهَا وَتَعُودُ أَدْرَاجَهَا إِلَى بَيْتِهَا فَتَأْخُذُ مَجْلِسَهَا
مِنْ حَافَةِ قَبْرِ كَانَتْ قَدْ احْتَفَرَتْهُ بِيَدِهَا فِي أَرْضِ قَاعَتِهَا وَتَوَهَّمَتْهُ مَدْفِنًا لَوْلَدِهَا
فَتَظَلُّ تَبْكِي وَتَقُولُ :

فِي أَيِّ بَطْنٍ مِنْ بَطُونِ الْأَرْضِ مَضَجَعُكَ يَا بَنِي وَتَحْتَ أَيِّ نَجْمٍ مِنْ نُجُومِ
السَّمَاءِ مَصْرَعُكَ

وَفِي أَيِّ قَاعٍ مِنْ قِيَعَانِ الْبَحْرِ مَثْوَاكَ وَفِي أَيِّ جَوْفٍ مِنْ أَجْوَافِ الْوُحُوشِ
الضَّارِبَةِ

مَأْوَاكَ ؟

لَوْ يُعَلِّمُ الطَّيْرُ الَّذِي مَزَّقَ حَتَّتَكَ أَوْ الْوَحْشُ الَّذِي وَلَغَ دَمَكَ أَوْ الْقَبْرُ الَّذِي ضَمَّكَ
إِلَى أَحْسَانِهِ أَوْ الْبَحْرُ الَّذِي طَوَاكَ فِي جَوْفِهِ أَنْ وَرَاءَكَ أَمَّا مِسْكِينَةٌ تَبْكِي عَلَيْكَ
مَنْ

بَعْدَكَ لِرَحْمُوكِ مِنْ أَجْلِي ؟

عُذِّ إِلَيَّ يَا بَنِي فَقِيرًا أَوْ مُقْعَدًا أَوْ كَفِيفًا فَحَسْبِي مِنْكَ أَنْ أَرَكَ بِجَانِبِي فِي
السَّاعَةِ الَّتِي أَفَارِقُ فِيهَا هَذِهِ الْحَيَاةَ لِأَقْبَلَكَ قُبْلَةَ الْوَدَاعِ وَأَعْهَدَ إِلَيْكَ بَزِيرَةَ
مَضْجَعِي مَطْلَعِ كُلِّ شَمْسٍ وَمَغْرِبِهَا لِتَخَفُ بِزُورَتِكَ عَنِّي ضَمَّةَ الْقَبْرِ وَتَسْتَتِيرَ
بِوَجْهِكَ

الْوُضَاءَ ظُلُمَاتِهِ الْحَالِكَةَ .

مَا أَسْعَدَ الْأُمَمَاتِ اللَّوَاتِي يَسْبِقْنَ أَوْلَادَهُنَّ إِلَى الْقُبُورِ وَمَا أَشْقَى الْأُمَمَاتِ
اللَّوَاتِي يَسْبِقْنَ أَوْلَادَهُنَّ إِلَيْهَا وَأَشْقَى مِنْهُنَّ تِلْكَ الْأُمَمُ الْمِسْكِينَةُ الَّتِي تَدْبُ إِلَى
الْمَوْتِ دَبِيبًا وَهِيَ لَا تَعْلَمُ هَلْ تَرَكَتْ وَلَدَهَا وَرَاءَهَا أَوْ أَنَّهَا سَتَجِدُهُ أَمَامَهَا ؟
وَهَكَذَا كَانَ شَأْنُهَا صَبَاحُهَا وَمَسَاءُهَا فَلَمْ تَزَلْ تَبْكِي وَلَدَهَا بُكَاءَ يَعْقُوبَ وَلَدِهِ
حَتَّى

ذَهَبَ بَصَرُهَا ذَهَابَ بَصَرِهِ وَلَكِنَّهَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَنْ يَوْسُفَ صَبْرًا .
دَخَلَ السَّجَّانُ عَلَى الْفَتَى عَشِيَّةَ لَيْلَةٍ فِي مَحْبِسِهِ فَاقْتَرَبَ مِنْهُ وَمَدَّ يَدَهُ إِلَى
سِلْسِلَتِهِ

الْمُتَبَتَّةَ فِي الْجِدَارِ فَانْتَزَعَهَا مِنْ مَكَانِهَا فَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا وَلَمْ يُسْأَلْ نَفْسَهُ هَلْ
هِيَ سَاعَةُ نَجَاتِهِ أَوْ سَاعَةُ حَمَامِهِ ثُمَّ قَادَهُ إِلَى خَارِجِ الْمَحْبِسِ حَتَّى وَصَلَ بِهِ
إِلَى

صَخْرَةً جَائِمَةً عَلَى مَقْرُبَةٍ مِنْ مُجْتَمَعِ الْقَبِيلَةِ فَشَدَّ سِلْسِلَتَهُ إِلَيْهَا وَتَرَكَه مَكَانَهُ
وَمَضَى فَفَتَحَ عَيْنَيْهِ فَرَأَى مَكَانًا غَيْرَ مَكَانِهِ وَمَنْظَرًا غَيْرَ مَنْظَرِهِ وَسَمَاءً وَأَرْضًا
غَيْرَ

سَمَائِهِ وَأَرْضِهِ فَبَدَأَ شُعُورَهُ يَعُودُ إِلَيْهِ شَيْئًا فَشَيْئًا حَتَّى اسْتَفَاقَ فَتَذَمَّرَ مَا كَانَ
فِيهِ وَزَاىَ مَا صَارَ إِلَيْهِ .

هُنَا تُذَكِّرُ السَّعَادَةَ وَالشَّقَاءَ وَالْغُرْبَةَ وَالْوَطْنَ وَالسَّجْنَ وَظُلُمَتَهُ وَالْقَيْدَ وَوَطْأَتَهُ ثُمَّ
طَارَ بِخَيَالِهِ إِلَى مَا وَرَاءَ الْبَحَارِ فَذَكَرَ أُمَّهُ وَشَقَاءَهَا مِنْ بَعْدِهِ وَحَنِينَهَا وَيَأْسَهَا
مِنْ لِقَائِهِ فَذَرَفَتْ عَيْنَيْهِ دَمْعَةً كَانَتْ هِيَ أَوَّلَ دَمْعَةٍ أَرْسَلَهَا مِنْ جَفْنَيْهِ مِنْ تَارِيخِ
شَقَائِهِ وَمَا زَالَ يُرْسِلُ الْعَبْرَةَ إِثْرَ الْعَبْرَةِ لَا يَهْدَأُ وَلَا يَسْتَفِيقُ حَتَّى مَضَى شَطْرَ
مِنْ

الَّيْلِ وَهَذَا النَّاسُ جَمِيعًا فِي مَضَاجِعِهِمْ فَأَسْلَمَ رَأْسَهُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ وَذَهَبَ بِخَيَالِهِ
إِلَى حَيْثُ شَاءَ أَنْ يَذْهَبَ .

فَإِنَّهُ لَكَذَلِكَ وَقَدْ رَنَقَتْ فِي عَيْنَيْهِ سِنَةٌ مِنَ النَّوْمِ إِذْ شَعَرَ بِبَيْدٍ تَلَمَّسُ كَتِفَيْهِ فَرَفَعَ
رَأْسَهُ فَإِذَا شَبَحَ أَبْيَضَ قَائِمٌ فَوْقَ رَأْسِهِ فَخِيلٌ إِلَيْهِ أَنَّ مَلَكًا نُورَانِيًّا نَزَلَ إِلَيْهِ عَنْ
عُلْيَاءِ السَّمَاءِ لِيُنْقِذَهُ مِنْ شَقَائِهِ فَتُبَيَّنَتْ فَإِذَا فَتَاةٌ جَمِيلَةٌ بَيَاضَاءُ مَا التَفَّتْ
الْأَزْرَ عَلَى مِثْلِهَا حُسْنًا وَبَهَاءً تَتَمَشَّى فِي بَيَاضِهَا سُمْرَةً رَقِيقَةً كَسُمْرَةِ السَّحَابِ
الزَّهْوِ الَّذِي يُخَالِطُ وَجْهَ الشَّمْسِ فِي ضُحَاةِ النَّهَارِ فَسَأَلَهَا مَنْ أَنْتَ ؟
قَالَتْ أَنَا فَتَاةٌ مِنْ فَتَيَاتِ هَذَا الْحَيِّ وَقَدْ أَلَمَمْتُ بِشَيْءٍ مِنْ أَمْرِكَ فَعَلِمْتُ أَنَّكَ شَقِيٌّ
فَرَحِمْتُكَ مِمَّا أَنْتَ فِيهِ فَجَبْنْتُكَ أَطْلُقُ وَثَاقَكَ لِتَذْهَبَ حَيْثُ تَشَاءُ فَلَا مَثُوبَةَ يُقَدِّمُهَا
الْمَرْءُ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِ يَوْمَ جَزَائِهِ أَفْضَلَ مِنْ مُوَاسَاةِ الْبَائِسِ وَتَفْرِيجِ كُرْبَةٍ

المكروب

فَعَجِبَ لِرِزْجِيَّةَ بَيْضَاءَ وَوَثِيَّةَ تَعْبُدُ اللَّهَ وَبِرِّبْرِيَّةَ تَحْمِلُ بَيْنَ جَبِينِهَا قَلْبًا يَعْطِفُ
 عَلَى الْبُؤْسَاءِ وَالْمُنْكَوِبِينَ وَقَالَ فِي نَفْسِهِ مَا لِهَذِهِ الْفَتَاةُ بُدَّ مِنْ شَأْنٍ وَوَرَدَ عَلَيْهِ
 مِنْ أَمْرِهَا مَا ذَهَبَ بِلُبِّهِ وَمَلَكَ عَلَيْهِ نَفْسَهُ وَهَوَاهُ وَأَنْسَاهُ كُلَّ شَأْنٍ فِي الْحَيَاةِ إِلَّا
 شَأْنَهَا فَلَبِثَ صَامِتًا وَاجِمًّا لَا يَنْطِقُ وَقَالَ لَهَا إِذْهَبِي لِشَأْنِكَ يَا سَيِّدَتِي فَإِنِّي لَا
 أُرِيدُ النَّجَاةَ فَعَلِمْتُ أَنَّهَا ثَوْرَةٌ مِنْ ثَوْرَاتِ الْيَأْسِ فَدَنَتْ مِنْهُ وَوَضَعَتْ يَدَهَا عَلَى
 عَاتِقِهَا لَا تَجْعَلُ لِلْيَأْسِ إِلَى قَلْبِكَ أَيُّهَا الْفَتَى سَبِيلًا وَأَنْجُ بِحَيَاتِكَ مِنْ يَدِ الْمَوْتِ
 فَلَيْسَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ إِنْ بَقِيتُ هُنَا إِلَّا أَنْ يَنْحَدِرَ عَنْ وَجْهِكَ قِنَاعُ هَذَا اللَّيْلِ فَإِذَا
 أَنْتَ فَلَذَّ طَائِرَةٌ مَعَ شَفَرَاتِ السُّيُوفِ فَلَا تُقْجِعُ نَفْسُكَ فِي نَفْسِكَ وَلَا تُقْجِعُ هَذِهِ
 الْمُسْكِينَةُ الْوَاقِفَةُ بَيْنَ يَدَيْكَ فَإِنْ شَدِيدًا عَلَى جِدًّا أَنْ أَرَاكَ بَعْدَ قَلِيلٍ ذَبِيحَةً
 فِي يَدِ الْأَبْحِ أَوْ مُضْغَةً فِي فَمِ الْلَاكِلِ قَالَ إِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعِينَ نَجَاتِي قَالَتْ لَا أَفْهَمُ
 مَا تَقُولُ فَإِنِّي مَا جِئْتُكَ إِلَّا وَأَنَا عَالِمَةٌ مَاذَا أَصْنَعُ قَالَ قَدْ كُنْتُ قَبْلَ الْيَوْمِ
 مُوثِقًا بِوِثَاقٍ وَاحِدٍ فَأَصْبَحْتُ مُوثِقًا بِوِثَاقَيْنِ فَإِنْ اسْتَطَعْتُ أَنْ تَحْلِيَ وَثَاقَ قَدَمِي
 فَإِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعِينَ أَنْ تَحْلِيَ وَثَاقَ قَلْبِي فَأَلَمْتُ بِسَرِيرَةٍ نَفْسَهُ فَرَفَعْتُ وَجْهَهَا إِلَى
 السَّمَاءِ وَلَبِثْتُ شَاخِصَةً إِلَيْهَا سَاعَةً فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَيْهَا وَلَبِثَ شَاخِصًا إِلَى وَجْهِهَا
 نَظَرَ الْمُصَوِّرُ الْمَاهِرُ إِلَى تِمْتَالِهِ الْبَدِيعِ حَتَّى شَعَرَ بِدَمْعَةٍ حَارَّةٍ قَدْ سَقَطَتْ مِنْ
 جَفْنِهَا عَلَى وَجْهِهِ فَجَرَتْ فِي مَجْرَى الدُّمُوعِ مِنْ خَدِّهِ فَاِنْحَدَرَتْ مِنْ جَفْنِهِ دَمْعَةٌ
 مِثْلَهَا

فَالْتَقَتْ بِدَمْعَتِهَا فَاِمْتَزَجَتَا مَعًا فَمَدَّ يَدَهُ إِلَى رِدَائِهَا بِالْإِغْوَاءِ إِلَيْهِ وَقَالَ قَدْ
 طَالَ وَقُوفُكَ يَا سَيِّدَتِي فَاجْلِسِي بِجَانِبِي نَتَحَدَّثُ قَلِيلًا فَجَلَسَتْ عَلَى مَقْرُبَةٍ مِنْهُ
 فَقَالَ

لَهَا إِنَّ إِمْتِزَاجَ دَمْعِي بِدَمْعِكَ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ قَدْ دَلَّنِي عَلَى أَنَّ لَنَا تَفْتَرِقَ بَعْدَ

الْيَوْمَ أَحْيَاءُ أَوْ أَمْوَاتًا فَإِنْ كُنْتَ تُرِيدِينَ لِي النِّجَاةَ فَإِنِّي لَأَنْجُو إِلَّا بِكَ
 قَالَتْ لِيَتَّبِعْنِي أَسْتَطِيعَ ذَلِكَ يَا سَيِّدِي قَالَ وَمَا يَمْنَعُكَ مِنْهُ فَنَظَرْتُ إِلَيْهِ نَظْرَةً دَامِعَةً
 وَقَالَتْ أَخَافُ أَنْ أُحِبَّكَ قَالَ وَلِمَ تَخَافِينَ قَالَتْ لَأَعْلَمَ قَالَ أَنَا لَأَسْأَلُكَ عَمَّا
 تَكْتُمِينَ فِي صَدْرِكَ مِنَ الْأَسْرَارِ وَلَكِنِّي أَسْأَلُكَ أَنْ تَتْرُكِيَنِي وَشَأْنِي فِي يَدِ الْقَدْرِ
 يَفْعَلْ بِي مَا يَشَاءُ فَقَدْ كُنْتُ أَخَافُ الْمَوْتَ قَبْلَ أَنْ أَرَكَ أَمَّا الْيَوْمَ فَحَسْبِي عِزَاءُ
 عَمَّا أَلَاقِيهِ مِنْ غُصَصِهِ وَآلَامِهِ نَظْرَةً رَحْمَةً تَلْقِيْنَهَا عَلَيَّ فِي مِصْرَعي وَدَمْعَةً
 حُزْنَ

تَسْكُبِينَهَا مِنْ بَعْدِي عَلَى تَرْبَتِي فَمَا اسْتَقْبَلَتْهُ إِلَّا بِدُمُوعِهَا تَتَحَدَّرُ عَلَى خَدَّيْهَا
 كَالْعَقْدِ وَهِيَ سَلَكَةٌ فَانْتَثَرَتْ ثُمَّ مَدَّتْ يَدَهَا إِلَى قَيْدِهِ فَعَالَجَتْهُ حَتَّى انْصَدَعَ وَقَالَتْ
 إِنِّي ذَاهِبَةٌ مَعَكَ وَلَيَقْضِيَ اللَّهُ فِي وَفَيْكَ قِضَاءَهُ .
 مَشْيَا يَطْوِيَانِ الْقَفَارَ وَيَعْبُرَانِ اللَّأْنَهَارَ وَيُضْحِيَانِ مَرَّةً وَيَخْصِرَانِ أُخْرَى وَيَرِدَانِ
 آجَن

الْمِيَاهِ وَصَفُوهَا وَيَقْتَاتَانِ يَابِسَ الثَّمَارِ وَرُطْبَهَا فَإِذَا لَاحَ لَهُمَا ظِلُّ شَجَرَةٍ أَوْ
 شَاطِئِ غَدِيرٍ أَوْ سَفْحِ جَبَلٍ أَوْيَا إِلَيْهِ فَاسْتَرَا حَا بِجَانِبِهِ قَلِيلًا ثُمَّ عَادَا إِلَى
 شَأْنِهِمَا .
 وَكَانَتْ لَأَتَزَلُّ تَغْشَى وَجْهَ الْفَتَاةِ مَذْفَرَقَتْ مَوْطِنَهَا سَحَابَةٌ سَوْدَاءُ مِنَ الْحُزْنِ
 مَا

تَكَادُ تَنْقَشِعُ عَنْهُ وَكَانَا إِذَا نَزَلَا مَنْزِلًا وَأَخَذَا مَضْجَعَهُمَا مِنْ تَرْبَةٍ وَأَحْجَارِهِ
 نَهَضَتْ
 مِنْ مَرَقْدِهَا بَعْدَ هَذَاهُ مِنَ اللَّيْلِ وَانْتَحَتِ نَاحِيَةً مِنْ حَيْثُ تَطَنَّ أَنَّهُ لَأَيَشْعُرُ
 بِمَكَانِهَا وَمَدَّتْ يَدَهَا إِلَى صَدْرِهَا فَتَنَاولَتْ صَلِيبًا صَغِيرًا فَقَبَلَتْهُ ثُمَّ أَنْشَأَتْ تَهْمَهُمْ

بِكَلَامٍ خَفِيٍّ كَأَنَّهَا تُتَاجَى بِهِ شَخْصًا غَائِبًا عَنْهَا فَسْتَغْفِرُهُ مِنْ ذَنْبٍ جَنَّتَهُ إِلَيْهِ مَرَّةً وَتَطْلُبُ مَعُونَتَهُ عَلَى أَمْرٍ لَا تَعْرِفُ مَصِيرَهُ وَلَا تَعْلَمُ وَجْهَ الصَّوَابِ فِيهِ أُخْرَى حَتَّى

يَنْبَثِقُ نُورُ الْفَجْرِ فَتَعُودُ إِلَى مَرَقْدِهَا وَكَانَ كُلَّمَا سَأَلَهَا عَنْ شَأْنِهَا التَّوَتَ عَلَيْهِ وَدَافِعَتَهُ عَنْهَا حَتَّى تَلُومَ أَنْ يُعَاوِدَهَا فَتَرْكَهَا وَشَأْنَهَا وَقَدْ أَصْبَحَ يَحْمِلُ فِي صَدْرِهِ مِنْ أَلْهِمٍ فَوْقَ مَا تَحْمِلُ مَنْ هُمْ نَفْسُهَا حَتَّى أَشْرَفَا بَعْدَ مُسِيرٍ ثَلَاثِينَ يَوْمًا عَلَى سَوَاءِ الْعُمُرَانِ فَاسْتَبَشَرَا وَعَلِمَا أَنَّهُمَا قَدْ أَصْحَبَا فِي السَّاعَةِ الْآخِرَةِ مِنْ سَاعَاتِ الشَّقَاءِ .

وَكَانَا قَدْ وَصَلَا إِلَى نَهْرٍ صَغِيرٍ هُنَاكَ فَجَلَسَا بِجَانِبِهِ تَحْتَ شَجَرَةٍ مُورِقَةٍ يَتَحَدَّثَانِ وَهِيَ أَوَّلُ مَرَّةٍ جَلَسَا فِيهَا لِلْحَدِيثِ فَقَالَ لَهَا مَا حَفِظَ اللَّهُ حَيَاتِنَا فِي هَذِهِ السُّقْرَةِ الطَّوِيلَةِ فِي هَذِهِ الْقَفْزَةِ الْجَرْدَاءِ الْمُوَحِشَةِ إِلَّا وَقَدْ كَتَبَ لَنَا فِي لَوْحِ مَقَادِيرِهِ سَعَادَةً لَا أَحْسَبُ أَنَّهُ قَدْ أَعَدَّ خَيْرًا مِنْهَا لِعِبَادِهِ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتِ النِّعِيمِ قَالَتْ وَمَتَى كَانَتْ هَذِهِ الْحَيَاةُ مَوْطِنًا لِلْسَّعَادَةِ أَوْ مُسْتَقَرًّا لَهَا وَمَتَى سَعِدَ أَبْنَاؤُهَا بِهَا فَنُسَعِدْ مِثْلَهُمْ كَمَا سَعَدُوا وَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ مِنْ سَعَادَةٍ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ فَسَعَادَتُهَا أَنْ يَعِيشَ الْمَرْءُ فِيهَا مُعْتَقِدًا أَنْ لَا سَعَادَةَ لَهُ فِيهَا لَيْسْتَ طَيِّعٌ أَنْ يَقْضِيَ أَيَّامَهُ الْمَقْدَرَةَ لَهُ عَلَى ظَهْرِهَا هَادِي الْقَلْبِ سَاكِنِ النَّفْسِ لَا يُكَدِّرُ عَلَيْهِ عَيْشَهُ أَمَلٌ كَاذِبٌ

وَلَا رَجَاءٌ خَائِبٌ قَالَ :

إِنَّ السَّعَادَةَ حَاطَرَةٌ بَيْنَ أَيْدِينَا وَلَيْسَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهَا إِنَّ أَرَدْنَاهَا إِلَّا أَنْ نَطْوِي هَذِهِ الْمَرَحَلَةَ الْبَاقِيَةَ مِنْ هَذَا الْقَفْرِ فَنَلْجَأَ إِلَى أَوَّلِ بَيْتٍ نَلْقَاهُ فِي طَرِيقِنَا مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ فَنَجْتُو أَمَامَ مَذْبَحِهِ سَاعَةً نُخْرِجُ مِنْ بَعْدِهَا زَوْجَيْنِ سَعِيدَيْنِ لَا يَحُولُ

بَيْنَنَا حَائِلٌ وَلَا يُكَدِّرُ صُفُوفَنَا مُكَدَّرٌ فَأَطْرَقَتْ هُنَيْهَةٌ ثُمَّ رَفَعَتْ رَأْسَهَا فَإِذَا دَمْعَةٌ صَافِيَةٌ تَتَحَدَّرُ عَلَى خَدِّهَا فَقَالَ مَا بُكَائُكَ يَا سَيِّدَتِي فَقَالَتْ أَتَذَكَّرُ لَيْلَةَ النِّجَاةِ إِذْ دَعَوْتَنِي إِلَى الْفِرَارِ مَعَكَ فَقُلْتَ لَكَ إِنِّي أَخَافُ أَنْ فَرَرْتُ مَعَكَ أَنْ أُحْيِكَ؟ قَالَ نَعَمْ

قَالَتْ وَأَسْفَاهُ لَقَدْ وَقَعَ الْيَوْمَ مَا كُنْتُ مِنْهُ أَخَافُ ثُمَّ صَرَخَتْ صَرْخَةً عَالِيَةً وَقَالَتْ مَاذَا يَا أُمَّاهُ وَسَقَطَتْ مَكْبَةً عَلَى وَجْهِهَا فَدَنَا مِنْهَا وَأَمْسَكَ بِيَدِهَا فَإِذَا رَعْدَةٌ شَدِيدَةٌ تَتَمَشَّى فِي أَعْضَائِهَا فَعَلِمَ أَنَّهَا الْبَرْدَاءُ وَعَمَدَ إِلَى بَعْضِ الْأَشْجَارِ فَاقْتَطَعَ مِنْهَا بَضْعَةً أَعْوَادَ وَمَشَى يُفْتِّشُ عَنِ النَّاسِ فِي كُوخٍ كَانَ يَتَرَاءَى لَهُ عَلَى الْبُعْدِ حَتَّى

بَلَغَهُ فَوَجَدَ عَلَى بَابِهِ كَاهِنًا شَيْخًا جَلِيلَ الْمَنْظَرِ فَدَنَا مِنْهُ وَحَيَّاهُ تَحِيَّةً حَيًّا بِأَحْسَنِ مِنْهَا وَقَالَ لَهُ مَا شَأْنُكَ يَا بَنِي؟ قَالَ إِنَّ بِجَانِبِ ذَلِكَ النَّهْرِ فَتَاةً مِسْكِينَةً تَرَكَتْهَا وَرَأَيْتُ تَشْكُو الْبَرْدَ فَهَلْ أَجِدُ عِنْدَكَ جَذْوَةَ نَارٍ أَعُودُ بِهَا إِلَيْهَا لِتَصْطَلِيَ بِهَا؟ فَمَكَنَهُ مِنْ طَلَبَتِهِ وَتُقَالَ لَهُ كُتِبَ اللَّهُ وَلِعَلِّيلَتِكَ السَّلَامَةُ يَا بَنِي فَازْهَبْ فَإِنِّي عَلَى أَثَرِكَ فَعَدَا الْفَتَى عَدْوًا شَدِيدًا حَتَّى بَلَغَ النَّهْرَ فَأَذْهَشَهُ أَنْ رَأَى الْفَتَاةَ هَادِيَةً سَاكِنةً طَيِّبَةَ النَّفْسِ لَا يَشْكُو بَرْدًا وَلَا أَلَمًا فَأَقْبَلَ عَلَيْهَا مُتَهَلِّلًا وَقَالَ لَهَا لَعَلَّ مَا كَانَ يُخَالِطُ نَفْسَكَ مِنَ الْأَلَمِ لَذِكْرُ أَهْلِكَ وَوَطْنِكَ قَدْ ذَهَبَ بِذَهَابِ الْأَيَّامِ قَالَتْ مَا كَانَ يُخَالِطُ نَفْسِي مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ فَاجْلِسْ أَحَدْتُكَ حَدِيثِي فَقَدْ آتَى أَنْ أَفْضِي بِهِ

إِلَيْكَ فَجَلَسَ بِجَانِبِهَا فَأَنْشَأَتْ تُحَدِّثُهُ وَتَقُولُ :

أَنَا فَتَاةٌ غَرِيبَةٌ مِثْلَكَ عَنْ هَذِهِ الدِّيَارِ لَا أَعْرِفُ مِنْ سَاكِنِيهَا غَيْرَ نَفْسِي وَلَا مَنْ أَرْضَاهَا غَيْرَ قَبْرِ قَدْ زَالَ الْيَوْمَ رَسْمُهُ بَلِيٍّ مَعَ الْأَيَّامِ دَفِينُهُ فَقَدْ وَلَدْتَنِي أُمِّي عَلَى

فِرَاشَ رَجُلٍ أَبْيَضَ وَقَدْ مِنْ دِيَارِكُمْ مُنْذُ عَشْرِينَ عَامًا فَالْتَقَى بِهَا عِنْدَ مُرُورِ
بَحْيِهَا

فَأَحْبَبَهَا وَأَحْبَبَتْهُ ثُمَّ فَرَّتْ مَعَهُ إِلَى مَا وَرَاءَ هَذِهِ الصَّحَرَاءِ فَدَانَتْ بِدِينِهِ ثُمَّ تَزَوَّجَهَا
فَوَالِدَانِي وَعَشْنَا جَمِيعًا حَقَبَةً مِنَ الدَّهْرِ عَيْشَ السُّعْدَاءِ اللَّامِنِينَ وَكَانَ رَجُلًا
قَبِيلَةَ أُمِّي لَا يَزَالُونَ يَتَطَلَّبُونَ السَّبِيلَ إِلَيْنَا حَتَّى سَقَطُوا عَلَيْنَا سُقُوطَ الْقَضَاءِ
فِي جُنْحِ لَيْلَةٍ مِنْ لَيَالِي الظُّلَامِ فَاقْتَادُونَا جَمِيعًا إِلَى أَرْضِهِمْ وَكُنْتُ إِذْ ذَاكَ لَمْ
أَسْلُخِ الْعَاشِرَةَ مِنْ عَمْرِى فَقَتَلُوا أَبِي وَأُمِّي وَأَمَامَ أُمِّي قَتَلَهُ لَا يَزَالُ مَنْظَرُهَا
حَاضِرًا بَيْنَ يَدَيَّ حَتَّى السَّاعَةِ لَا يُفَارِقُنِي فَحَزِنْتُ أُمِّي عَلَيْهِ حُزْنًا شَدِيدًا مَا زَالَ
يَذْنُو بِهَا مِنَ الْقَبْرِ شَيْئًا فَشَيْئًا حَتَّى جَاءَتْ سَاعَتُهَا فَحَضَرَ مَوْتَهَا يَذْنُو بِهَا مِنَ
الْقَبْرِ شَيْئًا فَشَيْئًا حَتَّى جَاءَتْ سَاعَتُهَا فَحَضَرَ مَوْتَهَا رَسُولٌ مِنْ رُسُلِ الْمَسِيحِ
كَانَ لَا

يَزَالُ يَخْتَلِفُ إِلَيْهَا مِنْ حِينٍ إِلَى حِينٍ فَدَعَتْنِي إِلَيْهَا أَمَامَهُ وَقَالَتْ لِي يَا بَنِيَّةُ إِنَّ
أُمِّي قَدْ وَلَدَتْنِي لِلشَّقَاءِ فِي هَذَا الْعَالَمِ وَأَحْسَبُ أَنِّي قَدْ وَلَدْتُكَ لَهُ كَذَلِكَ فَحَسَبْنَا
ذَلِكَ وَلَا تَكُونِي سَبَبًا فِي شِقَاءِ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِكَ وَانْذِرِي نَفْسَكَ لِلْعَذْرَاءِ نُذْرًا لَا
يُحِلُّهُ إِلَّا الْمَوْتُ فَأَذْعَنْتُ لِأَمْرِهَا وَأَشْهَدْتُ الْكَاهِنَ عَلَى نَذْرِي فَنَلَّأَ وَجْهَهَا بَشْرًا
وَسُرُورًا ثُمَّ نَظَرْتُ نَظْرَةً فِي السَّمَاءِ وَقَالَتْ هَا انْذَا عَلَى أَثَرِكَ يَا رَافَائِيلَ ثُمَّ
فَاضَتْ رُوحَهَا .

فَاضْطَرَبَ الْفَتَى عِنْدَ سَمَاعِ هَذَا الْإِسْمِ وَقَالَ لَهَا عَهْلَ تَعْرِيفِينَ وَطَنَ أَبِيكَ
وَأُسْرَتَهُ

قَالَتْ نَعَمْ وَسِمَتُهَا لَهُ فَاسْتَطِيرَ فَرَحًا وَسُرُورًا وَقَالَ أَحْمَدُكَ اللَّهُمَّ فَقَدْ وَجَدْتُ
ضَالَّتِي

فَعَجِبْتُ لِأَمْرِهِ وَقَالَتْ وَأَيُّ ضَالَّةٍ تُرِيدُ قَالَ أَتَذْكُرِينَ لَيْلَةَ اللَّقَاءِ إِذَا امْتَرَجْتَ
 دَمْعَتَانَا مَعًا فَقُلْتُ لَكَ إِنَّهَا صِلَةٌ بَيْنِي وَبَيْنَكَ لَا يَقْطَعُهَا إِلَّا الْمَوْتُ قَالَتْ نَعَمْ
 قَالَ قَدْ كُنْتُ أُمْتُ إِلَيْكَ قَبْلَ الْيَوْمِ بِحُرْمَةِ الْحُبِّ وَحَدَّهَا فَأَصْبَحْتُ أُمْتُ إِلَيْكَ
 بِحُرْمَةِ

الْحُبِّ وَالْقُرْبَى فَأَنْتِ الْيَوْمَ حَبِيبِي وَابْنَةُ خَالِي مَعًا فَقَالَتْ بِصَوْتٍ خَافَتْ أَحْمَدَ
 اللَّهَ

فَقَدْ وَجَدْتُ لِي فِي هَذِهِ السَّاعَةِ الْعَصِيْبَةَ أَخَا وَأَخَذَ جِسْمَهَا يَضْطَرِبُ اضْطِرَابًا
 شَدِيدًا

وَوَجْهَهَا يَرِبْدُ شَيْئًا فَشَيْئًا فَذُعِرَ الْفَتَى وَارْتَاعَ وَحَنَّا عَلَيْهَا وَقَالَ مَاذَا أَرَى
 قَالَتْ لَا تُرْعَ فَاصْغِ إِلَى فَاِنْ لِحَدِيثِي بَقِيَّةٌ لَمْ تَسْمَعْهَا إِنَّنِي مُنْذُ حَفَّظْتُ وَصِيَّةَ
 أُمِّي

وَوَهَبْتُ الْعَذْرَاءَ نَفْسِي كَانَ لَأُبَدَّ لِي أَنْ أَتَّخِذَ لِي مَلَجًا أَفْزَعَ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ الَّذِي
 أَخَافُ أَنْ يَغْلِبَنِي فِيهِ هَوَايَ عَلَى دِينِي فَكُنْتُ لَا أَزَالُ أَحْمِلُ تِلْكَ الْقَارُورَةَ مَعِي
 حَتَّى جَاءَ الْيَوْمَ الَّذِي خَفْتُهُ فَلَجَّاتُ إِلَيْهَا فَفَجَوْتُ وَأَسْتَوْدَعُكَ اللَّهُ فَنَظَرَ الْفَتَى
 حَيْثُ

أَشَارَتْ فَرَأَى قَارُورَةَ مِطْرَحَةٍ وَرَاءَهَا فَتَنَّاوَلَهَا فَإِذَا هِيَ فَارِغَةٌ إِلَّا مِنْ بَقِيَّةِ
 صَفْرَاءٍ فِي قَرَارَتِهَا فَفَهُمْ كُلُّ شَيْءٍ .

هُنَالِكَ شَعَرَ كَأَنَّ شَعْبَهُ مِنْ شِعَابِ قَلْبِهِ هَوَتْ بَيْنَ أَضْلَاعِهِ وَكَأَنَّ طَائِرًا قَدْ نَفَضَ
 جَنَاحَيْهِ ثُمَّ طَارَ عَنْ رَأْسِهِ إِلَى جَوْ السَّمَاءِ فَصَعَقَ فِي مَكَانِهِ صَعَقَةً لَمْ يَشْعُرْ
 بَعْدَهَا

بِشَيْءٍ مَا حَوْلَهُ فَلَمْ يَسْتَفِيْقْ إِلَّا بَعْدَ حِينٍ فَفَتَحَ عَيْنَيْهِ فَإِذَا الْفَتَاةُ بِجَانِبِهِ جُثَّةٌ

بَارِدَةً وَإِذَا الْكَاهِنُ صَاحِبُ الْكُوخِ وَاقِفًا أَمَامَهُ يَحْمِلُ عَلَى كَفِّهِ طَعَامًا كَانَ قَدْ جَاءَ

بِهِ إِلَيْهِمَا وَيَقْلِبُ نَظْرَهُ حَائِرًا لَا يَفْهَمُ مِمَّا يَرَى شَيْئًا فَوَثَبَ الْفَتَى إِلَيْهِ حَتَّى صَارَ أَمَامَهُ وَجْهًا لَوَجْهِهِ وَنَظَرَ إِلَيْهِ نَظْرَةً شَزْرَاءَ كَتَلِكَ النَّظْرَةِ الَّتِي يُلْقِيهَا الْمَوْتُورُ عَلَى وَجْهِهِ وَاتَرَهُ وَكَأَنَّ قَدْ خَوْلَطَ فِي عَقْلِهِ فَأَخَذَ يَهْذِي وَيَقُولُ :
أَتَدْرِي أَيُّهَا الرَّجُلُ لِمَ مَاتَتْ هَذِهِ الْفَتَاةُ لِأَنَّهَا وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلْعَذْرَاءِ ثُمَّ عَرَضَ لَهَا الْحُبُّ فِي طَرِيقِهَا فَوَقَفَتْ حَائِرَةً بَيْنَ قَلْبِهَا وَدِينِهَا فَلَمْ تَجِدْ لَهَا سَبِيلًا إِلَى الْخَلَاصِ إِلَّا سَبِيلَ الْإِنْتِحَارِ فَانْتَحَرَتْ تِلْكَ جَرَائِمُكُمْ يَا رِجَالُ الْأَدْيَانِ الَّتِي تَقْتَرِفُونَهَا عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مَا كَفَاكُمْ أَنْ جَعَلْتُمْ أَمْرَ الزَّوْاجِ فِي أَيْدِيكُمْ تَحْلُونَ مِنْهُ مَا تَحْلُونَ وَتَرْبُطُونَ مَا تَرْبُطُونَ حَتَّى قَضَيْتُمْ بِتَحْرِيمِهِ قِضَاءَ مُبْرَمًا لَا يَقْبَلُ أَخْذًا وَلَا رَدًّا ؟

إِنَّ الَّذِي خَلَقَنَا وَبَثَّ أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَامِنَا هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَنَا هَذِهِ الْقُلُوبَ وَخَلَقَ لَنَا فِيهَا الْحُبَّ فَهُوَ يَأْمُرُنَا أَنْ نُحِبَّ وَأَنْ نَعِيشَ فِي هَذَا الْعَالَمِ سَعْدَاءَ هَانِئِينَ فَمَا شَأْنُكُمْ وَالْدُخُولَ بَيْنَ الْمَرْءِ وَرَبِّهِ وَالْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ؟

إِنَّ اللَّهَ بَعِيدٌ فِي عَلَيَاءِ سَمَائِهِ عَنْ أَنْ تَتَنَاولَهُ أَنْظَارُنَا وَتَتَّصِلَ بِهِ حَوَاسِنَا وَلَا سَبِيلَ لَنَا أَنْ نَرَاهُ إِلَّا فِي جَمَالِ مَصْنُوعَاتِهِ وَبَدَائِعِ آيَاتِهِ فَلَا بُدَّ لَنَا مِنْ أَنْ نَرَاهَا وَنُحِبَّهَا لِنَسْتَطِيعَ أَنْ نَرَاهُ وَنُحِبَّهُ .

إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ أَنْ نَعِيشَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ بِلَا حُبٍّ فَانْتَرَعُوا مِنْ بَيْنِ جُنُوبِنَا هَذِهِ الْقُلُوبَ الْخَفَاقَةَ ثُمَّ أَطْلُبُوا مِنَّا بَعْدَ ذَلِكَ مَا تَشَاءُونَ فَإِنَّا لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَعِيشَ بِلَا حُبٍّ مَا دَامَتْ لَنَا أَفْئِدَةٌ خَافِقَةٌ .

أَتُظَنُّونَ أَيُّهَا الْقَوْمُ أَنَّنَا مَا خُلِقْنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا إِلَّا لِنَنْتَقِلَ فِيهَا مِنْ ظُلْمَةٍ

الرَّحِمِ إِلَى ظُلْمَةِ الدَّيْرِ وَمِنْ ظُلْمَةِ الدَّيْرِ إِلَى ظُلْمَةِ الْقَبْرِ ؟
 بُسِئَتْ الْحَيَاةُ حَيَاتَنَا إِذِنْ وَبِئْسَ الْخَلْقَ خَلَقْنَا إِنَّا لَا نَمْلِكُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا
 سَعَادَةَ نَحْيَا بِهَا غَيْرَ سَعَادَةِ الْحُبِّ وَلَا نَعْرِفُ لَنَا مَلْجَأً نَلْجَأُ إِلَيْهِ مِنْ هُمُومِ
 الْعَيْشِ وَأَرْزَائِهِ سِوَاهَا فَفَتَّشُوا لَنَا عَنْ سَعَادَةِ غَيْرِهَا قَبْلَ أَنْ تَطْلُبُوا مِنَّا أَنْ
 نَنْتَازِلَ لَكُمْ عَنْهَا .

هَذِهِ الطُّيُورُ الَّتِي تُغَرِّدُ فِي أَفْنَائِهَا إِنَّمَا تُغَرِّدُ بِنِعَمَاتِ الْحُبِّ وَهَذَا النَّسِيمُ الَّذِي
 يَتَرَدَّدُ فِي أَجْوَانِهِ إِنَّمَا يَحْمِلُ فِي أَعْطَافِهِ رَسَائِلَ الْحُبِّ وَهَذِهِ الْكَوَاكِبُ فِي
 سَمَائِهَا

وَالشَّمُوسُ فِي أَفْلَاكِهَا وَالْأَزْهَارُ فِي رِيَاضِهَا وَالْأَعْشَابُ فِي مُرُوجِهَا وَالسُّوَائِمُ
 فِي

مَرَائِعِهَا وَالسُّوَارِبُ فِي أَحْجَارِهَا وَإِنَّمَا تَعِيشُ جَمِيعًا بِنِعْمَةِ الْحُبِّ فَهَتَى كَانَ
 الْحَيَوَانُ أَلَّا عَجَمَ وَالْجَمَادُ الصَّامِتُ أَيُّهَا الْقَسَاةُ الْمُسْتَبِدُّونَ أَرْفَعِ شَأْنَا مِنْ
 الْإِنْسَانِ النَّطَاقِ وَأَحْمَقِ مِنْهُ بِنِعْمَةِ الْحَيِّ وَالْحَيَاةِ ؟ ؟
 فَهَنِيئًا لَهَا جَمِيعُهَا أَنَّهَا لَا تَعْقِلُ عَنْكُمْ مَا تَقُولُونَ وَلَا تَسْمَعُ مِنْكُمْ مَا تَتَطَقُّونَ
 فَقَدْ نَجَتْ بِذَلِكَ مِنْ شَرِّ عَظِيمٍ وَشَقَاءٍ مُقِيمٍ .

إِنَّا لَا نَعْرِفُكُمْ أَيُّهَا الْقَوْمُ وَلَا نَدِينُ بِكُمْ وَلَا نَعْتَرِفُ لَكُمْ بِسُلْطَانٍ عَلَى
 أَجْسَامِنَا أَوْ أَرْوَاحِنَا وَلَا نُرِيدُ أَنْ نَرَى وَجُوهَكُمْ أَوْ نَسْمَعَ أَصْوَاتَكُمْ فَتَوَارَوْا عَنَّا
 إِذْهَبُوا وَحَدِّثُوا إِلَى مَعَابِدِكُمْ أَوْ مَغَاوِرِكُمْ فَإِنَّا لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَتَّبِعَكُمْ إِلَيْهَا وَلَا
 أَنْ نَعِيشَ مَعَكُمْ فِيهَا .

إِنَّ وَرَاءَنَا نِسَاءَ ضِعَافِ الْقُلُوبِ وَرِجَالًا ضِعَافِ الْعُقُولِ وَنَحْنُ نَخَافُكُمْ عَلَيْهِمْ
 أَنْ

يَمْتَدَّ شَرِّكُمْ إِلَيْهِمْ فَلَا بُدَّ لَنَا أَنْ نَقِفَ فِي وُجُوْهِكُمْ وَنَعْتَزِلُكُمْ لِنُذَوِّرَكُمْ عَنْهُمْ

حَتَّى لَا تَصِلُوا إِلَيْهِمْ فَتَفْسِدُوا عَلَيْهِمُ الْبَقِيَّةَ الْبَاقِيَّةَ مِنْ قُلُوبِهِمْ وَعُقُولِهِمْ .
 إِنَّا لَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَحْدَهُ وَلَا نُشْرِكُ بِهِ غَيْرَهُ وَفِي اسْتِطَاعَتِنَا أَنْ نَعْرِفَ
 الطَّرِيقَ إِلَيْهِ وَحَدَّنَا بِدُونِ دَلِيلٍ يَدُلُّنَا عَلَيْهِ فَلَا حَاجَةَ لَنَا بِكُمْ وَلَا بِسَاطَتِكُمْ .
 كِتَابَ الْكَوْنِ يُغْنِينَا عَنْ كِتَابِكُمْ وَآيَاتِ اللَّهِ تُغْنِينَا عَنْ آيَاتِكُمْ وَأَنَاشِيدِ
 الطَّبِيعَةِ وَنَعَمَاتِهَا تُغْنِينَا عَنْ أَنَاشِيدِكُمْ وَنَعَمَاتِكُمْ هَذَا الْجَمَالَ الْمُتَرَقِّقَ فِي
 سَمَاءِ الْكَوْنِ وَأَرْضِهِ وَنَاطِقِهِ وَصَامِتِهِ وَمَتَحَرِّكَةِ وَسَاكِنِهِ وَإِنَّمَا هُوَ مِرَآةُ نَفْيَةِ
 صَافِيَةِ

تَنْظُرُ فِيهَا فَنَرَى وَجْهَ اللَّهِ الْكَرِيمِ مَشْرِقًا مُتَلَالِنًا فَنَخِرُّ بَيْنَ يَدَيْهِ سَاجِدِينَ ثُمَّ
 نُصْغِي إِلَيْهِ لِنَسْتَمِعَ وَحْيَهُ فَنَسْمَعُهُ يَقُولُ لَنَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا خُلِقَ الْجَمَالُ مُتَعَةً
 لَكُمْ فَتَمَتَّعُوا بِهِ وَإِنَّمَا خَلَقْتُمْ حَيَاةَ الْجَمَالِ فَأَحْيَوْهُ .
 ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ الَّذِي نَسْمَعُهُ وَلَا نَسْمَعُ أَمْرًا سِوَاهُ .
 وَمَا وَصَلَ إِلَى حَدِيثِهِ إِلَى هَذَا الْحَدِّ حَتَّى ثَقُلَ لِسَانُهُ وَوَهْنَتْ عَزِيمَتُهُ وَارْتَعَدَتْ
 مَفَاصِلُهُ فَسَقَطَ فِي مَكَانِهِ يَزْفِرُ زَفِيرًا شَدِيدًا وَيَنْ أُنِينًا مُحْزِنًا فَاقْتَرَبَ مِنْهُ
 الشَّيْخُ وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى رَأْسِهِ وَقَالَ لَهُ :
 أَرْفُقْ بِنَفْسِكَ يَا بَنِي فَمَا أَنْتَ بِأَوَّلِ تَاكُلٍ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ وَلَا فُقَيْدِكَ بِأَوَّلِ

رَاحِلٍ

عَنْهَا وَإِنَّ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ وَرِضْوَانِهِ عِزًّا لِلصَّابِرِينَ وَجِزَاءً لِلْمُحْسِنِينَ فَأَهْوَى
 الْفَتَى

عَلَى يَدِهِ وَأَخَذَ يَقْبَلُهَا وَيُوقِلُ أَغْفِرْ لِي ذَنْبِي يَا أَبْتَ فَقَدْ كَانَتْ مِنَ الظَّالِمِينَ قَالَ

غَفَرَ اللَّهُ لَكَ يَا بَنِي فَمَا دُونَ رَحْمَةِ اللَّهِ بَابُ مُوَصَّدٍ وَلَا رِتَاجٍ , مُعْتَرِضٍ قَالَ
لِلَّهِ

يَا أَبْتُ إِنَّ هَذِهِ الْفَتَاةَ غَرِيبَةً عَنْ هَذِهِ الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهَا فِيهَا أَحَدٌ سِوَايَ وَقَدْ
مَاتَتْ مِنْ أَجْلِي وَفِي سَبِيلِي فَهَلْ تَأْذَنُ لِي أَنْ أَدْنُو مِنْهَا لِأَقْبِلَهَا قُبْلَةَ الْوَدَاعِ فِي
آخِرِ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَتِهَا عِلْدَ وَجْهِ الْأَرْضِ قَالَ إِفْعَلْ يَا بَنِي فَزَحَفْتُ عَلَى رُكْبَتِي
حَتَّى

بَلَغَ مَكَانَهَا فَضَمَّمَهَا إِلَيْهِ ضَمَّةً شَدِيدَةً وَأَهْوَى بِفَمِهِ عَلَى فَمِهَا فَقَبَّلَهَا لِأَوَّلِ مَرَّةٍ فِي
حَيَاتِهِ قُبْلَةً فَاضْتِ رُوحَهُ فِيهَا .

فِي السَّاعَةِ الَّتِي دُفِنَ فِيهَا خِذَانُ الشَّهِيدَانِ تَحْتَ تِلْكَ الشَّجَرَةِ الْمُرِقَّةِ عَلَى
شَاطِئِ

ذَلِكَ النَّهْرِ الْجَارِي مَرَّتْ بِكُؤُخِ الْعَجُوزِ امْرَأَةً مِنْ جَارَاتِهَا كَانَتْ تَعْتَادُهَا
الزِّيَارَةَ

مِنْ حِينٍ إِلَى حِينٍ فَانْظُرَتْ إِلَى مَكَانِهَا الَّذِي إِعْتَادَتْ أَنْ تَتَّخِذَهُ مِنْ حَافَةِ ذَلِكَ
الْقَبْرِ

الْمَفْتُوحِ فَرَأَتْهُ خَالِيًا فَأَشْرَقَتْ عَلَى الْحُفْرَةِ فَوَجَدَتْهَا مُتَرَدِّيةً فِيهَا مُعْفَرَةً
بِتُرَابِهَا لَا حَرَكَاتٍ بِهَا فَمَلَأَتْ بِالتُّرَابِ الَّذِي كَانَ مُجْتَمِعًا حَوْلَ الْحُفْرَةِ تِلْكَ
الْأَشْبَارِ الْخَمْسَةِ الَّتِي هِيَ مَسَافَةٌ مَا بَيْنَ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ ثُمَّ فَوْقَ تُرْبَتِهَا
دَمْعَةٌ كَانَتْ هِيَ كُلُّ نَصِيبِهَا مِنَ الدُّنْيَا .

الْحِجَاب

"مَوْضُوعَة"

ذَهَبَ فُلَانٌ إِلَى أُورُوبَا وَمَا نُنْكِرُ مِنْ أَمْرِهِ شَيْئًا فَلَبِثَ فِيهَا بِضْعَ سِنِينَ ثُمَّ عَادَ
وَمَا بَقِيَ مِمَّا كُنَّا نَعْرِفُهُ مِنْهُ شَيْءٌ .

ذَهَبَ بِوَجْهِهِ كَوَجْهِهِ الْعُذْرَاءُ لَيْلَةً عُرْسَهَا وَعَادَ بِوَجْهِهِ كَوَجْهِهِ الصَّخْرَةِ الْمَلْسَاءِ
تَحْتَ

الَّيْلَةِ الْمَاطِرَةِ وَذَهَبَ بِقَلْبِهِ نَقِيَّ طَاهِرٍ يَأْنَسُ بِالْعَفْرِ وَيَسْتَرِيحُ إِلَى الْعُذْرِ وَعَادَ
بِقَلْبِهِ مَلَفٌ مَدْخُولٌ لَا يُفَارِقُهُ السُّخْطُ عَلَى الْأَرْضِ وَسَاكِنُهَا وَالنُّقْمَةُ عَلَى السَّمَاءِ
وخالقها وَذَهَبَ بِنَفْسِهِ غَضَّةً خَاشِعَةً تَرَى كُلَّ نَفْسٍ فَوْقَهَا وَعَادَ بِنَفْسِهِ ذَهَابَهُ
نَزَاعَةً لَا

تَرَى شَيْئًا فَوْقَهَا وَلَا تُقْبِلُ نَظْرَةً وَاحِدَةً عَلَى مَا تَحْتَهَا وَذَهَبَ بِرَأْسِهِ مَمْلُوءَةً
حَكَمًا

وَرَأْيَا وَعَادَ بِرَأْسِهِ كَرَأْسِ التَّمْتَالِ الْمُتَقَبِّبِ لَا يَمْلَأُهَا إِلَّا لِهَوَاءِ الْمُتَرَدِّدِ وَذَهَبَ
وَمَا عَلَيَّ وَجْهِهِ الْأَرْضِ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ دِينِهِ وَوَطَنِهِ وَعَادَ وَمَا عَلَيَّ وَجْهِهِ أَصْغُرُ
فِي
عَيْنِهِ مِنْهُمَا .

وَكُنْتُ أَرَى أَنَّ هَذِهِ الصُّورَةَ الْغَرِيبَةَ الَّتِي يَتَرَاءَى فِيهَا هَؤُلَاءِ الضُّعَفَاءُ مِنْ

الْفَتَيَانِ الْعَائِدِينَ مِنْ تِلْكَ الدِّيَارِ إِلَى أَوْطَانِهِمْ إِنَّمَا هِيَ أَصْبَاغُ مُفْرَغَةٍ عَلَى
أَجْسَامِهِمْ إِفْرَاغًا لَا تَلْبَثُ أَنْ تَطْلُعَ عَلَيْهَا الشَّمْسُ الْمَشْرِقُ حَتَّى تَتَّصِلَ وَتَتَطَايَرَ
ذَرَائِهَا فِي أَجْوَاءِ السَّمَاءِ وَأَنَّ مَكَانَ الْمَدِينَةِ الْغَرْبِيَّةِ مِنْ نَفُوسِهِمْ مَكَانُ الْوَجْهِ
مِنْ الْمَرْأَةِ إِذَا انْحَرَفَ عَنْهَا زَالَ خَيَالُهَا مِنْهَا فَلَمْ أَشَأْ أَنْ أَفَارِقَ ذَلِكَ الصَّدِيقَ
وَلَبِسْتُهُ عَلَى عِلَاتِهِ وَفَاءَ بَعْدِهِ السَّابِقِ وَرَجَاءَ لَغْدِهِ الْمُنْتَظَرِ مُحْتَمَلًا فِي سَبِيلِ
ذَلِكَ مِنْ حُكْمِهِ وَوَسْوَاسِهِ وَفُسَادِ تَصَوُّرَاتِهِ وَغَرَابَةِ أَطْوَارِهِ مَا لَا طَاقَةَ لِمَتَلِّي
بِاحْتِمَالِ مِثْلِهِ حَتَّى جَاءَنِي ذَاتَ لَيْلَةٍ بِدَاهِيَةِ الدَّوَاهِيِ وَمُصِيبَةِ الْمَصَائِبِ فَكَانَتْ
آخِرَ عَهْدِي بِهِ .

دَخَلْتُ عَلَيْهِ فَرَأَيْتُهُ وَاجِمًا مُكْتَتِبًا فَحْيِيَّتَهُ فَأَوْمَأَ إِلَيَّ بِالتَّحِيَّةِ إِيْمَاءً فَسَأَلْتُهُ
مَا بَالَهُ فَقَالَ مَا زِلْتُ مُنْذُ اللَّيْلَةِ مِنْ هَذِهِ الْمَرْأَةِ فِي عَنَاءٍ لَا أَعْرِفُ السَّبِيلَ
إِلَى الْخَلَاصِ مِنْهُ وَلَا أَدْرِي مَصِيرَ أَمْرِي فِيهِ قُلْتُ وَأَيِّ امْرَأَةٍ تُرِيدُ ؟ قَالَ تِلْكَ
الَّتِي

يُسَمِّيَهَا النَّاسُ زَوْجَتِي وَأُسَمِّيَهَا الصَّخْرَةَ الْعَاتِيَةَ فِي طَرِيقِ مُطَالِبِي وَآمَالِي قُلْتُ
إِنَّكَ كَثِيرُ الْأَمَالِ يَا سَيِّدِي فَعَنْ أَيِّ آمَالِكَ تَحْدُثُ ؟ قَالَ لَيْسَ لِي فِي الْحَيَاةِ إِلَّا
أَمَلٌ وَاحِدٌ هُوَ أَنْ أَغْمِضَ عَيْنَ ثُمَّ أَفْتَحَهَا فَلَا أَرَى بُرْقُعًا عَلَى وَجْهِ امْرَأَةٍ فِي هَذَا
الْبَلَدِ قُلْتُ ذَلِكَ مَا لَا تَمْلِكُهُ وَلَا رَأْيَ لَكَ فِيهِ قَالَ إِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يُرُونَنِي فِي
الْحِجَابِ رَأْيِي وَيَتَمَنَّوْنَ فِي أَمْرِهِ مَا أَتَمَنِّي وَلَا يَحُولُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ نَزْعِهِ عَنِّي
وُجُوه

نِسَائِهِمْ إِبْرَازَهُنَّ إِلَى الرِّجَالِ يَجَالِسْنَهُنَّ كَمَا يَجْلِسُ بَعْضُهُنَّ إِلَى بَعْضٍ إِلَّا الْعَجَزَ
وَالضَّعْفَ وَالْهَيْبَةَ الَّتِي لَا تَزَالُ تُلِمُّ بِنَفْسِ الشَّرْقِيِّ كُلَّمَا حَاوَلَ الْإِقْدَامَ عَلَى أَمْرِ
جَدِيدٍ فَرَأَيْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ هَادِمٍ لِهَذَا الْبِنَاءِ الْعَادِيِّ الْقَدِيمِ الَّذِي وَقَفَ سَدًّا

دُونَ سَعَادَةِ الْأُمَّةِ وَارْتِقَائِهَا دَهْرًا طَوِيلًا وَأَنْ يَتِمَّ عَلَى يَدَيَّ مَا لَمْ يَتِمَّ عَلَى يَدِ
أَحَدٍ غَيْرِي مِنْ دُعَاةِ الْحُرِّيَّةِ وَأَشْيَاعِهَا فَعَرَضْتُ الْأَمْرَ عَلَى زَوْجَتِي فَأَكْبَرَتْهُ
وَأَعْظَمَتْهُ

وَخَيْلَ إِلَيْهَا أَنَّنِي جُنْتُهَا بِإِحْدَى النِّكَبَاتِ الْعِظَامِ وَالرِّزَايَا الْجِسَامِ وَزَعَمْتُ أَنَّهَا
إِنْ بَرَزَتْ إِلَى الرَّجَالِ فَإِنَّهَا لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَبْرُزَ إِلَى النِّسَاءِ بَعْدَ ذَلِكَ .
حَيَاءٌ مِنْهُنَّ وَخَجَلًا وَلَا خَجَلَ هُنَاكَ وَلَا حَيَاءَ وَلَكِنَّهُ الْمَوْتُ وَالْجُمُودُ وَالذِّلُّ الَّذِي
ضَرَبَهُ اللَّهُ عَلَى هَؤُلَاءِ النِّسَاءِ فِي هَذَا الْبَلَدِ أَنْ يَعِشْنَ فِي قُبُورٍ مُظْلِمَةٍ مِنْ
خُدُورِهِنَّ وَخَمَرِهِنَّ حَتَّى يَأْتِيَنَّ الْمَوْتُ فَيَنْقِلُنَّ مِنْ مَقْبَرَةِ الدُّنْيَا إِلَى مَقْبَرَةِ
الْآخِرَةِ

فَلَا بُدَّ لِي أَنْ أَبْلَغَ أُمْنِيَّتِي وَأَنْ أُعَالِجَ هَذَا الرَّأْسَ الْقَاسِيَّ الْمُتَحَجِّرَ عِلَاجًا
يَنْتَهِي بِإِحْدَى الْحُسْنَيْنِ إِمَّا بِكُسْرِهِ أَوْ بِشِفَائِهِ .
فَوَرَدَ عَلَى مَنْ حَدِيثُهُ مَا مَلَأَ نَفْسِي هَمًّا وَحُزْنًا وَنَظَرْتُ إِلَيْهِ نَظْرَةَ الرَّاحِمِ
الرَّائِي

وَقُلْتُ أَعَالَمَ أَنْتَ أَيُّهَا الصَّدِيقُ مَا تَقُولُ ؟
قَالَ نَعَمْ أَقُولُ الْحَقِيقَةَ الَّتِي أَعْتَقِدُهَا وَأُدِينُ نَفْسِي بِهَا وَاقِعَةً مِنْ نَفْسِكَ وَنَفُوسِ
النَّاسِ جَمِيعًا حَيْثُ وَقَعْتُ قُلْتُ هَلْ تَأْذَنُ لِي أَنْ أَقُولَ لَكَ إِنَّكَ عِشْتَ فِتْرَةً طَوِيلَةً
فِي

دِيَارِ قَوْمٍ لَا حِجَابَ بَيْنَ رِجَالِهِمْ وَنِسَائِهِمْ فَهَلْ تَذْكُرُ أَنَّ نَفْسَكَ حَدَّثَتْكَ يَوْمًا مِنْ
الْأَيَّامِ وَأَنْتَ فِيهِمْ بِالطَّمَعِ فِي شَيْءٍ مِمَّا لَا تَمْلِكُ يَمِينُكَ مِنْ أَعْرَاضِ نِسَائِهِمْ فَذِلْتَ
مَا تَطْمَعُ فِيهِ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ مَالِكُهُ ؟ قَالَ رَبُّمَا وَقَعَ لِي شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ فَمَاذَا
تُرِيدُ قُلْتُ أُرِيدُ أَنْ أَقُولَ لَكَ إِنِّي أَخَافُ عَلَى عَرَضِكَ أَنْ يُلَمَّ بِهِ مِنَ النَّاسِ مَا أَلَمَّ

بَاعْرَاضِ النَّاسِ مِنْكَ قَالَ إِنَّ الْمَرْأَةَ الشَّرِيفَةَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَعِيشَ بَيْنَ الرِّجَالِ مِنْ شَرَفِهَا وَعِفَّتِهَا فِي حِصْنٍ حَصِينٍ لَا تَمْتَدُّ إِلَيْهِ الْمَطَامِعُ فَتُدَاخِلَنِي مَا لَمْ أَمْلِكْ مَعَهُ وَقُلْتُ لَهُ تِلْكَ هِيَ الْخُدْعَةُ الَّتِي بِالْإِغْوَاءِ بِهَا الشَّيْطَانُ أَيُّهَا الضُّعْفَاءُ وَالثَّلَمَةُ الَّتِي يَغْثُرُ بِهَا فِي زَوَايَا رُءُوسِكُمْ فَيَنْحَدِرُ مِنْهَا إِلَى عُقُولِكُمْ وَمَدَارِكِكُمْ فَيُفْسِدُهَا عَلَيْكُمْ فَالشَّرَفُ كَلِمَةٌ لَا وَجُودَ لَهَا فِي قَوَامِيسِ اللُّغَةِ وَمَعَاجِمِهَا فَإِنْ أَرَدْنَا أَنْ نَفْتِشَ عَنْهَا فِي قُلُوبِ النَّاسِ وَأَفْنِدَتَهُمْ قَلَمًا نَجِدُهَا وَالنَّفْسَ الْإِنْسَانِيَّةَ كَالْغَدِيرِ الرَّكَادِ لَا يَزَالُ صَافِيًا رَاقِيًا حَتَّى يَسْقُطَ فِيهِ حَجَرٌ فَإِذَا هُوَ مُسْتَتَقِعٌ كَدِرٍ وَالْعِفَّةُ لَوْنٌ مِنَ الْأَوَانِ النَّفْسُ لَا جَوْهَرَ مِنْ جَوَاهِرِهَا وَقَلَمًا تُثَبِّتُ الْأَلْوَانَ عَلَى أَشْجَعَةِ الشَّمْسِ الْمُتَسَاقِطَةِ قَالَ أَتُنْكِرُ وَجُودَ الْعِفَّةِ بَيْنَ النَّاسِ قُلْتُ لَا أَنْكِرُهَا لِأَنِّي أَعْلَمُ أَنَّهَا مَوْجُودَةٌ بَيْنَ الْبُلْهَةِ الضُّعْفَاءِ وَالْمُتَكَلِّفِينَ وَلَكِنِّي أَنْكَرُ وَجُودَهَا عِنْدَ الرَّجُلِ الْقَادِرِ الْمُخْتَلَبِ وَالْمَرْأَةِ الْحَازِقَةِ الْمُتَرْفِّقَةِ إِذَا سَقَطَ بَيْنَهُمَا الْحِجَابُ وَخَلَا وَجْهُ كُلِّ مِنْهُمَا لِصَاحِبِهِ .

فِي أَيِّ جَوٍّ مِنْ أَجْوَاءِ هَذَا الْبَلَدِ تُرِيدُونَ أَنْ تَبْرُزَ نِسَاؤُكُمْ لِرِجَالِكُمْ ؟
أَفِي جَوِّ الْمُتَعَلِّمِينَ وَفِيهِمْ مَنْ سُئِلَ مَرَّةً لِمَ لَمْ يَتَزَوَّجْ فَأَجَابَ نِسَاءَ الْبَلَدِ جَمِيعًا نِسَائِي .

أَمْ فِي جَوِّ الطَّلَبَةِ وَفِيهِمْ مَنْ يَتَوَارَى عَنْ أَعْيُنِ خُلَّانِهِ وَأَتْرَبِهِ وَخَجَلًا أَنْ خَلَتْ مَحْفَظَتُهُ يَوْمًا مِنَ الْأَيَّامِ مَنْ صَوَّرَ عَشِيقَاتِهِ وَخَلِيلَاتِهِ أَوْ أَقْفَزَتْ مِنْ رَسَائِلِ الْحُبِّ

وَالْغَرَامِ ؟

أَمْ فِي جَوِّ الرُّعَاعِ وَالْغَوَغَاءِ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ يَدْخُلُ الْبَيْتَ خَادِمًا ذَلِيلًا وَيَخْرُجُ مِنْهُ صِهْرًا كَرِيمًا ؟

وَبَعْدَ فَمَا هَذَا الْوَلَعُ بِقِصَّةِ الْمَرْأَةِ وَالتَّمَطُّقُ بِحَدِيثِهَا وَالْقِيَامُ وَالْقُعُودُ بِأَمْرِهَا
وَأَمْرٍ حِجَابِهَا وَسُفُورِهَا وَحُرِّيَّتِهَا وَأَسْرَارِهَا كَأَنَّمَا قَدْ قُمْتُمْ بِكُلِّ وَاجِبٍ لِلْأُمَّةِ
عَلَيْكُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ تُفِيضُوا مِنْ تِلْكَ النِّعَمِ عَلَى غَيْرِكُمْ .
بِالْإِغْوَاءِ رِجَالَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُهْذِبُوا نِسَاءَكُمْ فَإِنْ عَجَزْتُمْ عَنِ الرِّجَالِ فَأَنْتُمْ عَنِ
النِّسَاءِ

أَعْجَزَ .

أَبْوَابُ الْفَخْرِ أَمَامَكُمْ كَثِيرَةٌ فَاطْرُقُوا أَيُّهَا شَيْءٌ وَدَعُوا هَذَا الْبَابَ مَوْصُودًا فَإِنَّكُمْ
إِنْ فَتَحْتُمُوهُ فَتَحْتُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ وَيَلًا عَظِيمًا وَشَقَاءَ طَوِيلًا .
أَرُونِي رَجُلًا وَاحِدًا مِنْكُمْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَزْعُمَ فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ يَمْتَلِكُ هَوَاهُ بَيْنَ يَدَيْ
امْرَأَةٍ يَرْضَاهَا فَأُصَدِّقُ أَنَّ امْرَأَةً تَسْتَطِيعُ أَنْ تَمْلِكَ هَوَاهَا بَيْنَ يَدَيْ رَجُلٍ تَرْضَاهُ

•
إِنَّكُمْ تَكْلِفُونَ الْمَرْأَةَ مَا تَعْلَمُونَ أَنَّكُمْ تَعْجِزُونَ عَنْهُ وَتَطْلُبُونَ عِنْدَهَا مَالًا
تَعْرِفُونَهُ عِنْدَ أَنْفُسِكُمْ فَأَنْتُمْ تُخَاطِرُونَ بِهَا فِي مَعْرَكَةِ الْحَيَاةِ مُخَاطَرَةً لَا تَعْلَمُونَ
بِالْإِغْوَاءِ مِنْ بَعْدِهَا أَمْ تَخْسِرُونَهَا وَمَا أَحْسَبَكُمْ إِلَّا خَاسِرِينَ .

مَا شَكَتِ الْمَرْأَةُ إِلَيْكُمْ ظُلْمًا وَلَا تَقَدَّمَتْ إِلَيْكُمْ فِي أَنْ تَحِلُّوا قَيْدَهَا وَتُطْلِقُوهَا مَنْ
اسرَّهَا فَمَا دُخُولُكُمْ بَيْنَهَا وَبَيْنَ نَفْسِهَا ؟

وَمَا تَمْضِغُكُمْ لَيْلُكُمْ وَنَهَارُكُمْ بِقِصَصِهَا وَأَحَادِيثِهَا ؟

إِنَّهَا لَا تَشْكُو إِلَّا فُضُولَكُمْ وَإِسْفَافَكُمْ وَمُضَايِقَتَكُمْ لَهَا وَوُقُوفَكُمْ فِي وَجْهِهَا وَحَيْثُمَا
سَارَتْ وَأَيْنَمَا خَلَتْ حَتَّى ضَاقَ بِهَا وَجْهَ الْفَضَاءِ فَلَمْ تَجِدْ لَهَا سَبِيلًا إِلَّا أَنْ تَسْجُنَ
نَفْسَهَا بِنَفْسِهَا فِي بَيْتِهَا فَوْقَ مَا سَجَنَهَا أَهْلُهَا مِنْ دُونِهَا بِأَبَاهَا وَأَسْلَبَتْ

أَسْتَارَهَا تَبَرُّمًا وَفِرَارًا مِنْ فُضُولِكُمْ فَوَا عَجَبًا لَكُمْ تَسْجُنُونَهَا بِأَيْدِيكُمْ ثُمَّ تَقْفُونَ

عَلَى بَابِ سِجْنِهَا تُبْكُونَهَا وَتَتَذُبُّونَ شَقَاءَهَا !
 إِنَّكُمْ لَا تَرْتُونَهَا لَهَا بَلْ تَرْتُونَهَا لِنَفْسِكُمْ وَلَا تَبْكُونَهَا عَلَيْهَا بَلْ عَلَى أَيَّامٍ
 قَضَيْتُمُوهَا فِي دِيَارِ يَسِيلٍ جَوْهَا تَبْرُجًا وَسُفُورًا وَيَتَدَفَّقُ خَلَاعَةٌ وَاسْتِهْتَارًا
 وَتَوَدُّونَ

بِجَدِّعِ الْأَنْفِ لَوْ ظَفَرْتُمْ هُنَا بِذَلِكَ الْعَيْشِ الَّذِي خَلَقْتُمُوهُ هُنَاكَ .
 لَقَدْ كُنَّا وَكَانَتْ الْعِفَّةُ فِي سِقَاءٍ مِنَ الْحِجَابِ مَوْكُوءٍ فَمَا زِلْتُمْ بِهِ تَتَقَبُّونَ فِي
 جَوَانِبِهِ كُلِّ يَوْمٍ تَقْبًا وَالْعِفَّةُ تَسْلُلُ مِنْهُ قَطْرَةٌ قَطْرَةً حَتَّى تَقْبِضَ وَتَكْرَشَ ثُمَّ لَمْ
 يُكَفِّكُمْ ذَلِكَ مِنْهُ حَتَّى جِئْتُمْ الْيَوْمَ تُرِيدُونَ أَنْ تَحِلُّوا وَكَاءَهُ حَتَّى لَا تَبْقَى فِيهِ
 قَطْرَةٌ وَاحِدَةٌ .

عَاشَتْ الْمَرْأَةُ الْمِصْرِيَّةَ حَقَبَةً مِنْ دَهْرٍ هَادِيَةٍ مُطْمَئِنَّةٍ فِي بَيْتِهَا رَاضِيَةً عَنْ
 نَفْسِهَا وَعَنْ عَيْشَتِهَا تَرَى السَّعَادَةَ كُلَّ السَّعَادَةِ فِي وَاجِبِ تَوَدِّيهِ لِنَفْسِهَا أَوْ وَقْفَةٍ
 تُقَفِّهَا بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهَا أَوْ عَطْفَةٍ تَعْطُفُهَا عَلَى وَلَدِهَا أَوْ جَلْسَةٍ تُجْلِسُهَا إِلَى جَارَتِهَا
 تَبْتَئُهَا ذَاتَ نَفْسِهَا وَتَسْتَبْتِهَا سَرِيرَةَ قَلْبِهَا وَتَرَى الشَّرَفَ كُلَّ الشَّرَفِ فِي
 خُضُوعِهَا

لِأَبِيهَا وَائْتِمَارِهَا بِأَمْرِ زَوْجِهَا وَنُزُولِهَا عِنْدَ رِضَاهُمَا وَكَانَتْ تَقْهَمُ مَعْنَى الْحُبِّ
 وَتَجْهَلُ مَعْنَى الْغَرَامِ فَتُحِبُّ زَوْجَهَا لِأَنَّهُ زَوْجُهَا كَمَا تُحِبُّ وَلَدَهَا لِأَنَّهُ وَلَدُهَا فَإِنْ
 رَأَى غَيْرَهَا مِنَ النِّسَاءِ أَنَّ الْحُبَّ أَسَاسُ الزَّوْاجِ رَأَتْ هِيَ أَنَّ الزَّوْاجَ أَسَاسُ
 الْحُبِّ

فَقُلْتُمْ لَهَا أَنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَسْتَبِدُّونَ بِأَمْرِكَ مَنْ أَهْلَكَ لَيْسُوا بِأَوْفَرٍ مِنْكَ عَقْلًا
 وَلَا أَفْضَلَ رَأْيًا وَلَا أَقْدَرَ عَلَى النَّظَرِ لَكَ مِنْ نَظَرِكَ لِنَفْسِكَ فَلَا حَقَّ لَهُمْ فِي هَذَا

السُّلْطَانُ الَّذِي يَزْعُمُونَهُ لِنَفْسِهِمْ عَلَيْكَ بِالْإِغْوَاءِ أَبَاهَا وَتَمَرَّدَتْ عَلَى زَوْجِهَا
وَأَصْبَحَ

الْبَيْتُ الَّذِي كَانَ بِالْأُمْسِ عُرْسًا مِنَ الْأَعْرَاسِ الضَّاحِكَةِ مَنَاحَةً قَائِمَةً لَا تَهْدَأُ
نَارَهَا وَلَا يَخْبُو أَوَارِهَا .

وَقُلْتُمْ لَهَا لَا بُدَّ لَكَ أَنْ تَخْتَارِي زَوْجَكَ بِنَفْسِكَ حَتَّى لَا يَخْذَعَكَ أَهْلُكَ عَنْ سَعَادَةِ
مُسْتَقْبَلِكَ فَاخْتَارَتْ لِنَفْسِهَا أَسْوَأَ مِمَّا اخْتَارَ لَهَا أَهْلُهَا فَلَمْ يَزِدْ عُمْرَ سَعَادَتِهَا
عَلَى يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ثُمَّ الشَّقَاءُ الطَّوِيلُ بَعْدَ ذَلِكَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ .

وَقُلْتُمْ لَهَا إِنَّ الْحُبَّ أَسَاسُ الزَّوْاجِ فَمَا زَالَتْ تَقْلِبُ عَيْنَهَا فِي وُجُوهِ الرِّجَالِ
مُصْعَدَةً

مُصَوَّبَةً حَتَّى شَغَلَهَا الْحُبُّ عَنْ الزَّوْاجِ فَعَنَيْتَ بِهِ عَنْهُ .

وَقُلْتُمْ لَهَا إِنَّ سَعَادَةَ الْمَرْأَةِ فِي حَيَاتِهَا أَنْ يَكُونَ زَوْجُهَا عَشِيقَهَا وَمَا كَانَتْ تَعْرِفُ
إِلَّا أَنَّ الزَّوْاجَ غَيْرُ الْعَشِيقِ فَأَصْبَحَتْ تَطْلُبُ فِي كُلِّ يَوْمٍ زَوْجًا جَدِيدًا يَحْيِي مِنْ
لَوْعَةٍ

الْحُبِّ مَا أَمَاتَ الزَّوْجَ الْقَدِيمَ فَلَا قَدِيمًا اسْتَبَقَتْ وَلَا جَدِيدًا أَفَادَتْ .

وَقُلْتُمْ لَهَا لَا بُدَّ أَنْ تَتَعَلَّمِي لِتُحْسِنِي تَرْبِيَةً وَلَدَكَ وَالْقِيَامَ عَلَى شُؤْنِ بَيْتِكَ
فَتَعَلَّمَتْ كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا تَرْبِيَةَ وَلَدِهَا وَالْقِيَامَ عَلَى شُؤْنِ بَيْتِهَا .

وَقُلْتُمْ لَهَا نَحْنُ لَا نَنْزَوِّجُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مِنْ نَحِبِّهَا وَنَرِضَاهَا وَيُرِئُ ذَوْقَهَا
ذَوْقَنَا وَشَعُورُنَا شَعُورَنَا فَرَأَتْ أَنْ لَا بُدَّ لَهَا أَنْ تَعْرِفَ مَوَاقِعَ بِالْإِغْوَاءِ وَمَبَاهِجِ
أَنْظَارِكُمْ لِتَتَجَمَّلَ لَكُمْ بِمَا تُحِبُّونَ فَرَاغَتْ فِهْرِسَ حَيَاتِكُمْ صَفْحَةً صَفْحَةً فَلَمْ تُرَ

فِيهِ

غَيْرَ أَسْمَاءَ بِالْإِغْوَاءِ الْمُسْتَهْتَرَاتِ وَالضَّاحِكَاتِ اللَّاعِبَاتِ وَالْإِعْجَابِ بِهِنَّ وَالنَّثَاءِ

عَلَى ذَكَائِهِنَّ وَفِطْنَتِهِنَّ فَتَخَلَعَتْ وَاسْتَهْتَرَتْ لِتَبْلُغَ رِضَاكُمْ وَتَنْزِلَ عِنْدَ مَحَبَّتِكُمْ ثُمَّ
مَشَتْ

إِلَيْكُمْ بِهَذَا التَّوْبِ الرَّقِيقِ الشَّافِّ تَعْرِضُ نَفْسَهَا عَلَيْكُمْ عَرْضًا كَمَا تَعْرِضُ الْأُمَّةُ
نَفْسَهَا فِي سُوقِ الرَّقِيقِ فَأَعْرَضْتُمْ عَنْهَا وَنَبِوتُمْ بِهَا وَقُلْتُمْ لَهَا إِنَّا لَا نَتَزَوَّجُ
النِّسَاءَ الْعَاهِرَاتِ كَأَنَّكُمْ لَا تَبَالُونَ أَنْ يَكُونَ نِسَاءُ الْأُمَّةِ جَمِيعًا سَاقِطَاتٍ إِذَا
سَلَّمَتْ لَكُمْ نِسَاؤُكُمْ فَرَجَعَتْ أَدْرَاجَهَا خَائِبَةً مُنْكَسِرَةً وَقَدْ أَبَاهَا الْخَلِيعُ وَتَرَفُّعُ
عَنْهَا

الْمُحْتَشِمِ فَلَمْ تَجِدْ بَيْنَ يَدَيْهَا غَيْرَ بَابِ السُّقُوطِ فَسَقَطَتْ .
وَكَذَلِكَ انْتَشَرَتْ الرِّيَّةُ فِي نَفُوسِ الْأُمَّةِ جَمِيعًا وَتَمَشَّتِ الظُّنُونُ بَيْنَ رِجَالِهَا
وَنِسَائِهَا فَتَعَاجَزَ الْفَرِيقَانِ وَأَظْلَمَ الْفَضَاءُ بَيْنَهُمَا وَأَصْبَحَتْ الْبُيُوتُ كَالْأَدِيرَةِ لَا
يَرَى فِيهَا الرِّدَائِي إِلَّا رِجَالًا مَتْرَهَبِينَ وَنِسَاءً عَانِسَاتٍ .

ذَلِكَ بُكَاءُكُمْ عَلَى الْمَرْأَةِ أَيُّهَا الرَّاحِمُونَ وَهَذَا رِثَاءُكُمْ لَهَا وَعَظْفُكُمْ عَلَيْهَا !
نَحْنُ نَعْلَمُ كَمَا تَعْلَمُونَ أَنَّ الْمَرْأَةَ فِي حَاجَةٍ إِلَى الْعِلْمِ فَلْيُهْذِبْهَا أَبُوهَا أَوْ
أَخُوهَا فَالْتَهْذِيبُ أَنْفَعُ لَهَا مِنَ الْعِلْمِ وَإِلَى اخْتِيَارِ الزَّوْجِ الْعَادِلِ الرَّحِيمِ
فَلْيُحْسِنْ الْآبَاءُ اخْتِيَارَ الزَّوْجِ لِبَنَاتِهِمْ وَلِيَجْمُلِ الزَّوْجُ عِشْرَةَ نِسَائِهِمْ وَإِلَى
النُّورِ وَالْهَوَاءِ تَبَرُّزُ إِلَيْهِمَا وَتَتَمَتَّعَ فِيهِمَا بِنِعْمَةِ الْحَيَاةِ فَلْيَأْذِنْ لَهَا
أَوْلِيَائُهَا بِذَلِكَ وَلْيُرَافِقْهَا رَفِيقٌ مِنْهُمْ فِي غَدَوَاتِهَا وَرَوَّاحَاتِهَا كَمَا يُرَافِقُ الشَّاةُ
رَاعِيَهَا خَوْفًا عَلَيْهَا مِنَ الذَّنَابِ فَإِنْ عَجَزْنَا عَنْ أَنْ نَأْخُذَ الْآبَاءَ وَالْأَخُوَّةَ
وَالزَّوْجَ بِذَلِكَ فَلْنَنْفُضْ أَيْدِينَا مِنَ الْأُمَّةِ جَمِيعَهَا عَلَى إِصْلَاحِهَا .

أَعْجَبَ مَا جُبَّ لَهُ فِي شُؤُونِكُمْ أَنَّكُمْ تَعْلَمْتُمْ كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا شَيْئًا وَاحِدًا هُوَ أَدْنَى إِلَيَّ
بِالْإِغْوَاءِ أَنْ تَعْلَمُوهُ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ أَنْ لِكُلِّ تَرْبَةٍ نَبَاتًا يُنْبِتُ فِيهَا وَلِكُلِّ

نَبَاتَ زَمَنًا يَنْمُو فِيهِ !

رَأَيْتُمُ الْعُلَمَاءَ فِي أُرُوبًا يَشْتَغِلُونَ بِكَمَالِيَّاتِ الْعُلُومِ بَيْنَ أَهَمِّ قَدْ فَرَّغَتْ مِنْ
ضُرُورِيَّاتِهِمْ فَاشْتَغَلْتُمْ بِهَا مِثْلَهُمْ فِي أُمَّةٍ لَا يَزَالُ سَوَادُهَا الْأَعْظَمُ فِي حَاجَةٍ إِلَى
مَعْرِفَةِ حُرُوفِ الْهَجَاءِ .

وَرَأَيْتُمُ الْفَلَسَافَةَ فِيهَا يَنْشُرُونَ فَلَسَفَةَ الْكُفْرِ بَيْنَ شُعُوبٍ مُلْحَدَةٍ لَهَا مِنْ عُقُولِهَا
وَأَدَابِهَا مَا يُغْنِيهَا بَعْضُ الْغِنَاءِ عَنْ إِيْمَانِهَا فَاشْتَغَلْتُمْ بِنَشْرِهَا بَيْنَ أُمَّةٍ ضَعِيفَةٍ
سَادَجَةٍ لَا يُغْنِيهَا عَنْ إِيْمَانِهَا شَيْءٌ إِنْ كَانَ هُنَاكَ مَا يَعْنِي عَنْهُ .

وَرَأَيْتُمُ الرَّجُلَ الْأُورُوبِيَّ حُرًّا مُطْلَقًا يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَيَعِيشُ كَمَا يُرِيدُ لِأَنَّهُ
يَسْتَطِيعُ أَنْ يَمْلِكَ نَفْسَهُ وَخُطُواتِهِ فِي السَّاعَةِ الَّتِي يَعْلَمُ فِيهَا أَنَّهُ قَدْ وَصَلَ إِلَى
حُدُودِ الَّتِي رَسَمَهَا لِنَفْسِهِ فَلَا يَتَخَطَّأُهَا فَأَرَدْتُمْ أَنْ تَمْحُوا هَذِهِ الْحُرِّيَّةَ نَفْسَهَا
رَجُلًا ضَعِيفَ الْإِرَادَةِ وَالْعَزِيمَةِ يَعِيشُ مِنْ حَيَاتِهِ الْأَدْبِيَّةِ فِي رَأْسِ مُنَحْدَرٍ زَلَقٍ
إِنْ

زَلَّتْ بِهِ قَدَمُهُ مَرَّةً تَدْهُورُ مِنْ حَيْثُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمْسِكَ حَتَّى يَبْلُغَ الْهُوَّةَ
وَيَتَرَدَّى

فِي قَرَارَتِهَا .

وَرَأَيْتُمُ الزَّوْجَ الْأُورُوبِيَّ الَّذِي أَطْفَأَتِ الْبَيْئَةُ غَيْرَتَهُ وَأَزَالَتْ خُسُونَةَ نَفْسِهِ
وَحَرَشَتِهَا

يَسْتَطِيعُ أَنْ يَرَى زَوْجَتَهُ تَحَاضِرَ مَنْ يَشَاءُ وَتُصَاحِبَ مَنْ تَشَاءُ وَتَخْلُو بِمَنْ
تَشَاءُ فَيَقِفُ

أَمَامَ ذَلِكَ الْمَشْهَدِ مَوْقِفَ الْجَامِدِ الْمُتَبَدِّلِ فَأَرَدْتُمْ الرَّجُلَ الشَّرْقِيَّ الْغَيُورَ الْمُنْتَهِي
أَنْ يَقِفَ مَوْقِفَهُ وَيَسْتَمْسِكَ إِسْتِمْسَاكَهُ .

وَرَأَيْتُمُ الْمَرْأَةَ الْأُورُبِّيَّةَ وَالْجَرِيَّةَ الْمُتَقْتِيَةَ فِي كَثِيرٍ مِنْ مَوَاقِفِهَا مَعَ الرِّجَالِ
تَحْتَفِظُ بِنَفْسِهَا وَكَرَامَتِهَا فَأَرَدْتُمْ مِنَ الْمَرْأَةِ الْمِصْرِيَّةِ الضَّعِيفَةِ السَّادِجَةِ أَنْ تَبْرُزَ
لِلرِّجَالِ بُرُوزَهَا وَتَحْتَفِظُ بِنَفْسِهَا احْتِفَاطَهَا .

وَكُلُّ الْبَنَاتِ يَزْرَعُ فِي أَرْضٍ غَيْرِ أَرْضِهِ أَوْ فِي سَاعَةٍ غَيْرِ سَاعَتِهِ إِمَّا أَنْ تَأْبَاهُ
الْأَرْضُ بِالْإِغْوَاءِ وَإِمَّا أَنْ يُنْشِبَ فِيهَا فَيُفْسِدَهَا .

إِنَّا نَضْرَعُ إِلَيْكُمْ بِاسْمِ الشَّرَفِ الْوَطْنِيِّ وَالْحُرْمَةِ الدِّينِيَّةِ أَنْ تَتْرَكُوا تِلْكَ الْبَقِيَّةَ
الْبَاقِيَةَ مِنْ نِسَاءِ الْأُمَّةِ مُطْمَئِنَاتٍ فِي بُيُوتِهِنَّ وَلَا تَرَعِجُوهُنَّ بِأَحْلَامِكُمْ وَأَمَالِكُمْ
كَمَا أَرَعَجْتُمْ مَنْ قَبْلَهُنَّ فَكُلَّ جُرْحٍ مِنْ جُرُوحِ الْأُمَّةِ لَهُ دَوَاءٌ إِلَّا جُرْحَ الشَّرَفِ
فَإِنْ

أَبَيْتُمْ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا فَانْتَظِرُوا بِأَنْفُسِكُمْ قَلِيلًا رَيْثَمَا تَنْتَرِعَ الْأَيَّامُ مِنْ
صُدُورِكُمْ هَذِهِ الْغَيْرَةِ الَّتِي وَرِثْتُمُوهَا عَنْ آبَائِكُمْ وَأَجْدَادِكُمْ لِتَسْتَطِيعُوا أَنْ
تَعِيشُوا

فَغِيَّ حَيَاتِكُمْ الْجَدِيدَةَ سَعْدَاءَ آمِنِينَ .

فَمَا زَادَ الْفَتَى عَلَى أَنْ ابْتَسَمَ فِي وَجْهِهِ ابْتِسَامَةَ الْهَزءِ وَالسُّخْرِيَةِ وَقَالَ تِلْكَ
حَمَاقَاتُ مَا جِئْنَا إِلَّا لِمُعَالَجَتِهَا فَلْنَصْطَبِرْ عَلَيْهَا حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهَا
فَقُلْتُ لَهُ لَكَ أَمْرٌ فِي نَفْسِكَ وَفِي أَهْلِكَ فَاصْنَعْ بِهِمَا مَا تَشَاءُ وَأَذِنَ لِي أَنْ أَقُولَ
لَكَ إِنِّي لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَخْتَلِفَ إِلَى بَيْتِكَ بَعْدَ الْيَوْمِ إِبْقَاءَ عَلَيْكَ وَعَلَى مَنْفَسِي
لِأَنِّي أَعْلَمُ أَنَّ السَّاعَةَ الَّتِي يَنْفَرُجُ لِي فِيهَا جَانِبُ سِتْرٍ مِنْ أَسْتَارِ بَيْتِكَ عَنْ وَجْهِ
امْرَأَةٍ مِنْ أَهْلِكَ تَقْتُلُنِي جِئَاءَ وَخَجَلًا ثُمَّ أَنْصَرَفْتُ وَكَانَ هَذَا فِرَاقَ مَا بَيْنِي وَبَيْنِهِ .

وَمَا هِيَ إِلَّا أَيَّامٌ قَلَائِلٌ حَتَّى سَمِعْتُ النَّاسَ يَتَحَدَّثُونَ أَنَّ فَلَانًا هَتَكَ السِّتْرَ فِي

مَنْزِلُهُ بَيْنَ نِسَائِهِ وَرَجَالِهِ وَأَنَّ بَيْتَهُ أَصْبَحَ مَغْشِيًّا تَزَالُ النَّعَالُ خَافِقَةً بِبَابِهِ
فَذَرَفْتُ عَيْنِي دَمْعَةً لَمْ أَعْلَمْ هَلْ هِيَ دَمْعَةُ الْغَيْرَةِ عَلَى الْعَرَضِ الْمَذَالِ أَوْ الْحُزْنِ
عَلَى الصَّدِيقِ الْمَفْقُودِ ؟

مَرَّتْ عَلَى تِلْكَ الْحَادِثَةِ ثَلَاثَةَ أَعْوَامٍ لَمْ أَزُورْهُ فِيهَا وَلَمْ يَزُورْنِي وَلَمْ أَلْقَاهُ فِي
طَرِيقِهِ إِلَّا قَلِيلًا فَأُحْيِيهِ تَحِيَّةَ الْغَرِيبِ لِلْغَرِيبِ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَجْرِي لِمَا كَانَ بَيْنَنَا
ذِكْرٌ ثُمَّ أَنْطَلِقُ فِي سَبِيلِي .

فَإِنِّي لِعَائِدٍ إِلَى مَنْزِلِي لَيْلَةَ أَمْسٍ وَقَدْ مَضَى الشَّرْطُ الْأَوَّلُ مِنَ اللَّيْلِ إِذْ رَأَيْتُهُ
خَارِجًا مِنْ مَنْزِلِهِ يَمْشِي مَشْيَةَ الذَّاهِلِ الْحَائِرِ وَبِجَانِبِهِ جُنْدِيٌّ مِنْ جُنُودِ الشَّرْطَةِ
كَأَنَّمَا هُوَ يَحْرُسُهُ أَوْ يَقْتَادُهُ فَأَهْمَنِي أَمْرُهُ وَدَنُوتُ مِنْهُ فَسَأَلْتُهُ عَنْ شَأْنِهِ فَقَالَ لَمْ
أَعْلَمْ لِي بِشَيْءٍ سِوَى أَنْ هَذَا الْجُنْدِيُّ قَدْ طَرَقَ السَّاعَةَ بِأَبِي يَدْعُونِي إِلَى مَخْفَرِ
الشَّرْطَةِ وَلَمْ أَعْلَمْ لِمِثْلِ هَذِهِ الدَّعْوَةِ فِي مِثْلِ هَذِهِ السَّاعَةِ سَبَبًا وَمَا أَنَا بِالرَّجُلِ
الْمُذْنِبِ وَلَمْ أَلْمُزْ بِشَيْءٍ فَهَلَّا اسْتَطِيعَ أَنْ أَرْجُوكَ يَا صَدِيقِي بَعْدَ الَّذِي كَانَ بَيْنِي
وَبَيْنَكَ أَنْ تَصْحَبَنِي اللَّيْلَةَ فِي وَجْهِ هَذَا عَلَنِي إِحْتِجَاجٌ إِلَى بَعْضِ الْمَعُونَةِ فِيمَا
قَدْ

يَعْرِضُ لِي هُنَاكَ مِنَ الشُّؤْنِ قُلْتُ لَمْ أُحِبَّ إِلَيَّ مِنْ ذَلِكَ وَمَشَيْتُ مَعَهُ صَامِتًا لَمْ
أُحَدِّثْهُ

وَلَمْ يَقُولْ لِي شَيْئًا ثُمَّ شَعَرْتُ كَأَنَّهُ يُزَوِّرُ فِي نَفْسِهِ كَلَامًا يُرِيدُ أَنْ يُفْضِي بِهِ إِلَيَّ
فَيَمْنَعُهُ الْخَجَلُ وَالْحَيَاءُ فَفَاتَحْتُهُ الْحَدِيثَ وَقُلْتُ لَهُ أَلَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَتَذَكَّرَ لِهَذِهِ
الدَّعْوَةِ سَبَبًا فَنَظَرَ إِلَى نَظْرَةِ حَائِرَةٍ وَقَالَ إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُهُ أَنْ يَكُونَ قَدْ حَدَّثَ
لِزَوْجَتِي اللَّيْلَةَ حَدِيثَ فَقَدْ رَأَيْتُ مِنْ أَمْرٍ أَنَّهُ لَمْ تَعُدْ إِلَى الْمَنْزِلِ حَتَّى
السَّاعَةِ وَمَا كَانَ ذَلِكَ شَأْنَهَا مِنْ قَبْلِ قُلْتُ أَمَا كَانَ يَصْحَبُهَا أَحَدٌ ؟ قَالَ لَمْ أَقُلْتُ

أَلَا تَعْلَمُ الْمَكَانَ الَّذِي ذَهَبْتُ إِلَيْهِ قَالَ لَا قُلْتُ وَمِمَّ تَخَافُ عَلَيْهَا ؟ قَالَ لَا أَخَافُ شَيْئًا سِوَى أَنِّي أَعْلَمُ أَنَّهَا امْرَأَةٌ غَيُورٌ حَمَقَاءُ فَلَعَلَّ بَعْضَ النَّاسِ حَاوَلَ الْعَبَثَ بِهَا فِي طَرِيقِهَا فَشَرَسْتُ عَلَيْهِ فَوَقَعْتُ بَيْنَهُمَا وَاقِعَةً أَنْتَهِيَ أَمْرَهَا إِلَى مَخْفَرِ الشَّرْطَةِ وَكُنَّا قَدْ وَصَلْنَا إِلَى الْمَخْفَرِ فَاقْتَادَنَا الْجُنْدِيُّ إِلَى قَاعَةِ الْمَأْمُورِ فَوَقَفْنَا وَكُنَّا قَدْ وَصَلْنَا إِلَى الْمَخْفَرِ فَاقْتَادَنَا الْجُنْدِيُّ إِلَى قَاعَةِ الْمَأْمُورِ فَوَقَفْنَا بَيْنَ يَدَيْهِ فَأَشَارَ إِلَى جُنْدِيٍّ أَمَامَهُ إِشَارَةً لَمْ نَفْهَمْهَا ثُمَّ اسْتَدْنِي الْفَتَى إِلَيْهِ وَقَالَ لِي يَسُوءُنِي أَنْ أَقُولَ لَكَ سَيِّدِي إِنَّ رِجَالَ الشَّرْطَةِ قَدْ عَثُرُوا اللَّيْلَةَ فِي مَكَانٍ مِنْ أَمْكِنَةِ الرِّيَّةِ رَجُلٌ وَامْرَأَةٌ فِي مَجَالٍ غَيْرِ صَالِحَةٍ فَاقْتَادُوهُمَا إِلَى الْمَخْفَرِ فَزَعَمْتُ

الْمَرْأَةَ أَنَّ لَهَا بِكَ صِلَةً فَدَعَوْنَاكَ لِنَكْشِفَ لَنَا الْحَقِيقَةَ فِي أَمْرِهَا فَإِنْ كَانَتْ صَادِقَةً اذْنَا لَهَا بِالْإِنْصِرَافِ مَعَكَ إِكْرَامًا لَكَ وَإِبْقَاءَ عَلَى شَرَفِكَ وَإِلَّا فَهِيَ امْرَأَةٌ عَاهِرَةٌ لَا نَجَاةَ لَهَا مِنْ عِقَابِ الْفَاجِرَاتِ وَهَا هُمَا وَرَاءَكَ فَانْظُرْهُمَا وَكَانَ الْجُنْدِيُّ قَدْ جَاءَ

بِهِمَا مِنْ غُرْفَةٍ أُخْرَى فَالْتَفَتَ وَرَاءَهُ فَإِذَا الْمَرْأَةُ زَوْجَتَهُ وَإِذَا الرَّجُلُ أَحَدُ أَصْدِقَائِهِ فَصَرَخَ صَرْخَةً رَجَفَتْ لَهَا جَوَانِبُ الْمَخْفَرِ وَمَلَأَتْ نَوَافِذَهُ وَأَبْوَابَهُ عِيُونًا

وَأَذَانًا ثُمَّ سَقَطَ فِي مَكَانِهِ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ فَأَشْرَتْ عَلَى الْمَأْمُورِ أَنْ يُرْسِلَ الْمَرْأَةَ إِلَى مَنْزِلِ أَبِيهَا فَفَعَلَ وَأَطْلَقَ سَبِيلًا صَاحِبِهَا ثُمَّ حَمَلْنَا الْفَتَى فِي مَرْكَبَةٍ إِلَى مَنْزِلَةٍ وَدَعَوْنَا لَهُ الطَّبِيبَ فَقَرَّرَ أَنَّهُ مُصَابٌ بِحُمٍّ دِمَاجِيَّةٍ شَدِيدَةٍ وَلُبْتُ سَاهِرًا بِجَانِبِهِ بَقِيَّةَ اللَّيْلِ يُعَالِجُهُ حَتَّى دَنَا الصُّبْحُ فَانْصَرَفَ عَلَى أَنْ يَعُودَ مَتَى دَعَوْنَاهُ وَعَهْدَ إِلَيَّ بِأَمْرِهِ فَلَبِثْتُ بِجَانِبِهِ أَرْثِي لِحَالِهِ وَانْتَظَرْتُ قَضَاءَ اللَّهِ فِيهِ حَتَّى رَأَيْتُهُ

يَتَحَرَّكَ فِي مَضْجَعِهِ ثُمَّ فَتَحَ عَيْنَيْهِ فَرَأَى فَلَبِثَ شَاحِصًا إِلَى هُنَيْهَةٍ كَأَنَّمَا يُحَاوِلُ أَنْ

يَقُولَ لِي شَيْئًا فَلَا يَسْتَطِيعُهُ فَدَنَوْتُ مِنْهُ وَقُلْتُ لَهُ هَلْ مِنْ حَاجَةٍ يَا سَيِّدِي ؟
فَأَجَابَ بِصَوْتٍ ضَعِيفٍ خَافَتْ حَاجَتِي أَنْ لَا يَدْخُلَ عَلَيَّ مِنَ النَّاسِ أَحَدٌ قُلْتُ لَنْ
يَدْخُلَ

عَلَيْكَ إِلَّا مَنْ تُرِيدُ فَأَطْرَقَ هُنَيْهَةً ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَإِذَا عَيْنَاهُ مَخْصَلَتَانِ بِالْذُّمُوعِ
فَقُلْتُ :

مَا بُكَاءُكَ يَا سَيِّدِي ؟ قَالَ أَتَعْلَمُ أَيْنَ زَوْجَتِي الْآنَ قُلْتُ وَمَاذَا تُرِيدُ مِنْهَا ؟ قَالَ
لَا شَيْءَ سِوَى أَنْ أَقُولَ لَهَا إِنِّي قَدْ عَفَوْتُ عَنْهَا قُلْتُ إِنَّهَا فِي بَيْتِ أَبِيهَا قَالَ
وَارْحَمَتَاهُ لَهَا وَلِأَبِيهَا وَلِجَمِيعِ قَوْمِهَا فَقَدْ كَانُوا قَبْلَ أَنْ يَتَّصِلُوا بِي شُرَفَاءَ
أَمْجَادًا فَالْبَسْتَهُمْ مَدْعُونِي ثَوْبًا مِنَ الْعَارِ وَلَا تَبْلُؤُهُ الْأَيَّامُ .
مَنْ لِي بِمَنْ يَبْلُغُهُمْ عَنِّي جَمِيعًا أَنَّنِي مَرِيضٌ مُشَرَّفٌ وَأَنَّنِي أَخْشَى لِقَاءَ اللَّهِ إِنْ
لَقِيتُهُ بِدِمَائِهِمْ وَأَنَّنِي أُشْرِعُ إِلَيْهِمْ أَنْ يَصْفَحُوا عَنِّي وَيَغْفِرُوا زَلَّتِي قَبْلَ أَنْ يَسْبِقَ
إِلَيَّ أَجْلِي .

لَقَدْ كُنْتُ أَقْسَمْتُ لِأَبِيهَا يَوْمَ اهْتِدَايْتُهَا أَنْ أَصُونُ عَرْضَهَا صِيَانَتِي لِحَيَاتِي وَأَنْ
أَمْنَعَهَا مِمَّا أَمْنَعُ مِنْهُ نَفْسِي فَحَنَنْتُ فِي يُمْنِي فَهَلْ يَغْفِرُ لِي ذَنْبِي فَيَغْفِرَ لِي اللَّهُ
بِغُفْرَانِهِ ؟

نَعَمْ إِنَّهَا قَتَلَتْنِي وَلَكِنِّي أَنَا الَّذِي وَضَعْتُ فِي يَدِهَا الْخَنْجَرَ الَّذِي أَغْمَدْتَهُ فِي
صَدْرِي فَلَا يَسْأَلُهَا أَحَدٌ عَنْ ذَنْبِي .

الْبَيْتُ بَيْتِي وَالزَّوْجَةُ زَوْجَتِي وَالصَّدِيقُ صَدِيقِي وَأَنَا الَّذِي فَتَحْتُ بَابَ بَيْتِي
لِصَدِيقِي

إِلَى زَوْجَتِي فَلَمْ يُذْنِبْ إِلَيَّ أَحَدٌ سِوَايَ .
 ثُمَّ أَمْسَكَ عَنْ الْكَلَامِ هُنَيْهَةً فَانْظَرْتُ إِلَيْهِ فَإِذَا سَحَابَةٌ سَوْدَاءُ تُتَشَرُّ فَوْقَ جَبِينِهِ
 شَيْئًا فَشَيْئًا حَتَّى لَبَسَتْ وَجْهَهُ فَزَفَرَ زَفْرَةً خِلْتُ أَنَّهَا خَرَقَتْ حِجَابَ قَلْبِهِ ثُمَّ أَنْشَأَ
 يَقُولُ .

أَهْ مَا أَشَدَّ الظَّلَامَ أَمَامَ عَيْنَيَّ وَمَا أَضْيَقَ الدُّنْيَا فِي وَجْهِهِ فِي هَذِهِ الْغُرْفَةِ عَلَى
 هَذَا الْمَقْعَدِ تَحْتَ هَذَا السَّقْفِ كُنْتُ أَرَاهُمَا جَالِسَيْنِ يَتَحَدَّثَانِ فَتَمَلَّأَ نَفْسِي عِبْطَةً
 وَسُرُورًا وَأَحْمَدَ اللَّهَ عَلَى أَنْ رَزَقَنِي بِصَدِيقٍ وَفِي يُونسَ زَوْجَتِي فِي وَحْدَتِهَا
 وَزَوْجَةٍ

سَمَحَةً كَرِيمَةً تُكْرِمُ صَدِيقِي فِي غَيْبَتِي فَقُولُوا لِلنَّاسِ جَمِيعًا أَنَّ ذَلِكَ الرَّجُلَ الَّذِي
 كَانَ يَفْخَرُ بِالْأَمْسِ بِذِكَائِهِ وَفِطْنَتِهِ وَيَزْعُمُ أَنَّهُ أَكْبَسُ النَّاسِ وَأُحْزَمُهُمْ قَدْ أَصْبَحَ
 يَعْتَرِفُ الْيَوْمَ أَنَّهُ أَبْلَهُ إِلَى الْغَايَةِ مِنَ الْبَلَاهَةِ وَغَبِيَّ إِلَى الْغَايَةِ الَّتِي لَا
 غَايَةَ وَرَاءَهَا .

وَالْهَفَا عَلَى أُمِّ لَمْ تَلِدْنِي وَأَبُ عَاقِرٌ لَا نَصِيبَ لَهُ فِي الْبَنِينَ .
 لَعَلَّ النَّاسَ كَانُوا يَعْلَمُونَ مِنْ أَمْرِي مَا كُنْتُ أَجْهَلُ وَلَعَلَّهُمْ كَانُوا إِذَا مَرَرْتُ بِهِمْ
 يَتَنَاطَرُونَ وَيَتَغَامَزُونَ وَيَبْتَسِمُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ أَوْ يُحَدِّقُونَ إِلَيَّ وَيُطِيلُونَ
 النَّظَرَ فِي

وَجْهِهِ وَلِيرَوْا كَيْفَ تَتَمَثَّلُ الْبَلَاهَةُ فِي وَجْهِهِ وَالْغَبَاوَةُ فِي وَجْهِهِ الْأَغْبِيَاءِ
 وَلَعَلَّ الَّذِينَ كَانُوا يَتَوَدَّدُونَ إِلَيَّ وَيَتَمَسَّحُونَ بِي مِنْ أَصْدِقَائِي إِنَّمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ
 ذَلِكَ مِنْ أَجْلِهَا لَا مِنْ أَجْلِي وَلَعَلَّهُمْ كَانُوا يُسَمُّونَنِي فِيمَا بَيْنَهُمْ وَيُسَمُّونَ زَوْجَتِي
 مُوسَا وَبَيْتِي مَاخُورًا وَأَنَا عِنْدَ نَفْسِي أَشْرَفُ النَّاسِ وَأَنْبَلُهُمْ !

فَوَا بِالْأَغْوَاءِ لِي إِنْ بَقِيَتْ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ بَعْدَ الْيَوْمِ سَاعَةً وَاحِدَةً وَوَالْهَفَا
عَلَى

زَاوِيَةً مُنْفَرِدَةً فِي قَبْرِ مُوحِشٍ يَطْوِينِي وَيَطْوِي عَارِيَّ مَعِي .
ثُمَّ أَغْمَضَ عَيْنَيْهِ وَعَادَ إِلَى ذُحُولِهِ وَاسْتَعْرَاقِهِ .
وَهُنَا دَخَلَتْ الْحُجْرَةَ مُرْضِعَ وَلَدِهِ تَحْمِلُهُ عَلَى يَدَيْهَا حَتَّى وَضَعَتْهُ بِجَانِبِ فِرَاشِهِ
ثُمَّ
تَرَكَتْهُ وَانْصَرَفَتْ فَمَا زَالَ الطِّفْلُ يَدِبُّ عَلَى أَطْرَافِهِ حَتَّى عَلَا صَدْرُ أَبِيهِ فَأَحْسَ
بِهِ

فَفَتَحَ عَيْنَيْهِ فَرَأَاهُ فَابْتَسَمَ لِمَرَّاهُ وَضَمَّهُ إِلَى صَدْرِهِ ضَمَّةَ الرَّفْقِ وَالْحَنَانِ وَأَدْنَى
فَمَهُ

مِنْ وَجْهِهِ لِيَقْبَلَهُ ثُمَّ انْتَقَضَ فَجْأَةً وَاسْتَسَرَ بِشِرِّهِ وَدَفَعَهُ عَنْهُ بِيَدِهِ دَفْعَةً شَدِيدَةً
وَأَخَذَ يَصِيحُ أَبْعُدُوهُ عَنِّي لَا أَعْرِفُهُ لَيْسَ لِي أَوْلَادٌ وَلَا نِسَاءٌ سَلُّوا أُمَّهُ عَنْ أَبِيهِ
مَنْ هُوَ وَادْهَبُوا بِهِ إِلَيْهِ ؟ لَا أَلْبَسَ الْعَارَ فِي حَيَاتِي وَأَتْرَكُهُ أَثَرًا خَالِدًا وَرَائِي
بَعْدَ مَمَاتِي وَكَأَنْتَ الْمُرْضِعُ قَدْ سَمِعْتَ صِيَاحَ الطِّفْلِ فَعَادَتْ إِلَيْهِ وَحَمَلَتْهُ
وَذَهَبَتْ بِهِ

فَسَمِعَ صَوْتَهُ وَهُوَ يَبْتَغِدُ عَنْهُ شَيْئًا فَشَيْئًا فَأَنْصَتَ إِلَيْهِ وَاسْتَعْبَرَ بَاكِيًا وَصَاحَ
إِرْجِعُوهُ إِلَيَّ فَعَادَتْ بِهِ الْمُرْضِعُ فَتَنَاولَهُ مِنْ يَدَيْهَا وَأَنْشَأَ يَقْلِبُ نَظْرَهُ فِي وَجْهِهِ
وَيَقُولُ :

فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَا بَنِي مَا خَلَفَ لَكَ أَبُوكَ مِنَ الْيَتَمِ وَمَا خَلَفَتْ لَكَ أُمُّكَ مِنَ الْعَارِ
فَاغْفِرْ لَهُمَا ذَنْبَهُمَا إِلَيْكَ فَلَقَدْ كَانَتْ أُمُّكَ امْرَأَةً ضَعِيفَةً فَعَجَزَتْ عَنْ إِحْتِمَالِ
صَدَمَةِ

الْقَضَاءُ فَسَقَطَتْ وَكَانَ أَبُوكَ حَسَنَ فِي جَرِيمَتِهِ الَّتِي اجْتَرَمَهَا فَأَسَاءَ مِنْ حَيْثُ
أَرَادَ

الْإِحْسَانُ .

سَوَاءٌ كُنْتُ وَلَدِي يَا بُنَيَّ أُمٌّ وَلَدَ الْجَرِيمَةِ فَإِنِّي قَدْ سَعِدْتُ بِكَ حَقَبَةً مِنَ الدَّهْرِ
فَلَا أَنْسَى يَدَكَ عِنْدِي حَيًّا أَوْ مَيِّتًا ثُمَّ احْتَضَنَهُ إِلَيْهِ وَقَبَّلَهُ فِي جَبِينِهِ قُبْلَةً لَا
أَعْلَمُ هَلْ هِيَ قُبْلَةُ اللَّأَبِ الرَّحِيمِ أَوْ الْمُحْسِنِ الْكَرِيمِ ؟

وَكَانَ قَدْ بَلَغَ مِنْهُ الْجُهْدَ فَعَاوَدَتْهُ الْحُمَّى وَغَلَّتْ نَارُهَا فِي رَأْسِهِ وَمَا زَالَ يَثْقُلُ
شَيْئًا فَشَيْئًا حَتَّى خَفَتْ عَلَيْهِ النَّفْسُ فَأَرْسَلَتْ وَرَاءَ الطَّبِيبِ فَجَاءَ وَأَلْقَى عَلَيْهِ
نَظْرَةً طَوِيلَةً ثُمَّ اسْتَرَدَّهَا مَمْلُوءَةً يَأْسًا وَحُزْنًا .

ثُمَّ بَدَأَ يَنْزِعَ نَزْعًا شَدِيدًا وَيَنْزِئُ أَنْيُنًا مُؤْلِمًا فَلَمْ تَبْقَ عَيْنٌ مِنَ الْعُيُونِ الْمُحِيطَةِ
بِهِ إِلَّا أَرَفَضَتْ عَنْ كُلِّ مَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَجُودَ بِهِ مِنْ مَدَامِعِهَا .

فَانْأَجَلُوسَ حَوْلَهُ وَقَدْ بَدَأَ الْمَوْتُ يُسْبِلُ أَسْتَارَهُ السَّوْدَاءَ عَلَى سَرِيرِهِ وَإِذَا امْرَأَةٌ
مُؤْتَزِرَةٌ بِإِزَارٍ أَسْوَدَ قَدْ دَخَلَتْ الْحُجْرَةَ وَتَقَدَّمَتْ نَحْوَهُ بِبُطْءٍ حَتَّى رَكَعَتْ بِجَانِبِهِ
ثُمَّ

أَكْبَتَ عَلَى يَدِهِ الْمَوْضُوعَةَ فَوْقَ صَدْرِهِ فَقَبَّلَتْهَا وَأَخَذَتْ تَقُولُ لَهُ :

لَا تُخْرِجْ مِنْ الدُّنْيَا وَأَنْتِ مُرْتَابٌ فِي وَلَدِكَ فَإِنَّ أُمَّهُ تَعْتَرِفُ بَيْنَ يَدَيْكَ وَأَنْتِ
ذَاهِبٌ

إِلَى رَبِّكَ أَنَّهَا وَإِنْ كَانَتْ قَدْ دَنَتْ مِنَ الْجَرِيمَةِ وَلَكِنَّهَا لَمْ تَرْتَكِبْهَا فَاعْفُ عَنِّي يَا
وَالِدَ وَلَدِي وَاسْأَلِ اللَّهَ عِنْدَمَا تَقِفُ بَيْنَ يَدَيْهِ أَنْ يُلْحِقَنِي بِكَ فَلَا خَيْرَ لِي فِي
الْحَيَاةِ مِنْ بَعْدِكَ .

ثُمَّ انْفَجَرَتْ بِأَكْيَةِ فَفَتَحَ عَيْنَيْهِ وَأُلْقِيَ عَلَى وَجْهَهَا نَظْرَةً بِأَسْمَةِ كَانَتْ هِيَ آخِرَ
عَهْدِهِ

بِالْحَيَاةِ وَقَضَى .

الآن عُدْتُ مِنَ الْمَقْبَرَةِ بَعْدَ مَا دَفَنْتُ صَدِيقِي بِيَدِي وَأَوْدَعْتُ حُفْرَةَ الْقُرْبِ ذَلِكَ
الشَّبَابَ النَّاصِرِ وَالرَّوْضَ الزَّاهِرِ وَجَلَسْتُ لِكِتَابَةِ هَذِهِ السُّطُورِ وَأَنَا لَا أَكَادُ
أَمَّا

مَدَامِعِي وَزَفَرَاتِي فَلَا يُهَوِّنُ وَجْدِي عَلَيْهِ إِلَّا أَنَّ الْأُمَّةَ كَانَتْ عَلَى بَابِ خَطَرٍ
عَظِيمٍ

مِنْ أخطارِهَا فَتَقَدَّمَ هُوَ أَمَامَهَا إِلَى ذَلِكَ الْخَطَرِ وَحَدَّهُ فَاقْتَحَمَهُ فَمَاتَ شَهِيدًا
فَنَجَتْ

بِهَلَاكِهِ .

الذكري

"مترجمة"

وَقَفَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ آخِرَ مُلُوكِ غَرْنَاطَةَ بَعْدَ انْكِسَارِهِ أَمَامَ جُيُوشِ الْمَلِكِ فَرْدِينَايدِ
وَالْمَلِكَةِ إيزابلا عَلَى شَاطِئِ الْخَلِيجِ الرُّومِيِّ تَحْتَ ذَيْلِ جَبَلِ طَارِقٍ قَبْلَ نُزُولِهِ
إِلَى

السَّفِينَةِ الْمُعَدَّةِ لِحَمْلِهِ إِلَى أَفْرِيْقِيَا وَقَدْ وَقَفَ حَوْلَهُ نِسَاؤُهُ وَأَوْلَادُهُ وَعُظَمَاءُ
قَوْمِهِ مِنْ بَنِي الْأَحْمَرِ فَأَلْقَى عَلَى مَلِكِهِ الْأَذَاهِبَ نَظْرَةً طَوِيلَةً لَمْ يَسْتَرْجِعْهَا إِلَّا
مُبَلَّلَةً بِالْدمْعِ ثُمَّ أَدْنَى رِدَاءَهُ مِنْ وَجْهِهِ وَأَنْشَأَ يَبْكِي بُكَاءَ مُرًّا وَيَنْشِجُ نَشِيجًا
مُحْزِنًا حَتَّى بَكَى مِنْ حَوْلِهِ لِبُكَائِهِ وَأَصْبَحَ شَاطِئُ الْبَحْرِ كَأَنَّهُ مَنَاحَةٌ قَائِمَةٌ تَتَرَدَّدُ
فِيهَا الزَّفَرَاتُ وَيَسْتَبِقُ الْعِبَرَاتُ فَإِنَّهُ لَوَاقِفٌ مَوْقِفِهِ هَذَا وَقَدْ ذُهِلَ عَنْ نَفْسِهِ
وَمَوْقِفِهِ إِذْ أَحَسَّ هَاتِفًا يَهْتَفُ بِاسْمِهِ بِصَوْتٍ كَأَنَّمَا يَنْحَدِرُ إِلَيْهِ مِنْ عَلَيَاءِ السَّمَاءِ
فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَإِذَا شَيْخٌ نَاسِكٌ مُتَكِيٌّ عَلَى عَصَاهُ وَاقِفٌ عَلَى بَابِ مَغَارَةٍ مِنْ
مَغَارَاتِ

الْجَبَلِ الْمُشْرِفِ عَلَيْهِ يَنْظُرُ إِلَيْهِ وَيَقُولُ :
نَعِمَ لَكَ أَنْ نَبْكِي أَيُّهَا الْمَلِكُ السَّاقِطُ عَلَى مَلِكِكَ بُكَاءُ النِّسَاءِ فَإِنَّكَ لَمْ تَحْتَقِظْ بِهِ
إِحْتِفَازَ الرِّجَالِ .

إِنَّكَ ضَحَكْتَ بِالْأَمْسِ كَثِيرًا فَأَبْكَ الْيَوْمَ بِمِقْدَارِ مَا ضَحَكْتَ بِالْأَمْسِ فَالْسُرُورُ
نَهَارَ

الْحَيَاةَ وَالْحُزْنَ لَيْلَهَا وَلَا يَلْبَثُ النَّهَارُ السَّاطِعُ أَنْ يُعْقِبَهُ اللَّيْلُ الْقَاتِمُ .
لَوْ أَنَّ مَا ذَهَبَ مِنْ يَدِكَ مِنْ مِلْكِكَ ذَهَبَ بِصَدْمَةٍ مِنْ صَدَمَاتِ الْقَدْرِ أَوْ نَازِلَةٍ مِنْ
نَوَازِلِ

الْقَضَاءِ مِنْ حَيْثُ لَا حَوْلَ لَكَ فِي ذَلِكَ وَلَا حِيلَةَ لَهُ أَنْ أَمْرُهُ عَلَيْكَ أَمَّا وَقَدْ أَضَعْتَهُ
بِيَدِكَ إِلَى عَدُوِّكَ بِاخْتِيَارِكَ فَابْكِ عَلَيْهِ بُكَاءَ النَّادِمِ الْمُتَفَجِّعِ الَّذِي لَا
يَجِدُ لَهُ عَنْ مُصَابِهِ عَزَاءً وَلَا سُلْوَى .

لَا يَظْلِمُ اللَّهُ عَبْدًا مِنْ عِبَادِهِ وَلَا يُرِيدُ بِأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ فِي شَأْنٍ مِنَ الشُّؤُنِ
شَرًّا وَلَا ضَيْرًا وَلَكِنَّ النَّاسَ يَأْبُونَ إِلَّا أَنْ يَقْفُوا عَلَى حَافَةِ الْهُوَّةِ الضَّعِيفَةِ
فَتَنْزِلَ بِهِمْ أَقْدَامُهُمْ وَيَمْشُوا تَحْتَ الصَّخْرَةِ الْبَارِزَةِ الْمُشْرِفَةِ فَتُسْقِطَ عَلَى
رُءُوسِهِمْ .

لَمْ تُقْنِعْ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لَكَ مِنَ الزُّرْقِ فَأَبَيْتَ إِلَّا الْمَلِكَ وَالسُّلْطَانَ فَنَازَعْتَ عَمَّا
الْأَمْرِ وَاسْتَعَنْتَ عَلَيْهِ بِعَدُوِّكَ وَعَدُوُّهُ فَتَنَاولَ رَأْسَيْكُمَا مَعًا وَمَا زَالَ يَضْرِبُ
أَحَدُهُمَا

بِالْآخِرِ حَتَّى سَالَ تَحْتَ قَدَمَيْكُمَا قَلِيبٌ مِنَ الدَّمِ فَغَرِقْتُمَا فِيهِ مَعًا .
لِي فَوْقَ هَذِهِ الصَّخْرَةِ يَا بَنِي الْأَحْمَرِ سَبْعَةُ أَعوَامٍ أَنْتَظِرُ فِيهَا هَذَا الْمَصِيرَ الَّذِي
صِرْتُمْ إِلَيْهِ وَأَتَرَقَّبُ السَّاعَةَ الَّتِي أَرَى فِيهَا آخِرَ مَلِكٍ مَلِكًا يَرْحَلُ عَنْ هَذِهِ الدِّيَارِ
رِحْلَةً لَا رَجْعَةَ مِنْ بَعْدِهَا لِأَنِّي أَعْلَمُ أَنَّ الْمَلِكَ الَّذِي يَتَوَلَّى أَمْرَهُ الْجَاهِلُونَ
الْأَغْبِيَاءُ لَا دَوَامَ لَهُ وَلَا بَقَاءَ .

إِتَّخَذَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا عَدُوًّا وَأَصْبَحَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ حَرْبًا عَلَى صَاحِبِهِ فَسُقُتُمْ
الْمُسْلِمِينَ

إِلَى مِيَادِينِ الْقِتَالِ يَضْرِبُ بَعْضُهُمْ وُجُوهَ بَعْضٍ وَالْعَدُوُّ رَابِضٌ مِنْ وَرَائِكُمْ
يَتَرَبَّصُ بِكُمْ

الدَّوَائِرِ وَيَرَى أَنَّ كُلًّا مِنْكُمْ قَائِدٌ قَوَّادُهُ يَنْبَغِثُ بَيْنَ يَدَيْهِ لِقِتَالِ أَعْدَائِهِ
وَالْمُنَاضِلَةِ عَلَى مَلِكِهِ حَتَّى رَأَوْا تَتَهَاَفَتُونَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ضَعْفًا وَوَهْنًا فَاقْتَحَمَكُمْ
فَمَا هِيَ إِلَّا جَوْلَةٌ أَوْ جَوْلَتَانِ حَتَّى ظَفَرَ بِكُمْ مَعًا .

سَتَقْفُونَ غَدًا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ يَا مُلُوكَ الْإِسْلَامِ وَسَيَسْأَلُكُمْ عَنِ الْإِسْلَامِ إِلَى
أَضَعْتُمُوهُ وَهَبَطْتُمْ بِهِ مِنْ عَلِيَاءِ مَجْدِهِ حَتَّى أَلْصَقْتُمْ أَنْفَهُ بِالرَّغَامِ وَعَنْ الْمُسْلِمِينَ
الَّذِينَ بِالْأَغْوَاءِ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى أَعْدَائِهِمْ لِيَعِيشُوا بَيْنَهُمْ عَيْشَ الْبَائِسِينَ
الْمُسْتَضْعَفِينَ عَنْ مُدُنِ الْإِسْلَامِ وَأَمْصَارِهِ الَّتِي اشْتَرَاهَا آبَاؤُكُمْ بِدِمَائِهِمْ
وَأَرْوَاحِهِمْ

ثُمَّ تَرَكُوهَا فِي أَيْدِيكُمْ لَتَذُودُوا عَنْهَا وَتَحْمُوا ذِمَارَهَا فَلَمْ تُحَرِّكُوا فِي شَأْنِهَا
سَاكِنًا حَتَّى غَلَبَكُمْ أَعْدَاؤُكُمْ عَلَيْهَا فَأَصْبَحْتُمْ تَعِيشُونَ فِيهَا عَيْشَ الْأَذِلَّةِ
وَتَطْرُدُونَ

مِنْهَا كَمَا يَطْرُدُ الْغُرَبَاءُ فَمَاذَا يَكُونُ جَوَابُكُمْ إِنْ سُئِلْتُمْ عَنْ هَذَا كُلِّهِ غَدًا ؟
هَا هِيَ النَّوَاقِيسُ تَرِنُ فِي شُرُفَاتِ الْمَآذِنِ بَدَلِ الْأَذَانِ وَهَا هِيَ الْمَسَاجِدُ تَطَأُ نِعَالَ
الصَّلَيبِيِّينَ فِي تَرْبَتِهَا مَوَاقِعَ جِبَاهِ الْمُسْلِمِينَ وَهَا هُوَ الْمُسْلِمُ يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنْ مَكَانٍ
إِلَى مَكَانٍ وَيَلُودُ بِأَكْنَافِ الْهَضَابِ وَالشَّعَابِ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُؤَدِّيَ شَعِيرَهُ مِنْ
شَعَائِرِ

دِينِهِ إِلَّا فِي غَارٍ كَهَذَا الْغَارِ الَّذِي أُعِيشَ فِيهِ :
لَيْتَ الْمُسْلِمِينَ عَاشُوا دَهْرَهُمْ فَوْضَى لَا نِظَامَ لَهُمْ وَلَا مَلِكَ وَلَا سُلْطَانَ كَمَا يَعِيشُ
الْمُشْرَدُّونَ فِي آفَاقِ الْبِلَادِ فَقَدْ كَانَ ذَلِكَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْ أَنْ يَتَوَلَّى أَمْرَهُمْ رِجَالُ

مَتَلَّكُمْ طَامِعُونَ مُسْتَبِدُّونَ يُلْفُونَ عَلَى أَعْنَاقِهِمْ جَمِيعًا غُلًّا وَاحِدًا يَسُوقُونَهُمْ بِهِ إِلَى مَوَارِدِ التَّلَفِ وَالْهَلَاكِ مِنْ حَيْثُ لَا يَسْتَطِيعُونَ ذَوْدًا عَنْ أَنْفُسِهِمْ وَمَا تَفْعَلُ الْفَوْضَى وَبِأَمَّةٍ مَا يَفْعَلُ بِهَا الِاسْتِبْدَادُ .

يَسْأَلُكُمُ اللَّهُ يَا بَنِي الْأَحْمَرِ عَنِّي وَعَنْ أَوْلَادِي الَّذِينَ انْتَزَعْتُمُوهُمْ مِنْ يَدَيِ انْتِزَاعًا أَحْوَجَ مَا كُنْتُ إِلَيْهِمْ وَسَقَتُوهُمْ إِلَى مِيَادِينِ الْقِتَالِ لِيُقَاتِلُوا إِخْوَانَهُمُ الْمُسْلِمِينَ قِتَالًا لَا شَرَفَ فِيهِ وَلَا فَخَارَ حَتَّى مَاتُوا جَمِيعًا مَوْتِ الْأَذِلَّةِ الْأَذْنِيَاءِ فَلَا أَنْتُمْ تَرَكَتُمُوهُمْ بِجَانِبِي أَنَسَ بِهِمْ فِي وَحْشَتِي وَأَلَجَأَ إِلَى مَعُونَتِهِمْ فِي شَيْخُوخَتِي وَلَا أَنْتُمْ ذَهَبْتُمْ بِهِمْ إِلَى مَيْدَانِ قِتَالٍ شَرِيفٍ فَأَتَعَزَى عَنْهُمْ مِنْ بَعْدِهِمْ

بِأَنَّهُمْ مَاتُوا فِدَاءَ دِينِهِمْ وَوَطَنِهِمْ .

فَهَا أَنْذَا عَائِشٌ مِنْ بَعْدِهِمْ وَحَدِي فِي هَذَا الْغَارِ الْمُوحِشِ فَوْقَ هَذِهِ الصَّخْرَةِ الْمُنْقَطِعَةِ أَبْكِي عَلَيْهِمْ وَأَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُلْحِقَنِي بِهِمْ فَمَتَى يَسْتَجِيبُ اللَّهُ دُعَائِي ؟ ثُمَّ أَخْتَبِقُ صَوْتَهُ بِالْبُكَاءِ فَأَدَارُ وَجْهَهُ وَمَشَى بِقَدَمٍ مُطْمَنَّةٍ يَتَوَكَّأُ عَلَى عَصَاهُ حَتَّى

دَخَلَ مَغَارَتَهُ وَغَابَ عَنِ الْعُيُوبِ فَنَالَتْ كَلِمَاتِهِ مِنْ نَفْسِ الْأَمِيرِ مَا لَمْ يَنْلُ مِنْهَا ضِيَاعَ مَلِكِهِ وَسُقُوطَ عَرْشِهِ فَصَاحَ مَا هَذَا بِشَرًّا إِنَّمَا صَوْتُ الْعَدْلِ الْإِلَهِيِّ يُنْذِرُنِي

بِشِقَاءِ الْمُسْتَقْبَلِ فَوْقَ شِقَاءِ الْمَاضِي فَلْيَصْنَعْ اللَّهُ بِي مَا يَشَاءُ فَعَدَّلَ مِنْهُ كُلَّ مَا صَنَعَ .

ثُمَّ انْحَدَرَ إِلَى سَفِينَتِهِ وَانْحَدَرَ أَهْلُهُ وَرَاءَهُ فَسَارَتْ السَّفِينَةُ بِهِمْ تَشُقُّ عُبابَ لِمَاءِ شَقًّا فَسَجَلِ التَّارِيخِ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ أَنَّ قَدْ تَمَّ جَلَاءُ الْعَرَبِ عَنِ الْأَنْدَلُسِ بَعْدَ مَا

عَمَرُوهَا ثَمَانِمِائَةَ عَامٍ .

بَعْدَ مُرُورِ أَرْبَعَةِ وَعِشْرِينَ عَامًا عَلَى تِلْكَ الْحَوَادِثِ لَمْ يَبْقَ فِي إِفْرِيقِيَّةٍ حَيٌّ مِنْ بَنِي

الْأَحْمَرِ إِلَّا فَتَى فِي الْعِشْرِينَ مِنْ عُمُرِهِ أَسْمُهُ سَعِيدٌ لَمْ يَرَ غَرْنَاطَةَ وَلَا قَصْرَ
الْحَمْرَاءِ وَلَا الْمَرْجَ وَلَا جَنَّةَ الْعَرِيفِ وَلَا نَهْرَ شَنْبِيلٍ وَلَا عَيْنَ الدَّمْعِ وَلَا جَبَلَ
النَّجَجِ وَلَكِنَّهُ مَا زَالَ يَحْفَظُ فِي ذَاكِرَتِهِ مِنْ عَهْدِ الطُّفُولَةِ تِلْكَ الْأَنَاشِيدَ
الْأَنْدَلُسِيَّةَ الْبَدِيعَةَ الَّتِي كَانَ يَتَرَنَّمُ بِهَا نِسَاءَ قَوْمِهِ حَوْلَ مَهْدِهِ وَيُرَدِّدُونَ فِيهَا
ذِكْرَ آبَائِهِ وَأَجْدَادِهِ وَأَثَارَ أَيْدِيهِمْ وَعِزَّةَ سُلْطَانِهِمْ فِي تِلْكَ الْبِقَاعِ وَتِلْكَ الْمَرَاثِي
الْمُحْزَنَةِ الْمُؤَثِّرَةِ الَّتِي بَكَى فِيهَا شُعْرَاءُ الْأَنْدَلُسِ ذَلِكَ الْمَجْدَ السَّاقِطَ وَالْمَلِكَ
الْمُضَاعَ فَكَانَ كُلَّمَا خَلَا إِلَى نَفْسِهِ رَدَّدَ تِلْكَ الْمَرَاثِي بِنَغْمَةٍ شَجِيَّةٍ مُحْزَنَةٍ تَسْتَثِيرُ
عِزَّتَهُ وَتُهَيِّجُ أَشْجَانَهُ فَلَا يَزَالُ يَبْكِي وَيَنْتَحِبُ حَتَّى يُشْرِفَ عَلَى التَّلَفِّ .
فَكَانَ لَا يَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ مِنْ كُلِّ مَا يَتَمَنَّى إِمْرُؤُ عَلَى رَبِّهِ فِي حَيَاتِهِ إِلَّا أَنْ يَرَى
غَرْنَاطَةَ سَاعَةٍ مِنْ زَمَانٍ يَشْفِي بِهَا غَلَّةَ نَفْسِهِ ثُمَّ لِيَصْنَعَ الدَّهْرَ بِهِ بَعْدَ ذَلِكَ مَا
يَشَاءُ .

وَكَانَ كُلَّمَا هُمْ بِالذَّهَابِ إِلَيْهَا قَعَدَ بِهِ عَنْ ذَلِكَ أَنْ وَرَاءَهُ عَجُوزًا مِنْ أَهْلِهِ
مَرِيضَةٌ

وَمَا كَانَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتْرُكَهَا وَلَا يَجِدَ مَنْ يَعْتَمِدَ عَلَيْهِ فِي الْقِيَامِ بِشَأْنِهَا حَتَّى
وَأَفَاهَا أَجْلَهَا فَرَكَبَ الْبَحْرَ مِنْ سَبْتَةِ إِلَى شَاطِئِ مَلَقَةِ ثُمَّ انْحَدَرَ مِنْهَا إِلَى
غَرْنَاطَةَ مُتَتَكِّرًا فِي ثَوْبٍ طَيِّبٍ عَرَبِيٍّ مِنْ أَطِبَّاءِ الْأَعْشَابِ بِتَقَبُّلٍ فِي جِيَالِ
الْأَنْدَلُسِ

وَسَهُولَهَا حَتَّى بَلَغَ ضَاحِيَّتَهَا سَاعَةَ الْأَصِيلِ فَوَقَفَ عَلَى هَضْبَةٍ مِنْ هَضَابِ جَبَلِ
الْتَّلَجِ

فَرَأَى الْأَمْوَالَ تَنْزَلِقَ عَنْهُ فِي هُدُوءٍ وَسُكُونٍ كَأَنَّهَا فَوْقَ سَطْحِهِ اللَّامِعِ الْمُتَلَالِي
قَمِيصٍ مِنَ النُّورِ أَوْ قُبَّةٍ مِنَ الْبَلُورِ حَتَّى تَصِلَ إِلَى سَفْحِهِ فَإِذَا هِيَ حَيَّاتٌ بَيضاء
مَذْعُورَةٌ تَتَّبَعُثُ هَهُنَا وَهَهُنَا لَا هُمْ إِلَّا النِّجَاجَةُ مِنْ يَدِ مُطَارِدِهَا حَتَّى تَعْتُرَ بِجَدُولِ
مَاءٍ فِي طَرِيقِهَا فَتُدْعَمُ فِيهِ وَتَتَسَابُ فِي أَحْشَائِهِ .

ثُمَّ انْتَفَتَ إِلَى الْمَدِينَةِ فَرَأَى عَلَى الْبُعْدِ أَبْرَاجَهَا الْعَقِيقِيَّةَ الْحُمْراءَ وَقِبَابَهَا
لِعَالِيَةِ السَّمَاءِ وَمَآذِنَهَا الذَّاهِبَةَ فِي جَوْ السَّمَاءِ فَوَقَفَ أَمَامَ هَذَا الْمَنْظَرِ الْجَلِيلِ
الْمُهَيْبِ مَوْقِفَ الْخَاشِعِ الْمَتَخَضِعِ وَضَمَّ إِحْدَى يَدَيْهِ إِلَى الْأُخْرَى وَوَضَعَهَا عَلَى
صَدْرِهِ

كَأَنَّمَا هُوَ قَائِمٌ أَمَامَ الْمِحْرَابِ يُؤَدِّي صَلَاتَهُ وَلَبِثَ عَلَى ذَلِكَ بُرْهَةً ثُمَّ صَاحَ
بِصَوْتٍ

عَالٍ رَدَدَتْهُ الْغَابَاتُ وَالْحَرَجَاتُ يَقُولُ .

هَذَا مِيرَاثُ آبَائِي وَأَجْدَادِي لَمْ يَبْقَ لِي مِنْهُ إِلَّا وَقْفَةٌ بَيْنَ يَدَيْهِ كَوَقْفَةِ النَّاكَلِ
الْمَفْجُوعِ بَيْنَ أَيْدِي الْأَطْلَالِ الْبُوَالِي وَالْآثَارِ الدَّوَارِسِ .
هَذِهِ مَضَاجِعُهُمْ يَنَامُ فِيهَا أَعْدَاؤُهُمْ وَهُمْ لَا مَضَاجِعَ لَهُمْ إِلَّا رِمَالُ الصَّحْرَاءِ
وَكُتُبَانِ الْفُلُواتِ .

هَذِهِ قُصُورُهُمْ تُشْرِفُ عَلَى الْأَرْضِ الْفَضَاءِ وَتُطِلُّ مِنْ عُيُونٍ نَوَافِذُهَا كَأَنَّمَا
تَتَرَقَّبُ أَنْ

يَعُودُوا إِلَيْهَا فَيَعْمَرُوهَا كَمَا كَانُوا فَلَا يَفْعَلُونَ .

هَذِهِ قِبَابُهُمْ بِالْأَغْوَاءِ رَافِعَةً رَأْسَهَا لَيْلَهَا وَنَهَارَهَا إِلَى السَّمَوَاتِ الْعُلَا تَدْعُو

اللَّهُ أَنْ يُعِيدَ إِلَيْهَا بُنَاتَهَا وَحُمَاتَهَا فَلَا يُسْتَجَابَ لَهَا دُعَاءٌ .
فِي هَذِهِ الْبَسَاتِينَ كَانُوا يَنْعَمُونَ وَتَحْتَ هَذِهِ الظُّلَالِ كَانُوا يُقْلُونَ وَعَلَى ضِيفِافِ
هَذِهِ

الْأَنْهَارِ كَانُوا يَغْدِرُونَ وَيَرُوحُونَ وَالْيَوْمَ لَا غَادٍ مِنْهُمْ وَلَا رَائِحَ وَلَا سَانِحَ تَحْتَ
هَذِهِ السَّمَاءِ وَلَا بَارِحَ ثُمَّ نَظَرَ إِلَى الْإِفْقِ فَرَأَى الشَّمْسَ تَتَحَدَّرُ إِلَى الْإِغْوَاءِ
وَرَأَى

جَيْشَ اللَّيْلِ يَطْرُدُ فُلُوقَ جَيْشِ النَّهَارِ فَيَبِيدُهَا بَيْنَ يَدَيْهِ تَبْدِيدًا فَتَهَافَتَ عَلَى
نَفْسِهِ وَهُوَ يَقُولُ :

هَكَذَا تَدُولُ الدُّوَلَاتُ وَتُسْقِطُ النَّجَاجَانُ وَهَكَذَا تَحُلُّ الظُّلُمَاتُ مَحَلَّ الْأَنْوَارِ وَهَكَذَا
تَتَشَرُّ سُحُبُ الْمَوْتِ عَلَى وَجْهِ الْحَيَاةِ .

ثُمَّ تَوَسَّدَ ذِرَاعَهُ وَاسْتَعْرَقَ فِي نَوْمِهِ بَيْنَ وَطَاءِ الْأَرْضِ وَغِطَاءِ السَّمَاءِ فَلَمْ
يَسْتَفِقْ

حَتَّى مَضَتْ دَوْلَةُ اللَّيْلِ فَمَشَى إِلَى نَهْرٍ جَارٍ فِي سَفْحِ الْجَبَلِ فَصَلَّى عِنْدَهُ صَلَاةَ
الْفَجْرِ

ثُمَّ انْحَدَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ يُفْتَشُ عَنْ خَانَ يَأْوِي إِلَيْهِ فَلَمْ يَجِدْ فِي طَرِيقِهِ مَنْ يُرْشِدُهُ
إِلَى طَلَبَتِهِ حَتَّى بَلَغَ نَهْرَ شَنْيَلٍ فَمَشَى عَلَى ضَفَّتِهِ يَتَفَقَّدُ الْبُذُورَ وَيَتَلَمَّسُ الْأَعْشَابَ
وَيَنْتَظِرُ يَقْظَةَ الْمَدِينَةِ بَعْدَ هَجْعَتِهَا .

وَإِنَّهُ لَكَذَلِكَ إِذْ انْفَتَحَ بَيْنَ يَدَيْهِ بَابُ قَصْرِ عَظِيمٍ وَإِذَا فَتَاةٌ إِسْبَانِيَّةٌ خَارِجَةٌ مِنْهُ
قَدْ عَلَى وَجْهِهَا خِمَارًا أَسْوَدَ شَفَافًا وَأُرْسَلَتْ عَلَى صَدْرِهَا صَلِيبًا ذَهَبِيًّا
صَغِيرًا وَمَشَى وَرَاءَهَا غُلَامٌ يَحْمِلُ عَلَى يَدِهِ الْكِتَابَ الْمُقَدَّسَ فَلَمَحَتْهُ فِي مَكَانِهِ
فَأَذْهَشَهَا مَوْقِفُهُ فَدَنَتْ مِنْهُ وَرَفَعَتْ قِنَاعَهَا عَنْ وَجْهِهَا فَإِذَا الشَّمْسُ طَالِعَةٌ حَسَنًا

وَبَهَاءٍ وَقَالَتْ لَهُ بِلِسَانِ عَرَبِيٍّ تُخَالِطُهُ بَعْضُ الْعُجْمَةِ أَغْرِيبَ أَنْتَ عَنْ هَذَا الْبَلَدِ
أَيُّهَا الْفَتَى قَالَ نَعَمْ لَقَدْ نَزَلْتُ بِهِ السَّاعَةَ فَلَمْ أَعْرِفْ طَرِيقَ الْخَانِ الَّذِي يَأْوِي
إِلَيْهِ الْغُرَبَاءُ وَلَمْ أَجِدْ فِي طَرِيقِي مَنْ يَدُلُّنِي عَلَيْهِ فَسَمِعْتُ فِي صَوْتِهِ رَنَّةَ
الشَّرَفِ

وَرَأَتْ بَيْنَ أَعْطَافِهِ مَخَائِلَ النِّعْمَةِ فَأَهَمَّهَا أَمْرُهُ وَأَشَارَتْ إِلَيْهِ أَنْ يُتَّبِعَهَا لِتَدُلَّهُ
عَلَى مَا يُرِيدُ فَمَشَى بِجَانِبِهَا حَتَّى بَلَغَا مَوْضِعَ الْخَانِ فَحَيَّتُهُ بِابْتِسَامَةٍ عَذْبَةٍ
وَقَالَتْ

لَهُ لَا تَتَسَنَّ أَنْ تَزُورَنِي أَيُّهَا الْغَرِيبُ كُلَّمَا عَرَضَتْ لَكَ حَاجَةٌ ثُمَّ سَارَتْ فِي
طَرِيقِ
كُنَيْسَتِهَا .

كَمَا أَنَّ السَّمَاءَ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ تَخْتَلِفُ إِلَيْهَا النُّجُومُ فَتُضِيءُ صَفْحَتَهَا وَتَمُرُّ بِهَا
الشُّهُبُ فَتَلْمَعُ فِي أَرْجَائِهَا حَتَّى إِذَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ مِنْ مَشْرِقِهَا مَحَا ضَوْوَهَا
ضَوْءَ جَمِيعِ

تِلْكَ النَّيِّرَاتِ كَذَلِكَ الْقَلْبُ الْإِنْسَانِي لَا تَزَالُ تَمُرُّ بِهِ مُخْتَلِفُ الْعَوَاطِفِ وَأَشْتَاتِ
وَالْأَهْوَاءِ مُجْتَمِعَةٍ وَمُفْتَرِقَةٍ حَتَّى إِذَا بَلَغَ وَأَشْرَقَتْ عَلَيْهِ شَمْسُ الْحُبِّ غَرَبَتْ
بِجَانِبِهَا

جَمِيعِ تِلْكَ الْعَوَاطِفِ وَالْأَهْوَاءِ .

فَقَدْ أَصْبَحَ الْأَمِيرُ يَنْظُرُ إِلَى غَرْنَابَةِ مُنْذُ السَّاعَةِ بَعَيْنٌ غَيْرَ الْعَيْنِ الَّتِي كَانَ
يَنْظُرُ بِهَا إِلَيْهَا مِنْ قَبْلُ وَيَرَى فِي وَجْهِهَا صُورَةَ الْإِنْسِ بَعْدَ الْوَحْشَةِ وَالنُّورِ بَعْدَ
الظُّلْمَةِ وَالْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَوْتِ فَسَكَنَ ثَائِرُهُ وَبَرُدَتْ جَوَانِحُهُ وَهَدَأَتْ نَفْسُهُ ثَوْرَةَ
الْغَضَبِ

الَّتِي كَانَتْ لَا تَزَالُ تَعْتَلِجُ بَيْنَ أَضْلَاعِهِ فَكَانَ إِذَا مَرَّ بِمَسْجِدٍ مِنْ تِلْكَ الْمَسَاجِدِ
الَّتِي اسْتَحَالَتْ إِلَى كَنَائِسٍ اسْتَطَاعَ أَنْ يَقِفَ أَمَامَهُ هُنَيْهَةً عَلَيْهِ يَرَى الْفَتَاةَ
الْإِسْبَانِيَّةَ بَيْنَ الدَّاخِلَاتِ إِلَيْهِ أَوْ الْخَارِجَاتِ مِنْهُ وَإِذَا رَأَى الصَّلِيبَ مُشْرِفًا عَلَى
رَأْسِ مِئْذَنَةِ ذِكْرِ الصَّلِيبِ الذَّهَبِيِّ الْجَمِيلِ وَإِذَا سَمِعَ أَصْوَاتَ النُّوَاقِيسِ تَرِنًا فِي
أَجْوَاзِ الْفَضَاءِ ذَكَرَ أَنَّهُ كَانَ يَسْمَعُ ذَلِكَ الصَّوْتِ الرَّنَّانَ فِي السَّاعَةِ الَّتِي رَأَاهَا
فِيهَا فَأَنِسَ بِهِ وَسَكَنَتْ نَفْسُهُ إِلَيْهِ .

وَكَذَلِكَ أَصْبَحَ هَذَا الْأَمِيرُ الْمُسْكِينُ وَلَا هُمْ لَهُ إِلَّا أَنْ يَتَمَشَّى صَبِيحَةَ كُلِّ يَوْمٍ عَلَى
ضِفَافِ نَهْرٍ شَنِيلٍ يَقْلِبُ نَظْرَهُ فِي أَبْوَابِ الْقُصُورِ الْمُشْرِفَةِ عَلَى ذَلِكَ النَّهْرِ عَلَيْهِ
يَعْرِفُ

قَصْرَ الْفَتَاةِ فَلَا يَعْرِفُهُ وَفِي وُجُوهِ الْغَادِيَاتِ وَالرَّائِحَاتِ مِنَ الْفَتَيَاتِ عَلَيْهِ يَرَاهَا
بَيْنَهُنَّ فَلَا يَرَاهَا حَتَّى إِذَا نَالَ مِنْهُ الْيَأْسُ انْكَفَأَ رَاجِعًا إِلَى مَقْبَرَةِ آبَائِهِ فِي
ظَاهِرِ الدِّينَةِ فَجَلَسَ بَيْنَ الْقُبُورِ يَذْرِفُ دُمُوعًا غَزَارًا لَا يَعْلَمُ هَلْ هِيَ دُمُوعُ
الذِّكْرِ الْقَدِيمَةِ أَوْ دُمُوعِ الذِّكْرِ الْجَدِيدَةِ .

نَكَبَ الدَّهْرُ فَلُورِنْدَا مُنْذُ عَامَيْنِ نَكَبَةً لَا تَزَالُ لَوْعَتَهَا مُتَّصِلَةً بِقَلْبِهَا حَتَّى
الْيَوْمِ فَقَدْ كَانَ أَبُوهَا رَئِيسَ جُمُيْعَةِ الْعِصَابَةِ الْمُقَدَّسَةِ الَّتِي قَامَتْ فِي وَجْهِ
الْحُكُومَةِ أَغْوَامًا طَوَالًا تُطَالِبُهَا بِالْحُرِّيَّةِ الدِّينِيَّةِ وَالشَّخْصِيَّةِ لِجَمِيعِ الشُّعُوبِ
الْحُكُومَةِ عَلَى اخْتِلَافِ مَذَاهِبِهَا وَأَجْنَاسِهَا حَتَّى أُعْيَارَ رِجَالُ الْحُكُومَةِ أَمْرَهُ .
الَّتِي مَاتَتْ عَلَى أَثَرِهِ حُزْنًا شَدِيدًا مَا كَانَ يُفَارِقُهَا فِي جَمِيعِ غَدَوَاتِهَا وَرُوحَاتِهَا
فَأَصْبَحَتْ وَهِيَ لَمْ تَسْلُخِ الثَّامِنَةَ مِنْ عُمْرِهَا تَعِيشُ فِي قَصْرِهَا عَيْشَ الزَّاهِدَاتِ
الْمُتَبَتَّلَاتِ فَكَانَ لَا يَرَاهَا الرَّائِي إِلَّا ذَاهِبَةً إِلَى الْكَنِيسَةِ أَوْ عَائِدَةً مِنْهَا لَا
يَصْحَبُهَا إِلَّا غُلَامُهَا أَوْ وَاقِفَةً عَلَى أَطْلَالِ الدَّوْلَةِ الْمَاضِيَةِ وَرُسُومِهَا تَقْلَبُ فِيهَا

نَظَرَ الْعِظَّةَ وَالْاِعْتِبَارَ أَوْ هَائِمَةً عَلَى وَجْهَهَا فِي مَرْوَجِ غَرْنَاطَةٍ وَبَسَاتِينَهَا حَتَّى
يَنْزِلَ سِتَارُ اللَّيْلِ فَتَعُودَ إِلَى قَصْرِهَا وَكَذَلِكَ كَانَ شَأْنُهَا فِي جَمِيعِ أَيَّامِهَا حَتَّى
سَمَّاها أَهْلُ غَرْنَاطَةِ الرَّاهِبَةِ الْجَمِيلَةِ .

فَإِنَّهَا لِسَائِرَةِ يَوْمًا بِجَانِبِ مَقْبَرَةِ بَنِي الْأَحْمَرِ إِذْ لَمَحَتْ عَلَى الْبُعْدِ فَتَى عَرَبِيًّا
مُكَبِّيًا عَلَى أَحَدِ الْقُبُورِ كَأَنَّمَا يُقْبَلُ صَفَائِحُهُ وَيُبَلِّ تَرْبَتُهُ بِدُمُوعِهِ فَرَثَتْ لِحَالِهِ
وَمَشَتْ نَحْوَهُ حَتَّى دَنَتْهُ فَأَحَسَّ بِهَا فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَعَرَفَهَا وَعَرَفَتْهُ فَقَالَتْ لَهُ إِنَّكَ
تَبْكِي

مُلُوكُكَ بِالْأَمْسِ أَيُّهَا الْفَتَى فَابْكِهِمْ كَثِيرًا فَقَدْ جَفَّ تَرَابُ قُبُورِهِمْ لِقَلَّةٍ مِنْ يَبْكِي
عَلَيْهِمْ قَالَ أَتُرِثِينَ لَهُمْ يَا سَيِّدَتِي قَالَتْ نَعَمْ لِأَنَّهُمْ كَانُوا عِظَمَاءَ فَنَكَبَهُمُ الدَّهْرُ
وَلَيْسَ أَحَقُّ بِدُمُوعِ الْبَاكِينَ مِنَ الْعِظَمَاءِ السَّاقِطِينَ قَالَ شُكْرًا لَكَ يَا سَيِّدَ فَهَذِهِ
أَوَّلُ سَاعَةٍ شَعَرْتُ فِيهَا بِبَرْدِ الْعِزَاءِ يَدِبُّ فِي صَدْرِي مُنْذُ وَطِئْتُ قَدَمَايَ
أَرْضَكُمْ هَذِهِ

قَالَتْ هَلْ زُرْتِ قُصُورَهُمْ وَأَثَارَهُمُ الَّتِي تَرَكُوهَا مِنْ بَعْدِهِمْ فِي هَذِهِ الدِّيَارِ
فَأَطْرَقَ

قَلِيلًا ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَإِذَا دَمْعَةٌ تَتَرَجَّرُ فِي مُقَلَّتَيْهِ وَقَالَ لَا يَا سَيِّدَتِي لَقَدْ حَاوَلْتُ
الدُّنُوءَ مِنْهَا فَطَرَدَنِي عَنْهَا الْمُؤَكَّلُونَ بِأَبْوَابِهَا كَأَنَّمَا هُمْ يَجْهَلُونَ أَنَّ لَيْسَ بَيْنَ
الْأَحْيَاءِ جَمِيعِهِمْ فِي هَذَا الْعَالَمِ كُلِّهِ مِنْ هُوَ أَوْلَى بِهَا مِنِّي قَالَتْ أَتَمَّتْ إِلَيَّ أَحَدٌ
مِنْ أَصْحَابِهَا بِنَسَبٍ أَوْ رَحِمٍ قَالَ لَا يَا سَيِّدَتِي وَلَكِنِّي عَبْدُهُمْ وَمَوْلَاهُمْ وَصَنِيعَةُ
أَيْدِيهِمْ وَغَرَسَ نِعْمَتَهُمْ فَلَا أُنْسَى وَلَاءَهُمْ مَا حَيَّيْتُ قَالَتْ إِنْ رَأَيْتُكَ غَدًا فِي مِثْلِ
هَذِهِ السَّاعَةِ فِي هَذَا الْمَكَانِ ذَهَبْتُ بِكَ إِلَى مَا تُرِيدُ مِنْهَا قَالَ لَنْ فَعَلْتُ لَا

يكونن امرؤ على وجه الأرض أشكر لنعمتك مني فحيته وأنصرفت ومضى هو إلى

خانه بين صباة تقيمه وتقده وأمل يميته ويحييه .

وفت فلورندا لصديقها العربي بما وعدته به فجاءته في اليوم الثاني فأزارته بعض الآثار ثم جاءته في اليوم الثالث فأزارته بعضاً آخر منها وهكذا ما زالا يجتمعان كل يوم ويفترقان ويختلفان إلى ما شاء من الرؤوم والآثار لا ينكر الناس من أمرهما شيئاً فقد كانوا إذا رأوهما معاً إن الرأهبة الجميلة تحاول أن تهديد الفتى العربي إلى دينها القويم حتى استحال العطف الذي كانت تضمه له في نفسها مع الأيام إلى حب شديد وكذلك العطف دائماً طريق الحب أو هو الحب نفسه لباساً ثوباً غير ثوبه إلا أن أحداً منهما لم يجروا أن يكشف صاحبه بما أضمره له في نفسه حتى جاء اليوم الذي عزم فيه

على زيادة قصر الحمراء وهو آخر ما بقي بين أيديهما من الآثار فلا لقاء بينهما بعد اليوم .

وقف الأمير امام قصر الحمراء فرأى سماء تطاول السماء وطوداً يناطح الجوزاء

وهضبة تشرف على الهضاب وسحابة تمر فوق السحاب وجبالاً تحسر عن قمته العيون

وتضل في جوانبه الظنون وحصناً تتقاصر عنه يد الأيام وتتهافت من حوله السنون والأعوام ثم دخل فإذا ملك كبير وجنة وحريير وقياب تقضي إليها

النُّجُومِ بِالْأَسْرَارِ وَأَبْرَاجِ تَنْزَلِقَ عَنْ سَطُوحِهَا يَدَ الْأَقْدَارِ وَصُحُونِ مَفْرُوشَةٍ
بِالْوَانِ

الْحَصْبَاءِ كَأَنَّهَا الرِّيَاضُ الزَّهْرَاءُ وَجُدْرَانِ صَقِيلَةٍ مَلْسَاءِ تَصِفُ مَا بَيْنَ يَدَيْهَا
مِنْ

الْأَشْيَاءِ كَمَا تَصِفُ الْمَرْأَةَ وَجْهَ الْحَسَنَاءِ وَكَأَنَّ كُلَّ جِدَارٍ مِنْهَا لَجَّةٌ مُتَلَاطِمَةٌ
الْأَمْوَاجِ يَحْبِسُهَا عَنْ الْجَرَيَانِ لَوْحٌ مِنْ زُجَاجٍ فَمَشَى يُقَلِّبُ نَظَرَ الْعِظَةِ وَالْإِعْتِبَارِ
بَيْنَ تِلْكَ الْمَشَاهِدِ وَالْآثَارِ وَيَتَنَغَّمُ فِي نَفْسِهِ يَقُولُ الْقَائِلُ .

وَقَفْتُ بِالْحَمْرَاءِ مُسْتَعْبِرًا مُعْتَبِرًا أَنْدُبُ أَشْتَاتًا
فَقُلْتُ يَا حَمْرَاءَ هَلْ وَجَعَةٌ قَالَتْ وَهَلْ يَرْجِعُ مَنْ مَاتَا
فَلَمْ أَزَلْ أَبْكِي عَلَى رَسْمِهَا هَيْهَاتَ يُغْنِي الدَّمْعُ هَيْهَاتَ
كَأَنَّمَا آثَارُ مَنْ قَدْ مَضَوْا نَوَادِبَ يَنْدُبِينَ أُمُومَاتًا
حَتَّى وَصَلْتُ إِلَى السَّاحَةِ الْكُبْرَى فَرَأَيْ صَحْنًا مَفْرُوشًا بِبِسَاطٍ مِنَ الْمَرْمَرِ
الْأَصْفَرِ قَدْ

دَارَاتِ بِهِ فِي جِهَاتِهِ الْأَرْبَعِ أَرْبَعَةٌ صُفُوفٌ مِنَ الْأَعْمَدَةِ النَجَافِ الطُّوَالِ
وَتَرَاعَتْ

فِي جَوَانِبِهِ حُجُرَاتٌ مُتَقَابِلَاتٌ تَعْلُوهَا قِبَابٌ مُشْرِفَاتٌ فَعَلِمَ أَنَّهَا حُجُرَاتُ الْأَمْرَاءِ
وَالْأَمِيرَاتِ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ فَهَاجَتْ فِي نَفْسِهِ الذِّكْرَى وَشَعَرَ أَنَّ صَدْرَهُ يُحَاوِلُ أَنْ
يَبْكِي

أَمَامَ فَلُورِنْدَا فَتَرَكَهَا فِي مَكَانِهَا لَاهِيَةً عَنْهُ بِالنَّظَرِ إِلَى بَعْضِ النَّقُوشِ وَمَشَى إِلَى
بَعْضِ تِلْكَ الْقَاعَاتِ حَتَّى دَانَاهَا فَكَانَ أَوَّلَ مَا تَنَاولَ نَظْرَهُ مِنْهَا سَطْرًا مَكْتُوبًا
عَلَى بَابِهَا فَمَا قَرَأَهُ حَتَّى صَبَّاحَ صَيْحَةٍ شَدِيدَةٍ قَائِلًا وَابْنَتَاهُ وَسَقَطَ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ

فَلَمْ يَسْتَفِيقْ إِلَّا بَعْدَ سَاعَةٍ طَوِيلَةٍ فَفَتَحَ عَيْنَيْهِ فَوَجَدَ رَأْسَهُ فِي حَجَرٍ فَلورندا وَوَجَدَ فِي عَيْنِهَا آثَارَ الْبُكَاءِ فَقَالَتْ لَهُ لَقَدْ كُنْتُ إِعْلَمُ قَبْلَ الْيَوْمِ أَنَّكَ تَكَاتَمَنِي شَيْئًا مِنْ أَسْرَارِ نَفْسِكَ وَالْآنَ عَرَفْتُ أَنَّكَ لَسْتَ عَبْدُ بَنِي الْأَحْمَرِ وَلَا مَوْلَاهُمْ كَمَا تَقُولُ وَلَكِنَّكَ أَحَدُ أُمَرَائِهِمْ وَأَنَّكَ السَّاعَةَ فِي قَصْرِ جَدِّكَ وَأَمَامَ حُجْرَةِ أَبِيكَ فَمَا أَسْوَأَ حَظِّكُمْ

يَا بَنِي الْأَحْمَرِ وَمَا أَعْظَمَ شَقَائِكَ أَيُّهَا الْأَمِيرُ الْمِسْكِينُ فَلَمْ يَجِدْ سَبِيلًا بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى كِتْمَانِ أَمْرِهِ فَأَنْشَأَ يَقُصُّ عَلَيْهَا قِصَّتَهُ وَقِصَّةَ أَهْلِ بَيْتِهِ وَمَا صَنَعَتْ يَدُ الدَّهْرِ بِهِمْ مُنْذُ جَلُّوا عَنِ الْأَنْدَلُسِ حَتَّى الْيَوْمِ فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ قِصَّتِهِ نَظَرَ إِلَيْهَا نَظْرَةً مُنْكَسِرَةً وَقَالَ لَهَا فَلورندا إِنَّ جَمِيعَ مَا لَقِيتُهُ مِنَ الشَّقَاءِ بِالْأَمْسِ يَصْغُرُ بِجَانِبِ الشَّقَاءِ الَّذِي تَدَّخِرُهُ لِي الْيَّامَ غَدًا قَالَتْ وَأَيَّ شَقَاءٍ يَنْتَظِرُكَ أَكْثَرَ مِمَّا أَنْتَ فِيهِ فَأَطْرَقَ هُنَيْهَةً ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَقَالَ أَنَّنِي أَسْتَطِيعُ أَنْ أُحْتَمِلَ كُلَّ شَيْءٍ فِي الْحَيَاةِ إِلَّا

أَنْ أَفَارِقَكَ فِرَاقًا لَا لِقَاءَ مِنْ بَعْدِهِ قَالَتْ أَتُحِبُّنِي أَيُّهَا الْأَمِيرُ ؟ قَالَ نَعَمْ حُبُّ الزَّهْرَةِ الذَّابِلَةِ لِلْقَطْرَةِ الْهَاطِلَةِ قَالَتْ وَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُحِبَّ فَتَاةَ مَسِيحِيَّةٍ لَا تَدِينُ بِدِينِكَ ؟ قَالَ نَعَمْ لِأَنَّ طَرِيقَ الدِّينِ فِي الْقَلْبِ غَيْرُ طَرِيقِ الْحُبِّ وَلَقَدْ وَجَدْتُ

فِيكَ الصِّفَاتِ الَّتِي أُحِبُّهَا فَأَحْبَبْتُكَ لَهَا ثُمَّ لَا شَأْنَ لِي بَعْدَ ذَلِكَ فِيمَا تَعْتَقِدِينَ قَالَتْ وَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُحِبَّ بِلَا أَمَلٍ قَالَ وَلِمَ لَا يَكُونُ الْحُبُّ نَفْسَهُ غَايَةً مِنَ الْغَايَاتِ الَّتِي نُجِدُ فِيهَا السَّعَادَةَ إِنَّ ظُفْرَنَا بِهَا وَمَتَى كَانَ لِلِسَّعَادَةِ فِيهِذِهِ الْحَيَاةِ نِهَايَةٌ مَحْدُودَةٌ فَلَا نُجِدُ الرَّاحَةَ إِلَّا إِذَا وَصَلْنَا إِلَى نِهَائِهَا ؟ وَكَانَ اللَّيْلُ قَدْ أَظْلَمَ فَبَرِحَا مَكَانَهُمَا وَمَشِيًا يَتَحَدَّثَانِ حَتَّى بَلَغَا الْمَوْضِعَ الَّذِي

اعْتَادَا أَنْ يَفْتَرِقَا فِيهَا فَوَضَعَتْ فَلورندا يَدَهُ فِي يَدِهَا وَقَالَتْ لَهُ سَأُحِبُّكَ كَمَا
أَحْبَبْتَنِي أَيُّهَا الْأَمِيرُ وَسَيَكُونُ حَيٌّ لَكَ بَلَا أَمَلٍ كَحُبِّكَ كَمَا أَحْبَبْتَنِي أَيُّهَا
الْأَمِيرُ وَسَيَكُونُ حَيٌّ لَكَ بَلَا أَمَلٍ كَحُبِّكَ وَلَقَدْ فَرَّقَ الدَّيْنُ بَيْنَ جَسَدَيْنَا فَلْيَجْمَعْ
الْحُبَّ

بَيْنَ قَلْبَيْنَا وَتَرَكَتَهُ وَانْصَرَفَتْ .

ثُمَّ مَرَّتْ بِهِمَا بَعْدَ ذَلِكَ أَيَّامَ سَعْدًا فِيهَا بِنِعْمَةِ الْعَيْشِ سَعَادَةٌ أَنْسَتْهُمَا جَمِيعَ مَا
لَقِيَا فِي حَيَاتِهِمَا الْمَاضِيَةِ مِنْ شَقَاءٍ وَعَنَاءٍ فَأَصْبَحَا فَوْقَ أَرْضِ غَرْنَاطَةِ وَتَحْتَ
سَمَائِهَا طَائِرَيْنِ جَمِيلَيْنِ يَطِيرَانِ حَيْثُ يَصْفُو لَهُمَا وَجْهَ السَّمَاءِ وَتَرَقُّقَ صَفْحَةِ
الْهَوَاءِ وَيَقَعَانِ حَيْثُ يَطِيبُ لَهُمَا التَّغْرِيدُ وَالتَّنْفِيرُ فَلَيْتَ الدَّهْرُ يَنَامَ عَنْهُمَا
وَيَتْرُكُهُمَا وَشَأْنَهُمَا وَلَا يُنْفَسُ عَلَيْهِمَا هَذِهِ السَّاعَاتُ الْقَلِيلَةُ مِنَ السَّعَادَةِ الَّتِي
إِتْبَاعَاهَا بِكَثِيرٍ مِنْ دُمُوعِهِمَا وَالْأَلَمِهَا وَالَّتِي لَا يَمْلِكَانِ مِنْ سَعَادَةِ الْحَيَاةِ
سِوَاهَا فَإِنْ خَسِرَاهَا خَسِرَا كُلَّ شَيْءٍ ؟

بَيْنَمَا هُمَا جَالِسَانِ ذَاتَ يَوْمٍ عَلَى ضِفَّةِ جَدُولٍ مِنْ جَدَاوِلِ عَيْنِ الدَّمْعِ إِذْ مَرَّ بِهِمَا
الدُّونُ رُودْرِيكُ ابْنِ حَاكِمِ مَدِينَةِ غَرْنَاطَةِ فَرَأَاهَا فِي مَجْلِسِهَا هَذَا مِنْ حَيْثُ لَا
يُرِيَانِهِ وَكَانَ قَدْ رَأَى فَلورندا قَبْلَ الْيَوْمِ فَأَحْبَبَهَا فَاخْتَلَفَ إِلَى مَنْزِلِهَا أَيَّامًا
يَتَحَبَّبُ إِلَيْهَا وَيَدْعُوهَا إِلَى الزَّوْاجِ مِنْهُ فَأَبَتْ أَنْ تُصْنَعِيَ إِلَيْهِ وَقَالَتْ لَهُ إِنَّنِي لَا
أَتَزَوَّجُ ابْنَ قَاتِلِ أَبِي فَاَنْصَرَفَ بِلَوْعَةٍ لَا تَزَالُ كَامِنَةً فِي نَفْسِهِ حَتَّى الْيَوْمِ فَلَمَّا
رَأَاهَا جَالِسَةً مَجْلِسِهَا هَذَا زَعَمَ فِي نَفْسِهِ أَنَّهَا مَا أَوْصَدَتْ بَابَ قَبْلِهَا فِي وَجْهِهِ إِلَّا
لِأَنَّهَا كَانَتْ قَدْ فَتَحَتْهُ مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ الْفَتَى الْعَرَبِيِّ الْجَمِيلِ الَّذِي يُجَالِسُهَا فَذَهَبَ
إِلَى قَصْرِهَا فِي الْيَوْمِ الثَّانِي لِیُفْضِيَ إِلَيْهَا بِمَا وَقَعَ فِي نَفْسِهِ فَأَبَتْ أَنْ تُقَابِلَهُ
فَخَرَجَ غَاضِبًا يُحَدِّثُ نَفْسَهُ بِأَفْطَحِ أَنْوَاعِ الْإِنْتِقَامِ .

وَمَا هِيَ إِلَّا أَيَّامٌ قَلِيلٌ حَتَّى سَيَقَ الْأَمِيرَ سَعِيدَ بْنِ يُوسُفَ بْنِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ سَلِيلَ
 بَنِي الْأَحْمَرِ مُلُوكَ هَذِهِ الْبِلَادِ بِالْأَمْسِ وَمُؤَسَّسِي مَجْدِهَا وَعَظَمَتِهَا وَبُنَاةَ قِلَاعِهَا
 وَحُصُونِهَا وَأَصْحَابَ قُصُورِهَا وَبَسَاتِينِهَا ذَلِيلًا مُهَانًا إِلَى مَحْكَمَةِ التَّقْطِيشِ مُتَّهَمًا
 بِمُحَاوَلَةِ إِغْرَاءِ فَتَاةٍ مَسِيحِيَّةٍ بِتَرْكِ دِينِهَا وَهِيَ عِنْدَهُمْ أَفْطَحَ الْجَرَائِمِ وَأَهْوَلُهَا .
 وَقَفَ الْأَمِيرُ أَمَامَ قُضَاةِ مَحْكَمَةِ التَّقْطِيشِ فَسَأَلَهُ الرَّئِيسُ عَنْ تَهْمَتِهِ فَأَنْكَرَهَا فَلَمْ
 يَحْقُلْ بِإِنْكَارِهِ وَقَالَ لَهُ لَا يُدَلُّ عَلَى بَرَاءَتِكَ إِلَّا أَمْرٌ وَاحِدٌ وَهُوَ أَنْ تَتْرَكَ دِينَكَ
 وَتَأْخُذَ بِدِينِ الْمَسِيحِ فَطَارَ الْغَضَبُ فِي دِمَاغِهِ وَصَرَخَ صَرَخَةً دَوَّتْ بِهَا أَرْجَاءُ
 الْقَاعَةِ

وَقَالَ :

فِي أَيِّ كِتَابٍ مِنْ كُتُبِكُمْ وَفِي أَيِّ عَهْدٍ مَعْهُودٍ أَنْبِئَانِيكُمْ وَرُسُلَكُمْ أَنْ سَفَكَ الدَّمَ
 عِقَابَ

الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِإِيمَانِكُمْ وَلَا يَدِينُونَ بِدِينِكُمْ ؟
 مَنْ أَيِّ عَالَمٍ مِنْ عَوَالِمِ الْأَرْضِ أَوْ السَّمَاءِ أَتَيْتُمْ بِهِذِهِ الْعُقُولَ الَّتِي تُصَوِّرُ لَكُمْ أَنَّ
 الشُّعُوبَ تُسَاقُ إِلَى الْإِيمَانِ سُوقًا وَأَنَّ الْعَقَائِدَ تُسْقَى لِلنَّاسِ كَمَا يُسْقَى الْمَاءُ
 وَالْخَمْرُ ؟

أَيْنَ الْعَهْدِ الَّذِي اتَّخَذْتُمُوهُ عَلَى أَنْفُسِكُمْ يَوْمَ وَطِئْتُمْ أَقْدَامَكُمْ هَذِهِ الْبِلَادَ أَنْ
 تَتْرَكُونَا أَحْرَارًا فِي عَقَائِدِنَا وَمَذَاهِبِنَا وَأَنْ لَا تُؤْذُونَا فِي عَاطِفَةٍ مِنْ عَوَاطِفِ
 قُلُوبِنَا وَلَا فِي شَعِيرَةٍ مِنْ شَعَائِرِ دِينِنَا ؟
 أَهَذَا الَّذِي تَصْنَعُونَ الْيَوْمَ وَالَّذِي صَنَعْتُمْ بِالْأَمْسِ هُوَ كُلُّ مَا عِنْدَكُمْ مِنَ الْوَفَاءِ
 بِالْعُهُودِ وَالرَّعْيِ لِلذِّمَمِ ؟

نَعَمْ لَكُمْ أَنْ تَفْعَلُوا مَا تَشَاءُونَ فَقَدْ خَلَا لَكُمْ وَجْهُ الْبِلَادِ وَأَصْبَحَتْ الْقُوَّةُ

وَالسُّلْطَانُ فِيهَا وَلِلْإِسْلَامِ عِزَّةٌ وَلَا تُبَالِي بِعَهْدٍ وَلَا وَفَاءٍ .
 إِنَّ الْعُهُودَ الَّتِي يُكُونُ بَيْنَ الْأَقْوِيَاءِ وَالضُّعَفَاءِ إِنَّمَا هِيَ سَيْفٌ قَاطِعٌ فِي يَدِ
 الْأَوَّلِينَ وَغِلٌّ مُلْتَفٌّ عَلَى أَعْنَاقِ الْآخِرِينَ فَلَا أَقَالَ اللَّهُ عَثْرَةَ الْبُلْهَاءِ وَلَا أُقِرُّ
 عُيُونَ الْأَغْيَاءِ .

أَنْتُمْ أَقْوِيَاءُ وَنَحْنُ ضُعَفَاءُ فَأَنْتُمْ أَصْحَابُ الْحَقِّ الْأَبْلَجِ وَالْحُجَّةِ الْقَائِمَةِ فَاصْنَعُوا
 مَا شِئْتُمْ فَهَا حَقُّكُمْ الَّذِي خَوَّلْتُمْ إِيَّاهُ قُوَّتَكُمْ .

اسفكوا مِنْ دِمَائِنَا مَا شِئْتُمْ واسلبوا مِنْ حُقُوقِنَا مَا أَرَدْتُمْ واملكوا عَلَيْنَا
 مَشَاعِرَنَا وَعُقُولَنَا حَتَّى لَا نَدِينُ إِلَّا بِمَا تَدِينُونَ وَلَا نَذْهَبُ إِلَّا حَيْثُ تَذْهَبُونَ فَقَدْ
 عَجَزْنَا عَنْ أَنْ نَكُونَ أَقْوِيَاءَ فَلَا بُدَّ أَنْ يَنَالَنَا مَا يَنَالُ الضُّعَفَاءُ .
 ثُمَّ حَاوَلَ الْإِسْتِمْرَارُ فِي حَدِيثِهِ فَقَاطَعَهُ الرَّئِيسُ وَأَمَرَ أَنْ يُسَاقَ إِلَى سَاحَةِ الْمَوْتِ
 الَّتِي هَلَكَ فِيهَا مِنْ قَبْلِهِ عَشْرَةُ آلَافٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَتْلًا أَوْ حَرْقًا فَسِيقَ إِلَيْهَا
 وَاجْتَمَعَ النَّاسُ حَوْلَ مَصْرَعِهِ رِجَالًا وَنِسَاءً وَمَا جَرَدَ الْجِلَادُ سَيْفَهُ فَوْقَ رَأْسِهِ
 حَتَّى

سَمِعَ النَّاسُ صَرْخَةَ امْرَأَةٍ بَيْنَ الصُّفُوفِ فَالْتَفَتُوا فَلَمْ يَعْرِفُوا مَصْدَرَهَا وَمَا هِيَ
 إِلَّا

غَمُضَةٌ وَانْتِبَاهَةٌ أَنْ سَقَطَ ذَلِكَ الرَّأْسُ الَّذِي لَيْسَ لَهُ مِثِيلٌ .
 يَرَى الْمَارَّ الْيَوْمَ بِجَانِبِ مَقْبَرَةِ نَبِيِّ الْأَحْمَرِ فِي ظَاهِرِ غَرْنَاطَةِ قَبْرٍ جَمِيلًا
 مُزَخْرَفًا هُوَ قِطْعَةٌ وَاحِدَةٌ مِنَ الرُّخَامِ الْأَزْرَقِ الصَّافِي قَدْ نُحِتَتْ فِي سَطْحِهَا
 حُفْرَةٌ

وَفَاءٌ تَمْتَلِي بِمَاءِ الْمَطَرِ فِيهِوَى إِلَيْهَا الطَّيْرُ فِي أَيَّامِ الصَّيْفِ الْحَارِّ فَيَشْرَبُ
 مِنْهَا وَنُقِشَتْ عَلَى ضِلْعٍ مِنْ أَضْلَاعِهَا هَذِهِ السُّطُورُ :

هَذَا قَبْرُ آخِرِ بَنِي الْأَحْمَرِ
 مِنْ صَدِيقَتِهِ الْوَفِيَّةِ بَعْدَهُ حَتَّى الْمَوْتِ
 فلورندا فيليب

الْهَآوِيَّة

مَوْضُوعَةٌ

مَا أَكْثَرَ أَيَّامَ الْحَيَاةِ وَمَا إِقْلَاهَا ؟

لَمْ أَعِشْ مِنْ تِلْكَ الْأَعْوَامِ الطُّوَالَ الَّتِي عِشْتُهَا فِيهِذَا الْعَالَمِ إِلَّا عَامًا وَاحِدًا
مُرَّ بِي كَمَا يَمُرُّ النَّجْمُ الدَّهْرِيُّ فِي مَسَاءِ الدُّنْيَا لَيْلَةً وَاحِدَةً ثُمَّ لَا يَرَاهُ النَّاسُ
بَعْدَ ذَلِكَ .

قَضَيْتُ الشَّطْرَ الْأَوَّلَ مِنْ حَيَاتِي أُفْتِّشُ عَنْ صَدِيقٍ يَنْظُرُ إِلَيَّ أَصْدِقَانِهِ بَعَيْنَ
غَيْرِ الْعَيْنِ

الَّتِي يُنِيرُ بِهَا التَّاجِرُ إِلَى سِلْعَتِهِ وَالزَّارِعُ إِلَى مَاشِيَّتِهِ فَأَعُوزُنِي ذَلِكَ حَتَّى عَرَفْتُ
فَلَانًا مُنْذُ ثَمَانِي عَشْرَةَ عَامًا فَعَرَفْتُ امْرَأً مَا شِئْتُ أَنْ أَرَى خَلَّةً مِنْ خِلَالِ الْخَبَرِ
وَالْمَعْرُوفِ فِي ثِيَابِ رَجُلٍ إِلَّا وَجَدْتُهَا فِيهِ وَلَا تَخَلَّيْتُ صُورَةَ مِنْ صُورِ الْكَمَالِ
الْإِنْسَانِيِّ فِي وَجْهِ إِنْسَانٍ إِلَّا أَضَاءَتْ لِي فِي وَجْهِهِ فَجَلَّتْ مَكَانَتُهُ عِنْدِي وَنَزَلَ
مِنْ

نَفْسِي مَنْزِلَةً لَمْ يَنْزِلْهَا أَحَدٌ مِنْ قَبْلِهِ وَصَفَتْ كَأْسَ الْوَدِّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ لَا يُكَدِّرُهَا
عَلَيْنَا مُكَدِّرٌ حَتَّى عُرِّضَ إِلَيَّ مِنْ حَوَادِثِ الدَّهْرِ مَا أَرْعَجَنِي مِنْ مُسْتَقَرِّي
فَهَجَرْتُ

الْقَاهِرَةَ إِلَى مَسْقَطِ رَاسِي غَيْرَ أَسْفَ عَلَى شَيْءٍ فِيهَا إِلَّا عَلَى فِرَاقِ ذَلِكَ
الصَّدِيقِ

الْكَرِيمِ فَتُرَاسِلُنَا حِقْبَةً مِنَ الزَّمَنِ ثُمَّ فَتَرَتْ عَيْنِي كُتُبَهُ ثُمَّ انْقَطَعَتْ فَحَزِنْتُ لِذَلِكَ
حُزْنًا شَدِيدًا وَذَهَبَتْ بِي الظُّنُونُ فِي شَأْنٍ ; هَ كُلِّ مَذْهَبٍ إِلَّا أَنْ أُرْتَابَ فِي صِدْقِهِ
وَوَفَائِهِ وَكُنْتُ كَمَا هَمَمْتُ بِالْمُسِيرِ إِلَيْهِ لَتَعْرِفَ حَالَهُ قَعْدَ بِي عَنْ ذَلِكَ هُمْ كَانَ
يُقْعِدُنِي عَنْ كُلِّ شَأْنٍ حَتَّى شَأْنِ نَفْسِي فَلَمْ أَعُدْ إِلَى لِقَا هِرَةِ إِلَّا بَعْدَ أَعْوَامٍ فَكَانَ
أَوَّلَ هَمِّي يَوْمَ هَبَطْتُ أَرْضَهَا أَنْ أَرَاهُ فَذَهَبَتْ إِلَى مَنْزِلِهِ فِي السَّاعَةِ الْأُولَى مِنْ
الَّيْلِ فَرَأَيْتُ مَا لَا تَرَالِ حَسْرَتِهِ مُتَّصِلَةً بِقَلْبِي حَتَّى الْيَوْمَ .

تَرَكْتُ هَذَا الْمَنْزِلَ فِرْدَوْسًا صَغِيرًا مِنْ فَرَادِيسِ الْجَنَّاتِ تَتَرَاءَى فِيهِ السَّعَادَةُ فِي
أَلْوَانِهَا الْمُخْتَلِفَةِ وَتَتَرَقَّرِقُ وَجُوهُ سَاكِنِيهِ بِشَرًّا وَسُرُورًا ثُمَّ زُرْتُهُ الْيَوْمَ فَخِيلَ
إِلَيَّ أَنَّنِي أَمَامَ مَقْبَرَةٍ مُوحِشَةٍ سَاكِنَةٍ لَا يَعْتَفُ فِيهَا صَوْتُ وَلَا يَتَرَاءَى فِي
جَوَانِبِهَا

شَبَحَ وَلَا يَلْمَعُ فِي أَرْجَائِهَا مِصْبَاحُ فَظَنَنْتُ أَنِّي أَخْطَأْتُ الْمَنْزِلَ الَّذِي أُرِيدُهُ أَوْ
أَنَّيَ بَيْنَ يَدَيِ مَنْزِلٍ مَهْجُورٍ حَتَّى سَمِعْتُ بُكَاءَ طِفْلِ صَغِيرٍ وَلَمَحْتُ فِي بَعْضِ
النَّوَافِدِ

نُورًا ضَعِيفًا فَمَشَيْتُ إِلَى الْبَابِ فَطَرَقْتُهُ فَلَمْ يُجَنِّبْنِي أَحَدٌ فَطَرَقْتُهُ أُخْرَى فَلَمَحْتُ
مِنْ خِصَاصِهِ نُورًا مُقْبِلًا ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ انْفَرَجَ لِي عَنْ وَجْهِ غُلَامٍ صَغِيرٍ فِي
أَسْمَالِ

بَالِيَةٍ يَحْمِلُ فِي يَدِهِ مِصْبَاحًا ضَعِيفًا فَتَأَمَّلْتُهُ عَلَى ضَوْءِ الْمِصْبَاحِ فَرَأَيْتُ فِي
وَجْهِهِ

صُورَةَ أَبِيهِ فَعَرَفْتُ أَنَّهُ لَكَ الطِّفْلُ الْجَمِيلُ الْمُدَلَّلُ الَّذِي كَانَ بِالْأُمِّسِ زَهْرَةً هَذَا

الْمَنْزِلَ وَبَدَرَ سَمَائِهِ فَسَأَلَتْهُ عَنْ أَبِيهِ فَأَشَارَ إِلَيَّ بِالْدُّخُولِ وَمَشَى أَمَامِي
بِمُصَاحِبِهِ

حَتَّى وَصَلَ بِي إِلَى فَأَشَارَ إِلَيَّ بِالْدُّخُولِ وَمَشَى أَمَامِي بِالْإِغْوَاءِ حَتَّى وَصَلَ بِي
إِلَى

قَاعَةَ شَعْنَاءَ مُغْبَرَّةً بِأَلِيَّةِ الْمَقَاعِدِ وَالْأُسْتَارِ وَلَوْلَا نُقُوشُ لَاحَتْ لِي فِي بَعْضِ
جُذُرَانِهَا كَبَاقِي الْوَشْمِ فِي ظَاهِرِ الْيَدِ مَا عَرَفْتُ أَنَّهَا الْقَاعَةُ الَّتِي قَضَيْنَا فِيهَا
لَيَالِيَ السَّعَادَةِ وَالْهَنَاءِ اثْنَيْ عَشَرَ هَلَالًا ثُمَّ جَرَى بَيْنِي وَبَيْنَ الْغُلَامِ حَدِيثٌ قَصِيرٌ
عُرِفَ فِيهِ مَنْ أَنَا وَعَرَفْتُ أَنَّ أَبَاهُ لَمْ يَعُدْ إِلَى الْمَنْزِلِ حَتَّى السَّاعَةِ وَأَنَّهُ عَائِدٌ
عَمَّا قَلِيلٍ ثُمَّ تَرَكَنِي وَمَضَى وَمَا لِي بِيْتٍ إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى عَادَ يَقُولُ لِي إِنَّ وَالدَّيْنَةَ
تُرِيدُ أَنْ تُحَدِّثَنِي حَدِيثًا يَتَعَلَّقُ بِأَبِيهِ فَخَفَقَ قَلْبِي خَفَقَةَ الرُّعْبِ وَالْخَوْفِ وَأَحْسَسْتُ
بِشَرٍّ لَمْ أَعْرِفْ مَأْتَاهُ ثُمَّ التَّقْتُ فَإِذَا امْرَأَةٌ مُلْتَفَّةٌ بِرِدَاءٍ أَسْوَدَ وَاقِفَةٌ عَلَى عَتَبَةِ
الْبَابِ فَحَيَّيْتَنِي فَحَيَّيْتُهَا ثُمَّ قَالَتْ لِي هَلْ عَلِمْتَ مَا صَنَعَ الدَّهْرُ بِفُلَانٍ مِنْ بَعْدِكَ
قُلْتُ لَا فَهَذَا أَوَّلُ يَوْمٍ هَبَطْتُ فِيهِ هَذَا الْبَلَدَ بَعْدَ مَا فَارَقْتُهُ سَبْعَةَ أَعوَامٍ قَالَتْ
لَيْتَكَ لَمْ تُفَارِقْهُ فَقَدْ كُنْتُ عِصْمَتَهُ الَّتِي يَعْتَصِمُ بِهَا وَحِمَاهُ مِنْ غَوَائِلِ الدَّهْرِ
وَشُرُورِهِ فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ فَارَقْتُهُ حَتَّى أَحَاطَتْ بِهِ زُمْرَةٌ مِنْ زَمْرِ الشَّيْطَانِ وَكَانَ
فَنِّي

كَمَا تَعَلَّمُهُ غَرِيرًا سَازِجًا فَمَا زَالَتْ تُغْرِيه بِالْشَّرِّ وَتُرِينُ لَهُ مِنْهُ مَا يُزِينُ
الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ حَتَّى سَقَطَ فِيهَا فَسَقَطْنَا جَمِيعًا فِي هَذَا الشَّقَاءِ الَّذِي تَرَاهُ قُلْتُ
وَأَيَّ شَرٍّ تُرِيدِينَ يَا سَيِّدَتِي وَمَنْ هُمْ الَّذِينَ أَحَاطُوا بِهِ بِالْإِغْوَاءِ قَالَتْ سَأُقْصُّ
عَلَيْكَ

كُلَّ شَيْءٍ فَاسْتَمِعْ لِمَا أَقُولُ :

مَا زَالَ الرَّجُلُ بِخَيْرٍ اتَّصَلَ بِفُلَانٍ رَئِيسِ دِيَوَانِهِ وَعُلِّقَتْ حَبَالُهُ وَأَصْبَحَ مِنْ خَاصَّتِهِ

الَّذِينَ لَا يُفَارِقُونَ مَجْلِسَهُ حَيْثُ كَانَ وَلَا تَزَالُ نِعَالُهُمْ خَافِقَةً وَرَاءَهُ فِي غَدَوَاتِهِ وَرُوحَاتِهِ فَاسْتَحَالَ مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ أَمْرُهُ وَتَكَرَّرَتْ صُورَةُ أَخْلَافِهِ وَأَصْبَحَ مُنْقَطِعًا عَنْ

أَهْلِهِ وَأَوْلَادِهِ لَا يَرَاهُمْ إِلَّا الْفَنِيَّةُ بَعْدَ الْفَنِيَّةِ وَعَنْ مَنْزِلِهِ لَا يَزُورُهُ إِلَّا فِي أُخْرِيَّاتِ اللَّيَالِي وَلَقَدْ اغْتَبَطَتْ فِي مَبْدَأِ الْأَمْرِ بَيْتَكَ الْحُظُوءَةَ الَّتِي نَالَهَا عِنْدَ ذَلِكَ الرَّئِيسِ وَالْمَنْزِلَةَ الَّتِي نَالَهَا مِنْ نَفْسِهِ وَرَجَوَتْ لَهُ مِنْ وَرَائِهَا خَيْرًا كَثِيرًا مَغْتَفَرَةً فِي سَبِيلِ ذَلِكَ مَا كُنْتُ أَشْعُرُ بِهِ مِنَ الْوَحْشَةِ وَالْأَلَمِ لَانْقِطَاعِهِ عَنِّي وَإِغْفَالِهِ أَمْرِي وَأَمْرَ أَوْلَادِهِ حَتَّى عَادَ فِي لَيْلَةٍ مِنَ اللَّيَالِي شَاكِيًا مُتَأَلِّمًا يُكَابِدُ غَصَصًا شَدِيدَةً وَالْأَلَمَ جِسَامًا فَدَنَوْتُ مِنْهُ فَشَمَمْتُ مِنْ فَمِهِ رَائِحَةَ الْخَمْرِ فَعَلِمْتُ كُلَّ شَيْءٍ .

عَلِمْتُ أَنَّ ذَلِكَ الرَّئِيسَ الْعَظِيمَ هُوَ قُدُوءَةٌ مَرُءُوسِيهِ فِي الْخَيْرِ إِنْ سَلَكَ طَرِيقَ الْخَيْرِ

وَالشَّرِّ إِنْ سَلَكَ طَرِيقَ الشَّرِّ قَادَ زَوْجِي الْفَتَى الْمَسْكِينِ إِلَى شَرِّ الطَّرِيقَيْنِ وَسَلَكَ بِهِ

أَسْوَأَ السَّبِيلَيْنِ وَأَنَّهُ مَا كَانَ يَتَّخِذُهُ صَدِيقًا كَمَا زَعَمَ بَلْ نَدِيمًا عَلَى الشَّرَابِ فَتَوَسَّلْتُ إِلَيْهِ بِكُلِّ عَزِيزٍ عَلَيْهِ وَسَكَبْتُ عَلَى يَدَيْهِ مِنَ الدُّمُوعِ كُلِّ مَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَسْكُبَهُ عَيْنَ رَجَاءٍ أَنْ يَعُودَ إِلَى حَيَاتِهِ الْأُولَى الَّتِي كَانَ يَحْيَاهَا سَعِيدًا بَيْنَ أَهْلِهِ وَأَوْلَادِهِ فَمَا أَجْدَيْتُ عَلَيْهِ شَيْئًا ثُمَّ عَلِمْتُ بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّ الْيَدَ الَّتِي سَاقَتْهُ إِلَى الشَّرَابِ قَدْ سَاقَتْهُ إِلَى اللَّعِبِ فَلَمْ أَعْجَبْ لِذَلِكَ لِأَنِّي أَعْلَمُ أَنَّ طَرِيقَ الشَّرِّ

وَاحِدَةً فَمَنْ وَقَفَ عَلَى رَأْسِهَا لَابُدَّ لَهُ أَنْ يَنْحَدِرَ فِيهَا حَتَّى يَصِلَ إِلَى نِهَائِهَا
فَأَصْبَحَ ذَلِكَ الْفَنِّي النَّبِيلَ الشَّرِيفَ الَّذِي كَانَ يَعِفُّ بِالْأَمْسِ عَنْ شَرْبِ الدَّوَاءِ إِذَا
إِسْتَمَّ فِيهِ رَائِحَةُ النَّبِيذِ وَيَسْتَحْيِي أَنْ يَجْلِسَ فِي مُجْتَمَعٍ يَجْلِسُ فِيهِ قَوْمٌ شَارِبُونَ
سَكِيرًا مُقَامِرًا مُسْتَهْتَرًا لَا بِالْإِغْوَاءِ وَلَا يَتْلُومُ وَلَا يُبْقِي عَارًا وَلَا مَأْثَمًا وَأَصْبَحَ
ذَلِكَ اللَّابُ الرَّحِيمُ وَالزَّوْجُ الْكَرِيمُ الَّذِي كَانَ يَضُنُّ بِأَوْلَادِهِ أَنْ يُعْلَقَ بِهِمُ الذَّرُّ
وَبَزَوْجِهِ أَنْ يَتَهَجَّمَ لَهَا وَجْهَ السَّمَاءِ أَبَا قَاسِيًا وَزَوْجًا سَلِيطًا يَضْرِبُ أَوْلَادَهُ كُلَّمَا
دُنُو مِنْهُ وَيَشْتُمُ زَوْجَتَهُ وَيَنْتَهَرُهَا كُلَّمَا رَأَاهَا وَأَصْبَحَ ذَلِكَ الرَّجُلُ الْغَيُورُ الضَّئِينُ
بِعَرَضِهِ وَشَرَفَهُ لَا يُبَالِي أَنْ يَعُودَ إِلَى الْمَنْزِلِ فِي بَعْضِ اللَّيَالِي فِي جَمْعٍ مِنْ
عَشْرَائِهِ الْأَشْرَارِ فَيَصْنَعُ بِهِمْ إِلَى الطَّبَقَةِ الَّتِي أَنَامَ فِيهَا أَنَا وَأَوْلَادِي فَيَجْلِسُونَ
فِي بَعْضِ غُرْفِهَا وَلَا يَزَالُونَ يَشْرَبُونَ وَيَقْصِفُونَ حَتَّى يَذْهَبَ بِعُقُولِهِمُ الشَّرَابُ
فِيهِتَاجُوا وَيَرْقُصُوا بِالْإِغْوَاءِ الْجَوِّ صُرَاخًا وَهْتَا فَا ثُمَّ يَتَعَادُوا بَعْضُهُمْ وَرَاءَ فِي
الْأُبْهَاءِ وَالْحُجُرَاتِ حَتَّى يَلْجُوا عَلَى بَابِ غُرْفَتِي وَرُبَّمَا حَدَّقَ بَعْضُهُمْ فِي
وَجْهِي أَوْ

حَاوَلَ نَزْعَ خِمَارِي عَلَى مَرَأَى مِنْ زَوْجِي وَمَسْمَعَ فَلَا يَقُولُ شَيْئًا وَلَا يَسْتَتَكِرُ
أَمْرًا

فَأَفِرُّ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ وَرُبَّمَا فَرَرْتُ مِنَ الْمَنْزِلِ جَمْعِيهِ وَخَرَجْتُ
بَلَا

إِزَارَ وَلَا خِمَارَ غَيْرَ إِزَارِ الظَّلَامِ وَخِمَارِهِ حَتَّى أَصِلَ إِلَى بَيْتِ جَارَةٍ مِنْ
جَارَاتِي

فَأَقْضِي عَنْدهُمْ بَقِيَّةَ اللَّيْلِ .

وَهُنَا تَغَيَّرَتْ نَغْمَةٌ صَوْتَهَا فَأَمْسَكَتْ عَنِ الْحَدِيثِ وَأَطْرَقَتْ بِرَأْسِهَا فَعَلِمْتُ أَنَّهَا تَبْكِي

فَبَكَيْتُ بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِي لِبُكَائِهَا ثُمَّ رَفَتُ رَأْسَهَا وَعَادَتْ إِلَى حَدِيثِهَا تَقُولُ :
وَمَا هِيَ إِلَّا أَعْوَامٌ قَلَائِلُ حَتَّى أَنْفَقَ جَمِيعَ مَا كَانَ فِي يَدِهِ مِنَ الْمَالِ فَكَانَ لَابُدَّ
لَهُ أَنْ يَسْتَدِينَ فَفَعَلَ فَأَتَقَلَّهَ الدَّيْنُ فَرَهَنَ فَعَجَزَ عَنِ الْوَفَاءِ فَبَاعَ جَمِيعَ مَا يَمْلِكُ
حَتَّى هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي نَسَكُنُهُ وَلَمْ يَبْقَ فِي يَدِهِ غَيْرُ رَاتِبِهِ الشَّهْرِيِّ الصَّغِيرِ بَلْ لَمْ
يَبْقَ فِي يَدِهِ شَيْءٌ حَتَّى رَاتِبِهِ لِأَنَّهُ لَا يَمْلِكُهُ إِلَّا سَاعَةٌ مِنْ نَهَارٍ ثُمَّ هُوَ بَعْدَ ذَلِكَ
مِلْكٌ لِلدَّائِنِينَ أَوْ غَنِيمَةٌ لِلْمُقَامِرِينَ .

هَذَا مَا صَنَعَتْ يَدُ الدَّهْرِ بِهِ أُمًّا مَا صَنَعَتْ بِي وَبِأَوْلَادِي فَقَدْ مَرَّ عَلَى آخِرِ حَلِيَّةٍ
بِعَثَّتْهَا مِنْ حَلَايَا عَامٍ كَامِلٍ وَهِيَ حَوَانِيْتُ الْمُرَابِّينَ وَالْمُسْتَرْهَنِينَ مَلَأَى
بِمَلَابِسِي

وَأَدَوَاتِ بَيْتِي وَأَثَانَهُ وَلَوْ لَأَ رَجُلٌ مِنْ ذَوِي بَالِغِ غَوَاءٍ رَقِيقَ الْحَالِ يَعُودُ عَلَيَّ مِنْ
حِينَ

إِلَى حِينَ بِالْزَّرْرِ الْقَلِيلِ مِمَّا يَسْتَلُّهُ مِنْ أَشْدَاقِ عِيَالِهِ لَهَلَكْتُ وَهَلَكَ أَوْلَادِي جُوعًا .

فَلَعَلَّكَ تَسْتَطِيعُ يَا سَيِّدِي أَنْ تَكُونَ عَوْنًا لِي عَلَى هَذَا الرَّجُلِ الْمِسْكِينِ فَتُنْقِذَهُ مِنْ
شَقَائِهِ وَبَلَائِهِ بِمَا تَرَى لَهُ فِي ذَلِكَ الرَّأْيِ الصَّالِحِ وَأَحْسَبُ أَنَّكَ تَقْدِرُ مِنْهُ لِلْمَنْزِلَةِ
الَّتِي تُتَزَلُّهَا مِنْ نَفْسِهِ عَلَى مَا عَجَزَ عَنْهُ النَّاسُ جَمِيعًا فَإِنْ فَعَلْتَ أَحْسَنْتَ إِلَيْهِ
وَالْيَنَّا إِحْسَانًا لَا نَنْسَى يَدَكَ فِيهِ حَتَّى الْمَوْتِ .

ثُمَّ حِينَنِي وَمَضَتْ لِسَبِيلِهَا فَسَأَلْتُ الْغُلَامَ عَنِ السَّاعَةِ الَّتِي اسْتَطِيعَ أَنْ أَرَى أَبَاهُ
فِيهَا فِي الْمَنْزِلِ فَقَالَ إِنَّكَ تَرَاهُ فِي الصَّبَاحِ قَبْلَ ذَهَابِهِ إِلَى الدِّيْوَانِ فَانْصَرَفَتْ

لِشَأْنِي وَقَدْ أَضْمَرْتُ بَيْنَ جَنْبَيْ لَوْعَةٍ مَا زَالَتْ تُقِيمُنِي وَتُقْعِدُنِي وَتَذُودُ عَنْ عَيْنِي سَنَةً

الكرى حَتَّى انْقَضَى اللَّيْلُ وَمَا كَادَ يَنْقُضِي .

ثُمَّ عُدْتُ فِي صَبَاحِ الْيَوْمِ الثَّانِي لِأَرَى ذَلِكَ الصَّدِيقَ الْقَدِيمَ الَّذِي كُنْتُ بِالْأَمْسِ أَسْعِدُ النَّاسَ بِهِ وَلَا أَعْلَمُ مَا مَصِيرُ أَمْرِي مَعَهُ بَعْدَ ذَلِكَ وَفِي نَفْسِي مِنَ الْقَلْقِ وَالِاضْطِرَابِ مَا يَكُونُ فِي نَفْسِ الذَّاهِبِ إِلَى مَيْدَانِ سَبَّاقٍ قَدْ خَاطَرَ فِيهِ بِجَمِيعِ مَا

يَمْتَلِكُ فَهُوَ لَا يَعْلَمُ أَيُّكُونُ بَعْدَ سَاعَةِ أَسْعِدُ النَّاسَ أَمْ أَشْقَاهُمْ ؟

الآن عَرَفْتُ أَنَّ الْوُجُوهَ مَرَايَا النُّفُوسِ تُضِيءُ بِضِيَائِهَا وَتَظْلِمُ بِظُلَامِهَا فَقَدْ فَارَقْتُ

الرَّجُلَ مُنْذُ سَبْعِ سَنَوَاتٍ فَأَنْسَتَنِي الْأَيَّامُ صُورَتَهُ وَلَمْ يَبْقَ فِي ذَاكِرَتِي مِنْهَا إِلَّا ذَلِكَ الضِّيَاءُ اللَّامِعُ ضِيَاءِ الْفَضِيلَةِ وَالشَّرَفِ الَّذِي كَانَ يَتَلَأَلُ فِيهَا تَلَأُلُ نُورِ الشَّمْسِ فِي صَفْحَتِهَا فَلَمَّا رَأَيْتَهُ الْآنَ وَلَمْ أَرِ أَمَامَ عَيْنِي تِلْكَ الْغَلَالَةَ الْبَيْضَاءَ الَّتِي كُنْتُ أَعْرِفُهَا خَيْلٌ إِلَيَّ أَنَّنِي أَرَى صُورَةَ غَيْرِ الصُّورَةِ الْمَاضِيَةِ وَرَجُلًا غَيْرَ

الَّذِي كُنْتُ أَعْرِفُهُ مِنْ قَبْلُ .

لَمْ أَرِ أَمَامِي ذَلِكَ الْفَتَى الْجَمِيلَ الْوَضَّاحَ الَّذِي كَانَ كُلُّ مَنْبَتٍ شَعْرَةٍ فِي وَجْهِهِ فَمَا

ضَاحِكًا تَمَوُّجٌ فِيهِ ابْتِسَامَةٌ لَامِعَةٌ بَلْ رَأَيْتُ مَكَانَهُ رَجُلًا شَقِيًّا مَكُوبًا قَدْ لَبَسَ الْهَرَمَ قَبْلَ أَوَانِهِ وَأُوقِي عَلَى السَّتِينِ قَبْلَ أَنْ يَسْلَخَ الثَّلَاثِينَ فَاسْتَرْخَى حَاجِبَاهُ

وَتَقَلَّتْ أَجْفَانُهُ وَجَمَدَتْ نَظَرَاتُهُ وَتَهَدَّلَ عَارِضَاهُ وَتَجَعَّدَ جَبِينُهُ اسْتَشْرَفَ عَاتِقَاهُ
وَهَوَى

رَأْسُهُ بَيْنَهُمَا هُوِيَّةٌ بَيْنَ عَاتِقِي الْأَحْدَبِ فَكَانَ أَوَّلَ مَا قَلَّتْ لَهُ لَقْدَ تَغَيَّرَ فِيكَ كُلُّ
شَيْءٍ يَا صَدِيقِي حَتَّى صُورَتِكَ وَكَأَنَّما أَلَمَّ بِمَا فِي نَفْسِي وَعَرَفَ أَنِّي قَدْ عَلِمْتَ
مَنْ أَرَمِهِ

كُلُّ شَيْءٍ فَاطَّرَقَ بِرَأْسِهِ إِطْرَاقَ مَنْ يَرَى أَنَّ بَاطِنَ الْأَرْضِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ظَهْرِهَا
وَلَ يُقَلِّ

شَيْئًا فَدَنَوْتُ مِنْهُ وَضَعْتُ يَدَيَّ عَلَى عَاتِقِهِ وَقُلْتُ لَهُ :

وَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَاذَا أَقُولُ لَكَ ؟ أَأَعْظُكَ وَقَدْ كُنْتَ وَاعِظِي بِالْأَمْسِ وَنَجْمِ هُدَايِ
الَّذِي

أَسْتَتِيرُ بِهِ فِي ظُلُمَاتِ حَيَاتِي ؟ أَمْ أُرْشِدُكَ إِلَى مَا أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَيْكَ فِي نَفْسِكَ
وَفِي

أَهْلِكَ وَلَا أَعْرِفُ شَيْئًا أَنْتَ تَجْهَلُهُ وَلَا تَصِلُ يَدِي إِلَى عِبْرَةٍ تُقْصِرُ يَدَكَ عَنْ نِيلِهَا
أَمْ أَسْتَرْحِمُكَ لِأَطْفَالِكَ الضُّعَفَاءِ وَزَوْجَتِكَ الْبَائِسَةِ الْمُسْكِينَةِ الَّتِي لَا عَضُدَ لَهَا فِي
الْحَيَاةِ وَلَا مُعَيِّنَ سِوَاكَ وَأَنْتَ صَاحِبُ الْقَلْبِ الرَّحِيمِ الَّذِي طَالَمَا خَفَقَ بِالْبُعْدَاءِ
فَأَحْرَى أَنْ يُخَفِقَ رَحْمَةً بِالْأَقْرَبَاءِ . . . !

إِنَّ هَذِهِ الْحَيَاةَ الَّتِي تَحْيَاهَا يَا سَيِّدِي إِنَّمَا يَلْجَأُ إِلَيْهَا الْهَمَلُ الْعَاطِلُونَ الَّذِينَ
لَا يُصْلِحُونَ لِعَمَلٍ مِنَ الْأَعْمَالِ لِيَتَوَارَوْا فِيهَا عَنْ أَعْيُنِ النَّاسِ حَيَاءً وَخَجَلًا حَتَّى
يَأْتِيَهُمُ الْمَوْتُ فَيُنْقِذَهُمْ عَنْ هَارِهِمْ وَشَقَائِهِمْ وَمَا أَنْتَ بِوَاحِدٍ مِنْهُمْ !
إِنَّكَ تَمْشِي يَا سَيِّدِي فِي طَرِيقِ الْقَبْرِ وَمَا أَنْتَ بِنَاقِمٍ عَلَى الدُّنْيَا وَلَا يَتَبَرَّمُ بِهَا

فَمَا رَغَبْتُكَ فِي الْخُرُوجِ مِنْهَا خُرُوجَ الْيَأْسِ الْمُنْتَحِرِ عَذْرَتُكَ لَوْ أَنَّ مَا رَبَحْتَ فِي

حَيَاتِكَ الثَّانِيَةَ يَقُومُ لَكَ مَقَامَ مَا خَسِرْتَ مِنْ حَيَاتِكَ الْأُولَى وَلَكِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّكَ كُنْتَ غَنِيًّا فَأَصْبَحْتَ فَقِيرًا وَصَحِيحًا فَأَصْبَحْتَ سَقِيمًا وَشَرِيفًا فَأَصْبَحْتَ وَضِيعًا فَإِنْ كُنْتَ

تَرَى بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّكَ سَعِيدٌ فَقَدْ خَلْتَ رُقْعَةَ الْأَرْضِ مِنَ الْأَشْقِيَاءِ .
إِنَّ كُلَّ مَا يَعْنِيكَ مِنْ حَيَاتِكَ هَذِهِ أَنْ تَطْلُبَ فِيهَا الْمَوْتَ فَاطْلُبْهُ بِالْإِغْوَاءِ سُمَّ تَشْرِبُهَا دُفْعَةً وَاحِدَةً فَذَلِكَ خَيْرٌ لَكَ مِنْ هَذَا الْمَوْتِ الْمُتَقَطِّعِ الَّذِي يَكْثُرُ فِيهِ عَذَابُكَ

وَأَلَمُكَ وَتُعْظَمُ فِيهِ آثَامُكَ وَجَرَائِمُكَ وَمَا يُعَاقِبُكَ اللَّهُ عَلَى الْآخِرَى بِأَكْثَرِ مِمَّا يُعَاقِبُكَ عَلَى الْأُولَى .

حَسْبُنَا يَا صَدِيقَ مِنَ الشَّقَاءِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ مَا يَأْتِينَا بِهِ الْقَدَرُ فَلَا نُضَمُّ إِلَيْهِ شَقَاءَ جَدِيدًا نَجْلِبُهُ بِنَفْسِنَا لِأَنْفُسِنَا فَهَاتِ يَدَكَ وَعَاهِدْنِي عَلَى أَنْ تَكُونَ لِي مُنْذُ الْيَوْمِ كَمَا كُنْتَ لِي بِالْأَمْسِ فَقَدْ كُنَّا سُعْدَاءَ قَبْلَ أَنْ نَفْتَرِقَ قُمْ افْتَرَقْنَا فَشَقِينَا وَهَذَا نَحْنُ أَوْلَاءُ قَدْ التَّقِينَا فَلِنَعِشْ فِي ظِلَالِ الْفَضِيلَةِ وَالشَّرَفِ سُعْدَاءَ كَمَا كُنَّا ثُمَّ مَدَدْتَ يَدِي إِلَيْهِ فَرَاعَنِي أَنَّهُ لَمْ يُحَرِّكْ يَدَهُ فَقُلْتُ لَهُ مَا لَكَ لَا تَمُدَّ يَدَكَ إِلَيَّ فَاسْتَعْبِرْ بَاكِيًا وَقَالَ لِي أَنِّي لَا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ كَاذِبًا وَلَا حَانِثًا قُلْتُ وَمَا يَمْنَعُكَ مِنَ الْوَفَاءِ ؟ قَالَ يَمْنَعُنِي مِنْهُ أَنِّي رَجُلٌ شَقِيٌّ لَأَحْظِلِّي فِي سَعَادَةِ السُّعْدَاءِ قُلْتُ قَدْ اسْتَطَعْتُ أَنْ تَكُونَ شَقِيًّا فَلِمَ لَا تَسْطِيعُ أَنْ تَكُونَ سَعِيدًا قَالَ لِأَنَّ السَّعَادَةَ سَمَاءٌ وَالشَّقَاءُ أَرْضٌ وَالنُّزُولُ إِلَى الْأَرْضِ أَسْهَلُ مِنَ الصُّعُودِ إِلَى السَّمَاءِ وَقَدْ زَلَّتْ

قَدَمِي عَنْ حَافَةِ الْهُوَّةِ فَلَا قُدْرَةَ لِي عَلَى الْإِسْتِمْسَاكِ حَتَّى أَبْلُغَ قَرَارَتَهَا وَشَرِبْتُ
 أَوَّلَ جُرْعَةٍ مِنْ جُرْعَاتِ الْحَيَاةِ الْمَرِيرَةِ فَلَا بُدَّ لِي أَنْ أَشْرَبَهَا حَتَّى تُمَالَتْهَا وَلَا
 شَيْءَ مِنْ الْأَشْيَاءِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقِفَ فِي سَبِيلِي إِلَّا شَيْءٌ وَاحِدٌ فَقَطْ هُوَ أَنْ لَا أَكُونَ
 قَدْ شَرِبْتُ الْكَأْسَ الْأُولَى قَبْلَ الْيَوْمِ وَمَا دُمْتُ قَدْ فَعَلْتُ فَلَا حِيلَةَ لِي فِيمَا قُضِيَ
 اللَّهُ قَالَتْ لَيْسَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ النَّزْوَعِ إِلَّا عَزْمَةٌ صَادِقَةٌ تَعْزِمُهَا فَإِذَا أَنْتَ مَنْ
 النَّاجِينَ قَالَ إِنَّ الْعَزِيمَةَ أَثَرٌ مِنْ أَثَارِ الْإِرَادَةِ وَقَدْ أَصْبَحْتُ رَجُلًا مَغْلُوبًا عَلَى
 أَمْرِي لَا إِرَادَةَ لِي وَلَا إِخْتِبَارَ فَدَعْنِي يَا صَدِيقِي وَالْقَضَاءُ يَصْنَعُ بِي مَا يَشَاءُ
 وَابْنُ صَدِيقِكَ الْقَدِيمُ مُنْذُ الْيَوْمِ إِنْ كُنْتُ لَا تَرَى بَأْسًا فِي الْبُكَاءِ عَلَى السَّاقِطِينَ
 الْمُدْنِيِّينَ .

ثُمَّ انفَجَرَ بَاكِيًا بِصَوْتٍ عَالٍ وَتَرَكَنِي مَكَانِي دُونَ أَنْ يُحْيِيَنِي بِكَلِمَةٍ وَخَرَجَ هَائِمًا
 عَلَى وَجْهِهِ لَا أَعْلَمُ أَيْنَ ذَهَبَ فَانْصَرَفْتُ لِشَأْنِي وَبَيْنَ جَنْبِي مِنَ الْهَمِّ وَالْكَمَدِ مَا
 لِلَّهِ بِهِ عَلِيمٌ .

لَمْ يَسْتَطِعْ رَئِيسُ الدِّيْوَانِ أَنْ يَحْمِلَ نَدِيمَهُ بِالْأَمْسِ زَمَنًا طَوِيلًا فَأَقْصَاهُ عَنْ
 مَجْلِسِهِ

اسْتِنْقَالًا لَهُ ثُمَّ عَزَلَهُ عَنْ وَظِيفِهِ اسْتِنْتِكَارًا لِعَمَلِهِ وَلَمْ تَذَرِفْ عَيْنُهُ دَمْعَةً وَاحِدَةً
 عَلَى مَنْظَرِ صَرِيحِهِ السَّاقِطِ بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَمْ يَسْتَطِيعْ مَالِكُ الْبَيْتِ الْجَدِيدِ أَنْ يُمَهِّلَ
 فِيهِ الْمَالِكِ الْقَدِيمِ أَكْثَرَ مِنْ بَضْعَةِ شُهُورٍ ثُمَّ طَرَدَهُ مِنْهُ فَلَجَأَ هُوَ وَزَوْجَتُهُ وَوَلَدَاهُ
 إِلَى غُرْفَةِ حَقِيرَةٍ فِي بَيْتٍ قَدِيمٍ فِي زُقَاقٍ مَهْجُورٍ فَأَصْبَحَتْ لَا أَرَاهُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَّا
 ذَاهِبًا إِلَى الْحَانَةِ أَوْ عَائِدًا مِنْهَا فَإِنْ رَأَيْتَهُ ذَاهِبًا زُوَيْتَ وَجْهِي عَنْهُ أَوْ

عَائِدًا دَنَوْتُ مِنْهُ فَمَسَحَتْ عَنْ وَجْهِهِ مَا لَصِقَ بِهِ مِنَ التُّرَابِ أَوْ عَنْ جَبِينِهِ مَا
سَالَ

مِنْهُ مِنَ الدَّمِ ثُمَّ قُدَّتْهُ إِلَى بَيْتِهِ .

وَهَكَذَا مَا زَالَتْ الْأَيَّامُ وَالْأَعْوَامُ تَأْخُذُ مِنْ جِسْمِ الرَّجُلِ وَمِنْ عَقْلِهِ حَتَّى أَصْبَحَ
مَنْ

يَرَاهُ يَرَى ظِلًّا مِنَ الظُّلَالِ الْمُتَنَقِّلَةِ أَوْ حُلْمًا مِنَ الْأَحْلَامِ السَّارِيَةِ يَمْشِي فِي
طَرِيقَةٍ مِثْلَةِ الذَّاهِلِ الْمَشْدُودِ لَا يَكَادُ يَشْعُرُ بِشَيْءٍ مِمَّا حَوْلَهُ وَلَا يَتَّقِي مَا

يَعْتَرِضُ

سَبِيلَهُ حَتَّى يُدَانِيَهُ وَيَقِفَ حِينًا بَعْدَ حِينٍ فَيَدُورُ بِعَيْنَيْهِ حَوْلَ نَفْسِهِ كَأَنَّمَا يُفْتَشُّ عَنْ
شَيْءٍ أَضَاعَهُ وَلَيْسَ فِي يَدِهِ شَيْءٌ يَضِيعُ أَوْ بِقَلْبِ نَظَرِهِ فِي أَثْوَابِهِ وَمَا فِي
أَثْوَابِهِ

غَيْرِ الرِّقَاعِ وَالْخُرُوقِ وَيَنْظُرُ إِلَى كُلِّ وَجْهِ يُقَابِلُهُ نَظْرَةً شَزْرَاءَ كَأَنَّمَا يَسْتَقْبِلُ
عَدُوًّا بَغِيضًا وَلَيْسَ لَهُ عَدُوٌّ وَلَا صَدِيقٌ وَرُبَّمَا تَعَلَّقَ بَعْضُ الصَّبِّانِ بِعَانِقِهِ
فَدَفَعَهُمْ

عَنْهُ بِيَدِهِ دَفْعًا لَيْنًا غَيْرَ أَبٍ وَلَا مُحْتَقِلٍ كَمَا يَدْفَعُ النَّائِمُ الْمُسْتَغْرِقَ عَنْ
عَاتِقِهِ يَدَ مُوقِظِهِ حَتَّى إِذَا خَلَا جَوْفَهُ مِنَ الْخَمْرِ وَهَدَّأَتْ سُورَتَهَا فِي رَأْسِهِ انْحَدَرَ
إِلَى الْحَانِ فَلَا يَزَالُ يَشْرَبُ وَيَتَزَايِدُ حَتَّى يَعُودَ إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ .
وَلَمْ يَزَلْ هَذَا شَأْنَهُ حَتَّى حَدَثَتْ مِنْهُ بَضْعَةٌ شُهُورِ الْحَادِثَةِ الْآتِيَةِ عَجَزَتْ تِلْكَ
الزَّوْجَةُ

الْمُسْكِينَةَ أَنْ تَجِدَ سَبِيلًا إِلَى الْقُوتِ وَأَبْكَاهَا أَنْ تَرَى وَلَدَاهَا وَابْنَتَهَا بَاكِينَ
بَيْنَ يَدَيْهَا تَتَطَّقُ دُمُوعَهَا بِمَا يَصْنُمْتُ عَنْهُ لِسَانُهُمَا فَلَمْ تَرَ لَهَا بُدًّا مِنْ أَنْ تَرْكَبَ

تِلْكَ السَّبِيلَ الَّتِي يَرْكَبُهَا كُلُّ مُضْطَرٍّ عَدِيمٍ فَأَرْسَلَتْهُمَا خَادِمَيْنِ فِي بَعْضِ الْبُيُوتِ
يَقْتَاتَانِ فِيهَا وَيَقِيتَانِهَا فَكَانَتْ لَا تَرَاهُمَا إِلَّا قَلِيلًا وَلَا تَرَى زَوْجَهَا إِلَّا فِي
الَّيْلَةِ الَّتِي تَغْلُ فِيهَا عَنْهُ عُيُونُ الشَّرْطَةِ وَقَلَمًا تَغْلُ عَنْهُ فَأَصْبَحَتْ وَحِيدَةً فِي
عُرْقَتِهَا لَا مُؤْنِسَ لَهَا وَلَا مُعَيَّنَ إِلَّا جَارَةٌ عَجُوزٌ تَخْتَلِفُ إِلَيْهَا مِنْ حِينَ إِلَى حِينَ
فَإِذَا فَارَقَتْهَا جَارَتُهَا وَخَلَتْ بِنَفْسِهَا ذَكَرَتْ تِلْكَ الْأَيَّامَ السَّعِيدَةَ الَّتِي كَانَتْ
تَتَقَلَّبُ فِيهَا فِي أَعْطَافِ الْعَيْشِ النَّاعِمِ وَالنَّعْمَةِ السَّابِغَةِ بَيْنَ زَوْجٍ كَرِيمٍ وَأَوْلَادٍ
كَالْكَوَاكِبِ الزَّهْرِ حُسْنًا وَبَهَاءً ثُمَّ تَذْكُرُ كَيْفَ أَصْبَحَ السَّيِّدُ مُسَوِّدًا وَالْمَخْدُومُ
خَادِمًا وَالْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ذَلِيلًا مُهِينًا وَكَيْفَ انْتَثَرَ ذَلِكَ الْعَقْدُ بِالْإِغْوَاءِ الْمَنْظُومِ
الَّذِي كَانَ حَلِيَّةً بَدِيعَةً فِي جِيدِ الدَّهْرِ ثُمَّ اسْتَحَالَ بَعْدَ انْتِثَارِهِ إِلَى حَصِيَّاتِ
مَنْبُذَاتٍ عَلَى سَطْحِ الْغُبَرَاءِ تَطَوُّهَا النَّعَالُ وَتَدْوُسُهَا الْحَوَافِرُ وَالْأَقْدَامُ فَتَبْكِي
بُكَاءَ الْوَالِدَةِ فِي إِثْرِ قَوْمٍ ظَاعِنِينَ حَتَّى تُتْلِفَ نَفْسُهَا أَوْ تَكَادَ عَلَى أَنَّهَا مَا أَضْمَرَتْ
قَطُّ فِي قَلْبِهَا حَقْدًا لِذَلِكَ الْإِنْسَانِ الَّذِي كَانَ سَبَبًا فِي شَقَائِهَا وَشَقَاءِ وَلَدَيْهَا لَا
حَدَّثَتْهَا نَفْسُهَا يَوْمًا مِنَ الْأَيَّامِ بِمَغَاضِبَتِهِ أَوْ هَجَرَانِهِ لِأَنَّهَا امْرَأَةٌ شَرِيفَةٌ
وَالْمَرْأَةُ الشَّرِيفَةُ لَا تَغْدِرُ بِزَوْجِهَا الْمَنْكُوبِ بَلْ كَانَتْ تَنْتَظِرُ إِلَيْهِ نَظْرَةَ اللَّامِ
الْحَنُونِ إِلَى طِفْلِهَا الصَّغِيرِ فَتَرْحَمُهُ وَتَعْطِفُ عَلَيْهِ وَتَسْهَرُ بِجَانِبِهِ إِنْ كَانَ
مَرِيضًا

وَتَأْسُو جِرَاحَهُ إِنْ عَادَ جَرِيحًا وَرُبَّمَا طَرَدَهُ الْحِمَارُ فِي بَعْضِ لَيَالِيهِ مِنْ حَانَةِ
حَيْنَمًا

لَا يَجِدُ مَعَهُ ثَمَنَ الشَّرَابِ فَيَعُودُ إِلَى بَيْتِهِ ثَائِرًا مُهْتَاجًا يَطْلُبُ الشَّرَابَ طَلَبًا
شَدِيدًا فَلَا تَجِدُ بُدًّا مِنْ أَنْ تُعْطِيَهُ نَفَقَةً طَعَامَهَا أَوْ تَبْتَاعَ لَهُ مِنَ الْخَمْرِ مَا
يَسْكُنُ بِهِ نَفْسَهُ رَحْمَةً بِهِ وَابْقَاءً عَلَى تِلْكَ الْبَقِيَّةِ الْبَاقِيَةِ مِنْ عَقْلِهِ .

وَكَانَ الدَّهْرُ لَمْ يَكُفَّهُ مَا وَضَعَ عَلَى عَاتِقِهَا مِنْ الْأَثْقَالِ حَتَّى أَضَافَ إِلَيْهَا ثِقْلًا
جَدِيدًا فَقَدْ شَعَرَتْ فِي يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِهَا بِنَسَمَةٍ نَتَحَرَّكَ فِي أَحْشَائِهَا فَعَلِمَتْ أَنَّهَا
حَاولَ وَأَنَّهَا سَتَأْتِي إِلَى دَارِ الشَّقَاءِ بِشَقَاءٍ جَدِيدٍ فَهَتَفَتْ صَارِحَةً رَحْمَتَكَ اللَّهُمَّ
فَقَدْ

امْتَلَأَتْ الْكَأْسُ حَتَّى مَا تَسَعُ قَطْرَةً وَاحِدَةً وَمَا زَالَتْ تُكَابِدُ مِنَ آلامِ الْحَمْلِ مَا
يَجِبُ

أَنْ تُكَابِدَهُ امْرَأَةٌ مَرِيضَةٌ مَنُكُوبَةٌ حَتَّى جَاءَتْ سَاعَةٌ وَضَعَهَا فَلَمْ يَحْضُرْهَا أَحَدٌ
الَا

جَارَتِهَا الْعَجُوزُ فَأَعَانَهَا اللَّهُ عَلَى أَمْرِهَا فَوَضَعَتْ ثُمَّ مَرَضَتْ بَعْدَ ذَلِكَ بِحُمَى
النَّفَاسِ

مَرَضًا شَدِيدًا فَلَمْ تُجِدْ طَبِيبًا يَتَصَدَّقُ عَلَيْهَا بِعِلَاجِهَا لِأَنَّ الْبَلَدَ الَّذِي لَا
يَسْتَحْيِ أَطِبَّاءُهُ أَنْ يُطَالِبُوا أَهْلَ الْمَرِيضِ بَعْدَ مَوْتِهِ بِأَجْرَةٍ عِلَاجِهِمُ الَّذِي قَتَلَهُ لَا
يُمْكِنُ أَنْ يُوجَدَ فِيهَا طَبِيبٌ مُحْسِنٌ أَوْ مُتَصَدِّقٌ فَمَا زَالَ الْمَوْتُ يَدْنُو مِنْهَا رُويْدًا
رُويْدًا حَتَّى ادْرَكَتْهَا رَحْمَةُ اللَّهِ فَوَافَاهَا أَجْلُهَا فِي سَاعَةٍ لَا يُوجَدُ فِيهَا بِجَانِبِهَا
غَيْرُ طِفْلَتِهَا الصَّغِيرَةِ عَالِقَةٍ بِثَدْيِهَا .

فِي هَذِهِ السَّاعَةِ دَخَلَ الرَّجُلُ نَائِرًا مُهْتَاجًا يَطْلُبُ الشَّرَابَ وَيُفْتِّشُ عَنْ زَوْجَتِهِ
لَتَأْتِي

لَهُ مِنْهُ بِمَا يُرِيدُ فَدَارَ بَعَيْنِهِ فِي أَنْحَاءِ الْغُرْفَةِ حَتَّى رَأَاهَا مُمَدَّدَةً عَلَى حَصِيرِهَا
وَزَاى ابْنَتَهَا تَبْكِي بِجَانِبِهَا فَظَنَّهَا نَائِمَةً فَدَنَا مِنْهَا وَدَفَعَ الطِّفْلَةَ بَعِيدًا عَنْهَا
وَأَخَذَ يُحَرِّكُهَا تَحْرِيكًا شَدِيدًا فَلَمْ يُشْعِرْ بِحَرَكَةِ فَرَابِهِ الْأَمْرَ وَأَحْسَنَ بِالْإِغْوَاءِ
تَتَمَشَّى

فِي أَعْضَائِهِ حَتَّى أَصَابَتْ قَلْبَهُ فَبَدَأَ صَوَابَهُ يَعُودُ إِلَيْهِ شَيْئًا فَشَيْئًا فَأَكْبَ عَلَيْهَا
يُحَدِّثُ فِي وَجْهِهَا تَحْدِيقًا شَدِيدًا وَيَرْحَفُ نَحْوَهَا رُويْدًا رُويْدًا حَتَّى رَأَى شَبَحَ
الْمَوْتِ

يُحَدِّقُ إِلَيْهِ مَنْ عَيْنُهَا الشَّاخِصَتَيْنِ الْجَامِدَتَيْنِ فَتَرَاجَعَ خَوْفًا وَذُعْرًا فَوَطِئَ فِي
تَرَاجُعِهِ صَدْرَ ابْنَتِهِ فَأَنْتَ أَنْتَ مُؤْلِمَةٌ لَمْ تَتَحَرَّكَ بَعْدَهَا حَرَكَةً وَاحِدَةً فَصَرَخَ
صَرَخَةً

شَدِيدَةً وَقَالَ اشْقَاءَاهُ وَخَرَجَ هَائِمًا عَلَى وَجْهِهِ يَعْدُو فِي الطُّرُقِ وَيَضْرِبُ رَأْسَهُ
بِالْعُمْدِ

وَالْجُدْرَانَ وَيَدْفَعُ كُلَّ مَا يَجِدُ فِي طَرِيقِهِ مِنْ إِنْسَانٍ أَوْ حَيَوَانٍ وَيَصِيحُ ابْنَتِي
زَوْجَتِي

هَلُمُّوا إِلَيَّ ادْرِكُونِي حَتَّى أَعْيَا فَسَقَطَ عَلَى الْأَرْضِ وَأَخَذَ يَفْحَصُ التُّرَابَ بِرِجْلَيْهِ
وَيَبْنِ

أَنْبِيْنَ الذَّبِيحِ وَالنَّاسِ مِنْ حَوْلِهِ آسِفُونَ عَلَيْهِ لَا لِأَنَّهُمْ يَعْرِفُونَهُ بَلْ لِأَنَّهُمْ قَرَأُوا
فِي وَجْهِهِ آيَاتَ شِقَائِهِ .

فَكَانَتْ تِلْكَ اللَّحْظَةُ الْقَصِيرَةُ الَّتِي اسْتَفَاقَ فِيهَا مِنْ ذُهُولِهِ الطَّوِيلِ سَبَبًا فِي
ضَيَاعِ مَا بَقِيَ مِنْ عَقْلِهِ .

وَمَا هِيَ إِلَّا سَاعَةٌ أَوْ سَاعَتَانِ حَتَّى أَصْبَحَ مُقَيَّدًا مَغُولًا فِي قَاعَةٍ مِنْ قَاعَاتِ
الْبِيمَارِسْتَانِ فَوَا بِالْإِغْوَاءِ لَهُ وَلِزَوْجَتِهِ الشَّهِيدَةِ وَلِطِفْلَتِهِ الصَّرِيعةِ وَلِأَوْلَادِهِ
الْمُشَرَّدِينَ الْبُؤْسَاءِ .

الجزء

مترجمة

جَلَسَتْ عَلَى ضَفَّةِ الْبُحَيْرَةِ لَتَمَلَأَ جَرَّتُهَا وَكَانَ الْمَاءُ سَاكِناً هَادِئاً كَأَنَّمَا قَدْ
أَمْتَدَتْ فَوْقَ سَطْحِهِ طَبَقَةً لَامِعَةً مِنَ الْجَلِيدِ فَعَزَّ عَلَيْهَا أَنْ تَكْسِرَ بِيَدِهَا هَذِهِ الْمَرْأَةَ
النَّاعِمَةَ الصَّقِيلَةَ وَلَا شَيْءَ أَحَبَّ إِلَيَّ الْمَرْأَةِ مِنَ الْمَرْأَةِ فَظَلَّتْ تَقْلِبُ نَظَرَهَا فِيهَا
فَلَمَحَتْ فِي صَفْحَتِهَا وَجْهًا أَبْيَضَ رَائِقًا يَنْظُرُ إِلَيْهَا نَظَرًا عَذْبًا فَاتِرًا فَابْتَسَمَتْ لَهُ
فَابْتَسَمَ لَهَا فَعَلِمَتْ أَنَّهُ الْوَجْهَ الَّذِي أَفْتِنَ بِهِ خَطِيبُهَا لِقَرَوِيِّ الْجَمِيلِ .
أَنَسَتْ بِهَذَا الْمَنْظَرِ سَاعَةً ثُمَّ رَاعَهَا أَنْ رَأَتْ بِجَانِبِ خِيَالِهَا فِي الْمَاءِ خَيْالًا آخَرَ
فَتَبَيَّنَتْهُ فَإِذَا بِهِ خِيَالُ رَجُلٍ فَذُعِرَتْ وَلَكِنَّهَا لَمْ تَلْتَفِتْ وَرَأَاهَا وَمَدَّتْ يَدَهَا إِلَى
الْمَاءِ فَمَلَأَتْ جَرَّتُهَا ثُمَّ نَهَضَتْ لِتَحْمِلَهَا فَتَقَدَّمَ إِلَيْهَا ذَلِكَ الْوَاقِفُ بِجَانِبِهَا وَقَالَ
لَهَا هَلْ تَأْذِنِينَ لِي يَا سَيِّدَتِي أَنْ أُعِينِكَ عَلَى حَمْلِ جَرَّتِكَ فَالْتَفَتَتْ فَإِذَا فَتِيٌّ

حَضَرِيٌّ

غَرِيبٌ حَسَنُ الصُّورَةِ وَالْبِرَّةِ لَا تُعْرِفُهُ وَلَا تُعْرِفُ أَنْ هَذِهِ الْأَرْضُ مِمَّا تَنَبَّتْ
مِثْلُهُ

فَرَأَاهَا أَمْرَهُ وَأَنقَدَ وَجْهَهَا حَيَاءً وَخَجَلًا وَلَمْ تَقُلْ شَيْئًا وَاسْتَلْقَتْ جَرَّتُهَا وَمَضَتْ

فِي

سَبِيلِهَا .

نَشَأَتْ سُوزَانَ وَابْنُ عَمَّهَا جَلَبَرْتُ فِي بَيْتٍ وَاحِدٍ كَمَا تَنْشَأُ الزَّهْرَتَانِ الْمُتَعَانِقَتَانِ
فِي مَغْرَسٍ وَاحِدٍ فَرَضَعَتْ مَعَهُ وَلِيدَةً وَلَعِبَتْ مَعَهُ طِفْلَةً وَأَحْبَبَتْهُ فَتَاةٌ وَمَرَّتْ
بِهِمَا فِي
جَمِيعِ تِلْكَ الْأَدْوَارِ .

سَعَادَةٌ لَمْ يَسْتَمِدَّهَا مِنْ الْقُصُورِ وَالْبَسَاتِينِ وَالْأَرَائِكِ وَالْأُسْرَةِ وَالْحَيَادِ
وَالْمُرَكَّبَاتِ وَالْأَكْوَابِ وَالدنانِ وَالْمِزَاهِرِ وَالْعِيدَانِ وَالذَّهَبِ اللَّامِعِ وَاللُّؤْلُؤِ
السَّاطِعِ وَالْأَثْوَابِ الْمُطَرَّرَةِ وَالْغُلَائِلِ الْمُرَصَّعَةِ لِأَنَّهُمَا كَانَا قَرِيبَيْنِ فَقِيرَيْنِ بَلْ
اسْتَمَدَّهَا مِنْ مَطْلَعِ الشَّمْسِ وَمَغْرِبِهَا وَإِقْبَالِ اللَّيْلِ وَإِدْبَارِهِ وَتَلَالُؤِ السَّمَاءِ
بِنُجُومِهَا الزَّاهِرَةِ وَالْأَرْضِ بِأَعْشَابِهَا النَّاصِرَةِ وَمِنْ الْوَقَفَاتِ الطُّوَالِ فَوْقَ
الصُّخُورِ

الْبَارِزَةِ عَلَى ضِيفِافِ الْبُحَيْرَةِ الْهَادِئَةِ وَالْجَلَسَاتِ الْحُلُوةِ الْجَمِيلَةِ عَلَى الْأَعْشَابِ
النَّاعِمَةِ تَحْتَ ظِلَالِ الْأَشْجَارِ الْوَارِقَةِ وَمِنْ سَمَاعِ أُنَاشِيدِ الْحَيَاةِ وَأَغَانِي الرُّعَاةِ
وَضَوْضَاءِ السَّمَاءِ فِي غُدُوِّهَا وَرَوَاحِهَا وَبُكَاءِ النَّوَاعِيرِ فِي مَسَائِهَا وَصَبَاحِهَا
وَمِنْ

الْحُبِّ الطَّاهِرِ الشَّرِيفِ الَّذِي يُشْرِقُ عَلَى الْقُلُوبِ الْحَزِينَةِ فَيُسْعِدُهَا وَالْأَفْنَدَةِ
الْمُظْلِمَةِ فَيُنِيرُهَا وَالْأَجْنَحَةَ الْكَسِيرَةَ فَيُرِيشُهَا وَالَّذِي هُوَ الْعَزَاءُ الْوَحِيدُ عَنْ كُلِّ
فَانَتْ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ وَالسَّلْوَى عَنْ كُلِّ مَفْقُودٍ وَلَمْ يَزَلْ هَذَا شَأْنَهَا حَتَّى كَانَ يَوْمُ
الْبُحَيْرَةِ .

لَا تَعْرِفُ الْمَرْأَةَ لَهَا وَجُودًا إِلَّا فِي عُيُونِ الرِّجَالِ وَقَلْبُوهُمْ فَلَوْ خَلَتْ رُقْعَةٌ
الْأَرْضِ مِنْ وَجْهِ النَّاطِرِينَ أَوْ أَقْفَرَتْ حَنَائِيَا الضُّلُوعِ مِنْ خَوَافِقِ الْقُلُوبِ
لِلْصُّبْحِ

الْجُودَ وَالْعَدَمَ فِي نَظَرِهَا سَوَاءَ وَلَوْ أَنَّ وَرَاءَهَا أَلْفَ عَيْنٍ تَنْظُرُ إِلَيْهَا ثُمَّ لَمَحَتْ
فِي كَوْكَبٍ مِنْ كَوَاكِبِ السَّمَاءِ نَظْرَةً حُبًّا أَوْ سَمِعَتْ فِي زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَا
الْأَرْضِ أَنَّهُ

وَجِدَّ لِأَعْجَبِهَا ذَلِكَ الْغَرَامَ الْجَدِيدَ وَمَلَأَ قَبْلَهَا غِبْطَةً وَسُرُورًا .
فَقَدْ عَادَتْ الْفَتَاةُ إِلَى بَيْتِهَا طَيِّبَةَ النَّفْسِ قَرِيرَةَ الْعَيْنِ مَرْهُوَّةٌ مُخْتَالَةٌ لَا لِأَنَّ
حُبًّا جَدِيدًا حَلَّ فِي قَلْبِهَا مَحَلَّ الْحَبِّ الْقَدِيمِ وَلَا لِأَنَّ نَفْسَهَا حَدَّثَتْهَا أَنَّ تَصِلَ
حَيَاتِهَا بِحَيَاةِ أَحَدٍ غَيْرِ خَطِيبِهَا بَلْ لِأَنَّهَا وَجَدَتْ فِي طَرِيقِهَا بُرْهَانًا جَدِيدًا عَلَى
جَمَالِهَا فَأَعْجَبَهَا فَكَانَتْ لَا تَزَالُ تَخْتَلِفُ بَعْدَ ذَلِكَ بِجَرَّتِهَا إِلَى الْبُحَيْرَةِ غَيْرِ
خَائِفَةٍ وَلَا مُرْتَابَةٍ فَتَرَى ذَلِكَ السَّيِّدَ الْحَضْرِيَّ فِي غُدُوِّهَا أَوْ رَوَاحِهَا يُحْيِيهَا أَوْ
يَبْتَسِمُ إِلَيْهَا زَهْرَةً جَمِيلَةً أَوْ يُلْقِي فِي أُذُنِهَا كَلِمَةً عَذْبَةً حَتَّى اسْتَطَاعَ فِي يَوْمٍ مِنْ
الْأَيَّامِ أَنْ يَجْلِسَ بِجَانِبِهَا لَحْظَةً قَصِيرَةً فِي ظِلِّ صَخْرَةٍ مُنفَرَدَةٍ فَكَانَتْ هَذِهِ
اللَّحْظَةُ

آخِرَ عَهْدِهَا بِحَيَاتِهَا الْقَدِيمَةِ وَأَوَّلَ عَهْدِهَا بِحَيَاتِهَا الْجَدِيدَةِ .
هَبَّطَ الْمَرْكَزُ جُوسْتَاَفَ رُوسْتَانَ هَذِهِ الْأَرْضُ مِنْذُ أَيَّامٍ لِنَقْدُ مَزَارِعِهِ فِيهَا وَكَانَ
لَا

يَزَالُ يَخْتَلِفُ إِلَيْهَا مِنْ حِينٍ إِلَى حِينٍ فَيَقْضِي فِي قَصْرِهِ الْجَمِيلِ الَّذِي بَنَاهُ فِيهَا
عَلَى بُعْدِ سَاعَتَيْنِ مِنَ الْبُحَيْرَةِ بَضْعَةَ أَيَّامٍ ثُمَّ يَعُودُ إِلَى بَلَدْتِهِ نَيْسَ حَتَّى رَأَى هَذِهِ
الْمَرَّةَ هَذِهِ الْفَتَاةَ فِي بَعْضِ غَدَوَاتِهِ إِلَى ضِفَافِ الْبُحَيْرَةِ فَاسْتَلْهَاهُ حُسْنُهَا وَمَا زَالَ
بِهَا يَفِيضُ عَلَى قَلْبِهَا مِنْ حُبِّهِ وَعَلَى أُذُنِهَا مِنْ سِحْرِهِ وَعَلَى جِيدِهَا بِالْإِغْوَاءِ مِنْ
لَالِّهِ وَجَوَاهِرِهِ وَيُصَوِّرُ لَهَا جَمَالَ الْحَيَاةِ الْحَضْرِيَّةِ فِي أَجْمَلِ صُورِهَا وَأَبْنَاهَا

الْأَمَانِي الْكِبَارِ فِي حَاضِرِهَا وَمُسْتَقْبَلِهَا حَتَّى أَذُنَتْ وَاسْتَقَادَتْ وَخَضَعَتْ لِلَّتِي
تَخْضَعُ

لَهَا كُلُّ أَنْثَى نَامَتْ عَنْهَا عَيْنٌ رَاعِيَهَا وَأُسْلِمَهَا حَظَّهَا إِلَى أَنْيَابِ الذُّنَابِ .
اسْتَيْقِظَ الْفَتَى جَلَبَرْتُ فِي السَّاعَةِ الَّتِي يَسْتَيْقِظُ فِيهَا مِنْ صَبَاحِ كُلِّ يَوْمٍ فَعَمَدَ إِلَى
بَقَرَتِهِ فَحَلَّ عِقَالَهَا ثُمَّ هَتَفَ بِاسْمِ سُوزَانَ يَدْعُوهَا إِلَى الذَّهَابِ مَعَهُ إِلَى الْمَرْعَى
فَلَمْ تَجِبْهُ فَصَعِدَ إِلَى غُرْفَتِهَا فِي سَطْحِ الْمَنْزِلِ لِيُوقِظَهَا فَلَمْ يَجِدْهَا فَسَأَلَ عَنْهَا
أُمُّهُ

فَلَمْ تَعْلَمْ مَنْ أَمْرُهَا أَكْثَرَ مِمَّا يَعْلَمُ فَظَنَّ أَنَّهَا خَرَجَتْ لِقَضَاءِ بَعْضِ الشُّؤُونِ ثُمَّ
تَعُودُ

فَلَبِثَ يَنْتَظِرُهَا وَقْتًا طَوِيلًا فَلَمْ تَعُدْ فَرَأَاهُ الْأَمْرُ وَأَعَادَ الْبَقْرَةَ إِلَى مَعْتَلِفِهَا
وَخَرَجَ يُفْتَشُّ عَنْهَا فِي كُلِّ مَكَانٍ وَيُسَائِلُ عَنْهَا النَّاسَ جَمِيعًا غَادِيَهُمْ وَرَائِحَهُمْ
فَلَمِي

جَدَّ مَنْ يَدُلُّهُ عَلَيْهَا حَتَّى أَظْلَهُ اللَّيْلُ فَعَادَ حَرِينَا مُكْتَتِبًا لَا يَرَى أَنَّ أَحَدًا عَلَى
وَجْهِ الْأَرْضِ أَعْظَمَ لَوْعَةً مِنْهُ وَلَا أَشَقَى أُمُّهُ قَابِعَةً فِي كَسْرِ الْبَيْتِ مِطْرَقَةً
بِرَأْسِهَا

تَقْلِي التُّرَابِ بَعُودَ فِي يَدِهَا فَدَنَا مِنْهَا فَرَفَعَتْ رَأْسَهَا إِلَيْهِ وَقَالَتْ لَهُ أَيْنَ كُنْتَ
يَا جَلَبَرْتُ ؟ قَالَ فَتَشَّتْ عَنْ سُوزَانَ فِي كُلِّ مَكَانٍ فَلَمْ أَجِدْهَا فَأَلْقَتْ عَلَيْهِ نَظْرَةً
مَمْلُوءَةً حُزْنًا وَدُمُوعًا وَقَالَتْ خَيْرٌ لَكَ يَا بَنِي أَلَّا تَنْتَظِرُهَا بَعْدَ الْيَوْمِ فَاَنْتَقِصَ
إِنْتِقَاضَةً شَدِيدَةً وَقَالَ لِمَذَا قَالَتْ قَدْ دَخَلْتُ عَلَى السَّاعَةِ جَارَتِنَا فَلَانَةَ فَحَدَّثَنِي
أَنَّهَا مَا زَالَتْ تَرَاهَا مِنْذُ لَيَالِي تَخْتَلِفُ إِلَى الْبُحَيْرَةِ لِلْاجْتِمَاعِ عَلَى ضِيفَائِهَا

بِفَتَيِّ حَضْرِيَّ غَرِيبٍ عَنْ هَذِهِ الْمُدِيرَةِ أَحْسَبُهُ الْمَرْكَزَ جُوسْتَأَفَ صَاحِبَ هَذِهِ
الْمَزَارِعِ الَّتِي

تَلِينَا وَالْقَصْرَ الْأَحْمَرَ الَّذِي يَلِيهَا وَقَالَتْ لِي إِنَّهَا رَأَتْهَا لَيْلَةً أَمْسَ بَعْدَ مُنْتَصَفِ
الَّيْلِ رَاكِبَةً وَرَأَاهُ عَلَى فَرَسٍ أَشْهَبَ يَعْدُو بِهَا فِي طَرِيقِ الْقَصْرِ الْأَحْمَرَ وَلَا بُدَّ
أَنَّهَا فَرَّتْ مَعَهُ فَصَرَخَ جَلَبَرْتَ صَرَخَةً جَادَتْ لَهَا نَفْسُهُ أَوْ كَادَتْ وَخَذِرَ فِي
مَكَانِهِ صَعِقًا

فَلَمْ تَزَلْ أُمُّهُ جَائِئِيَةً بِجَانِبِهِ اللَّيْلَ كُلَّهُ تَبْكِي عَلَيْهِ مَرَّةً وَتَمْسَحُ جَبِينَهُ بِالْمَاءِ
أُخْرَى حَتَّى اسْتَفَاقَ فِي مَطْلَعِ الْفَجْرِ فَنَظَرَ حَوْلَهُ نَظْرَةً حَائِرَةً فَرَأَى أُمَّهُ مَكْبَةً
عَلَى

وَجْهَهَا تَبْكِي فَذَكَرَ كُلَّ ذَلِكَ فَأَطْرَقَ هُنَيْهَةً ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى عَاتِقِهَا
وَسَأَلَهَا مَا بُكَاءُكَ يَا أُمَّاهُ ؟

قَالَتْ أَبْكِي عَلَيْكَ يَا بَنِي وَعَلَيْهَا قَالَ إِنْ كُنْتُ بَاكِئَةً قَبْلَكَ عَلَى غَيْرِي أَمَّا أَنَا
فَلَسْتُ بِحَزِينٍ وَلَا بَاكٍِ فَقَدْ كُنْتُ أَحْبَبْتُ هَذِهِ الْفَتَاةَ لِأَنَّهَا كَانَتْ تُحِبُّنِي وَقَدْ
اسْتَحَالَ قَلْبِي الْآنَ إِلَى الصَّخْرَةِ عَاتِيَةً لَا يَنَالُ مِنْهَا شَيْءٌ فَلَا رَجْعَةَ لِي إِلَيْهَا
بَعْدَ الْيَوْمِ ثُمَّ مَسَحَ عَنْ خَدِّهِ آخِرَ دَمْعَةٍ كَانَتْ تَتَحَدَّرُ فِيهِ وَقَامَ إِلَى بَقَرَتِهِ فَأَخَذَ
بِزِمَامِهَا وَمَضَى بِهَا إِلَى الْمَزْرَعَةِ وَخَذَهُ .

لَقَدْ كَذَّبَتْ الْمُسْكِينُ نَفْسَهُ فَإِنَّهُ مَا سَلَّا سُوزَانَ وَلَا هَدَّاتُ عَنْ قَلْبِهِ لَوْعَةً حُبِّهَا
وَلَكِنَّهَا الْغَضْبَةَ الَّتِي يُغْضِبُهَا الْمُحِبُّ الْمَهْجُورُ تُخِيلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ قَدْ نَفَضَ يَدَهُ مِنَ
الْمُحِبِّ أَشَدَّ مَا يَكُونُ بِهِ عَالِقًا فَإِنَّهُ مَا وَصَلَ إِلَى الْمَزْرَعَةِ وَأَرْسَلَ سَائِمَتَهُ فِي
مَرْعَاهَا حَتَّى رَأَى كَوْكَبَ الشَّمْسِ يَتَنَاهَضُ مِنْ مَطْلَعِهِ قَلِيلًا قَلِيلًا وَيُرْسِلُ أَشِعَّتَهُ
الْيَاقُوتِيَّةَ الْحَمْرَاءَ عَلَى هَذِهِ الْكَائِنَاتِ فَتُتِيرُ ظِلَامَهَا وَتَجْلُو صَفْحَتَهَا وَتَتَرَقَّرَقُ

مَا بَيْنَ خُضْرَائِهَا وَغُبَرَائِهَا فَأَعْجَبَهُ مَنْظَرُ هَذِهِ الطَّبِيعَةِ الْمُتَلَالَةِ بَيْنَ يَدَيْ هَذَا
الْكَوْكَبِ الْمُنِيرِ وَدَارَ بِنَظَرِهِ فِي الْفَضَاءِ مِنْ مُشْرِقَةٍ إِلَى مَغْرِبَةٍ فَلَمَحَ فِي الْإُفُقِ
الْغُرْبِيَّ بَارِقًا يَخْطِفُ الْبَصَرَ بِلَالِهِ فَخِيلَ إِلَيْهِ أَنَّ الْمَغْرِبَ قَدْ أَطْلَعَ فِي أَفْقِهِ
شَمْسًا كَتَلِكَ الَّتِي أَطْلَعَهَا الْمَشْرِقُ حَتَّى تُبَيِّنَهُ فَإِذَا هُوَ لَوْحٌ كَبِيرٌ مِنَ الزُّجَاجِ
أَصْفَرُ

مُسْتَدِيرٌ تَعَابَثَهُ أَشِعَّةُ الشَّمْسِ فِيمَا تَعَابَثَ مِنَ الْكَائِنَاتِ فَالْتَمَعَ التَّمَاعَا شَدِيدًا
فَاسْتَرَدَّ بَصَرَهُ إِلَيْهِ سَرِيعًا وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى يُسْرَى أَضْلَعَهُ كَأَنَّمَا يَحُولُ بَيْنَ قَلْبِهِ
وَبَيْنَ الْفَرَارِ لِأَنَّهُ عَلِمَ أَنَّ ذَلِكَ اللَّوْحَ الزُّجَاجِيَّ الْأَصْفَرَ إِنَّمَا يُلَوِّحُ فِي بُرْجٍ مِنْ
أَبْرَاجِ الْقَصْرِ الْأَحْمَرِ .

هُنَا عَلِمَ أَنَّ نَفْسَهُ قَدْ كَذَّبَتْهُ فِيمَا حَدَّثَتْهُ وَأَنَّ تِلْكَ الْبَارِقَةَ .
الَّتِي كَانَتْ تُضِيءُ مَا بَيْنَ جَنْبَيْهِ مِنَ الْحُبِّ قَدْ اسْتَحَالَتْ إِلَى جَذْوَةِ نَارٍ مُشْتَعِلَةٍ
تَقْضِمُ فُؤَادَهُ قَضْمًا وَتَمْشِي فِي نَفْسِهِ مَشْيَ الْمَوْتِ فِي الْحَيَاةِ فَأَطْلَقَ لِعَبْرَتِهِ
سَبِيلَهَا

وَأَنْشَأَ بَيْنَ أَنْيَابِنَا يَتْنٍ مُحْزِنًا تَرْدُدُهُ الرِّيَّاحُ فِي جَوْهَا وَالْأَمْوَاجُ فِي بَحْرِهَا
وَالْأَعْشَابُ فِي مَغَارِسِهَا وَالسَّائِمَةُ فِي مَرَابِضِهَا حَتَّى سَمِعَ أَصْوَاتَ الرُّعَاةِ
وَضَوْضَاءَ

السَّائِمَةِ فَكَفَكَفَ عَبْرَاتِهِ وَأَسْلَمَ رَأْسَهُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ وَذَهَبَ مَعَ هُمُومِهِ وَأَحْزَانِهِ إِلَى
حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَذْهَبَ .

هَكَذَا لَمْ يَنْتَفِعِ الْمَسْكِينُ بِنَفْسِهِ بَعْدَ الْيَوْمِ فَقَدْ ذَهَبَ مِنَ الْحُزْنِ إِلَى أَبْعَدِ مَذَاهِبِهِ
حَتَّى نَالَ مِنْهُ مَا لَمْ يَنْلُ كَرَّ الْغَدَاةِ وَمَرَّ الْعَشِيِّ فَأَصْبَحَ مَنْ يَرَاهُ فِي طَرِيقِهِ يَرَى
رَجُلًا يَأْسًا مَكُوبًا مُشَرَّدَ الْعَقْلِ مُشْتَرِكِ اللَّبِّ مَذْهُوبًا بِهِ كُلِّ مَذْهَبٍ يَهِيمُ عَلَى

وَجْهَهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ بَيْنَ الْغَابَاتِ وَالْحَرَجَاتِ وَفَوْقَ ضِفَافِ الْأَنْهَارِ
وَتَحْتَ مَشَارِفِ الْجِبَالِ يَأْنَسُ بِالْحَوْشِ أَنْسُ الْعَشِيرِ بَعْشِيرُهُ وَيَفِرُّ مِنَ النَّاسِ إِنَّ
دُنُوءًا

مِنْهُ فِرَارُ الْإِنْسَانِ مِنَ الْوَحْشِ وَيَرُدُّ الْمَنَاهِلَ مَعَ الظُّبَاءِ وَالْيَعَافِيرِ ثُمَّ يُصَدِّرُ إِذَا
صَدَّرَتْ مَعَهَا وَرُبَّمَا تَرَامِي بِهِ السَّيْرُ أَحْيَانًا إِلَى أَفْنِيَةِ الْقَصْرِ الْأَحْمَرِ مِنْ حَيْثُ
لَا

يَشْعُرُ فَإِذَا رَأَى أَبْرَاحَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ ذُعِرَ ذُعْرًا شَدِيدًا وَصَاحَ صَيْحَةً عَظِيمَةً
وَانْكَفَا

رَاجِعًا إِلَى قَرْبَتِهِ لَا يُلْوِي عَلَى شَيْءٍ وَكَثِيرًا مَا قَضَتْ أُمُّهُ النَّهَارَ كُلَّهُ حَامِلَةً
عَلَى يَدَيْهَا الطَّعَامَ تُقْتَشِ عَنْهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ حَتَّى تَرَاهُ مُلْقَى بَيْنَ الْأَحْجَارِ عَلَى
ضَفَّةٍ

نَهْرٍ أَوْ فِي سَفْحِ جَبَلٍ فَتَضَعُ الطَّعَامَ بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ بِمَكَانِهَا ثُمَّ تَرْفَعُ
يَدَيْهَا إِلَى السَّمَاءِ ضَارِعَةً مُتَخَشِعَةً تَسْأَلُ اللَّهَ بِدُمُوعِهَا وَزَفَرَاتِهَا أَنْ يَرُدَّ إِلَيْهَا
وَحِيدَهَا ثُمَّ تَعُودُ أَدْرَاجَهَا .

مَضَى اللَّيْلُ إِلَّا أَقْلَهُ وَسُوزَانَ جَالِسَةً إِلَى نَافِذَةِ قَصْرِهَا الْمُشْرِفَةِ عَلَى النَّهْرِ
تَلْتَفَتَتْ إِلَى سَرِيرِ ابْنَتِهَا مَرَّةً وَتَقَلَّبَ وَجْهَهَا فِي السَّمَاءِ أُخْرَى وَكَانَ الْقَمَرُ فِي
لَيْلَةٍ تَمَ فُظِّلَتْ تَتَاجِيهِ وَتَقُولُ :

أَيُّهَا الْقَمَرُ السَّارِي فِي كَبِدِ السَّمَاءِ هَا أَنْذَا فِي لَيْلَةٍ تَمَكُّ وَحْدِي لِلْمَرَّةِ
الرَّابِعَةِ وَالْعِشْرِينَ فَهَلْ يَعُودُ إِلَى خَطِيبِي جُوسْتَأَفُ فَيَنْظُرُ إِلَيْكَ مَعِيَ كَمَا كَانَ
يَفْعَلُ

مِنْ قَبْلِ .

لَقَدْ كُنْتُ لِي أَيُّهَا الْكَوْكَبُ الْمُنِيرُ نِعَمَ الْمُعَيَّنِ فِي لَيَالِي الْمُوحِشَةِ عَلَى هُمُومِي
وَأَحْزَانِي فَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُحَدِّثَنِي عَنْ جُوسْتَأَفِ أَيْنَ مَكَانِهِ وَمَتَى يَعُودُ وَهَلْ
نَلْتَقِي

قَرِيبًا فَيَتِمُّ بِذَلِكَ يَدُكَ عِنْدِي ؟
حَدَّثَنِي عَنْهُ . . هَلْ يُذَكِّرُنِي كَمَا أَذْكُرُهُ وَهَلْ يَحْفَظُ عَهْدِي كَمَا أَحْفَظُ عَهْدَهُ ؟
وَهَلْ

يَجْلِسُ إِلَيْكَ حِينًا فَيَسْأَلُكَ عَنِّي كَمَا أَسْأَلُكَ عَنْهُ ؟ فَإِنَّ فِعْلَ فَقُلْ لَهُ إِنَّ ابْنَتَهُ
جَمِيلَةً جِدًّا جِمَالِ الْبَيْتِ سَامَةِ الْحَائِرَةِ فِي فَمِ الْحَسَنَاءِ وَبَيَضَاءِ بَيَاضِ الْقَطَرَةِ
الصَّافِيَةِ فِي الزَّنْبَقَةِ النَّاصِعَةِ تَحْتَ الْأَشْجَةِ السَّاطِعَةِ وَقُلْ لَهُ إِنَّهَا لَا تَهْتَفُ بِاسْمِ
غَيْرِ اسْمِهِ وَلَا تَبْتَسِمُ لِرَسْمِ غَيْرِ رَسْمِهِ وَإِنَّهُ إِنْ رَأَاهَا أَغْنَتْهُ رُؤُوسُهَا عَنْ الْمِرْآةِ
الْمَجْلُوءَةِ لِأَنَّهُ يَرَى صُورَتَهُ فِي وَجْهِهَا كَمَا تَتَشَابَهُ الدُّمَيَّتَانِ الْمُصَوَّبَتَانِ فِي قَالِبِ
وَاحِدٍ .

وَلَمْ تَزَلْ تُتَاجِي الْقَمَرَ بِمِثْلِ هَذَا النِّجَاءِ حَتَّى رَأَتْهُ يَنْحَدِرُ إِلَى مَغْرِبِهِ فَوَدَّعَتْهُ
وَدَاعًا جَمِيلًا وَقَالَتْ إِلَى الْغَدِ يَا صَدِيقِي الْعَزِيزِ . . .
ثُمَّ قَامَتْ إِلَى سَرِيرِ ابْنَتِهَا فَحَنَّتْ عَلَيْهَا بِرَفْقٍ وَقَبَّلَتْهَا فِي جَبِينِهَا قُبْلَةً الْمَسَاءِ
وَذَهَبَتْ إِلَى مَضْجَعِهَا وَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ عَبَثَتْ بِجَفْنِهَا السَّنَةِ الْأُولَى مِنَ النَّوْمِ حَتَّى
أَسْلَمَتْهَا أَحْلَامُهَا إِلَى أَمَانِيهَا وَأَمَالِهَا فَرَأَتْ كَأَنَّ جُوسْتَأَفَ قَدْ عَادَ مِنْ سَفَرِهِ
فَاسْتَقْبَلَتْهُ هِيَ وَابْنَتُهَا عَلَى بَابِ الْقَصْرِ فَنَزَلَ مِنْ مَرْكَبَتِهِ وَضَمَّهُمَا مَعًا إِلَى
صَدْرِهِ

ضَمًّا شَدِيدًا وَظَلَّ يَقْبَلُهُمَا وَيَبْكِي فَرَحًا وَسُرُورًا .
فَإِنَّهَا بِالْإِغْوَاءِ فِي حَمْلِهَا هَذَا إِذْ شَعَرَتْ بِبِدِّ تَحْرُكِهَا فَانْتَبَهَتْ فَإِذَا صَدَرَ النَّهَارُ

قَدْ عَلَا وَإِذَا خَادِمَتَهَا وَاقِفَةً عَلَى رَأْسِهَا ضَاحِكَةً مُتَطَلِّقَةً تَقُولُ لَهَا بِشِيرَاكِ يَا
سَيِّدَتِي فَقَدْ حَضَرَ سَيِّدِي فَاسْتَطِيرَتْ فَرَحًا وَسُرُورًا وَقَالَتْ أَحْمَدُكَ اللَّهُمَّ فَقَدْ
صَدَقْتُ

أَحْلَامِي وَأَسْرَعْتُ إِلَى غُرْفَةِ مَلَابِسِهَا فَبَدَّلْتُ أَثَوَابَهَا ثُمَّ دَخَلْتُ عَلَيْهِ فِي غُرْفَتِهِ
بَاسِمَةً مُتَهَلِّلَةً تَحْمِلُ ابْنَتَهَا عَلَى يَدَيْهَا فَرَأَتْهُ وَاقِفًا فِي وَسْطِ الْغُرْفَةِ مُتَكِنًا عَلَى
كُرْسِيِّ بَيْنَ يَدَيْهِ فَهَرَعَتْ إِلَيْهِ وَلَكِنَّهَا مَا دَنَتْ مِنْهُ حَتَّى تَرَا جَعَتْ جَائِرَةً مَدْهُوشَةً
لِأَنَّهَا رَأَتْ أَمَامَهَا رَجُلًا لَا تَعْرِفُهُ وَلَا عَهْدَ لَهَا بِهِ مِنْ قَبْلُ لَا بَلْ هُوَ بَعِيْنُهُ
وَلَكِنَّهَا رَأَتْ وَجْهًا صَامِتًا مُتَحَجِّرًا لَا تَلْمَعُ فِيهِ بَارِقَةٌ ابْتِسَامٍ وَلَا تَجْرِي فِيهِ
نَظْرَةٌ بِشَاشَةٍ فَأَنْكَرَتْهُ إِلَّا أَنَّهَا تَمَاسَكَتْ قَلِيلًا وَمَدَّتْ إِلَيْهِ يَدَهَا تُحْيِيهِ فَمَدَّ
إِلَيْهَا يَدَهُ بِنَتَاقِلٍ وَفُتُورٍ كَأَنَّمَا يَنْقُلُهَا مِنْ مَكَانِهَا نَقْلًا وَلَمْ يَلِقْ عَلَى وَجْهِهِ
الطُّفْلَةَ وَكَانَتْ تَبْتَسِمُ إِلَيْهِ وَتَمُدُّ نَحْوَهُ ذِرَاعَيْهَا نَظْرَةً وَاحِدَةً وَكَانَتْ أَوَّلَ كَلِمَةٍ
قَالَهَا لَهَا أَبَاقِيَةِ أَنْتِ فِي الْقَصْرِ حَتَّى الْيَوْمِ فَازْدَادَتْ دَهْشَةً وَحَيْرَةً وَلَمْ تَفْهَمْ
مَاذَا يُرِيدُ وَقَالَتْ لَهُ وَأَيْنَ كُنْتَ تُرِيدُ أَنْ تَرَانِي يَا سَيِّدِي قَالَ فِي هَذَا الْقَصْرِ كَمَا
تَرَكَتْكَ وَلَكِنِّي أَظُنُّ أَنَّكَ لَا تَسْتَطِيعِينَ الْبَقَاءَ فِيهِ بَعْدَ الْيَوْمِ قَالَتْ :
لِمَذَا قَالَ لِأَنَّ زَوْجَتِي قَادِمَةٌ إِلَيْهِ الْيَوْمِ رَبُّمَا كَانَتْ لَا تُحِبُّ أَنْ تَرَى فِيهِ مَنْ
يُزْعِجُهُ وَجُودَهَا .

هُنَالِكَ شَعَرَتْ أَنَّ جَمِيعَ مَا كَانَ يَنْبَغِي فِي عُرُوقِهَا مِنْ الدَّمِ قَدْ تَرَا جَعَ كُلَّهُ دُفْعَةً
وَاحِدَةً إِلَى قَلْبِهَا فَأَصْبَحَ وَحْدَهُ الْوَاجِبُ الْخَفَاقُ مِنْ دُونِ أَغْصَانِهَا وَأَوْصَالِهَا
جَمِيعًا وَلَكِنَّ الْمُصِيبَةَ إِذَا عَظُمَتْ خَلَتْ عَنِ الْبُكَاءِ وَالْأَنِينِ فَلَمْ تَصِحَّ وَلَمْ
تَضْطَرِبْ

بَلْ نَظَرَتْ إِلَيْهِ نَظْرَةً طَوِيلَةً هَادِئَةً ثُمَّ التَفَقَّتْ إِلَى ابْنَتِهَا وَقَالَتْ لَهُ وَمَا تَرَى فِي

إِبْنَتِكَ هَذِهِ ؟ قَالَ لَيْسَ لِي ابْنَةٌ أَتَيْتُهَا السَّيِّدَةَ وَلَا وَلَدٌ لِي لِأَنِّي لَمْ أَتَزَوَّجْ إِلَّا
 مُنْذُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فَخَذِي إِبْنَتَكَ مَعَكَ وَعَيْشِي مَعَهَا حَيْثُ تَشَأْنَيْنِ وَقَدْ تَرَكْتُ لَكَ هَذَا
 الْكَيْسَ عَلَى الْمُنْضَدَةِ فَخُذِيهِ وَاسْتَعِينِي بِهِ عَلَى عَيْشِكَ وَتَرْكُهَا وَمَضَى .
 لَمْ تُلْقَ عَلَى الْمُنْضَدَةِ نَظْرَةً وَاحِدَةً وَمَشَتْ تَتَحَامَلُ عَلَى نَفْسِهَا حَتَّى وَصَلَتْ إِلَى
 غُرْفَتِهَا وَهُنَالِكَ انْفَجَرَتْ بَاكِیَةً وَقَالَتْ وَاسْوَأَتَاهُ إِنَّهُ يُعْطِنِي ثَمَنَ عَرْضِيَّ
 وَسَقَطَتْ

مَغْشِيًّا عَلَيْهَا فَلَمْ تَسْتَفِقْ حَتَّى أَظْلَمَ اللَّيْلُ فَفَتَحَتْ عَيْنَيْهَا فَإِذَا ابْنَتُهَا تَبْكِي
 بَيْنَ ذِرَاعَيْ الْخَادِمَةِ وَإِذَا الْخَادِمَةُ تَبْكِي لِبُكَائِهَا فَضَمَّتْهَا إِلَى صَدْرِهَا سَاعَةً ثُمَّ
 قَامَتْ إِلَى غُرْفَةِ مَلَابِسِهَا وَأَخَذَتْ تُفْتَشُ عَنْ أَثْوَابِهَا الْقُورِيَّةِ الَّتِي دَخَلَتْ بِهَا هَذَا
 الْقَصْرَ مُنْذُ ثَلَاثَةِ أَغْوَامٍ وَكَانَتْ تُخْفِيهَا عَنْ أَعْيُنِ النَّاسِ حَيَاءً وَخَجَلًا فَخَلَعَتْ
 أَثْوَابَهَا وَلَبِسَتْهَا وَلَمْ تُبْقَ فِي مِعْصَمِيهَا وَلَا فِي جِيدِهَا لُؤْلُؤَةٌ وَلَا مَاسَةٌ إِلَّا
 أَلْقَتْ بِهَا تَحْتَ قَدَمَيْهَا وَاحْتَمَلَتْ طِفْلَتَهَا وَخَرَجَتْ تَحْتَ سِتَارِ اللَّيْلِ تَتَرَنَّحُ فِي
 مِشْيَتِهَا كَأَنَّمَا تَمْشَى عَلَى رَمْلَةٍ مِثْيَاءً .
 وَمَا جَاوَزَتْ عِنَبَةَ الْبَابِ وَوَصَلَتْ إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي كَانَتْ وَاقِفَةً فِيهِ فِي حَمْلِهَا
 هِيَ

وَابْنَتُهَا مُنْذُ سَاعَاتٍ تَنْظُرُ خَطِيبَهَا حَتَّى لَمَحَتْ عَلَى الْبُعْدِ مَرْكَبَةً فَخَمَّةٌ مُقْبِلَةٌ
 عَلَى

الْقَصْرِ تَحْمِلُ الْمَرْكِيزَ وَامْرَأَةً بِجَانِبِهِ فَأَغْمَضَتْ عَيْنَيْهَا وَتَسَلَّلَتْ تَحْتَ جِدَارِ
 الْقَصْرِ

وَمَضَتْ فِي سَبِيلِهَا .

لَا يَعْلَمُ إِلَّا اللَّهُ مَا كَانَتْ تَحْمِلُ هَذِهِ الْفَتَاةُ الْمُسْكِينَةَ بَيْنَ جَنْبَيْهَا فِي تِلْكَ

السَّاعَةَ مِنْ هُمُومٍ وَأَحْزَانٍ فَقَدْ خَرَجَتْ مَطْرُودَةً مِنَ الْقَصْرِ الَّتِي كَانَتْ تَنْظُرُ مِنْهُ
سَاعَاتٍ

أَنَّهَا صَاحِبَتُهُ وَتَوَلَّى طَرْدُهَا مَنْ كَانَتْ تَزْعُمُ فِي نَفْسِهَا أَنَّهَا أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيْهِ
وَأَثَرُهُمْ عِنْدَهُ وَاسْتَحَالَتْ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ فِتَاةٍ شَرِيفَةٍ ذَاتِ خَطِيبٍ شَرِيفٍ
إِلَى

امْرَأَةً عَاهِرَةً ذَاتَ وَلَدٍ مُرِيبٍ وَأَصْبَحَ مُسْتَحِيلًا عَلَيْهَا أَنْ تَعُودَ إِلَى بَيْتِهَا الْقَدِيمِ
بِعَارِهَا فَتَرَى وَجْهَ ذِيكَ الشَّخْصَيْنِ اللَّذَيْنِ أَحْسَنَا إِلَيْهَا كَثِيرًا وَأَحَبَّاهَا حُبًّا
جَمًّا فَاسَاءَتْ إِلَيْهِمَا وَغَدَرَتْ بِهِمَا فَقَدْ سَدَّتْ دُونَهَا السُّبُلَ وَأَظْلَمَ مَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ
الْعَالَمِ بِأَجْمَعِهِ فَمَا مِنْ رَحْمَةٍ لَهَا فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ .
ذَلِكَ مَا كَانَتْ تُحَدِّثُ نَفْسَهَا بِهِ وَهِيَ سَائِرَةٌ تَحْتَ سُورِ الْقَصْرِ سَيْرَ الدَّاهِلِ
الْمَشْدُودِ

وَلَا تَعْرِفُ لَهَا مُذْهَبًا وَلَا مُضْطَرِبًا حَتَّى رَأَتْ رَأْسَ ابْنَتِهَا يَمِيلُ بِهِ الْكَرَى
فَمَشَتْ

إِلَى رِبْوَةٍ عَالِيَةٍ عَلَى ضَفَّةِ النَّهْرِ الْجَارِي عَلَى مَقْرُبَةٍ مِنَ الْقَصْرِ فَأَضْجَعَتْهَا
فَوْقَ

عُشْبِهَا وَأَسْبَلَتْ عَلَيْهَا رِدَاءَهَا وَجَلَسَتْ بِجَانِبِهَا تَفَكَّرَ فِي مَصِيرِهَا .
فَإِنَّهَا الْجَالِسَةُ مَجْلِسَهَا وَهَذَا وَقَدْ سَكَنَ اللَّيْلُ وَسَكَنَ كُلُّ شَيْءٍ فِيهِ إِلَّا ضَوْءَ الْقَمَرِ
الْمُنْبَعِثِ فِي أَجْوَاзِ الْفَضَاءِ وَنَسَمَاتِ الْهَوَاءِ الْمُتَرَقِّقَةِ عَلَى صَفَحَاتِ الْمَاءِ إِذْ
شَعَرَتْ كَأَنَّهَا تَسْمَعُ بِالْقُرْبِ مِنْهَا هُتَافًا يَهْتَفُ بِاسْمِهَا مُمْتَدِّ بَيْنَ صَخْرَتَيْنِ عَلَى
ضَفَّةِ

النَّهْرُ كَأَنَّهُ إِنْسَانٌ نَائِمٌ فَارْتَاعَتْ وَفَزِعَتْ ثُمَّ سَمِعَتْ الصَّوْتَ يَتَكَرَّرُ بِنَغْمَةٍ
وَاحِدَةٍ

فَأَهَمَّهَا الْأَمْرُ وَنَهَضَتْ مِنْ مَكَانِهَا وَأَخَذَتْ تَدْنُو مِنَ الشَّيْخِ رُوَيْدًا رُوَيْدًا حَتَّى
دَانَتْهُ فَإِذَا هُوَ إِنْسَانٌ فِي زِيِّ الْمَسَاكِينِ مُسْتَلْقٍ عَلَى ظَهْرِهِ شَاخِصٌ بِبَصَرِهِ إِلَى
جِدَارٍ

الْقَصْرِ فَذَهَبَتْ بِنَظَرِهَا فَإِذَا عَيْنُهُ عَالِقَةٌ بِنَافِذَةِ غُرْفَتِهَا الَّتِي كَانَتْ تَجْلِسُ إِلَيْهَا
كُلَّ لَيْلَةٍ فَعَجِبَتْ لِذَلِكَ كُلِّ الْعَجَبِ وَخَفِقَ قَلْبُهَا خَفَقًا مُتَدَارِكًا وَرَأَتْهُ يَضُمُّ إِلَى
صَدْرِهِ هِنَةَ بَيْضَاءَ أَشْبَهَ بِالرُّقْعَةِ ضَمًّا شَدِيدًا فَأَكْبَتَ عَلَيْهِ لِتَتَبَيَّنَهُ وَتَرَى مَا يَضُمُّ
إِلَى صَدْرِهِ فَإِذَا الرُّقْعَةُ رَسَمَهَا وَإِذَا هُوَ جَلِبَرْتُ يَجُودُ بِنَفْسِهِ وَيُرَدِّدُ بِصَوْتٍ
خَافِتٍ

مُتَغَلْغِلٌ كَأَنَّهُ أَصْوَاتُ الْمُعَذِّبِينَ فِي أَعْمَاقِ الْقُبُورِ الْوَادِعِ يَا سُوزَانَ الْوَادِعِ يَا
سُوزَانَ فَفَهِمَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَصَرَخَتْ صَرَخَةً عَظُمَى دَوَّى بِهَا الْفَضَاءُ وَقَالَتْ :
أَهْ لَقَدْ قَتَلْتَنِي يَا ابْنَ عَمِّي ثُمَّ سَقَطْتُ عَلَى يَدِهِ تَقْبَلُهَا وَتُبَلِّلُهَا بِدُمُوعِهَا وَتَقُولُ
هَذَا أَنْذَا يَا جَلِبَرْتُ جَائِيَّةٌ تَحْتَ قَدَمَيْكَ فَارْحَمْنِي وَاعْفِرْ لِي ذَنْبِي فَقَدْ أَصْبَحْتُ
امْرَأَةً

بِأَنْسَةِ شَقِيَّةٍ لَيْسَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مَنْ هُوَ أَحَقُّ بِالرَّحْمَةِ مِنِّي وَكَأَنَّمَا أَحَسَّ
بِنَغْمَةٍ

صَوْتِهَا فَارْتَعَدَ قَلِيلًا ثُمَّ مَالَ بِنَظَرِهِ نَحْوَهَا حَتَّى رَأَاهَا فَسَقَطَتْ مِنْ جَفْنِهِ دَمْعَةٌ
حَارَّةٌ

عَلَى يَدِهَا كَانَتْ آخِرَ عَهْدِهِ بِالْحَيَاةِ وَقَضَى .
وَلَمَّا دَنَا مِنِّي السِّيَاقُ تَعَرَّضْتُ

إِلَى وَدُونِي مِنْ تَعَرُّضِهَا شَغَلَ
 أَتَتْ وَحِيَاضَ الْمَوْتِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا
 وَجَادَتْ بَوَصْلٍ حِينَ لَا يَنْفَعُ الْوَصْلُ
 جَثَتْ سُوزَانُ بِجَانِبِ جُثَّةٍ جَلَبَرَتْ سَاعَةً قَضَتْ فِيهَا مَا يَجِبُ عَلَيْهَا لِابْنِ عَمِّهَا
 وَخَطِيبِهَا

وَعَشِيرِهَا الَّذِي أَحَبَّهَا حُبًّا لَمْ يُحِبَّهُ أَحَدٌ مِنْ قَبْلِهِ أَحَدًا حَتَّى مَاتَ حَسْرَةً عَلَيْهَا
 ثُمَّ اسْتَفَاقَتْ فَذَكَرَتْ ابْنَتَهَا وَأَنَّهَا تَرَكْتَهَا عَلَى تِلْكَ الرَّبْوَةِ نَائِمَةً وَحَدَّهَا فَعَادَتْ
 إِلَيْهَا مُسْرِعَةً وَقَدْ قَرَّرَتْ فِي نَفْسِهَا أَمْرًا . .
 لَا أَعْرِفُ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ أَوْصِيَهُ بِكَ يَا بُنَيَّ لِأَنَّ أَبَاكَ بِالْإِغْوَاءِ وَلِأَنَّ الرَّجُلَ
 الْوَحِيدَ الَّذِي كَانَ يُحِبُّنِي فِي هَذَا الْعَالَمِ ذَهَبَ لِسَبِيلِهِ وَلَكِنِّي أَعْلَمُ أَنَّ لِهَذَا
 الْكَوْنِ إِلَهًا رَحِيمًا يَعْلَمُ دَخَائِلَ الْقُلُوبِ وَسَرَائِرَ النُّفُوسِ وَيَرَى لَوْعَةَ الْحُزْنِ فِي
 أَفْئِدَةِ الْمَحْزُونِينَ وَلَا عَجَّ الشَّقَاءُ بَيْنَ جَوَانِحِ الْأَشْقِيَاءِ فَأَنَا أَكِلٌ أَمْرُكَ إِلَيْهِ
 وَأَتْرُكُكَ بَيْنَ يَدَيْهِ فَهُوَ أَرْحَمُ بِكَ مِنْ جَمِيعِ الرَّحَمَاءِ لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَعِيشَ لَكَ يَا
 بُنَيَّتِي فَإِنَّ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ لَا يُغْتَفَرُ لِي الذَّنْبُ الَّذِي أَذْنَبْتَهُ حَتَّى الَّذِي أَغْرَانِي
 بِهِ وَشَارَكَنِي فِيهِ فَأَنَا ذَاهِبَةٌ إِلَى ذَلِكَ الْعَالَمِ الْعُلُويِّ الْمَمْلُوءِ عَذْلًا وَرَحْمَةً
 لَعَلِّي أَجِدُ فِيهِ مَنْ يَغْفِرُ لِي ذَنْبِي إِنْ كُنْتُ بَرِيئَةً وَيَرْحَمَنِي إِنْ كُنْتُ مُذْنِبَةً .
 لَا أَحِبُّ أَنْ تَكُونَ حَيَاتِي يَا بِنِيَّةَ شَوْمًا عَلَى حَيَاتِكَ وَلَا أَنْ يَأْخُذَكَ النَّاسُ بِذَنْبِي
 كُلَّمَا رَأَوْكَ بِجَانِبِي فَأَنَا أَتْرُكُكَ وَحَدَّكَ فِي هَذَا الْمَكَانِ لَعَلَّ رَاحِمًا مِنَ النَّاسِ يَمُرُّ
 بِكَ فَيُعْطِفُ عَلَيْكَ وَيَضُمُّكَ إِلَيْهِ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُ شَيْئًا مِنْ أَمْرِكَ فَتَعِيشِينَ فِي
 بَيْتِهِ

سَعِيدَةً هَانِئَةً لَا تَعْرِفِينَ أَبَاكَ فَيُخْجَلُكَ مَرَّاهُ وَلَا أُمُّكَ فَتُؤْلِمَكَ ذِكْرَاهَا .

اللَّهُمَّ إِن كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذِهِ الطِّفْلَةَ ضَعِيفَةٌ عَاجِزَةٌ تَحْتَاجُ إِلَى مَنْ يَرْحَمُهَا وَيَكْفُلُ
أَمْرَهَا وَأَنْنِي قَدْ أَصْبَحْتُ عَاجِزَةٌ عَنِ الْبَقَاءِ بِجَانِبِهَا أَرْعَاهَا وَأَحْنُو عَلَيْهَا وَأَنَّهَا
بَرِيئَةٌ طَاهِرَةٌ لَا يَدَ لَهَا فِي الَّذِي أَذْنِبَهُ أَبُوهَا فَارْحَمَهَا وَأَسْبِلْ عَلَيْهَا سِتْرَ
مَعْرُوفِكَ وَإِحْسَانِكَ وَهِيَ لَهَا صَدْرًا حَنُونًا وَمَهْدًا لَيْنًا وَعَيْشًا رَغِيدًا .
ثُمَّ بَدَأَتْ تَسْرُّ ثِيَابَهَا عَنْ جِسْمِهَا وَتُغَطِّي بِهَا جِسْمَ ابْنَتِهَا وَقَايَةً لَهَا مِنْ بَرْدِ
الَّيْلِ حَتَّى لَمْ يُبْقَ عَلَى جَسَدِهَا إِلَّا قَمِيصٌ وَاحِدٌ تَرَكْتَهُ لِيَكُونَ سِتْرًا لِعَوْرَتِهَا عِنْدَ
إِنْتِشَالِ جُثَّتِهَا ثُمَّ حَنَّتْ عَلَى الطِّفْلَةِ بِرِفْقٍ فَلَثَمَتْهَا فِي جَبِينِهَا لَثْمَةً أَوْدَعَتْهَا كُلَّ
مَا فِي صَدْرِهَا مِنْ حُبٍّ وَرَحْمَةٍ وَرِفْقٍ وَحَنَانٍ ثُمَّ هَنَقَتْ قَائِلَةً الْوَدَاعَ يَا مَارِي
سَنَلْقِي

عَمَّا قَلِيلٍ يَا جَلْبِرتِ الْمَغْفُورَةِ يَا كَاتِرِينَ وَالْقَتَّ بِنَفْسِهَا فِي الْمَاءِ .
قُضِيَ الْمَرْكِيزِ اللَّيْلَةُ الْأُولَى مِنْ لَيْالِي شَهْرِ الْعَسَلِ مَعَ عَرُوسِهِ فِي شَرْفَةِ
الْقَصْرِ

يُسَمَّرَانِ وَيَتَنَاجِيَانِ وَيَذْهَبَانِ بِنَظَرٍ هَمَّا حَيْثُ تَذْهَبُ خَضِرَةُ الْأَرْضِ وَتَمْتَدُّ زُرْقَةُ
السَّمَاءِ

وَتَطْرُدُ مِيَاهَ النَّهْرِ وَيَتَقَلَّبَانِ بَيْنَ سَعَادَةٍ حَاضِرَةٍ وَأُخْرَى مَرْجُوَّةٍ وَيَرْتَشِفَانِ مِنْ
كُلِّ

كَأْسٍ مِنْ تِلْكَ الْكُؤُوسِ رَشْفَةً تَكْثُرُ بِمَا عِنْدَهُمَا مِنْهَا حَتَّى ثَمَلَا وَاسْتَغْرَقَا
وَأَصْبَحَا لَا يَشْعُرَانِ بِشَيْءٍ مِمَّا حَوْلَهُمَا فَلَمْ يَسْتَفِيكَا حَتَّى سَمِعَا دَوِيَّ الرِّيحِ فِي
أَبْرَاجِ الْقَصْرِ وَفِي ذَوَائِبِ الْأَشْجَارِ فَعَلِمَا أَنَّهَا الزَّوْبَعَةُ فَنَهَضَا مِنْ مَكَانِهَا
لِيَذْهَبَا إِلَى مَضْجَعِهَا .

فَإِنَّهُمَا لَوَاقِفَانِ مَوْقِفَهُمَا هَذَا إِذْ لَمَحَتْ الْمَرْكِيزَةُ فِي وَجْهِ الْمَرْكِيزِ دَهْشَةً

وَاضْطَرَّ أَبَا وَرَأَتْهُ يَلْتَقِي الْتِقَاتًا شَدِيدًا كَأَنَّمَا يَتَسَمَّعُ لَصَوْتٍ غَرِيبٍ فَسَأَلَتْهُ مَا
بَالَهُ فَلَمْ يُجِبْهَا وَأَطْلَّ مِنَ الشَّرْفَةِ عَلَى النَّهْرِ فَرَأَى كَمَا رَأَتْ هِيَ عَلَى نُورِ الْقَمَرِ
طِفْلَةً وَاقِفَةً عَلَى الضَّفَّةِ تَصِيحُ وَتُعَوِّلُ وَتُشِيرُ بِيَدِهَا نَحْوَ الْمَاءِ وَتَقُولُ أُمَّاهُ أُمَّاهُ
فَنَظَرَا حَيْثُ تُشِيرُ فَإِذَا امْرَأَةٌ عَارِيَةٌ إِلَّا قَلِيلًا تَتَخَبَّطُ فِي لَجَجِ الْمَاءِ تَخَبُّطُ
الْغُرَقَى فَتَرَكِ الْمَرْكَزَ مَكَانَهُ وَنَزَلَ يَعْدُو إِلَى النَّهْرِ وَهُوَ يَقُولُ وَالْهَفْتَاهُ إِنَّ
كَانَتْ هِيَ وَصَاحَ بِخَدَمِهِ أَنْ يَتَّبِعُوهُ فَفَعَلُوا حَتَّى بَلَغَ مَوْقِفَ الطِّفْلِ فَعَرَفَ أَنَّهَا
إِبْنَتُهُ وَأَنَّ الْغَرِيقَةَ سُوزَانَ فَأَظْلَمَ الْفَضَاءُ فِي عَيْنَيْهِ وَأَشَارَ إِلَى أَحَدِ خَدَمِهِ أَنْ
يُعَوِّدَ بِالطِّفْلِ إِلَى الْقَصْرِ وَأَمَرَ الْبَاقِينَ أَنْ يَسْبَحُوا وَرَاءَ الْغَرِيقَةِ ثُمَّ سَقَطَ فِي
مَكَانِهِ وَاهِنًا مُتَهَالِكًا وَكَانَ قَدْ اجْتَمَعَ عَلَى الضَّفَّةِ خَلْقٌ كَثِيرٌ مِنَ الْفَلَاحِينَ
رِجَالًا وَنِسَاءً فَسَبَّحَ بَعْضُهُمْ وَرَاءَ السَّابِحِينَ وَوَقَفَ الْبَاقُونَ حَوْلَ الْمَرْكَزِ
يَنْتَظِرُونَ
رَحْمَةً اللَّهِ وَإِحْسَانَهُ .

إِنْتَشَرَ السَّابِحُونَ فِي كُلِّ مَكَانٍ وَمَشَتْ وَرَاءَهُمْ عُيُونُ النَّاضِرِينَ وَقُلُوبُهُمْ فَقَامَتْ
بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْأَمْوَاجِ الْمُتَلَاطِمَةِ مَعْرَكَةٌ هَائِلَةٌ كَانُوا يَظْفَرُونَ فِيهَا مَرَّةً
وَيَتَرَجِعُونَ أُخْرَى وَكَادُوا إِذَا لَاحَ لَهُمْ عَلَى الْبُعْدِ قَمِيصُ الْغَرِيقَةِ أَوْ شَعْرُهَا
عَظُمٌ

عِنْدَهُمُ الْأَمَلُ فَانْدَفَعُوا وَرَاءَهَا مُسْتَبْسِلِينَ مُسْتَلْقِينَ يَغَالِبُونَ جِبَالَ الْأَمْوَاجِ
الْمُعْتَرِضَةِ فِي طَرِيقِهِمْ حَتَّى إِذَا دُنُو مِنْ الْمَكَانِ الَّذِي لَمَحُوهَا فِيهِ لَا يَجِدُونَ
أَمَامَهُمْ شَيْئًا ثُمَّ لَا يَلْبَثُ الْمَوْجُ أَنْ بَكَّرَ عَلَيْهِمْ فَيَدْفَعُهُمْ إِلَى الشِّفَةِ كَمَا كَانُوا

وَمَا زَالَتْ الْفَتَرَاتُ بَيْنَ ظُهُورِ الْغَرِيقَةِ وَاخْتِفَائِهَا تَتَسَّعُ شَيْئًا فَشَيْئًا حَتَّى غَابَتْ

عَنْ الْأَعْيُنِ وَلَمْ تَظْهَرْ فَهَبَطَ السَّابِحُونَ وَرَاءَهَا وَلَبِثُوا سَاعَةً يَرْسُبُونَ وَيَطْفُونَ
ثُمَّ

ظَهَرُوا عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ يَحْمِلُونَهَا عَلَى أَيْدِيهِمْ وَلَا يَعْلَمُ النَّاسُ أَحْيَةً أَمْ مَيِّتَةً
وَمَا زَالُوا يَسْبَحُونَ بِهَا وَأَصْوَاتُ الدُّعَاءِ لَهَا وَالْبُكَاءُ عَلَيْهَا تَرْنٌ فِي الضَّقَتَيْنِ
فَتَرَدَّدَ رَيْنُهَا آفَاقَ السَّمَاءِ حَتَّى وَصَلُوا بِهَا إِلَى الضَّقَّةِ فَأَلْقَوْهَا عَلَى الْأَرْضِ
فَإِذَا هِيَ مَيِّتَةٌ .

وَمَا هِيَ إِلَّا سَاعَةٌ أَوْ بَعْضُ سَاعَةٍ حَتَّى كَانَتْ الضَّقَّةُ مَاتِمًا قَائِمًا يَبْكِي فِيهِ
النِّسَاءُ

عَلَى الشَّهِيدَةِ وَالرَّجَالِ عَلَى الشَّهِيدِ .

لَمْ يَنْتَفِعِ الْمُرْكُزُ بِنَفْسِهِ بَعْدَ هَذَا الْيَوْمِ كَمَا لَمْ يَنْتَفِعِ جَلْبَرْتُ بِنَفْسِهِ مِنْ قَبْلُ
فَقَدْ مَرَضَتْ إِبْنَتَهُ أَثَرُ تِلْكَ الْحَادِثَةِ مَرَضًا شَدِيدًا فَلَمْ تَلَبَثْ أَنْ لَحِقَتْ بَعْدَ ثَلَاثِ
لَيَالٍ وَاسْتَحَالَ الْحُبُّ الَّذِي كَانَتْ تُضْمِرُهُ لَهُ زَوْجَتَهُ إِلَى بَعْضٍ وَاحْتِقَارٍ فَهَجَرَتْهُ
وَسَافَرَتْ إِلَى نَيْسٍ وَلَزِمَهُ خَيَالُ ذَلِكَ الْمَنْظَرِ الَّذِي رَأَاهُ مِنْ شُرْفَةِ الْقَصْرِ لَيْلَةً
الْغَرَقِ

لَا يَفَارِقُهُ لَيْلُهُ وَنَهَارُهُ فَكَانَ كُلَّمَا مَشَى فِي طَرِيقٍ تَوَهَّمُ أَنْ أَمَامَهُ نَهْرًا هَائِجًا
تَتَخَبَّطُ سُوزَانُ فِي لِحْتِهِ وَتَصِيحُ مَارِي عَلَى ضَفَّتِهِ فَيَصْرُخُ قَائِلًا لَبَّيْكَ يَا
سُوزَانُ

وَيَنْدَفِعُ إِلَى الْأَمَامِ كَأَنَّمَا يُرِيدُ أَنْ يُقْفِيَ بِنَفْسِهِ فِي النَّهْرِ الَّذِي تَوَهَّمَهُ لِيُنْجِيَ
الْغَرِيقَةَ الَّتِي تُخِيلُهَا فَيَنَآيُ عَنْهُ الْمَنْظَرُ كُلَّمَا دَنَا مِنْهُ حَتَّى يَنَالَ مِنْهُ التَّعَبُ
فَيَسْقُطُ حَسِيرًا طَرِيحًا وَكَانَ يَهِيمُ عَلَى وَجْهِ أَحْيَانًا حَتَّى يَصِلَ إِلَى ضَاحِيَةِ
قَرْبَةٍ

لِإِنِّي فَرَيْتُ امْرَأَةً عَجُوزَ مَكْبَةٍ عَلَى قَبْرِ بَيْنَ يَدَيْهَا تُبْكِي وَتَتَحَبَّبُ فَيَعْلَمُ أَنَّهَا
كَاتِرِينَ وَأَنَّ الْقَبْرَ قَبْرُ قَتْلَاهُ فَيَتَرَجَّعُ خَائِفًا مَذْعُورًا وَيَصْرُخُ قَائِلًا الرَّحْمَةَ
الرَّحْمَةَ الْعَفْوُ الْعَفْوُ وَكَثِيرًا مَا كَانَ يَرَاهُ نِسَاءَ الْفَلَاحِينَ سَاقِطًا فِي بَعْضِ
الْأَمَاكِينِ الَّتِي كُنَّ يَرَيْنَ فِيهَا جَلِبِرتَ فَيَقُلْنَ لَقَدْ اُنْتَقِمَ اللَّهُ لِلشَّهِيدِ الْمُسْكِينِ
وَالشَّهِيدَةِ الْمَظْلُومَةِ وَكَانَ مَنْظَرُ الْمَاءِ يُهَيِّجُهُ أَكْثَرَ مِنْ كُلِّ مَنْظَرٍ سِوَاهُ فَإِذَا رَأَاهُ
اِثَارَ وَاضْطَرَبَ وَتَهَافَّتَ عَلَيْهِ يُرِيدُ اقْتِحَامَهُ لَوْلَا أَنْ يَتَذَكَّرَهُ مَنْ يَرَاهُ مِنَ الْمَارَّةِ

وَلَمْ يَزَلْ هَذَا شَأْنُهُ حَتَّى رَأَى النَّاسَ جُثَّتَهُ فِي صَبَاحِ يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ طَافِيَةً عَلَى
وَجْهِ النَّهْرِ فِي الْمَكَانِ الَّذِي غَرِقَتْ فِيهِ سُوزَانُ فَعَلِمُوا أَنَّهَا نِهَآيَةُ الْجَزَاءِ .
مَرَّتْ عَلَى هَذِهِ الْحَادِثَةِ أَعْوَامٌ طَوَالَ وَلَا يَزَالُ عَجَائِزُ قُرْبَةً لِيْنِي وَالْقُرْدُ
الْمُحِيطَةُ

بِهَا يَحْفَظْنَهَا حَتَّى الْيَوْمِ وَيَبْكِينَ كُلَّمَا ذَكَرْنَهَا وَيُرَوِّنَهَا لِبَنَاتِهِنَّ وَحَفِيدَاتِهِنَّ
عِبْرَةً يَعْتَبِرْنَ بِهَا كُلَّمَا طَافَ بِهِنَّ مِنْ شُرُورِ الرِّجَالِ .

الْعَقَاب

"مَوْضُوعَة"

رَأَيْتَ فِيمَا يَرَى النَّائِمُ فِي لَيْلَةٍ مِنْ لَيَالِي الصَّيْفِ الْمَاضِي كَأَنِّي هَبَطْتُ مَدَنِيَّةَ
كُبْرَى لَا عِلْمَ لِي بِاسْمِهَا وَلَا بِمَوْقِعِهَا مِنَ الْبِلَادِ وَلَا بِالْعَصْرِ الَّذِي يَعِيشُ
أَهْلُهَا فِيهِ فَمَشَيْتُ فِي طُرُقِهَا بِضَعِّ سَاعَاتٍ فَرَأَيْتُ أَجْنَاسًا مِنَ الْبَشَرِ لَا عِدَادَ لَهُمْ
يَنْطِقُونَ بِأَنْوَاعٍ مِنَ اللُّغَاتِ لَا حَصْرَ لَهَا فَخِيلَ إِلَيَّ أَنَّ الدُّنْيَا قَدْ اسْتَحَالَتْ إِلَى
مَدَنِيَّةٍ وَأَنَّ الَّذِي أَرَاهُ بَيْنَ يَدَيَّ إِنَّمَا هُوَ الْعَالَمُ بِأَجْمَعِهِ مِنْ أَدْنَاهُ إِلَى أَقْصَاهُ
فَلَمْ أَزَلْ أَتَقَلَّلُ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ وَأُداوِلُ بَيْنَ الْحَرَكَةِ وَالسُّكُونِ حَتَّى انْتَهَى بِي
الْمُسِيرُ إِلَى بَنِيَّةٍ عَظِيمَةٍ لَمْ أَرِ بَيْنَ النَّبِيِّ أَعْظَمَ مِنْهَا شَأْنًا وَلَا أَهْوَلَ مَنْظَرًا
وَقَدْ اِزْدَحَمَ عَلَى بَابِهَا خَلْقٌ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَمَشَى فِي أَفْنِيَّتِهَا وَأَبْهَائِهَا طَوَائِفُ
مِنَ الْجُنْدِ يُخْطِرُونَ بِسُيُوفِهِمْ وَحِمَائِلِهِمْ جِيئَةً وَذَهَابًا فَسَأَلْتُ بَعْضَ الْوَاقِفِينَ مَا

هَذِهِ

الْبَنِيَّةُ وَمَا هَذَا الْجَمْعُ الْمُحْتَشِدُ عَلَى بَابِهَا فَعَلِمْتُ أَنَّهَا قَصْرُ الْأَمِيرِ وَأَنَّ الْيَوْمَ
يَوْمُ الْقَضَاءِ بَيْنَ النَّاسِ وَالْفَصْلِ فِي خُصُومَاتِهِمْ وَمَا هِيَ إِلَّا سَاعَةٌ حَتَّى نَادَى
مُنَادٍ

فِي النَّاسِ أَنَّ قَدْ اجْتَمَعَ مَجْلِسُ الْقَضَاءِ فَاشْهَدُوهُ فَدَخَلَ النَّاسُ وَدَخَلَتْ عَلَى
أَثَرِهِمْ

وَجَلَسَتْ حَيْثُ انْتَهَى بِي الْمَجْلِسُ فَرَأَيْتُ جَالِسًا عَلَى كُرْسِيِّ مِنَ الذَّهَبِ يَتَلَأَلُ
فِي وَسْطِ

الْفَنَاءِ تَلَأُلُو الشَّمْسِ فِدَارَتَهَا وَقَدْ جَلَسَ عَلَى يَمِينِهِ رَجُلٌ يَلْبَسُ مُسُوحًا وَعَلَى
يَسَارِهِ آخَرٌ يَلْبَسُ طِيلِسَانًا فَسَأَلْتُ عَنْهُمَا فَعَرَفْتُ أَنَّ الَّذِي عَلَى يَمِينِهِ كَاهِنُ الدَّيْرِ
وَأَنَّ الَّذِي عَلَى يَسَارِهِ قَاضِي الْمَدِينَةِ وَرَأَيْتَهُ يَنْظُرُ فِي وَرَقَةٍ بَيْضَاءَ بَيْنَ يَدَيْهِ
فَأَكْبَ عَلَيْهَا سَاعَةً ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَقَالَ لِيُؤْتِ بِالْمُجْرِمِينَ فَفَتَحَ بَابَ السَّجْنِ وَكَانَ
عَلَى يَسَارِ الْفَنَاءِ فَتَكَشَّفَ عَنْ مِثْلِ خَلْقِ اللَّيْثِ مَنَظَرًا وَزَيْئِرًا وَخَرَجَ مِنْهُ
الْأَعْوَانُ

يَقْتَادُونَ شَيْخًا هَرِمًا تَكَادَ تُسَلِّمُهُ قَوَائِمُهُ ضَعْفًا وَوَهْنَا فَسَأَلَ الْأَمِيرَ مَا
جَرِيْمَتُهُ فَقَالَ الْكَاهِنُ إِنَّهُ لَصَّ دَخَلَ الدَّيْرَ فَسَرَقَ مِنْهُ غَرَارَةً مِنْ غُرَائِرِ الدَّقِيقِ
الْمَحْبُوسَةِ عَلَى الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ فَضَجَّ النَّاسُ ضَجِيجًا عَالِيًا وَصَاحُوا وَيْلَ
لِلْمُجْرِمِ اللَّائِمِ أَيْسُرَقُ مَالُ اللَّهِ فِي بَيْتِ اللَّهِ ؟
ثُمَّ نُودِيَ بِالشُّهُودِ فَشَهِدَ عَلَيْهِ رُهْبَانُ الدِّينِ فَتَسَارَ الْأَمِيرُ مَعَ الْكَاهِنِ هُنَيْهَةً ثُمَّ
صَاحَ يَقَادُ الْمُجْرِمَ إِلَى سَاحَةِ الْمَوْتِ فَتَقَطَعَ يُمْنَاهُ ثُمَّ يَسْرَاهُ ثُمَّ بَقِيَّةَ أَطْرَافِهِ ثُمَّ
يَقْطَعُ رَأْسَهُ وَيَقْطَعُ طَعَامًا لِلطَّيْرِ الْغَادِي وَالْوَحْشِ السَّاعِبِ فَجَثَا الشَّيْخُ بَيْنَ يَدَيْ
الْأَمِيرِ وَمَدَّ إِلَيْهِ يَدَهُ الضَّعِيفَةَ الْمُرْتَعِشَةَ يُحَاوِلُ أَنْ يَسْتَرْحِمَهُ فَضَرَبَ الْأَعْوَانُ
عَلَى

فَمَهُ وَاحْتَمَلُوهُ إِلَى مَحْبِسِهِ ثُمَّ عَادُوا وَبَيَّنَ أَيْدِيَهُمْ فَتَى فِي الثَّامِنَةِ عَشْرَةِ مِنْ
عُمُرِهِ أَصْفَرَ نَحِيلَ يَضْطَرِبُ بَيْنَ أَيْدِيَهُمْ خَوْفًا وَفَرَقًا حَتَّى وَقَفُوا بِهِ بَيْنَ يَدَيْ
الْأَمِيرِ فَسَأَلَ مَا جَرِيْمَتُهُ فَقَالَ إِنَّهُ قَاتَلَ ذَهَبَ أَحَدِ قَوَادِ الْأَمِيرِ إِلَى قَرِيْبَتِهِ لَجَمْعِ
الضَّرَائِبِ فَطَالَبَهُ بِأَدَاءِ مَا عَلَيْهِ مِنَ الْمَالِ فَأَبَى وَتَوَقَّحَ فِي إِبَائِهِ فَاَنْتَهَزَهُ

الْقَائِدَ فَاحْتَدَمَ غَيْظًا وَجَرَّدَ سَيْفَهُ مِنْ غِمْدِهِ وَضَرَبَهُ بِهِ ضَرْبَةً ذَهَبَتْ بِحَيَاتِهِ
فَصَاحَ

النَّاسَ يَا لِلْفَظَّاعَةِ وَالْهُولِ إِنَّ مَنْ يَقْتُلُ نَائِبَ الْأَمِيرِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ الْأَمِيرَ نَفْسَهُ
ثُمَّ جِيءَ بِأَعْوَانِ الْقَائِدِ الْمَقْتُولِ فَأَدَّوْا شَهَادَتَهُمْ .
فَاطْرَقَ الْأَمِيرَ لَحْظَةً ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَقَالَ يَقَادَ الْمُجْرِمُ إِلَى سَاحَةِ الْمَوْتِ فَيُصَلَّبَ
عَلَى أَعْوَادِ شَجَرَةٍ ثُمَّ تَقْصَدُ عُرُوقُهُ كُلُّهَا حَتَّى لَا يَبْقَى فِي جِسْمِهِ قَطْرَةٌ وَاحِدَةٌ
مِنْ

الدَّمِّ فَصَرَخَ الْغُلَامُ صَرْخَةً حَالَ الْأَعْوَانِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ إِيْتِمَامِهَا وَاحْتَمَلُوهُ إِلَى
السَّجْنِ

وَمَا لَبِثُوا أَنْ عَادُوا بِفَتَاةٍ جَمِيلَةٍ كَأَنَّهَا الْكَوْكَبُ الْمَشْبُوبُ حُسْنًا وَبَهَاءً لَوْلَا
سَحَابَةٌ غَبْرَاءٌ مِنَ الْحُزْنِ تَتَدَجَّى فَوْقَ جَبِينِهَا فَقَالَ الْأَمِيرُ مَا جَرِيْمَتُهَا فَقَالَ
الْقَاضِي إِنَّهَا امْرَأَةٌ زَانِيَةٌ دَخَلَ عَلَيْهَا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَهَا خَالِيَةً بِفَتِيٍّ غَرِيبٍ
كَانَ يُحِبُّهَا وَيَطْمَعُ فِي الزَّوْاجِ مِنْهَا قَبْلَ الْيَوْمِ فَهَاجَ النَّاسُ وَاحْتَدَمُوا وَهَتَفُوا
الْقَتْلَ الْقَتْلَ الرَّجْمَ الرَّجْمَ ! ! إِنَّهَا الْجَرِيْمَةُ الْعُظْمَى وَالْخِيَانَةُ الْكُبْرَى فَقَالَ
الْأَمِيرُ أَيْنَ شَاهِدُهَا ؟ فَدَخَلَ قَرِيبُهَا الَّذِي كَشَفَ أَمْرَهَا فَشَهِدَ عَلَيْهَا فَهَمَسَ
الْقَاضِي

فِي إِذْنِ الْأَمِيرِ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ الْأَمِيرُ تَوَخَّذْ الْفَتَاةَ إِلَى سَاحَةِ الْمَوْتِ فَتَرَجَّمْ
عَارِيَةً حَتَّى يَبْقَى عَلَى لَحْمِهَا قِطْعَةٌ جِلْدٌ وَلَا عَلَى عَظْمِهَا قِطْعَةٌ لَحْمٌ فَهَلَّلَ النَّاسُ
وَكَبَّرُوا إِعْجَابًا بَعْدَ الْأَمِيرِ وَحَزَمَهُ وَإِكْبَارًا لِسَطَوَتِهِ وَقُوَّتِهِ وَهَتَفُوا لَهُ وَلِكَاهِنِهِ
وَقَاضِيهِ بِالْأُذْعَاءِ ثُمَّ نَهَضَ فَنَهَضَ النَّاسُ بِنُحُوضِهِ وَمَضُوا لِسَبِيلِهِمْ فَرَحَيْنِ
مُغْتَبِطَيْنِ

وَحَرَجَتْ عَلَى أَثَرِهِمْ حَرِينَا مُكْتَتِبًا أَفْكَرَ فِي هَذِهِ الْمُحَاكَمَةِ الْغَرِيبَةِ الَّتِي لَمْ
يَسْمَعْ فِيهَا دِفَاعَ الْمُتَّهَمِينَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ وَلَمْ يَشْهَدْ فِيهَا عَلَى الْمُتَّهَمِينَ غَيْرَ
خُصُومِهِمْ وَلَمْ تَقْدِرْ فِيهَا الْعُقُوبَاتُ عَلَى مِقْدَارِ الْجَرَائِمِ وَأَعْجَبَ لِلنَّاسِ فِي
ضَعْفِهِمْ

وَاسْتِخْدَانِهِمْ أَمَامَ الْقُوَّةِ الْقَاهِرَةِ وَغُلُوبِهِمْ فِي تَقْدِيرِهَا وَإِعْظَامِهَا وَإِغْرَاقِهِمْ فِي
الثَّقَةِ بِهَا وَالنُّزُولِ عَلَى حُكْمِهَا عَدْلًا كَانَ أَوْ ظُلْمًا رَحْمَةً أَوْ قَسْوَةً وَأَرَدَدَ فِي
نَفْسِي هَذِهِ الْكَلِمَاتُ .

لَيْتَ شِعْرِي أَلَّا يُوجَدَ بَيْنَ هَذِهِ الْجَمَاهِيرِ لِصٍّ أَوْ قَاتِلٍ أَوْ زَانٍ يَعْلَمُ عُذْرَهُمْ
فَيَرْحَمُهُمْ وَيَنْظُرُ إِلَى جَرَائِمِهِمْ بِالْعَيْنِ الَّتِي يَنْظُرُ بِهَا إِلَى جَرِيمَتِهِ وَيَتَمَنَّى لَهُمْ
مِنْ الرَّحْمَةِ وَالْمَغْفِرَةِ مَا يَتَمَنَّى لِنَفْسِهِ إِنْ قَدَّرَ لَهُ أَنْ يَقِفَ فِي مَوْقِفِهِمْ أَمَامَ قُضَاةٍ
مِثْلَ قُضَاتِهِمْ ؟

أَلَّا يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ الزَّانِيَةُ غَيْرَ زَانِيَةٍ وَالْقَاتِلُ إِنَّمَا قَتَلَ دِفَاعًا عَنْ عِرْضِهِ أَوْ
مَالِهِ وَاللِّصُّ إِنَّمَا سَرَقَ مَا يَسُدُّ بِهِ جَوْعَتَهُ أَوْ جُوعَةَ أَهْلِ بَيْتِهِ ؟
أَلَمْ يَرْتَكِبِ الْأَمِيرُ جَرِيمَةَ الْقَتْلِ مَرَّةً وَاحِدَةً فِي حَيَاتِهِ فَيَرْحَمِ الْقَاتِلِينَ عِنْدَ
النَّظَرِ فِي جَرَائِمِهِمْ ؟

أَلَمْ يُسْقِطْ إِلَى يَدِ الْكَاهِنِ يَوْمًا مِنَ الْأَيَّامِ يِنَارٌ مِنْ غَيْرِ حَلَّةٍ فَتَخِفَّ لَوْعَةً أَسْفَهُ
عَلَى الْغُرَارَةِ الْمَسْرُوقَةِ مِنْ دَيْرِهِ وَيُغْتَفَرَ هَذِهِ لِيَتْلِكَ ؟
أَلَمْ تَزَلْ قَدَمَ الْقَاضِي مَرَّةً وَاحِدَةً فِيمَا مَرَّ بِهِ أَيَّامَ حَيَاتِهِ فَتَهْذَأُ ثَوْرَةً غَضَبِهِ عَلَى
السَّاقِطِينَ وَالسَّاقِطَاتِ ؟

مَنْ هُمْ هَؤُلَاءِ الْجَالِسُونَ عَلَى هَذِهِ الْمَقَاعِدِ يَتَحَكَّمُونَ فِي أَرْوَاحِ الْعِبَادِ وَأَمْوَالِهِمْ
كَمَا يَشَاءُونَ وَيُقَسِّمُونَ السُّعُودَ وَالنُّحُوسَ بَيْنَ الْبَشَرِ كَمَا يُرِيدُونَ ؟

إِنَّهُمْ لَيَسُوا بِأَنْبِيَاءِ مَعْصُومِينَ وَلَا بِأَمْلَآكٍ مُطَهَّرِينَ وَلَا يَحْمِلُونَ فِي أَيْدِيهِمْ
عَهْدًا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِالنَّظَرِ فِي أَمْرِ عِبَادِهِ وَتَوَزِيْعِ حُظُوظِهِمْ وَأَنْصِبَتَهُمْ بَيْنَهُمْ
فَبِأَيِّ حَقٍّ يَجْلِسُونَ هَذِهِ الْجَلِيسَةَ عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ ؟
وَمِنْ أَيِّ قُوَّةٍ شَرْعِيَّةٍ يَسْتَمِدُّونَ هَذِهِ السُّلْطَةَ الَّتِي يَسْتَأْثِرُونَ بِهَا مِنْ دُونِ النَّاسِ
جَمِيعًا .

مَنْ هُوَ الْأَمِيرُ أَلَيْسَ هُوَ الْمُسْتَبَدُّ الْأَعْظَمُ فِي الْأُمَّةِ أَوْ سُلَالَةِ الْمُسْتَبَدِّ الْأَعْظَمِ
فِيهَا الَّذِي اسْتِطَاعَ بِقُوَّتِهِ وَقَهْرِهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ أَعْنَاقِ النَّاسِ وَكَوَاهِلِهِمْ سَلَمًا
يَصْعَدُ

عَلَيْهَا إِلَى الْعَرْشِ الَّذِي يَجْلِسُ عَلَيْهِ ؟
مَنْ هُوَ الْكَاهِنُ ؟ أَلَيْسَ هُوَ أَرْبَعَ النَّاسِ وَأَمْهَرُهُمْ فِي اسْتِغْلَالِ الْنُفُوسِ الضَّعِيفَةِ
وَالْقُلُوبِ الْمَرِيضَةِ ؟
مَنْ هُوَ الْقَاضِي أَلَيْسَ هُوَ أَقْدَرُ النَّاسِ عَلَى الْإِبَاسِ الْحَقِّ صُورَةَ الْبَاطِلِ وَالْبَاطِلِ
صُورَةَ الْحَقِّ ؟

وَمَتَى كَانَ الْمُسْتَبَدُّونَ وَاللُّصُوصُ وَالظُّلْمَةُ أَخْيَارًا صَالِحِينَ طَاهِرِينَ .
عَجِيبٌ جِدًّا أَنْ يَقْتُلَ الرَّجُلُ الرَّجُلَ لَغَضْبَةٍ يُغْضِبُهَا أَوْ شَرْفَةٍ فَيُسَمَّى مُجْرِمًا
فَإِذَا قَتَلَ

الْأَمِيرُ الْقَاتِلُ سُمِّيَ عَادِلًا وَأَنْ يَسْرِقَ السَّارِقُ اللَّقْمَةَ يَقْتَاتَ بِهَا أَوْ يَقِيتَ بِهَا
عِيَالَهُ فَيُسَمَّى لِيصًا فَإِذَا أَمَرَ الْقَاضِي بِقَطْعِ أَطْرَافِهِ وَالتَّمْثِيلِ بِهِ سُمِّيَ حَازِمًا وَأَنْ
تُسْقِطَ الْمَرْأَةُ سَقْطَةً رُبَّمَا سَاقَتْهَا إِلَيْهَا خُدْعَةٌ مِنْ خِدَاعِ الرِّجَالِ أَوْ نَزْعَةٌ مِنْ
نَزَعَاتِ الشَّيْطَانِ فَيَسْتَتَكِرُ النَّاسُ أَمْرَهَا وَيَسْتَبْشِعُونَ مَنَظَرَهَا فَإِذَا رَأَوْهَا
مَشْدُودَةً

إِلَى بَعْضِ الْأَنْصَابِ عَارِيَةً تَتَسَاقَطُ عَلَيْهَا حِجَارَةٌ مِنْ كُلِّ صَوْبٍ أَنْسُوا
بِمَشْهَدِهَا

وَأَعْجَبَهُمْ مَوْقِفُهَا وَمَصِيرُهَا .

كَمَا أَنَّ النَّارَ لَا تُطْفِئُ النَّارَ وَشَارِبَ السُّمِّ لَا يُعَالِجُ بَشَرٌ بِهِ مَرَّةً أُخْرَى وَكَمَا
أَنَّ مَقْطُوعَ الْيَمْنَى لَا يُعَالِجُ بِقَطْعِ الْيُسْرَى كَذَلِكَ لَا يُعَالِجُ الشَّرَّ
بِالشَّرِّ وَلَا يُمَحِّى الشَّقَاءُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا بِالشَّقَاءِ . . .

وَلَمْ أَزَلْ أَحَدَّثُ نَفْسِي بِمِثْلِ هَذَا الْحَدِيثِ حَتَّى أَقْبَلَ اللَّيْلَ فَمَرَرْتُ بِسَاحَةِ مُظْلِمَةٍ
مُوحِشَةٍ تَتَطَايَرُ فِي جَوْهَا أَسْرَابُ مِنَ الطَّيْرِ غَادِيَةِ رَائِحَةٍ بِالْإِغْوَاءِ حَتَّى بَلَغَتْ
أَبْعَدَ بَقَاعِهَا فَرَأَيْتُ مَنْظَرًا هَائِلًا لَا يَزَالُ أَثَرُهُ عَالِقًا بِنَفْسِي حَتَّى السَّاعَةِ .
رَأَيْتُ الشَّيْخَ جُنَّةً مُعَفَّرَةً بِالتُّرَابِ لَا رَأْسَ لَهَا وَلَا أَطْرَافَ ثُمَّ رَأَيْتُ رَأْسَهُ
وَأَطْرَافَهُ

مُبْعَثَرَةً حَوْلَيْهِ مَأْنَهَا نَوَادِبُ يَنْدُبْنَهُ حَاسِرَاتٍ وَرَأَيْتُ الْفَتَى مَشْدُودًا إِلَى شَجَرَةٍ
فِرْعَاءٍ كَأَنَّهُ بَعْضُ أَغْصَانِهَا وَقَدْ سَالَ جَمِيعُ مَا فِي عُرُوقِهِ مِنَ الدَّمِّ حَتَّى أَصْبَحَ
شَبَحًا

مَائِلًا أَوْ خَيَالًا سَارِيًّا وَرَأَيْتُ الْفَتَاةَ كُتْلَةً حَمْرَاءَ مِنَ اللَّحْمِ لَا يَسْتَبِينَ لَهَا
رَأْسٌ وَلَا قَدَمٌ وَقَدْ أَحَاطَتْ بِهَا أَكْوَامُ مِنَ الْحِجَارَةِ الْمُخَضَّبَةِ بِدِمَائِهَا ثُمَّ رَأَيْتُ
بِجَانِبِ هَذِهِ الْجُبْنِ الثَّلَاثِ حُفْرَةَ جَوْفَاءٍ تَفْهَقُ بِالدَّمِّ فَعَلِمْتُ أَنَّهَا مَجْمَعُ دِمَاءِ
هَؤُلَاءِ الْمَسَاكِينِ فَشَعَرْتُ كَأَنَّ سَحَابَةَ سَوْدَاءَ تَهْبِطُ عَلَى عَيْنِي قَلِيلًا قَلِيلًا حَتَّى
غَابَ

عَنْ نَظَرِي كُلِّ شَيْءٍ فَسَقَطَتْ فِي مَكَانِي لَا أَشْعُرُ بِشَيْءٍ مِمَّا حَوْلِي فَلَمْ أَسْتَفِقْ
حَتَّى مَضَتْ

دَوْلَةً مِنَ اللَّيْلِ فَفَتَحَتْ عَيْنِي فَإِذَا شَبَحَ أَسْوَدٌ يَدْنُو مِنِّي رُويْدًا رُويْدًا فَارْتَعَتْ
لِمَنْظَرِهِ وَفَزِعَتْ إِلَى سَاقِ الشَّجَرَةِ فَاخْتَبَأَتْ وَرَاءَهُ فَمَا زَالَ يَتَقَدَّمُ حَتَّى صَارَ

بِجَانِبِي

فَأَشْعَلَ مِصْبَاحًا صَغِيرًا كَانَ فِي يَدِهِ فَتُبَيَّنَتْ عَلَى نُورِهِ فَإِذَا عَجُوزٌ شَمْطَاءٌ فِي
زِيٍّ

الْمَسَاكِينِ وَسَخَنَتَهُمْ فَمَشَتْ تَتَصَفَّحُ وَجُوهَ الْقَتْلَى حَتَّى بَلَغَتْ مَصْرَعَ الشَّيْخِ
فَجَثَّتْ

بِجَانِبِهِ سَاعَةً تُبْكِيهِ وَتَتَذَبُّهُ ثُمَّ مَشَتْ إِلَى رَأْسِهِ وَأَشْرَافَهُ فَجَمَعَتْهَا وَضَمَّتْهَا إِلَى
جُثَّتِهِ ثُمَّ بِالْإِغْوَاءِ لَهُ حُفْرَةٌ تَحْتَ سَاقِ الشَّجَرَةِ فَدَفَنَتْهُ فِيهَا وَقَامَتْ عَلَى قَبْرِهِ
تُودِّعُهُ

وَتَقُولُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِيتُ فِي سَبِيلِي وَسَبِيلِ أَحْفَادِكَ الْبُؤْسَاءِ أَيُّهَا الشَّهِيدُ
الْمَظْلُومُ وَفِي ذِمَّةِ اللَّهِ وَكَفَنَهُ رُوحُ طَارٍ عَنْ جَسَدِكَ وَجَسَدَ ضَمَمَهُ قَبْرُكَ فَقَدْ
كُنْتُ خَيْرَ

النَّاسِ زَوْجًا وَأَبَا وَأَطْهَرَهُمْ لِسَانًا وَيَدًا وَأَشْرَفَهُمْ قَلْبًا وَنَفْسًا فَاذْهَبْ إِلَى رَبِّكَ
لِنَلْقَائِي جَزَاءَكَ عِنْدَهُ وَاطْلُبْ إِلَيْهِ الرَّحْمَةَ لِجَمِيعِ النَّاسِ حَتَّى لِقَاتِلِيكَ وَظَالِمِيكَ
وَاسْأَلْهُ أَنْ يُلْحِقَنِي بِكَ وَشَيْكَأً فَلَا شَيْءَ يُعْزِيْنِي عَنْكَ بَعْدَ فِرَاقِكَ إِلَّا الْأَمَلُ فِي
لِقَائِكَ فَأَبْكَانِي بُكَاءُهَا وَأَحْزَنَنِي مَنْظَرُهَا وَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا صَادِقَةٌ فِيمَا تَقُولُ
وَأَنَّ سَيْخَهَا شَهِيدٌ مِنْ شُهَدَاءِ الْقَضَاءِ وَأَحْبَبْتُ أَنْ أَقِفَ عَلَى قِصَّتِهَا وَقِصَّتِهِ
فَبَرَزْتُ مِنْ

مَخْبِيٍّ وَمَشَيْتُ إِلَيْهَا فَارْتَاعَتْ لِمَرَايَ عِنْدَ النَّظَرَةِ الْأُولَى ثُمَّ سَكَتَتْ كَأَنَّمَا
ذَكَرَتْ

أَنْ لَا قِيَمَةَ لِمَصَائِبِ الْحَيَاةِ بَعْدَ مُصَابِهَا الَّذِي نَزَلَ بِهَا فَاِبْتَدَرْتُهَا بِقَوْلِي لَا
تُرَاعِي يَا سَيِّدَتِي فَإِنِّي رَجُلٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْبَلَدِ لَا أَعْرِفُ مِنْ شَأْنِهِ وَلَا مِنْ
شَأْنِ

أَهْلِهِ شَيْئًا وَقَدْ رَأَيْتُ السَّاعَةَ مَوْفِقَكَ عَلَى هَذَا الْقَبْرِ وَتُفْجِعُكَ عَلَى سَاكِنِهِ فَارْتَيْتُ
لَكَ وَبَكَيْتُ لِبُكَائِكَ وَتَمَنَيْتُ لَوْ أَفْضَيْتُ إِلَى بَذَاتِ نَفْسِكَ عَلَيَّ اسْتَطِيعَ أَنْ أَكُونَ
لَكَ

عَوْنًا عَلَى هَمِّكَ فَاسْتَعْبِرْتَ بَاكِیَةً وَأَنْشَأْتَ تُحَدِّثُنِي وَتَقُولُ :
إِنَّ زَوْجِي لَمْ يَكُنْ فِي يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ حَيَاتِهِ لَصًّا وَلَا سَارِقًا بَلْ قُضِيَ أَيَّامُ شَبَابِهِ
وَكُهُولَتِهِ عَامِلًا مُجِدًّا لَا يَقْتَرُ سَاعَةً وَاحِدَةً عَنِ السَّعْيِ فِي طَلَبِ رِزْقِهِ وَرِزْقِ
أَهْلٍ

بَيْتِهِ حَتَّى كَبَرَ وَلَدَهُ وَكَانَ وَاحِدَهُ فَاشْتَدَّ بِهِ سَاعِدُهُ وَاحْتَمَلَ عَنْهُ بَعْدَ مَا كَانَ
يَسْتَقِلُّ بِحِمْلِهِ مِنَ الْهَمِّ وَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ نَعِمْنَا بِهِ وَبِمَعُونَتِهِ حِقْبَةً مِنَ الدَّهْرِ حَتَّى
نَزَلَتْ بِهِ نَازِلَةُ الْمَوْتِ فَذَهَبَتْ بِحَيَاتِهِ أَحْوَاجَ حَاكِنَا إِلَيْهِ وَخَلْفَ رَأْيِهِ حَمْسَةَ
أَوْلَادٍ صِغَارٍ لَا يَتَجَاوَزُ أَكْبَرَهُمُ الْعَاشِرَةَ مِنْ عُمُرِهِ وَكَانَتْ قَدْ أَدْرَكَتْ أَبَاهُ
الشَّيْخُوخَةَ فَاجْتَمَعَ عَلَيْهِ هُمُ الْكِبَرِ وَهُمْ التَّكَلُّفُ فَاصْبَحَ عَاجِزًا عَنِ الْعَمَلِ لَا
يَسْتَطِيعُهُ إِلَّا فِي الْفَنِيَّةِ بَعْدَ الْفَنِيَّةِ وَأَصْبَحْنَا جَمِيعًا فِي حَالَةٍ مِنَ الشَّقَاءِ
وَالْبُؤْسِ لَا يَعْرِفُ مَكَانَهَا مِنْ نَفُوسِنَا إِلَّا مَنْ أَلَمَّ بِهِ فِي حَيَاتِهِ طَرَفٌ مِنْهَا حَتَّى
طَلَعَتْ عَلَيْنَا شَمْسُ يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ وَلَيْسَ فِي يَدِنَا مَا نَقُومُ بِهِ أَصْلَابِ صِغَارِنَا
وَلَا

مَا نَعْلَلُهُمْ بِهِ تَعْلِيلًا فَاسْقُطْ فِي يَدِنَا وَعَلَمْنَا أَنَا هَالِكُونَ جَمِيعًا إِنْ لَمْ
يَتَذَكَّرْنَا اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْ عِنْدِهِ فَلَمْ أَرِ بُدًّا مِنْ أَنْ أَلْجَأَ إِلَى الْخُطَّةِ الَّتِي يُلْجَأُ

إِلَيْهَا كُلُّ مُضْطَرٍّ عَدِيمٍ فَبَرَزَتْ إِلَى النَّاسِ أَتَعْرِضُ لِمَعْرُوفِهِمْ وَأَسْتَدِي مَاءَ
أَكْفِهِمْ

فَلَمْ أَجِدْ بَيْنَهُمْ مَنْ يُحْسِنُ إِلَيَّ بِجُرْعَةٍ أَوْ مُضْغَةٍ وَلَا مَنْ يَدُلُّنِي عَلَى سَبِيلِ ذَلِكَ
وَكَانَ

أَكْبَرَ مَا حَالَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ وَصَرَفَ وَجُوهَهُمْ عَنِّي أَنِّي أَلْبَسَ مُرَقَّةَ الشَّحَّازِينَ
وَلَا

أَحْمِلُ رِكَوَتَهُمْ فَعُدْتُ إِلَى مَنْزِلِي وَبَيَّنَ جَنْبِي مِنْ أَلَمِّ مَا أَلَّاهُ بِهِ عَلِيمٌ فَرَأَيْتُ
الْأَطْفَالَ سَهْدًا يَتَضَاغُونَ جُوعًا وَرَأَيْتُ الشَّيْخَ جَالِسًا بَيْنَهُمْ يَبُلُّ تُرْبَةَ الْأَرْضِ
بِذُمُوعِهِ وَيَقْرَعُ كَفَّهُ بِكَفِّهِ لَا يَعْلَمُ مَاذَا يَصْنَعُ وَلَا يَكْفُ يَحْتَالَ وَلَوْ أَنَّ شَخْصَ
الْمَوْتِ

بَرَزَ إِلَيَّ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ لَكَانَ مَنْظَرُهُ أَهْوَنَ عَلَى نَفْسِي مِنْ مَنْظَرِ هَؤُلَاءِ
الصَّبِيَّةِ

وَهُمْ يُحَدِّقُونَ فِي وَجْهِ عِنْدَ دُخُولِي وَيَدُورُونَ حَوْلِي لِيرَوْا هَلْ عُدْتُ إِلَيْهِمْ بِمَا
يَسُدُّ

جُوعَهُمْ وَمَا عُدْتُ إِلَيْهِمْ إِلَّا بِالْيَأْسِ الْقَاتِلِ وَالْكَمَدِ الشَّامِلِ فَتَقَدَّمْتُ نَحْوَ الشَّيْخِ
وَقُلْتُ لَهُ أَنْ فِي دَيْرِ الْمَدِينَةِ كَمَا يَزْعُمُونَ مَالًا لِلصَّدَقَاتِ يَتَوَلَّى الْكَاهِنُ الْأَظْمَ
إِنْفَاقَهُ عَلَى الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ فَلَوْ ذَهَبْتُ إِلَيْهِ وَكَشَفْتُ لَهُ خَلَّتْكَ وَسَأَلْتُهُ أَنْ
يَمْنَحَكَ عِلَالَةٌ تَسْتَعِينُ بِهَا عَلَى أَمْرِكَ لَرَجَوْنَا أَنْ نُطْفِئَ لَوْعَةَ هَؤُلَاءِ الْأَطْفَالِ
الْمَسَاكِينِ فَاسْتَتَارَ وَجْهُهُ بِنُورِ الْأَمَلِ وَقَامَ إِلَى عَصَاهُ فَاعْتَمَدَ عَلَيْهَا وَمَشَى إِلَى
الدَّيْرِ حَتَّى بَلَغَهُ فَصَعِدَ إِلَى حُجْرَةِ الْكَاهِنِ حَتَّى وَقَفَ بَيْنَ يَدَيْهِ فَنَفَضَ لَهُ جُمْلَةَ
حَالِهِ

وَسَكَبَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ جَمِيعَ مَا أَبْقَتْ الْأَيَّامُ فِي جَفْنَيْهِ الْقَرِيحِينَ مِنْ دُمُوعٍ فَاسْتَقْبَلَهُ
 الْكَاهِنُ بِأَقْبَحِ مَا يَسْتَقْبَلُ بِهِ مَسْئُولٍ سَائِلًا وَقَالَ لَهُ الدَّيْرُ لَا يُحْسِنُ إِلَّا إِلَى
 الَّذِينَ أَسْلَفُوهُ الْإِحْسَانَ مِنْ قَبْلُ وَمَا كُنْتُ فِي يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ رَغْدِكَ وَرَخَاءِكَ مِنْ
 الْمُحْسِنِينَ إِلَيْهِ فَاذْهَبْ لِسَانُكَ فَأَبْوَابُ الْعَيْشِ وَاسِعَةٌ بَيْنَ يَدَيْكَ فَإِنْ ضَاقَتْ بِكَ
 فَأَبْوَابُ الْجَرَائِمِ أَوْسَعُ مِنْهَا فَخَرَجَ مِنْ حَضْرَتِهِ كَنِييًّا مَحْزُونًا لَا يَرَى فِضَاءَ
 الدُّنْيَا فِي نَظَرِهِ إِلَّا كَكِفَّةِ الْحَابِلِ أَوْ أَفْحُوصِ الْقَطَاةِ حَتَّى نَزَلَ إِلَى سَاحَةِ الدَّيْرِ
 فَلَمَحَ فِي إِحْدَى زَوَايَاهُ غُرَارَةً دَقِيقَةً فَحَدَّثَتْهُ نَفْسُهُ بِهَا وَمَا كَانَتْ تُحَدِّثُهُ لَوْلَا
 الْعُوزُ وَالْفَاقَةُ ثُمَّ أَدْرَكَهُ الْحَيَاءُ فَأَغْضَى عَنْهَا وَاسْتَمَرَّ سَائِرًا فِي طَرِيقِهِ حَتَّى
 صَارَ

بِجَانِبِهَا فَوَقَعَ نَظَرُهُ عَلَيْهَا مَرَّةً أُخْرَى فَعَاوَدَهُ حَدِيثُهُ الْأَوَّلَ فَحَاوَلَ دَفْعَهُ فَلَمْ
 يَسْتَطِعْ فَجَلَسَ بِجَانِبِهَا يَحْدُثُ نَفْسَهُ وَيَقُولُ إِنَّ الطَّعَامَ طَعَامُ الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ
 وَأَنَا فَقِيرٌ مِسْكِينٌ لَا أَعْلَمُ أَنْ بَيْنَ أَسْوَارِ هَذِهِ الْمَدِينَةِ وَلَا فِي جَمِيعِ أَرْبَاضِهَا
 رَجُلًا أَحْوَجَ وَلَا أَفْقَرَ مِنِّي فَإِنْ كَانَ الطَّمَعُ فِي هَذِهِ الْغُرَارَةِ جَرِيمَةً فَقَدْ أَذِنَ لِي
 الْكَاهِنُ بِارْتِكَابِ الْجَرَائِمِ فِي سَبِيلِ الْعَيْشِ ثُمَّ مَشَى إِلَيْهَا فَاحْتَمَلَهَا عَلَى ظَهْرِهِ
 وَمَشَى بِهَا جَاهِدًا مَتَرَجِحًا فَمَا تَج - اوز عَتَبَةَ الدَّيْرِ حَتَّى أَثْقَلَهُ الْحَمْلُ وَشَعَرَ أَنَّ
 عَاجِزَ عَنِ السَّمِيرِ فَحَدَّثَتْهُ نَفْسُهُ بِالْقَائِهِ عَنْ ظَهْرِهِ ثُمَّ تَمَقَّلَ لَهُ مَنْظَرُ أَحْقَادِهِ
 الصِّغَارِ وَهُمْ أَلْقَاءَ تَحْتَ جُذُرِ الْبَيْتِ يَتَضَوَّرُونَ جُوعًا فَحِمْلَ عَلَى نَفْسِهِ
 وَمَشَى

يَعْتَمِدُ عَلَى عَصَاهُ مَرَّةً وَعَلَى الْجِدَارِ مَرَّةً وَعَلَى الْجِدَارِ كُرَّةً أُخْرَى حَتَّى نَالَ
 مِنْهُ

الْجُهِدَ فَأَحْسَنَ كَأَنَّ أَنْفَاسَهُ قَدْ جَمَدَتْ فِي صَدْرِهِ لَا تَهْبِطُ وَلَا تَعْلُو وَأَنَّ مَا كَانَ

بَاقِيًا فِي عَيْنَيْهِ مِنْ نُورٍ قَدْ أَنْطَفَأَ دُفْعَةً وَاحِدَةً فَأَصْبَحَ لَا يَرَى شَيْئًا مِمَّا حَوْلَهُ
وَإِذَا نَفْثَةٌ مِنْ دَمٍ دَفَقَتْ مِنْ صَدْرَةٍ فَانْحَدَرَتْ عَلَى رِدَائِهِ فَسَقَطَ فِي مَكَانِهِ مَغْشِيًّا
عَلَيْهِ وَلَمْ يَزَلْ عَلَى حَالِهِ تِلْكَ حَتَّى مَرَّ بِهِ الْعَسَسُ فَرَأَوْهُ وَرَأَوْا الْغَرَارَةَ بِجَانِبِهِ
فَارْتَابُوا بِهِ وَكَانَ رُهْبَانُ الدَّيْرِ قَدْ أَخَذُوا يَتَصَايَحُونَ فِيمَا بَيْنَهُمُ الْغَرَارَةَ
الْغَرَارَةَ وَيَنْشُدُونَهَا فِي أَنْحَاءِ الدَّيْرِ حَتَّى يَسُؤُوا مِنْهَا فَخَرَجُوا يَطْلُبُونَهَا فِي كُلِّ
مَكَانٍ حَتَّى اتَّقَوْا بِالْعَسَسِ حَوْلَ مَصْرَعِ الشَّيْخِ فَعَرَفُوا ضَالَّتْهُمْ وَمَا هِيَ إِلَّا
سَاعَةٌ

حَتَّى كَانَتْ الْغَرَارَةُ فِي الدَّيْرِ وَكَانَ الشَّيْخُ فِي السَّجْنِ ثُمَّ كَانَ بَعْدَ ذَلِكَ مَا رَأَيْتَ
مِنْ أَمْرِهِ فَوَا أَسْفَاهُ عَلَيْهِ لَقَدْ مَاتَ شَهِيدًا مَظْلُومًا وَوَارَحَمَتَاهُ لِي وَلِأَطْفَالِي
الْبُؤْسَاءِ الْمَسَاكِينِ مِنْ بَعْدِهِ !
ثُمَّ نَهَضَتْ مِنْ مَكَانِهَا وَمَسَحَتْ عَبْرَتَهَا بِطَرْفِ رِدَائِهَا وَنَظَرَتْ إِلَى الْقَبْرِ نَظْرَةً
طَوِيلَةً

وَقَالَتْ الْوَدَاعُ يَا رَفِيقَ صِبَايَ وَعِمَادَ شَيْخُوحَتِي الْوَدَاعُ يَا خَيْرَ الْأَزْوَاجِ وَأَبْرَّ
الْعَشْرَاءِ الْوَدَاعُ حَتَّى يَجْمَعَ اللَّهُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ فِي دَارِ جَزَائِهِ ثُمَّ انْكَفَأَتْ رَاجِعَةً
فِي الطَّرِيقِ الَّتِي جَاءَتْ مِنْهَا .
وَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ تَغْلُغُلَ شَخْصَهَا فِي أَعْمَاقِ الظَّلَامِ حَتَّى رَأَيْتَ شَبَحًا آخَرَ يَتَرَاءَى
مِنْ

حَيْثُ اخْتَفَى الشَّبَحُ الْأَوَّلُ وَمَا زَالَ يَتَقَدَّمُ نَحْوِي مُتَسَلِّلًا يَخْتَلِسُ خُطُوَاتِهِ اخْتِلَاسًا
فَاخْتَبَأَتْ وَرَاءَ الشَّجَرَةِ لِأَرَى مَا هُوَ صَانِعٌ وَكَانَ الْقَمَرُ قَدْ بَدَأَ يُشْرِفُ عَلَى
الْوُجُودِ

مِنْ مَطْلَعِهِ وَيُرْسِلُ الْخُيُوطَ الْأُولَى مِنْ أَشْعَتِهِ عَلَى تِلْكَ السَّاحَةِ الْكُبْرَى فَرَأَيْتَ

الشَّيْحَ عَلَى نُورِهِ فَإِذَا فَتَاةٌ جَمِيلَةٌ بَاكِiyةٌ لَمْ أَرِ فِي حَيَاتِي دَمْعَةً عَلَى خَدٍّ أَجْمَلٍ
مِنْ دَمْعَتِهَا عَلَى خَدِّهَا فَدَارَتْ بِعَيْنَيْهَا لَحْظَةً حَتَّى وَقَعَ نَظَرُهَا عَلَى جُتَّةِ
الْمَصْلُوبِ

بَيْنَ أَعْوَادِ الشَّجَرَةِ فَمَشَتْ إِلَيْهِ وَمَدَّتْ يَدَهَا إِلَى الْحَبْلِ الْمَشْدُودِ بِهِ فَعَالَجَتْ
عُقْدَتَهُ

حَتَّى انْحَلَّتْ ثُمَّ احْتَمَلَتْهُ عَلَى يَدِهَا وَأَضْعَجَتْهُ عَلَى الْأَرْضِ وَوَقَفَتْ بِجَانِبِهِ سَاعَةً
تَنْظُرُ

إِلَيْهِ جَامِدَةً سَاكِنَةً كَأَنَّهَا غَيْرُ أَبِهَةٍ وَلَا حَافِلَةٍ ثُمَّ هَتَفَتْ صَارِحَةً وَاشْتَقِيْقَاهُ !
وَسَقَطَتْ فَوْقَهُ تَضُمُّهُ وَتَقْبَلُهُ وَتَلْتِمُ شِعْرَهُ وَجَبِينَهُ وَتَزْفِرُ فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ زَفِيرًا
مُتْدَارِكًا كَأَنَّمَا تَتَفَثُ أَفْلاذُ كَبِدِهَا نَفْثًا حَتَّى نَالَ مِنْهَا الْجُهْدُ فَتَرَنَّحَتْ قَلِيلًا
ثُمَّ هَوَتْ بِجَانِبِهِ هَوَى آلٍ { دَعِ السَّاقِطَ لَا حَرَكَ بِهَا فَأَهْمَنِي أَمْرَهَا وَخَفْتُ أَنْ
يَكُونَ

قَدْ الْحَقَّ بِهَا مَكْرُوهٌ فَمَشَيْتِ إِلَيْهَا حَتَّى صِرْتُ بِجَانِبِهَا فَشَعَرْتُ بِأَنْفَاسِهَا
الضَّعِيفَةِ

تَتَرَدَّدُ فِي صَدْرِهَا فَعَمِلَتْ أَنَّهَا حَيَّةٌ فَجَلَسَتْ فَوْقَ رَأْسِهَا أَنْذَبَهَا وَأَدْعُو اللَّهَ لَهَا
حَتَّى اسْتَفَاقَتْ بَعْدَ هُنَيْهَةٍ فَرَأَيْتَنِي بِجَانِبِهَا فَانْظَرَاتِ إِلَى نَظْرَةٍ حَائِرَةٍ ثُمَّ تَقَدَّمْتُ
نَحْوِي وَقَالَتْ عَلَى مَنْ تَبْكِي أَيُّهَا الرَّجُلُ الْغَرِيبُ ؟

قُلْتُ أَبْكِي عَلَيْكَ يَا سَيِّدَتِي وَعَلَى فَقِيدِكَ الْبَائِسِ الْمُسْكِينِ قَالَتْ نَعَمْ إِنَّهُ بَائِسٌ
مُسْكِينٌ فَابْكِي عَلَيْهِ يَا سَيِّدِي كَثِيرًا فَقَدْ كَانَ زِينَةَ الشَّبَابِ وَزَهْرَةَ الْحَيَاةِ وَرِيحَانَةَ
الْأَنْفُسِ وَمُتْعَةً الْأَفْئِدَةِ وَالْقُلُوبِ وَلَقَدْ ظَلَمُوهُ إِذْ قَتَلُوهُ فَمَا كَانَ قَاتِلًا وَلَا
مُجْرِمًا وَلَكِنَّهُ رَجُلٌ رَأَى عَرَضَهُ فَرِيسَةً فِي يَدٍ مَنْ يُرِيدُ تَمْزِيقَهُ فَقَطَعَ تِلْكَ الْيَدَ

الْمُمْتَدَّةِ إِلَيْهِ وَانْتَقَمَ لِنَفْسِهِ وَلِلشَّرَفِ وَالْفَضِيلَةِ مِنْهَا وَلَوْ أَنْصَفُوهُ لَأَسْتَبْقَوْهُ
رَحْمَةً بِهِ وَيُسَابِهُهُ فَمَا أَجْرَمَ مَنْ ذَاكَ عَنْ عَرْضِهِ وَلَا أَثَمَ مِنْ قَتْلِ قَاتِلِهِ قُلْتَ هَلْ
لَكَ

أَنْ تَقْصِي عَلَيَّ قِصَّتَهُ يَا سَيِّدَتِي ؟ قَالَتْ نَعَمْ .

نَزَلَ قَرْيَتَنَا صَبَاحَ يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ قَائِدٍ مِنْ قَوَادِ الْأَمِيرِ الَّذِينَ يَطُوفُونَ الْبِلَادَ
لِجَمْعِ الضَّرَائِبِ فَمَرَّ بِأَبْيَاتِ الْقَرْيَةِ بَيْتًا بَيْتًا حَتَّى بَلَغَ مَنْزِلَنَا وَكُنْتُ وَاقِفَةً عَلَى
بَابِهِ فَنَظَرْتُ إِلَيْهِ نَظْرَةً مُرِيبَةً طَارَ لَهَا قَلْبِي رَعْبًا وَفَرَّقَا ثُمَّ سَأَلَنِي عَنْ أَخِي
فَارْشَدْتُهُ إِلَى مَكَانِهِ فَسَأَلَهُ عَنْ الْمَالِ فَأَسْتَتْسَأَهُ إِيَّاهُ قَلَائِلَ حَتَّى يَبِيعَ غَلَّتَهُ
فَأَبَى إِلَّا أَنْ يَنْقُدَهُ السَّاعَةَ أَوْ يَأْخُذَنِي رَهِينَةً عِنْدَهُ إِلَى يَوْمِ الْوَفَاءِ وَغَمَزَ بِي
بَعْضُ أَعْوَانِهِ فَدَارُوا حَوْلِي وَكُنْتُ أَسْمَعُ قَبْلَ الْيَوْمِ حَدِيثَ أُولَئِكَ الْفَتَيَاتِ
الشَّقِيَّاتِ

اللَّوَاتِي يُدْخِلْنَ رَهَائِنَ فِي قِصْرِ الْأَمِيرِ فَلَا يَخْرُجْنَ مِنْهُ إِلَّا سَاقِطَاتٍ أَوْ
مَحْمُولَاتٍ

فَفَزَعْتُ إِلَى أَخِي وَلَصِقْتُ بِهِ فَوَقَفَ بَيْنِي الرَّجُلُ وَقَالَ لَهُ لَا شَأْنَ لَكَ مَعَ الْفَتَاةِ
إِنَّمَا أَنَا صَاحِبُ الْمَالِ وَأَنَا الْمَأْخُودُ بِهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ جَمِيعًا فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ
لَكَ مِنْ رَهِينَةٍ فَأَنَا رَهِينَةٌ مَالِي حَتَّى يَصِلَ إِلَيْكَ فَقَالَ لَهُ لَا بُدَّ مِنَ الْمَالِ أَوْ
الرَّهِينَةِ وَلَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ الرَّهِينَةَ كَمَا أُرِيدُ فَإِنْ أَبَيْتَ فَحَيَاتِكَ فِدَاءٌ عَنْهَا فَعْظِبَ
أَخِي غَضَبَةً انْتَفَضَ لَهَا جَبِينُهُ عَرَقَ وَلَمْ أَرَهُ فِي سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ غَضَبِهِ قَبْلَ
الْيَوْمِ

وَقَالَ لَهُ فَلْتَكُنْ حَيَاتِي فِدَاءً لَشَرَفِي ثُمَّ جَرَّدَ سَيْفَهُ وَضَرَبَهُ بِهِ ضَرْبَةً طَارَتْ
بِرَأْسِهِ

وَوَقَفَ فِي مَكَانِهِ لَا يَبْرَحُهُ وَسَيْفُهُ يَقْطُرُ دَمًا حَتَّى غَلَّهَ اللَّاعُوَانُ وَاحْتَمَلُوهُ إِلَى
السَّجْنِ فَتِلْكَ حَيَاتِهِ يَا سَيِّدِي وَذَلِكَ مَمَاتِهِ فَلَنْ بَكَيْتَهُ أَنَا أَبْكِي فَتِيَّ الْفَتَيَانَ
هَمَّةً وَنَجْدَةً وَنَادِرَةَ الرِّجَالِ عِزَّةً وَابَاءً وَأَفْضَلَ الْأُخُوَّةِ رَحْمَةً وَحَنَانًا .
ثُمَّ قَالَتْ هَلْ لَكَ أَنْ تُعِينَنِي يَا سَيِّدِي عَلَى مَوَارَاتِهِ قَبْلَ أَنْ يَحُولَ النَّهَارُ بَيْنِي
وَبَيْنَهُ فَقَدْ أَصْبَحْتُ وَاهِيَةً مُتَضَعِّعَةً لَا أَقْوَى عَلَى شَيْءٍ فَقُمْتُ إِلَى الشَّجَرَةِ

فاحتقرت

حَوْلَ سَاقِهَا حُفْرَةً بِجَانِبِ حُفْرَةِ الشَّيْخِ فَوَارَيْتَهُ فِيهَا فَتَقَدَّمَتْ الْفَتَاةُ نَحْوَ الْقَبْرِ
وَجَثَتْ بِجَانِبِهِ سَاعَةً مَطْرَقَةً سَاكِنَةً لَا أَعْلَمُ هَلْ هِيَ بَاكِیةٌ أَوْ ذَاهِلَةٌ حَتَّى فَارَقَتْ
مَكَانَهَا فَرَأَيْتُ تُرْبَةَ الْقَبْرِ مَخْصَلَةً بِدُمُوعِهَا ثُمَّ مَدَّتْ يَدَهَا إِلَيَّ وَقَالَتْ :
شَكَرَا لَكَ يَا سَيِّدِي فَقَدْ أَعْنَتَنِي عَلَى مَوْقِفٍ قَلَّمَا يَجِدُ فِيهِ مُسْتَعِينٌ مُعِينًا وَمَضَتْ
لِسَبِيلِهَا .

فَاتَّبَعْتُهَا نَظْرِي حَتَّى اخْتَفَتْ آخِرَ طِيَّةٍ مِنْ طَيَّاتٍ رِدَائِهَا فَعُدْتُ إِلَى نَفْسِي فَإِذَا
جُثَّةُ الْفَتَاةِ الْمَرْجُومَةِ لَا تَزَالُ مَكَانَهَا فَهَاجَمَنِي مُنْظَرُهَا وَقُلْتُ فِي نَفْسِي إِنِّي
لَا أَدْخِرُ لِنَفْسِي عَمَلًا أَرْجُو فِيهِ رَحْمَةَ اللَّهِ وَإِحْسَانَهُ يَوْمَ جَرَائِهِ أَفْضَلَ مِنْ

مواراة

هَذِهِ الْمُسْكِينَةِ التُّرَابِ فَاحْتَقَرْتُ لَهَا حُفْرَةً بِجَانِبِ حُفْرَةِ الشَّهِيدِينَ ثُمَّ أَلْقَيْتُ
عَلَيْهَا رِدَائِي وَاحْتَمَلْتُهَا عَلَى يَدَيَّ حَتَّى أَضْجَعْتُهَا فِي حُفْرَتِهَا فَإِنِّي لِأَجْتُوَ عَلَيْهَا
التُّرَابَ سَوْدَاءً لَا يَسْتَبِينَ مِنْهَا غَيْرَ بَيَاضٍ وَجْهَهُ فَاِبْتَدَرَنِي بِقَوْلِهِ مِنْ صَاحِبِ
هَذَا

الْقَبْرِ الَّذِي تَجْتُوُ تُرَابَهُ يَا سَيِّدِي قُلْتُ فَتَاةٌ مَرْجُومَةٌ رَأَيْتُ جُثَّتَهَا السَّاعَةَ مَبْنُودَةً

فِي هَذَا الْعَرَاءِ فَرَحِمَتْ مَصْرَعَهَا وَاحْتَفَرَتْ لَهَا هَذَا الْقَبْرَ الَّذِي تَرَاهُ فَقَالَ إِنَّ لِي

يَا سَيِّدِي مَعَ هَذِهِ الْفَتَاةِ شَأْنًا فَهَلْ تَأْذَنَ لِي أَنْ أُودِّعَهَا الْوَدَاعَ الْأَخِيرَ قَبْلَ أَنْ يَحُولَ التُّرَابُ بَيْنِي وَبَيْنَهَا قُلْتُ نَعَمْ شَأْنُكَ وَمَا تُرِيدُ وَتَتَحَيَّتُ قَلِيلًا فَدَنَا مِنَ الْقَبْرِ وَجَثًّا فَوْقَ تُرْبَتِهِ وَظَلَّ يُنَاجِي الدَّفِينَ نَجَاءً خِلْتُ أَنَّ الْكَوَكِبَ تَرَدُّدُهُ فِي سَمَائِهَا وَالرِّيَّاحَ تُرْجِعُهُ فِي أَجْوَانِهَا حَتَّى اشْتَفَتْ نَفْسُهُ فَقَامَ إِلَى التُّرَابِ يُهَيِّلُهُ عَلَيْهَا حَتَّى وَرَاهَا ثُمَّ انْتَفَتَ إِلَيَّ وَقَالَ الْفَتَاةُ الْمَظْلُومَةُ بِسْتَرٍ مَا كَشَفَ النَّاسَ عَنْ عَوْرَتِهَا وَحَفِظَ مَا أَضَاعُوا مِنْ حُرْمَتِهَا فَجَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا بِمَا فَعَلْتَ وَأَحْسَنَ إِلَيْكَ

كُمًّا أَحْسَنْتَ إِلَيْهَا وَأَرَادَ الرُّجُوعَ فَاسْتَوْقَفْتَهُ وَقُلْتُ لَهُ وَهَلْ مَاتَتْ هَذِهِ الْفَتَاةُ مَظْلُومَةً كَمَا تَقُولُ ؟ فَانْفَجَرَتْ شَفَتَاهُ عَنْ ابْتِسَامَةٍ مَرَّةً وَنَظَرَ إِلَى نَظْرَةٍ هَادِيَةٍ مُطْمَئِنَّةٍ وَقَالَ نَعَمْ يَا سَيِّدِي وَلَوْ لَا ذَلِكَ مَا رَأَيْتَنِي السَّاعَةَ وَاقِفًا عَلَى حَافَةِ قَبْرِهَا أَنْدُبَهَا .

أَنَا الرَّجُلُ الَّذِي اتَّهَمُوهَا بِهِ وَأَسْتَطِيعُ أَنْ أَقُولَ لَكَ كَمَا أَقُولُ لِرَبِّي يَوْمَ أَقِفُ بَيْنَ يَدَيْهِ رَافِعًا إِلَيْهِ ظِلَامَتَهَا إِنَّهَا بَرِيَّةٌ مِمَّا رَمَوْهَا بِهِ وَإِنَّهَا أَطْهَرُ مِنَ الزَّهْرَةِ الْمَطْلُولَةِ وَأَنْقَى مِنَ الْقَطْرَةِ الصَّافِيَةِ .

لَقَدْ أَحْبَبْتُ هَذِهِ الْفَتَاةَ مُنْذُ كَانَتْ طِفْلَةً لَاعِبَةً وَأَحْبَبْتَنِي كَذَلِكَ ثُمَّ شَبَبْنَا وَشَبَّ الْحُبُّ مَعَنَا فَتَعَاقَدْنَا عَلَى الْوَفَاءِ وَالْإِخْلَاصِ ثُمَّ خَطَبْتُهَا إِلَى أَبِيهَا فَأَخْطَبَنِي رَاضِيًا مَسْرُورًا حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ بَيْنِي وَبَيْنَ الْبِنَاءِ بِهَا إِلَّا أَيَّامٌ مَعْدُودَاتٌ إِذْ نَزَلْتُ بِأَبِيهَا نَازِلَةَ الْمَوْتِ فَعَلِمْنَا أَنْ لَا بُدَّ لَنَا مِنَ الْإِنْتِظَارِ بِأَنْفُسِنَا عَامًّا كَامِلًا فَفَعَلْنَا حَتَّى إِذَا انْقَضَى الْعَامُ أَوْ كَادَ حَدَثَ أَنْ ذَهَبْتُ الْفَتَاةُ إِلَى قَاضِي

الْمَدَنِيَّةَ فِي أَمْرٍ يَتَعَلَّقُ بِمِيرَاثِهَا فَرَّاهَا الْقَاضِي فَتَبِعَتْهَا نَفْسُهُ فَأَرْسَلَ وَرَاءَ
 عَمَّهَا وَكَانَ وَلِيَّ أَمْرِهَا بَعْدَ أَبِيهَا وَهُوَ رَجُلٌ مِنَ الطَّامِعِينَ الْمُدَاهِنِينَ الَّذِينَ لَا
 يُبَالُونَ أَنْ يَخَوْضُوا بَحْرًا مِنَ الدَّمِ إِذَا تَرَأَى لَهُمْ عَلَى شَاطِئِهِ الْآخِرَ دِينَارٌ لَامِعٌ
 فَعَرَضَ عَلَيْهِ رَغْبَتَهُ فِي الزَّوْاجِ مَعَ ابْنَةِ أَخِيهِ فَطَارَ بِهِذِهِ الْمُنْحَةَ فَرَحًا وَسُرُورًا
 وَلَمْ يَتَرَدَّدْ فِي إِجَابَةِ طَلَبِهِ وَعَادَ إِلَى الْفَتَاةِ يَحْمِلُ إِلَيْهَا هَذِهِ الْبُشْرَى
 فَاسْتَقْبَلَتْهُ بِوَجْهِهَ بَاسِرٍ وَقَالَتْ لَهُ إِنِّي لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَكُونَ خَطِيبَةً رَجُلَيْنِ فِي آنٍ
 وَاحِدٍ فَلَمْ يُبَلِّ بِقَوْلِهَا وَقَالَ لَهَا سَتَتَزَوَّجِينَ مِمَّنْ أُرِيدُ طَائِعَةً أَوْ كَارِهَةً فَلَا خِيَارَ
 لَكَ فِي نَفْسِكَ إِنَّمَا الْخِيَارُ لِي فِي أَمْرِكَ وَحَدِي وَمَا هِيَ إِلَّا أَيَّامٌ قَلِيلٌ حَتَّى أَعْدُوا
 لَهَا عُدَّةَ زَوَاجِهَا وَسُمُومًا يَوْمًا لَزِيفَافِهَا فَمَا غَرِبَتْ شَمْسُ ذَلِكَ الْيَوْمِ حَتَّى جَمَعَتْ
 مَا

كَانَ لَهَا فِي بَيْتِهَا مِنْ ثِيَابٍ وَحِيلَةٍ وَخَرَجَتْ تَحْتَ سِتَارِ اللَّيْلِ هَائِمَةً عَلَى وَجْهِهَا
 لَا

تَعْلَمُ أَيْنَ تَذْهَبُ وَلَا أَيَّ طَرِيقٍ تَسْلُكُ وَكَانَ عَمَّهَا قَدْ رَفَعَ إِلَى الْقَاضِي أَمْرَ
 فَرَارِهَا

فَبَثَّ عَلَيْهَا عِيُونَهُ وَأَرْصَادَهُ يَطْلُبُونَهَا فِي كُلِّ مَكَانٍ حَتَّى لَمَحَهَا بَعْضُهُمْ جَالِسَةً
 تَحْتَ

بَعْضِ الْجُدُرَانِ فَأَقْبَلَ عَلَيْهَا فَذُعِرَتْ لِمَرَّاهُ وَتَرَكَتْ حَقِيبَتَهَا مَكَانَهَا وَفَرَّتْ بَيْنَ
 يَدَيْهِ

تَعْدُو عَدُوًّا سَرِيعًا وَكُنْتُ عَائِدًا فِي تِلْكَ السَّاعَةِ إِلَى مَنْزِلِي فَرَأَيْتِي فَأَلَقْتُ
 نَفْسَهَا عَلَيَّ وَقَالَتْ إِنَّهُمْ يُتَّبِعُونَنِي وَإِنَّهُمْ إِنْ ظَفَرُوا بِي قَتَلُونِي فَارْحَمْنِي يَرْحَمَكَ
 اللَّهُ فَأَهَمَّنِي أَمْرُهَا وَذَهَبَتْ بِهَا إِلَى مَنْزِلِي وَأَخْفَيْتَهَا فِي بَعْضِ حُجُرَاتِهِ وَمَا هِيَ

إِلَّا سَاعَةً حَتَّى دَخَلَ عَمَّهَا وَوَرَاءَهُ أَعْوَانُ الْقَاضِي يَطْلُبُهَا طَلَبًا شَدِيدًا فَأَنْكَرَتْ
رُؤْيَتَهَا فَلَمْ يُصَدِّقْنِي وَأَخَذَ يَضْرِبُ أَبْوَابَ الْحُجُرَاتِ بَابًا بَابًا حَتَّى ظَفَرَ بِهَا
فَصَاحَ

هَا هِيَ الْفَتَاةُ الزَّانِيَةُ وَهَذَا صَاحِبُهَا فَأَقْسَمَتْ لَهُ بِكُلِّ مُحَرِّجَةٍ مِنَ الْإِيمَانِ أَنَّهَا
بَرِيئةٌ مِمَّا يَرْمِيهَا بِهِ فَلَمْ يُصْنَعْ إِلَيَّ وَأَمَرَ الْأَعْوَانُ فَاحْتَمَلُوهَا وَحَاوَلَتْ أَنْ أُحُولَ
بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهَا فَضَرَبَنِي أَحَدُهُمْ عَلَى رَأْسِي ضَرْبَةً طَارَتْ بِصَوَابِي فَسَقَطَتْ
مَغْشِيًا عَلَيَّ

فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا بَعْدَ سَاعَةٍ فَوَجَدْتُ الْحُمَى قَدْ أَخَذَتْ مَأْخَذَهَا مِنْ جِسْمِي فَلَزِمَتْ
فِرَاشِي

بِضْعَةِ أَيَّامٍ لَا أُفِيقُ سَاعَةً حَتَّى يَتِمَّتْ لِي ذَلِكَ الْمَنْظَرُ الَّذِي رَأَيْتُهُ فَأَشْعُرُ
بِالرَّعْدَةِ تَتَمَشَّى فِي أَعْضَائِي فَأَعُودُ إِلَى ذُهُولِي وَاسْتِعْرَاقِي حَتَّى أَدْرَكَتْنِي
رَحْمَةٌ

اللَّهُ فَأَبْلَلَتْ مِنْذُ اللَّامَسِ تَمَّ مِنْ أَمْرِ تِلْكَ الْمُسْكِينَةِ فَجِئْتُ كَمَا تَرَانِي أُوَدِّعُهَا
الْوَدَاعَ الْأَخِيرَ وَأُورِي جُنَّتَهَا التُّرَابَ وَمَا أَنَا بِالسَّالِي عَنْهَا وَلَا بِالذَّائِقِ
حَلَاوَةِ الْعَيْشِ مِنْ بَعْدِهَا حَتَّى أَلْحَقَ بِهَا .
ثُمَّ أَلْقَى عَلَى قَبْرِهَا نَظْرَةً جَمَعَتْ فِي طَيَّاتِهَا جَمِيعَ مَعَانِي النَّظَرَاتِ الْبَائِسَاتِ
مِنْ

حُزْنٍ وَبَأْسٍ وَلَوْعَةٍ وَشَقَاءٍ وَمَضَى لِسَبِيلِهِ .
فَمَا أَبْعَدَ إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى رَأَيْتُ الْقَمَرَ يَنْحَدِرُ إِلَى مَغْرِبِهِ ثُمَّ مَا لَبِثَ أَنْ اخْتَفَى
فَإِذَا الْفَضَاءُ ظُلْمَةٌ وَسُكُونٌ وَإِذَا السَّاحَةُ وَحْشَةٌ وَانْقِبَاضٌ فَصَعِدْتُ عَلَى رُبُوعَةٍ
عَالِيَةٍ

مُشْرِفَةً عَلَى الْقُبُورِ الثَّلَاثَةِ ثُمَّ تَلَفَعَتْ بِرِدَائِي وَالْقَيْتُ رَأْسِي عَلَى بَعْضِ
الصُّخُورِ

وَأَنْشَأْتُ أَحَدْتُ نَفْسِي وَأَقُولُ :

لَيْتَ شِعْرِي أَلَا يُوجَدُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا عَادِلٌ وَلَا رَاحِمٌ فَإِنْ خَلَّتْ مِنْهُمَا رُقْعَةٌ
الْأَرْضِ

فَهَلْ خَلَّتْ مِنْهُمَا سَاحَةُ السَّمَاءِ ؟

أَجْرَمَ الزَّعِيمَ الدِّينِيَّ لِأَنَّهُ ضَنَّ عَلَى ذَلِكَ الشَّيْخِ الْمِسْكِينِ بِدِرْهَمٍ مِنْ مَالٍ يَسُدُّ بِهِ
جَوْعَتَهُ وَجُوعَةَ أَهْلِ بَيْتِهِ فَاضْطُرَّ الرَّجُلُ إِلَى ارْتِكَابِ جَرِيْمَةِ السَّرِقَةِ فَعُوقِبَ
السَّارِقُ

عَلَى سَرِقَتِهِ وَلَمْ يُعَاقَبِ الْقَاسِي عَلَى قَسْوَتِهِ وَلَوْ لَا قَسْوَةُ الْقَاسِي مَا كَانَتْ سَرِقَةٌ
السَّارِقِ .

وَأَجْرَمَ الْأَمِيرَ لِأَنَّهُ أَرْسَلَ قَائِدَهُ لِيَاخُتِطَافَ فَتَاةٍ حُرَّةٍ لَا تُؤَثِّرُ أَنْ تَجُودَ بِعَرَضِهَا
فَاضْطُرَّ أَخُوهَا إِلَى الذَّوْدِ عَنْهَا فَارْتَكَبَ جَرِيْمَةَ الْقَتْلِ فَعُوقِبَ الْفَتَى عَلَى
جَرِيْمَتِهِ

وَسَلَّمَ مِنَ الْعُقُوبَةِ مَنْ دَفَعَهُ إِلَى الْجِرَامِ .

وَأَجْرَمَ الْقَاضِيَّ لِأَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يُكْرِهَ فَتَاةً لَا تُحِبُّهُ عَلَى الزَّوْاجِ مِنْهُ فَفَرَّتْ مِنْ
وَجْهِهِ فَعَاقَبُوهَا عَلَى فِرَارِهَا وَلَمْ يُعَاقِبُوا الْقَاضِيَّ عَلَى ظُلْمِهِ وَاسْتِبْدَادِهِ .

وَه : ذَا أَصْبَحَ الْمُجْرِمُ بَرِيئًا وَالْبَرِيءُ مُجْرِمًا بَلْ أَصْبَحَ الْمُجْرِمُ قَاضِيَّ الْبَرِيءِ
وَصَاحِبَ الْحَقِّ فِي مُعَاقِبَتِهِ فَهَلْ تَسْقُطُ السَّمَاءُ عَلَى الْأَرْضِ بَعْدَ الْيَوْمِ أَمْ لَا تَزَالُ
تُنِيرُهَا بِكَوَاكِبِهَا وَنُجُومِهَا وَتُمْطِرُهَا غَيْثُهَا مَزْنَهَا .

ثُمَّ انْتَقَتْ إِلَى مَصْرَعِ الْمَقْبُورِينَ فَوْقَ نَظَرِيَّ عَلَى بَرَكَةِ الدَّمِ الَّتِي اجْتَمَعَتْ فِيهَا

دِمَاءٌ هَوْلَاءِ الشُّهَدَاءِ فَرَأَيْتَ خِيَالَ نَجْمٍ فِي السَّمَاءِ يَتَلَأْلَأُ فَوْقَ صَفْحَتِهَا فَرَفَعَتْ
 نَظْرِي إِلَى النَّجْمِ فَإِذَا هُوَ الْمَرِيخُ يَتَلَهَّبُ وَيَضْطَرِبُ كَأَنَّهُ جَمْرَةٌ الْغَيْظِ فِي أَفْئِدَةٍ
 الْمُوتُورِينَ فَعَلَّقَ نَظْرِي بِهِ السَّاعَةَ ثُمَّ رَأَيْتُ كَأَنَّهُ يَهْبِطُ مِنْ عَلَيَّائِهِ رُويْدًا رُويْدًا
 فَيَعْظُمُ جِرْمَهُ كُلَّمَا إِزْدَادَ هُبُوطَهُ حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْأَرْضِ إِلَّا مِيلٌ أَوْ بَعْضُ
 عِصٍّ مِيلٍ إِذَا بِهِ يَنْتَقِضُ انْتِفَاضًا شَدِيدًا وَإِذَا هُوَ عَلَى صُورَةِ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ
 الْعَذَابِ يَنْبُعْثُ الشَّرَّ مِنْ عَيْنَيْهِ وَمَنْخَرِيهِ وَيَتَطَايَرُ مِنْ أَجْنِحَتِهِ وَأَطْرَافِهِ فَلَمْ
 يَزَلْ

هَابِطًا حَتَّى نَزَلَ عَلَى رَأْسِ الشَّجَرَةِ الَّتِي تَظَلُّ قُبُورَ الشُّهَدَاءِ ثُمَّ صَفَّقَ بِجَنَاحَيْهِ
 تَصْفِيقَةً أَهْتَزَّتْ لَهَا جَوَانِبُ الْأَرْضِ وَأَضَاءَتْ بِهَا الْأَرْجَاءُ ثُمَّ أَخَذَ يَنْطِقُ
 بِصَوْتٍ كَأَنَّهُ

جَلْجَلَةُ الرَّعْدِ فِي آفَاقِ السَّمَاءِ وَيَقُولُ هَا هُمْ النَّاسُ قَدْ عَادُوا إِلَيَّ مَا كَانُوا
 عَلَيْهِ وَهَا هِيَ الْأَرْضُ قَدْ مُلِئَتْ شُرُورًا وَفَسَادًا حَتَّى لَمْ يَبْقَ فِيهَا بَقْعَةٌ طَاهِرَةٌ
 يَسْتَطِيعُ أَنْ يَأْوِي إِلَيْهَا مَلَكٌ مِنْ أَمْلَاقِ السَّمَاءِ .

هَا هُمْ الْأَقْوِيَاءُ قَدْ إِزْدَادُوا قُوَّةً وَالضُّعَفَاءُ قَدْ إِزْدَادُوا شَعِيفًا وَهَا هِيَ لَحُومُ
 الْفُقَرَاءِ تَتَحَدَّرُ فِي بُطُونِ الْأَغْنِيَاءِ إِنْحِدَارًا فَلَا الْوَلُونَ بِمُسْتَمْسِكِينَ وَلَا
 الْآخَرُونَ بِقَانِعِينَ .

هَا هُمْ الْفُقَرَاءُ يَمُوتُونَ جُوعًا فَلَا يَجِدُونَ مَنْ يُحْسِنُ إِلَيْهِمْ وَالْمَنْكُوبُونَ يَمُوتُونَ
 كَمَدًا فَلَا يَجِدُونَ مَنْ يُعِينُهُمْ هَلَى هُمُومُهُمْ وَأَحْزَانُهُمْ .

هَا هُمْ الْأُمَرَاءُ قَدْ خَانُوا عَهْدَ اللَّهِ وَخَفَرُوا ذِمَامَهُ فَأَغْمَدُوا السُّيُوفَ الَّتِي وَضَعَهَا
 اللَّهُ فِي أَيْدِيهِمْ لِإِقَامَةِ الْعَدْلِ وَالْحَقِّ وَتَقْلَدُوا سُيُوفًا غَيْرَهَا وَلَا هِيَ إِلَى
 الشَّرِّيعَةِ وَلَا إِلَى الطَّبِيعَةِ وَمَشَوْا بِهَا فَيَفْتَحُونَ لِنَفْسِهِمْ طَرِيقَ شَهَوَاتِهِمْ

ولذا نذهم حتَّى يَنَالُوا مِنْهَا مَا يُرِيدُونَ .

هَآ هُمْ الْقَضَاةُ قَدْ طَمِعُوا وَظَلَمُوا وَوَضَعُوا الْقَانُونَ تَرْسًا أَمَامَ أَعْيُنِهِمْ يُصِيبُونَ مِنْ

وَرَائِهِ وَلَا يَصَابُونَ وَيَنَالُونَ مِنْ يَشَاوُونَ تَحْتَ حِمَايَتِهِ وَلَا يَنَالُونَ .

هَآ هُمْ زُعمَاءُ الدِّينِ قَدْ أَصْبَحُوا زُعمَاءَ الدُّنْيَا فَحَوَّلُوا مَعَابِدَهُمْ إِلَى مَغَاوِرِ
لُصُوصِ

يَجْمَعُونَ فِيهَا مَا يَسْرِقُونَ مِنْ أَمْوَالِ الْعِبَادِ ثُمَّ يَضُنُّونَ بِالْقَلِيلِ مِنْهُ عَلَى الْفُقَرَاءِ
وَالْمَسَاكِينِ .

هَآ هُمْ النَّاسُ جَمِيعًا قَدْ أَصْبَحُوا أَعْوَانًا لِلْأُمَرَاءِ عَلَى شَهَوَاتِهِمْ وَالْقَضَاةُ عَلَى
ظُلْمِهِمْ وَزُعمَاءُ الْأَدْيَانِ عَلَى لُصُوصِيَّتِهِمْ فَلتُسْقَطْ عَلَيْهِمْ جَمِيعًا نِقْمَةُ اللَّهِ مُلُوكًا
وَمَمْلُوكِينَ وَرُؤَسَاءَ وَمُرُؤَسِينَ .

بِالْإِغْوَاءِ الْعُرُوشِ وَلِتَذْهَبَ الْمَعَابِدُ وَلِتَتَقَوَّضَ الْمَحَاكِمُ وَلِيَعْمَّ الْحَرَابُ الْمُدُنَ
وَالْأَمْصَارَ وَالسُّهُولَ وَالْأَوْعَارَ وَالنَّجَادَ وَالْأَغْوَارَ وَلِتَغْرُقَ الْأَرْضُ فِي بَحْرٍ مِنْ
الدَّمَاءِ يَهْلِكُ فِيهِ الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ وَالشُّيُوخُ وَالْأَطْفَالُ وَالْأَخْيَارُ وَالْأَشْرَارُ
وَالْمُجْرِمُونَ وَالْأَبْرِيَاءُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ .

وَمَا انْتَهَى مِنْ دَعْوَتِهِ تِلْكَ حَتَّى رَأَيْتَ بَرَكَةَ الدَّمِ تَقُورُ كَمَا فَارَ التَّنُّورُ يَوْمَ دَعْوَةِ
نُوحٍ ثُمَّ فَاضَتْ الدَّمَاءُ مِنْهَا وَمَشَتْ تَتَدَفَّقُ فِي الْأَرْضِ تَدَفُّقُ السَّيْلِ الْمُنْحَدِرِ وَإِذَا
الْأَرْضُ بَحْرٌ أَحْمَرٌ يَزْخَرُ وَيَعِجُّ وَيَكْتَسِحُ أَمَامَهُ كُلُّ شَيْءٍ مِنْ زَرْعٍ وَضَرْعٍ
وَقُصُورٍ وَأَكْوَاحِ

وحسوان وإنسان وناطق وصامت ثم شعرت به يعْلُو شيئًا فشيئًا حتَّى ضَرَبَ
بِأَمْوَاجِهِ

رَأْسَ الرَّبْوَةِ الَّتِي أَنَا جَالِسٌ فَوْقَهَا فَصَرَخْتُ صَرْخَةً عَظْمَى فَاسْتَيْقَظَتْ مِنْ
نَوْمِي وَكَانَ

ذَلِكَ فِي صَبَاحِ الْيَوْمِ الثَّامِنِ وَالشَّعْرَيْنِ مِنْ شَهْرِ يُولْيُو فَإِذَا صَائِحٌ يَصِيحُ تَحْتَ
نَافِذَةِ غُرْفَتِي إِعْلَانُ الْحَرْبِ !

الضَّحِيَّةُ

نَشَأْتُ مَرُغَرِيْتُ جُوْتِيهِ فَقِيرَةٌ لَا تَمْلِكُ مَالًا تَشْتَرِي بِهِ زَوْجًا وَلَا تَجِدُ بَيْنَ
الرِّجَالِ مَنْ يَبِيعُهَا نَفْسَهُ بِلَا مَالٍ أَوْ يَحْسُنَ إِلَيْهَا بِمَا يَسُدُّ خَلَّتَهَا وَيَسْتُرُ عَوْرَتَهَا
وَكَانَ لَأَبَدٍ لَهَا أَنْ تَعِيشَ فَلَمْ تَجِدْ بَيْنَ يَدَيْهَا سِوَى عَرْضِهَا فَذَهَبَتْ بِهِ إِلَى سُوقِ
الشَّقَاءِ وَالْأَلَامِ فَسَاوَمَهَا فِيهِ بَعْضُ الْمُسَاوِمِينَ بِأَنْجَسِ الْأَثْمَانِ فَبَاعَتْهُ إِيَّاهُ
كَارِهَةً مُرْغَمَةً وَكَانَتْ مِنَ الْخَاسِرِينَ .

وَلَقَدْ كَانَ جَمَالُهَا شَوْمًا عَلَيْهَا فَلَوْ أَنَّهَا كَانَتْ شَوْهَاءَ لَوُجِدَتْ فِي النَّاسِ مَنْ
يَرْحَمُهَا وَيَحْنُو عَلَيْهَا وَلَكِنَّ الْجَمَالَ سِلْعَةٌ مِنَ السِّلَعِ النَافِقَةِ لَا يَسْتَطِيعُ صَاحِبُهُ
أَنْ يَبِيعَ مَا فِي أَيْدِي النَّاسِ إِنْ كَانَ فَقِيرًا مُعْزِرًا إِلَّا مِنْ طَرِيقِ الْمُسَاوَمَةِ فِيهِ .
لِذَلِكَ نَقِمْتُ تِلْكَ الْفَتَاةَ الْمُنْكَوبَةَ عَلَى الرِّجَالِ جَمِيعًا وَأَقْسَمْتُ أَنْ تَتَّخِذَ مِنْ
جَمَالِهَا الَّذِي هُوَ مَطْمَحُ أَنْظَارِهِمْ وَقُبْلَةُ آمَالِهِمْ آلَةً لِنِقَامِ بِهَا مِنْهُمْ لِعَرْضِهَا
وَشَرَفِهَا .

وَلَقَدْ بَرَّتْ بِيَمِينِهَا الْوَفَى بِعَهْدِهِ فَعَاشَرَتْ الرِّجَالَ وَلَمْ تُحِبَّهُمْ وَنَكَبَتْهُمْ فِي
أَمْوَالِهِمْ وَغَيَّ أَنْفُسَهُمْ وَلَمْ تَأْسَفْ عَلَيْهِمْ وَنَظَرْتُ إِلَى دُمُوعِ الْبَاكِينَ تَحْتَ قَدَمَيْهَا
نَظَرَاتٍ لَغِيْطَةٍ وَالسُّرُورِ وَهِيَ تَقُولُ :

وَيْحَ لَكُمْ يَا مَعْشَرَ الرِّجَالِ مَا كُنْتُ أَطْلُبُ مِنْكُمْ بِاسْمِ الْفَضِيلَةِ وَالشَّرَفِ إِلَّا
رَغِيْفًا

وَاحِدًا لِّغِذَائِي وَآخَرَ لِعِشَائِي فَأَبْيَتُمُوهَا عَلَى فَلَمَّا طَلَبْتَ مِنْكُمْ بِاسْمِ الرِّذِيلَةِ
جَمِيعَ مَا تَمْلِكُ أَيْدِيكُمْ مِنْ مَالٍ وَنَشِبَ بَذَلْتُمُوهُ لِي طَائِعِينَ مُخْتَارِينَ فَمَا أَصْغَرَ
نُفُوسَكُمْ وَأَخْسَّ أَقْدَارَكُمْ .

وَلَقَدْ كَانَ فِي إِسْتِطَاعَةِ أَصْغَرِكُمْ شَأْنًا وَأَهْوَنَكُمْ عَلَى نَفْسِهِ وَعَلَى النَّاسِ جَمِيعًا
أَنْ

يَشْتَرِي مِنِّي جِسْمِي وَقَلْبِي وَحَيَاتِي بِمَا تَمَنِّي سِوَى سَدِّ خَلْتِي وَصِيَانَةِ عِرْضِي
فَلَمْ تَفْعَلُوا

فَهَا هُمْ أَوْلَادُ الْيَوْمِ عُظْمَاؤُكُمْ وَأَشْرَافُكُمْ يَجْتُنُونَ تَحْتَ قَدَمِي جِثِي الْكَلْبِ الدَّلِيلِ
تَحْتَ مَائِدَةِ سَيِّدِهِ فَلَا يَنَالُونَ مِنِّي أَكْثَرَ مِمَّا يَنَالُ مِنْهَا .

أَحْبَبْتُمُ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا فَأَبْيْتُمُ إِلَّا أَنْ تَتَزَوَّجُوا ذَاتَ مَالٍ لِتَضُمُّوا طَارِفَهَا إِلَى
تَلِيدِكُمْ فَاذْبُلُوا الْيَوْمَ لِلْمَرْأَةِ مُومِسٍ لَا تَمْنَحُكُمْ مَالًا وَلَا حَبًّا جَمِيعَ مَا فِي
أَيْدِيكُمْ مِنْ فِضَّةٍ وَذَهَبٍ حَتَّى يَبْقَى لَكُمْ طَارِفٌ وَلَا تَلِيدٌ .

ظَهَرَتْ مَرْغَرِيْتُ فِي سَمَاءِ بَارِيسَ كَوَكَبًا مُتَالِّئًا يَبْعَثُ الْأَنْوَارَ وَيَبْهَرُ الْأَنْظَارَ
وَيَمَلَأُ أَجْوَازَ الْفَضَاءِ بِهَجَةٍ وَضِيَاءٍ فَطَارَتْ حَوْلَهَا الْعُقُولُ طَيْرَانِ النَّحْلِ حَوْلَ
الزَّهْرِ وَسَالَ النُّضَارُ بَيْنَ يَدَيْهَا سَيْلَانِ الْجَدُولِ الْمُتَدَفِّقِ تَحْتَ أَشِعَّةِ الْأَصِيلِ
وَعَنَّتْ

لَهَا الْوُجُوهُ الْكَرِيمَةُ وَتَعَفَّرَتْ تَحْتَ قَدَمَيْهَا الْجِبَاهُ الرَّقِيعَةُ وَأَصْبَحَتْ أَعْنَاقُ
الرِّجَالِ فِي يَدِهَا كَأَنَّهَا قَدْ سَلَكَتَهُمْ جَمِيعًا فِي سِلْكِ وَاحِدٍ ثُمَّ أَمْسَكَتْ بِطَرَفِ
السِّلْكِ

تُحَرِّكُهُ فَيَتَحَرَّكُونَ وَتُمْسِكُ عَنْهُ فَيُمْسِكُونَ وَكَانَ شَأْنُهَا مَعَهُمْ شَأْنُ صَاحِبِ
الْكَلْبِ مَعَ

كَلْبَهُ لَا يُشْبِعُهُ فَيَسْتَغْنِي عَنْهُ وَلَا يَجْبِيهِ فَيَبْئِاسَ مِنْهُ فَكَانَتْ تَمَلُّاً نَفْسَ عَاشِقِهَا
 أَمَلًا وَرَجَاءً حَتَّى إِذَا ظَنَّ أَنَّ قَدْ دَنَا بِهِ حَظَّهُ تَمَلُّاً نَفْسَ عَاشِقِهَا أَمَلًا وَرَجَاءً حَتَّى
 إِذَا ظَنَّ أَنَّ قَدْ دَنَا إِلَيْهِ يَدُهُ فَيَنَالُهُ ذَاتَتُهُ عَنْهُ ذَوْدَ الظَّامِي الْهَيْمَانَ عَنْ
 وَرْدِهِ أَدْنَى مَا يَكُونُ إِلَى فَمِهِ فَإِذَا عَلِمَتْ أَنَّ الْيَأْسَ قَدْ بَلَغَ مِنْ نَفْسِهِ وَأَنَّهُ قَدْ
 أَرْمَعَ أَنْ يَرْكَبَ رَأْسَهُ إِلَى حَيْثُ لَا مَرَدَّ لَهُ بَعَثَ وَرَاءَهُ شُعَاعًا مِنْ أَشِعَّةِ
 ابْتِسَامَاتِهَا الْعَذْبَةِ الْخَلَّابَةِ فَاسْتَرَدَّتْهُ إِلَيْهَا صَاغِرًا مُسْتَسْلِمًا .

وَكَذَلِكَ أَصْبَحَتْ تِلْكَ الْفَتَاةُ الْجَائِعَةُ الْعَارِيَّةُ الَّتِي كَانَتْ تَعُوزُهَا بِالْأَمْسِ اللَّقْمَةُ
 وَتَعْيِيهَا الْخُرْقَةُ سَيِّدَةِ بَارِيسَ وَصَاحِبَةِ عَرْشِهَا وَمَالِكَةَ أَزْمَةِ رِجَالِهَا وَفَاجِعَةَ
 قُلُوبِ

نِسَائِهَا وَالنَّجْمِ الْحَالِقِ الَّذِي تَبْتَهَلُ إِلَيْهِ الْعُيُونُ وَالسَّرِّ الْغَامِضِ الَّذِي تَحَارُ فِيهِ
 الظُّنُونُ .

ذَلِكَ مَا يُعَلِّمُهُ النَّاسَ مِنْ أَمْرِهَا أَمَّا مَا تُعَلِّمُهُ مِنْ أَمْرِ نَفْسِهَا فَهِيَ تَرَى أَنَّ جَمِيعَ
 مَا يَبْذُلُهُ لَهَا النَّاسُ مِنْ فِضَّةٍ وَذَهَبٍ وَأَثَاثٍ وَرِيَاشٍ وَقُصُورٍ وَدُورٍ وَجِيَادٍ
 وَمُرَكَّبَاتٍ لَا

يُسَاوِي دَمْعَةً وَاحِدَةً مِنْ تِلْكَ الدُّمُوعِ الَّتِي سَكَبَتْهَا عَلَى نَفْسِهَا يَوْمَ بَاعَتْ
 عَرْضَهَا

وَأَنَّ جَمِيعَ هَذِهِ اللَّالِي وَالْجَوَاهِرِ وَالْأَرْدِيَةِ وَالتَّيْجَانِ الَّتِي يَهْبُونُهَا إِنَّمَا
 يَهْبُونُهَا أَنْفُسُهُمْ لِيَتَمَتَّعُوا بِمَنْظَرِهَا فَوْقَ جِسْمِهَا كَمَا يَتَمَتَّعُ صَاحِبُ الْكَلْبِ بِمَنْظَرِ
 الْقَلَادَةِ فِي عُنُقِ كَلْبِهِ وَمَا لَهُ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٍ فَكَأَنَّمَا بَاعَتْ عَرْضَهَا بِمَا ثَمَنَ وَلَا
 جَزَاءَ .

وَكَانَتْ تَخْلُو بِنَفْسِهَا حِينًا فَتَذْكُرُ أَنَّ جَمِيعَ هَذِهِ الْقُلُوبِ الطَّائِرَةِ حَوْلَهَا إِنَّمَا

تَطِيرُ عَلَى جَمَالِهَا لَا عَلَيْهَا وَأَنَّهَا إِنْ حَرَمْتَ هَذَا الْجَمَالَ سَاعَةً وَاحِدَةً انْفَضَّ
النَّاسُ جَمِيعًا مِنْ حَوْلِهَا وَأَصْبَحَتْ وَحِيدَةً مُنْقَطِعَةً فِيهِذَا الْعَالَمِ لَا يَعْطِفُ عَلَيْهَا
قَلْبٌ وَلَا تُبْكِي عَلَيْهَا عَيْنٌ فَتُبْكِي بُكَاءَ الْأَشْقِيَاءِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بَلْ تَرَى أَنَّهَا شَقِيَّةٌ
مِثْلَهُمْ لِأَنَّهَا تُعَاشِرُ مَنْ لَا تُحِبُّ وَتَحْيَا بَيْنَ قَوْمٍ لَا يُحِبُّونَهَا إِلَّا حُبًّا كَاذِبًا .
وَرُبَّمَا مَرَّتْ فِي بَعْضِ غَدَوَاتِهَا أَوْ رُوحَاتِهَا بِغُرْفَةِ حَارِسِ قَصْرِهَا وَهُوَ جَالِسٌ
بَيْنَ زَوْجِهِ

وَأَوْلَادِهِ يَمْنَحُهُمْ حُبَّهُ وَإِخْلَاصَهُ وَيَمْنَحُونَهُ مِنْ ذَلِكَ مِثْلَ مَا يَمْنَحُهُمْ فَتَتَمَنَّى أَنْ لَوْ
كَانَ حَظُّهَا مِنْ هَذِهِ الْحَيَاةِ غُرْفَةً كَهَذِهِ الْغُرْفَةِ وَزَوْجًا وَأَوْلَادًا كَهَذَا الزَّوْجِ
وَهَؤُلَاءِ الْأَوْلَادِ ثُمَّ لَا تَقْتَرِحَ عَلَى دَهْرِهَا بَعْدَ ذَلِكَ شَيْئًا .
وَمَا رَأَاهَا فِي يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِهَا اسْتَقْبَلَتْ فِي قَصْرِهَا رَجُلًا مُتَزَوِّجًا أَوْ خَاطِبًا
فَكَانُوا

يَحْمِلُونَ هَذَا الْأَمْرَ مِنْهَا عَلَى مَحْمَلِ الْأَثَرَةِ وَيَقُولُونَ إِنَّهَا امْرَأَةٌ طَامِعَةٌ لَا تُحِبُّ
إِلَّا أَنْ يَكُونَ عَاشِقُهَا خَالِصًا لَهَا وَلَوْ أَنَّهُمْ عَرَفُوا حَقِيقَةَ أَمْرِهَا وَالْمُؤَا بِسَرِيرَةٍ
نَفْسَهَا لَعَلِمُوا أَنَّهَا امْرَأَةٌ حَزِينَةٌ مَكُوبَةٌ قَدْ فَجَعَهَا الدَّهْرُ فِي سَعَادَةِ الزَّوْجِيَّةِ
فَعَرَفَتْ قِيمَتَهَا فَهِيَ لَا تُحِبُّ أَنْ تُفْجَعَ فِيهَا امْرَأَةٌ غَيْرُهَا .
لَقَدْ تَحَدَّثَ بَعْضُ الَّذِينَ أَلْمُوا بِشُؤْنِ حَيَاتِهَا الْخَاصَّةِ أَنَّهَا وَهَبَتْ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا
بَعْضَ الْفَتَيَاتِ الْفَقِيرَاتِ مُهُورًا يَسْتَعِينُ بِهَا عَلَى الزَّوْاجِ مِمَّنْ يُرِدْنَ فَلَمْ يُصَدِّقْ
النَّاسُ هَذَا الْخَبَرَ وَقَالُوا إِنَّ السَّالِبَ لَا يَكُونُ وَاهِبًا وَإِنْ يَنْبُوعُ الْخَيْرِ لَا يُمَكِّنُ
أَنْ يَنْفَجِرَ فِي قُلُوبِ النِّسَاءِ الْفَاجِرَاتِ وَلَكِنَّ الْحَقِيقَةَ أَنَّهَا فَعَلَتْ ذَلِكَ وَرُبَّمَا فَعَلَتْ
أَكْثَرَ مِنْهُ هَذَا هُوَ قَلْبٌ مَرْغَرِيَّتٌ وَهَذِهِ هِيَ سَرِيرَةٌ نَفِيهَا فَهِيَ فَتَاةٌ فَاسِدَةٌ وَلَكِنَّهَا

غَيْرَ رَاضِيَةٍ عَنْ فَسَادِهَا وَسَاقِطَةٍ وَلَكِنَّهَا لَا تُحِبُّ أَنْ تَرَى الْفَتَيَاتِ سَاقِطَاتٍ
مِثْلَهَا

وَلَوْ كَانَ فِي اسْتِطَاعَةِ الْمَرْأَةِ السَّاقِطَةِ أَنْ تَسْتَرْجِعَ بِتَوْبَتِهَا وَإِنَابَتِهَا مَكَانَتَهَا
فِي قُلُوبِ النَّاسِ وَأَنْ تَمْحُو بِصَلَاحِهَا مَا سَلَفَ مِنْ فَسَادِهَا لَكَانَتْ هِيَ أَقْرَبَ
النِّسَاءِ

إِلَى التَّوْبَةِ وَالنُّزُوعِ وَلَكِنَّ الْمُجْتَمَعَ الَّذِي أَسْقَطَهَا وَسَلَبَهَا ذَلِكَ الرِّدَاءَ مِنْ
الشَّرَفِ

الَّذِي كَانَتْ تَرْتَدِيهِ يَأْبَى عَلَيْهَا أَنْ يُعِيدَ إِلَيْهَا رِدَاءَهُ إِنْ طَلَبَتْهُ فَلَا بُدَّ لَهَا مِنْ
الِاسْتِمْرَارِ فِي سُقُوطِهَا رَاضِيَةٍ أَوْ كَارِهَةٍ وَكَذَلِكَ كَانَ شَأْنُهَا .
وَلَمْ يُمْضِ عَلَى مَرْغَرِيَتٍ فِي حَيَاتِهَا هَذِهِ أَكْثَرُ مِنْ بَضْعَةِ أَعْوَامٍ حَتَّى نَزَلَ بِهَا
مَرَضٌ

حَجَبَهَا فِي بَيْتِهَا عِدَّةَ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَدَّتْ عَلَيْهَا فَأَشَارَ عَلَيْهَا الْأَطِبَّاءُ أَنْ تَذْهَبَ إِلَى
حَمَامَاتِ الْبَانِيِيرِ لِلِاسْتِشْفَاءِ بِمَائِهَا وَهَوَائِهَا فَسَافَرَتْ إِلَيْهَا وَحَدَّهَا وَلَا تَصْحَبَهَا
إِلَّا خَادِمَتُهَا وَكَانَ فِي ذَلِكَ الْمُصْطَافِ فِي هَذَا الْعَامِ سَيِّخٌ مِنَ الْأَثَرِيَاءِ اسْمُهُ
الدُّوقُ مَوْهَانُ حَضَرَ إِلَيْهَا مَعَ ابْنَتِهِ وَكَانَتْ مَرِيضَةً بِدَاءِ الصَّدْرِ لِيَسْتَشْفَى لَهَا
مِنْ

دَائِهَا فَلَمْ يَجِدْهَا الْعِلَاجَ وَمَاتَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ فَدَفَنَهَا هُنَاكَ وَلَبِثَ بَعْدَ مَوْتِهَا عِدَّةَ
أَيَّامٍ يَخْتَلِفُ إِلَى قَبْرِهَا وَيُبْكِيهَا بُكَاءَ شَدِيدٍ فَإِنَّهُ لِعَائِدٍ مِنَ الْمَقْبَرَةِ ذَاتَ يَوْمٍ
إِذْ لَمَحَ فِي طَرِيقِهِ مَرْغَرِيَتَ سَائِرَةٍ وَحَدَّهَا وَكَانَ ذَلِكَ الْيَوْمَ الثَّانِي مِنْ وُصُولِهَا
إِلَى

الْبَانِيِيرِ فَدُهِشَ لِمَنْظَرِهَا دَهْشَةً عَظْمَى وَخَيَّلَ إِلَيْهِ أَنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَهُ ابْنَتَهُ مِنْ

قَبَرَهَا أَوْ أَرْسَلَ إِلَيْهِ خِيَالَهَا لِيَعْزِيَهُ عَنْهَا لِمَكَانِ الشُّبْهِ بَيْنَ صُورَةِ هَذِهِ الْفَتَاةِ
وَصُورَتِهَا فَتَقَدَّمَ نَحْوَهَا ذَاهِلًا مَشْدُوهًا وَأَمْسَكَ بِطَرْفِ رِدَائِهَا وَظَلَّ يُحَدِّقُ فِي
وَجْهِهَا

تَحْدِيقًا طَوِيلًا فَعَجِبَتْ لِشَأْنِهِ وَسَأَلَتْهُ مَا بَالُهُ ؟ فَقَالَ لَهَا هَا تَأْذِنِينَ لِي يَا
سَيِّدَتِي أَنْ أَقْبَلَ يَدَكَ ؟ فَمَدَّتْ إِلَيْهِ يَدَهَا وَهِيَ لَا تَعْلَمُ مَاذَ يُرِيدُ وَلَا مَا الَّذِي
أَصَابَهُ فَلَثَمَهَا ثُمَّ اعْتَذَرَ إِلَيْهَا عَنْ جُرْأَتِهِ بِذُحُولِهِ وَدَهْشَتِهِ وَمَشَى مَعَهَا يَقْصُ
عَلَيْهَا

قِصَّتَهُ وَقِصَّةَ مُصَابِهِ فِي ابْنَتِهِ وَمَا رَاعَهُ مِنَ الشُّبْهِ بَيْنَ صُورَتِهَا وَصُورَتِهَا
فَرَنْتَ لَهُ

وَحَزِنْتَ لِحُزْنِهِ وَاسْتَهَلَّتْ دَمْعَةً رَأَاهَا الشَّيْخُ مِنْ خِلَالِ أَهْدَابِ عَيْنَيْهَا الْمُبْتَلَّةِ
بِالدُّمُوعِ فَسَقَطَ عَلَى يَدِهَا يَقْبَلُهَا وَيَشْكُرُ لَهَا تِلْكَ الدَّمْعَةَ الَّتِي جَادَتْ بِهَا عَلَيْهِ
فِي سَاعَةِ شِقَائِهِ وَلَمْ يَزَلْ سَائِرًا مَعَهَا حَتَّى وَصَلَا إِلَى الْمَنْزِلِ فَوَدَّعَهَا وَمَضَى
بَعْدَ

مَا بِالْإِغْوَاءِ أَنْ يَتَخَلَّفَ إِلَيْهَا مِنْ حِينٍ إِلَى حِينٍ بِالْإِغْوَاءِ بِذَلِكَ وَصَعِدَتْ إِلَى
غُرْفَتِهَا فَلَمَّا خَلَتْ بِنَفْسِهَا أَنْشَأَتْ تَفَكَّرَ فِي أَمْرِ تِلْكَ الْفَتَاةِ الْمَسْكِينَةِ الَّتِي
اخْتَطَفَهَا الْمَوْتُ مِنْ يَدِ أَبِيهَا فِي زَهْرَةِ صِبَاهَا مِنْ حَيْثُ لَمْ يَسْتَطِعْ طَبِيبٌ وَلَا
عَائِدَ

رَدَّ دَعَايَةَ الْقَضَاءِ عَنْهَا ثُمَّ خَطَرَ لَهَا أَنَّهَا مَرِيضَةٌ بِمِثْلِ الْمَرَضِ الَّذِي مَاتَتْ بِهِ
وَأَنَّهَا رَبَّمَا مَاتَتْ مَوْتَهَا فَلَا تَجِدُ بِجَانِبِهَا أَبَا كَهَذَا اللَّأْبِ يَنْدُبُهَا وَيَبْكِي
عَلَيْهَا فَأَثَّرَ فِي نَفْسِهَا هَذَا الْخَاطِرُ تَأْثِيرًا شَدِيدًا وَبَكَتْ لَهُ بُكَاءً طَوِيلًا وَلَزِمَتْ
غُرْفَتَهَا فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ لَا تُفَارِقُهَا .

وَزَلَّ الدُّوقُ يَخْتَلِفُ إِلَيْهَا بَعْدَ ذَلِكَ فَيُجَالِسُهَا طَوِيلًا وَيَجِدُ مِنَ النَّاسِ بِهَا
وَالْاِغْتِبَاطِ بَعْشَرَتَهَا مَا تَسْكُنُ بِهِ لَوْعَةً نَفْسُهُ كُلَّمَا شَبَّهَا الْوَجْدُ فِي صَدْرِهِ حَتَّى
أَصْبَحَ

لَا يَسْتَطِيعُ مُفَارَقَتَهَا سَاعَةً وَاحِدَةً وَكَأَنَّمَا لَدَّهَا أَنْ يَرَى ذَلِكَ الشَّيْخَ الثَّامِلَ
الْمَنْكُوبَ فِي وَجْهِهَا سَلَوْتَهُ وَعَزَّاءَهُ فَمَنْحَهُ مِنْ عَطْفِهَا وَحُبِّهَا مَا لَمْ تَمْنَحْهُ أَحَدًا
مِنْ قَبْلِهِ وَأَنِسَتْ بِهِ أَنْسًا لَمْ تَأْنَسْهُ بِإِنْسَانٍ سِوَاهُ .
وَمَا هِيَ أَيَّامٌ قَلَالٍ حَتَّى أَبْلَتْ مِنْ مَرَضِهَا بَعْضَ الْإِبْلَالِ وَعَادَ إِلَى وَجْهِهَا
رَوْنَقُهُ

وَبَهَاؤُهُ وَإِلَى ثَغْرِهَا الْبَدِيعِ ابْتِسَامُهُ وَافْتِرَارُهُ فَلَدَّ لَهَا الْمَقَامَ فِي الْبَانِيِيرِ
أَيَّامًا طَوِيلًا حَتَّى شَعَرَتْ بِهُبُوبِ رِيَّاحِ الشَّتَاءِ فَازْمَعَتْ الْعُودَةَ إِلَى بَارِيسَ فَشَقَّ
ذَلِكَ

عَلَى الدُّوقِ وَعَلِمَ أَنَّهَا إِنْ عَادَتْ إِلَيْهَا لَا يَظْفَرُ مِنْهَا فِي ذَلِكَ الْمُرْدَحِمِ الْعَظِيمِ
الْحَافِلِ بِخُلَانِهَا وَأَصْدِقَائِهَا بِمِثْلِ مَا كَانَ يَظْفَرُ بِهِ مِنْهَا فِي الْبَانِيِيرِ فَخَلَّى بِهَا
لَيْلَةَ السَّفَرِ سَاعَةً وَحَادِثَهَا حَدِيثًا طَوِيلًا وَانْتَهَى بِالِاتِّفَاقِ مَعَهَا عَلَى أَنْ تَهْجُرَ
حَيَاتِهَا الْأُولَى حَيَاةَ الْمَخَالَةِ وَالْمُعَاشَرَةِ وَتَعِيشَ فِي مَنْزِلٍ يُهَيِّئُهُ لَهَا يَوْمَ
بِنَفَقَاتِهَا فِيهِ عَلَى أَنْ تَأْذَنَ لَهُ بِالِاخْتِلَافِ إِلَيْهَا مِنْ حِينَ إِلَى حِينَ ثُمَّ سَافَرَ فِي
الْيَوْمِ الثَّانِي إِلَى بَارِيسَ . .

وَمُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ تَغَيَّرَتْ صُورَةُ حَيَاتِهَا عَمَّا كَانَتْ عَلَيْهِ مِنْ قَبْلِ فَأَصْبَحَتْ تَعِيشُ
فِي

قَصْرِهَا الَّذِي هَيَّأَهُ لَهَا الدُّوقُ عَيْشًا بَيْنَ الْعُزْلَةِ وَالِاخْتِلَاطِ فَلَا تَسْتَقْبِلُ النَّاسَ
فِيهِ إِلَّا قَلِيلًا وَلَا تَمْتَرِجُ مَعَ الَّذِينَ تَسْتَقْبِلُهُمُ الْاِمْتِرَاجُ كُلَّهُ وَرُبَّمَا مَرَّتْ بِهَا

أَيَّامَ لَا يَرَاهَا النَّاسُ خَارِجَ قَصْرِهَا إِلَّا قَلِيلًا فَإِذَا خَرَجَتْ رَكِبَتْ عَرَبَتَهَا وَحَدَّهَا
دُونِ رَفِيقٍ أَوْ رَفِيقِهِ وَمَشَتْ فِي طَرِيقِهَا تَقْرَأُ فِي كِتَابٍ أَوْصِ حَيْفَةَ فَرُبَّمَا مَرَّ
بِهَا

كَثِيرٌ مِمَّنْ تُعَرِّفُهُمْ فَلَا تَرَاهُمْ فَإِذَا وَقَعَ نَظَرُهَا عَلَى وَاحِدٍ مِنْهُمْ ابْتَسَمَتْ أَدْرَاجَهَا
حَتَّى تَصِلَ مُنْزَلَهُ الشَّانَزْلِيْزِيْهِ فَتَنْزِلُ مِنْ عَرَبَتِهَا وَتَمْشِي فِي الْغَابَةِ عَلَى قَدَمَيْهَا
سَاعَةً ثُمَّ تَعُودُ إِلَى قَصْرِهَا فَإِذَا جَاءَ اللَّيْلُ ذَهَبَتْ إِلَى مَلْعَبِ التَّمَثِيلِ وَحَدَّهَا أَوْ
مَعَ الرَّجُلِ الْقَائِمِ بِشَأْنِهَا فَتَقْضِي فِيهِ أَكْثَرَ وَقْتِهَا نَاضِرَةً إِلَى الْمَسْرَحِ لَا يَشْغَلُهَا
كَثْرَةُ النَّاضِرِينَ إِلَيْهَا أَوْ الْمُتَهَافِتِينَ عَلَى مَقْصُورَتِهَا عَنْ تَتَبُعِ فُصُولِ الرِّوَايَةِ
وَالْاهْتِمَامِ بِوَقْعِهَا حَتَّى تَنْتَهِيَ .

فَلَمْ تَمْضِ عَلَيْهَا أَيَّامٌ كَثِيرَةٌ حَتَّى عَلِمَ النَّاسُ جَمِيعًا أَنَّ مَرْغَرِيْتَ قَدْ اسْتَحَالَتْ
حَالَهَا وَتَغَيَّرَتْ صُورَةَ حَيَاتِهَا وَأَنَّهَا قَدْ قَنِعَتْ بِهَذِهِ الْحَيَاةِ الْجَدِيدَةِ حَيَاةِ الْهُدُوءِ
وَالسَّكِينَةِ وَالْوَحْشَةِ وَالْإِنْفِرَادِ وَرَضِيَتْهَا لِنَفْسِهَا فَلَا سَبِيلَ إِلَى مُغَالَبَتِهَا عَلَيْهَا
فَقَصَّرَتْ عَنْهَا أَسْمَاعُهُمْ وَانْقَطَعَتْ مِنْهَا سَبِيلٌ إِلَى مُغَالَبَتِهَا عَلَيْهَا فَقَصَّرَتْ عَنْهَا
أَطْمَاعُهُمْ وَانْقَطَعَتْ مِنْهَا آمَالُهُمْ وَظَلُّوا يَتَلَمَّسُونَ الْأَسْبَابَ لِتِلْكَ الْحَالَةِ الْغَرِيبَةِ
الَّتِي طَرَأَتْ عَلَيْهَا فَذَهَبُوا فِي شَأْنِهَا الْمَذَاهِبَ كُلَّهَا إِلَّا الْمَذْهَبَ الصَّحِيحَ مِنْهَا
وَهِيَ أَنَّ تِلْكَ الْحَادِثَةَ الْمُحْزَنَةَ الَّتِي حَدَثَتْ لِابْنَةِ الدُّوقِ شَبِيهَتَهَا فِي صُورَتِهَا
وَمَرْضَاهَا قَدْ أَثَّرَتْ فِي نَفْسِهَا تَأْثِيرًا شَدِيدًا وَصَوَّرَتْ لَهَا الْحَيَاةَ بِصُورَةٍ غَيْرِ

صُورَتِهَا

الْأُولَى فَأَصْبَحَتْ تَعَافُ الرِّجَالَ لِأَنَّهُمْ سَبَبُ سُقُوطِهَا وَتَسْتَنْكَرُ سُقُوطَهَا أَكْثَرَ مِمَّا
اسْتَنْكَرَتْهُ مِنْ قَبْلُ لِأَنَّهُ سَبَبُ مَرْضَاهَا وَلَا تَأْسُفُ عَلَى مَا فَاتَهَا مِمَّا فِي أَيْدِي

النَّاسِ

لِأَنَّهَا تَعِيشُ مِنْ مَالِ الدُّوقِ فِي نِعْمَةٍ لَا يَطْمَعُ طَامِعٌ فِي أَكْثَرِ مِنْهَا وَرُبَّمَا خَطَرَ
لَهَا

أَنَّ حَيَاتَهَا مَعَ هَذَا الشَّيْخِ الْهَرَمِ الَّذِي لَا يَطْمَعُ مِنْهَا فِي أَكْثَرِ مِنْ أَنْ يَرَاهَا
تَشَبُّهُ حَيَاةَ الْعَذَارَى الطَّاهِرَاتِ اللَّوَاتِي يَنْعَمْنَ بِنِعْمَةِ الشَّرَفِ فِي ظِلَالِ آبَائِهِنَّ
فَأَعْجَبَهَا هَذَا الْخَيَالُ وَلَذَّ لَهَا وَكَثِيرًا مَا بَكَتْ ذَلِكَ الشَّرَفَ قَبْلَ الْيَوْمِ وَحَنَّتْ إِلَيْهِ

•
انْقَضَتْ أَيَّامُ الْخَرِيفِ وَأَقْبَلَتْ أَيَّامُ الشِّتَاءِ وَسَالَتْ الْأَجْوَاءُ بَرْدًا وَقَرَّ افْتَارَ مَا
كَانَ كَامِنًا مِنْ دَاءِ مَرْغَرِيَّتٍ وَعَادَ إِلَيْهَا نَفْثُهَا وَسَعَالُهَا فَظَلَّتْ تُكَادِبُ مِنْ مَرْضَاهَا
الْأَمَّا جِسَامًا لَا تَفَرِّقُهَا يَوْمًا حَتَّى تُعَاوِدَهَا أَيَّامًا فَإِنْ أَلَمَّتْ بِهَا أَلَزَمَتْ سَرِيرَهَا
لَا تَفَارِقُهُ وَإِنْ رَوَّحَتْ عَنْهَا بَرَزَتْ إِلَى الْخَلَاءِ فِي بُكُورِ الْأَيَّامِ وَأَصَائِلِهَا تَطْلُبُ
الْهَوَاءَ الطَّلُقَ وَالْجَوَّ النَّقِيَّ وَرُبَّمَا ذَهَبَتْ فِي بَعْضِ لَيَالِيهَا إِلَى مَلْعَبِ التَّمَثِيلِ
لِتَتَفَرَّجَ مَا هِيَ فِيهِ فَتَخْلُو بِنَفْسِهَا فِي مَقْصُورَتِهَا سَاعَةً أَوْ سَاعَتَيْنِ ثُمَّ تَعُودُ إِلَى
مَنْزِلِهَا .

وكَانَتْ لَا يَزَالُ تَرَى فِي الْمَقْصُورَةِ الْمُجَاوِرَةِ لِمَقْصُورَتِهَا كُلَّمَا ذَهَبَتْ إِلَى
الْمَلْعَبِ

فَتَرَى فِي زِيِّ أَبْنَاءِ الْأَشْرَافِ وَشِمَائِلِهِمْ لَا يَزَالُ يَخَالِسُهَا النُّظْرُ مِنْ حِينٍ إِلَى حِينٍ
فَيَنْظُرُ إِلَيْهَا إِنْ غَضَّتْ عَنْهُ وَيَقْضِي عَنْهَا إِنْ نَظَرَتْ إِلَيْهِ وَلَا يَلْتَقِي نَظْرَهَا
بِنَظْرِهِ

حَتَّى يَتْلَهَبُ وَجْهُهُ حُمْرَةً وَيَرْفُضُ جَبِينَهُ عَرَقًا كَأَنَّمَا جَنَى جُنَايَةَ لَامِقِيلَ لَهُ مِنْهَا
فَلَمْ تَحْفَلْ بِهِ كَثِيرًا لِأَنَّهَا لَمْ تَرَ فِي أَمْرِهِ شَيْئًا جَدِيدًا إِلَّا أَنَّهَا كَانَتْ تَعْجُبُ

لِسُكُونِهِ وَجُمُودِهِ وَطُولِ إِغْضَائِهِ وَإِطْرَاقِهِ وَلِتِلْكَ الْعِبْرَةُ مِنَ الْحُزْنِ الْمُنْتَشِرَةِ عَلَى

وَجْهِهِ وَكَانَ أَكْثَرَ مَا يُدْهِشُهَا مِنْهُ أَوْ يُعْجِبُهَا أَنَّهُ الْفَتَى الْوَحِيدَ الَّذِي كَانَ يَبْكِي فِي ذَلِكَ الْمُجْتَمَعِ الْمُنْتَظَرِ الْمُشَاهِدِ الْمُحْزَنَةِ الَّتِي تُمَثِّلُ عَلَى مَسْرَحِ التَّمَثِيلِ لَأَنَّهَا تَعْلَمُ أَنَّ الْفَتَيَانِ الْفَرَحَيْنِ الْمُغْتَبِطَيْنِ بِشَبَابِهِمْ وَصِحَّتِهِمْ وَلَا يَحْفَلُونَ بِمَنَاظِرِ الشَّقَاءِ الْحَقِيقِيَّةِ فَأَحْرَى أَنْ لَا يَحْفَلُوا بِتَمَثِيلِهَا .

فَإِنَّهَا الْحَالِيَّةُ بِنَفْسِهَا فِي مَقْصُورَةٍ ذَاتِ لَيْلَةٍ وَكَانَ الْجَوُّ بَارِدًا مُقْشَعِرًّا إِذْ فَاجَأَتْهَا نَوْبَةٌ سُعَالٍ اشْتَدَّتْ عَلَيْهَا كَثِيرًا حَتَّى كَادَتْ تَسْقُطُ عَنْ كُرْسِيِّهَا ضَعْفًا وَوَهْنًا فَشَعَرَتْ بِبِدِّ تُمْسِكِ يَدَهَا فَاعْتَمَدَتْ عَلَيْهَا دُونَ أَنْ تَسْتَطِيعَ الْإِلْتِقَاتِ إِلَى صَاحِبِهَا حَتَّى بَلَغَتْ عَرَبَتَهَا فَرَكِبَتْهَا فَشَعَرَتْ بِالرَّاحَةِ قَلِيلًا فَالْتَفَتَتْ لِتَشْكُرَ

لِصَاحِبِ

تِلْكَ الْيَدِ يَدِهِ لَمْ تَرِ أَمَامَهَا أَحَدًا وَرَأَتْ عَلَى بُعْدِ خُطَوَاتِ مِنْهَا إِنْسَانًا مُنْصَرِفًا فَلَمْ تَتِمَكَّنْ مِنْ رُؤْيَيْهِ إِلَّا أَنَّهَا تَخَيَّلَتْ صُورَتَهُ تَخِيلًا فَعَجِبَتْ لِأَمْرِهِ وَمَضَتْ فِي طَرِيقِهَا فَمَا وَصَلَتْ إِلَى مَنْزِلِهَا حَتَّى شَعَرَتْ بِرَعْدَةِ الْحُمَى تَتَمَشَّى فِي أَعْضَائِهَا فَلَزِمَتْ

سَرِيرَهَا بِضَعَةِ أَيَّامٍ لَا تُفَارِقُهُ حَتَّى أَبْلَتْ قَلِيلًا فَقَدِمَتْ إِلَيْهَا خَادِمَتُهَا بِطَاقَاتِ الزِّيَارَةِ الَّتِي تَرَكَهَا الْفَتَيَانِ الَّذِينَ زَارُوهَا فِي اثْنَاءِ مَرَضِهَا تَجْمِيلًا وَتَلُومًا فَلَمْ تَقْرَأْ وَاحِدَةً مِنْهَا ثُمَّ حَدَّثَتْهَا الْخَادِمُ أَنَّ فَتَى كَانَ يَأْتِي لِلِسُّؤَالِ عَنْهَا فِي كُلِّ يَوْمٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ وَلَا يَذْكُرُ اسْمَهُ وَلَا يَنْزُكُ بِطَاقَتِهِ وَأَنَّهُ كَانَ يَنْقَبِضُ انْقِبَاضًا شَدِيدًا كُلَّمَا أَخْبَرَتْهُ أَنَّهَا لَا تَزَالُ طَرِيحَةً فِرَاشَهَا تَشْكُو وَتَتَأَلَّمُ فَاسْتَوْصَفَتْهَا

إِيَّاهُ فَوَصَفَتْهُ لَهَا فَلَمْ تَعْرِفْهُ وَعَجِبَتْ لِأَمْرِ كُلِّ الْعَجَب وَتَمَنَّتْ لَوْ رَأَتْهُ فَشَكَرَتْ لَهُ

هَذَا الْإِخْلَاصَ النَّادِرَ الَّذِي لَا عَهْدَ لَهَا بِهِ فِي أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ وَأَمَرَتْ خَادِمَتَهَا أَنْ تُخْبِرَهَا خَبْرَهُ إِنْ جَاءَ لِلسُّؤَالِ عَنْهَا مَرَّةً أُخْرَى فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ جَاءَ وَكَانَتْ مَرْغَرِيَتَ

جَالِسَةً فِي شُرْفَةِ الْمَنْزِلِ الْمُطْلَةِ عَلَى الطَّرِيقِ فَرَأَتْهُ فَعَرَفَتْ أَنَّهُ ذَلِكَ الْفَتَى الْحَزِينُ الَّذِي كَانَتْ تَرَاهُ فِي الْمَقْصُورَةِ الْمُجَاوِرَةِ لِمَقْصُورَتِهَا فِي مَلْعَبِ التَّمَثِيلِ وَأَنَّهُ صَاحِبُ تِلْكَ الْيَدِ الَّتِي امْتَدَّتْ لِمَعُونَتِهَا لَيْلَةَ النَّازِلَةِ الَّتِي نَزَلَتْ بِهَا هُنَاكَ فَأَشَارَتْ إِلَى خَادِمَتِهَا بِالنُّزُولِ إِلَيْهِ وَاسْتَدْعَاهُ إِلَيْهَا فَفَعَلَتْ فَاضْطَرَبَ الْفَتَى لِهَذِهِ الدَّعْوَةِ اضْطِرَابًا شَدِيدًا حَتَّى كَادَ يَرْفُضُهَا ثُمَّ شَعَرَ بِمَكَانِ مَرْغَرِيَتَ مِنَ الشُّرْفَةِ

فَتَلَوَّمَ وَمَشَى وَرَاءَ الْخَادِمَةِ حَتَّى صَعِدَتْ بِهِ إِلَى غُرْفَةِ سَيِّدَتِهَا فَتَرَكَتْهُ وَأَنْصَرَفَتْ

فَدَخَلَ عَلَيْهَا فَحَيَّاَهَا وَوَجَّهَهُ يَرْفُضُ عِرْقًا وَلِسَانَهُ لَا يَكَادُ يُبَيِّنُ فَمَدَّتْ إِلَيْهِ يَدَهَا فَتَنَاولَهَا وَقَبَلَهَا قُبْلَةً طَوِيلَةً عَرَفَتْ مَرْغَرِيَتَ سِرًّا مَا أُوْدِعَهَا مِنْ عَوَاطِفِ قَلْبِهِ وَهِيَ

الْعَالِمَةُ بِأَسْرَارِ الْقُبُلَاتِ ثُمَّ آذَنَتْهُ بِالْجُلُوسِ فَجَلَسَ فَأَنْشَأَتْ تُسَائِلُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَعَنْ قَوْمِهِ وَعَنْ سَبَبِ إِهْتِمَامِهِ بِشَأْنِهَا وَتَبَتَّسِمَ لَهُ فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ ابْتِسَامَاتٍ تُنَاطِفُهُ بِهَا وَتَمْسَحُ عَنْ فُؤَادِهِ مَا أَلَمَ بِهِ مِنَ الرُّوْعِ فَحَدَّثَهَا أَنَّهُ غَرِيبٌ عَنْ بَارِيسَ وَأَنَّهُ وَفَدَ إِلَيْهَا مُنْذُ عِشْرِينَ يَوْمًا مِنْ بَلَدَتِهِ نَيْسَ لِيَقْضِيَ فِيهَا ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ أُذِنَ لَهُ أَبُوهُ بِهَا طَلَبًا لِتَغْيِيرِ الْهَوَاءِ وَتَرْوِيحِ النَّفْسِ ثُمَّ يَعُودُ فِي نَهَايَتِهَا إِلَى وَطَنِهِ

فَسَأَلَتْهُ هَلْ وَجَدَ الْمَقَامَ حَمِيدًا هُنَا فَصَمَتَ هُنِيهَةً ثُمَّ نَظَرَ إِلَيْهَا نَظْرَةً مُنْكَسِرَةً
وَقَالَ لَا يَا سَيِّدَتِي قَالَتْ لِمَذَا فَحَارَتْ بَيْنَ شَفَتَيْهِ كَلِمَةً لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَنْطِقَ بِهَا
فَعَادَ إِلَى صَمْتِهِ وَإِطْرَاقِهِ فَأَعَادَتْ عَلَيْهِ سُؤَالَهَا فَقَالَ لَهَا هَلْ تَأْذِنِينَ لِي يَا سَيِّدَتِي
أَنْ أَقُولَ لَكَ كُلَّ مَا فِي نَفْسِي فَشَعَرَتْ بِمَا فِي نَفْسِهِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَهُ وَقَالَتْ لَهُ قُلْ
مَا

تَشَاءُ إِلَّا أَنْ تُطَارِحَنِي حُبِّكَ وَغَرَامِكَ فَإِنِّي امْرَأَةٌ مَرِيضَةٌ لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ اِحْتَمَلَ
الْحَيَاةَ وَحَدَهَا خَالِصَةً لَا مَوْوَنَةً فِيهَا فَأَحْرَى أَنْ لَا اِحْتَمَلَهَا مُتَقَلَّةً بِالْحُبِّ
وَالْغَرَامِ فَاصْفَرَ وَجْهُهُ اصْفَرَّارَ شَدِيدًا وَمَدَّ يَدَهُ إِلَى دَمْعَةٍ تَتَرَقَّرُ فِي عَيْنَيْهِ
فَمَسَحَهَا ثُمَّ قَالَ لَهَا ذَلِكَ مَا يُحْزِنُنِي يَا سَيِّدَتِي وَيُكِينُنِي وَيُنْغِصُ لِي عَيْشِي مُنْذُ
هَبَطْتُ بَارِيسَ حَتَّى الْيَوْمِ فَإِنِّي رَأَيْتُكَ فَأَحْبَبْتُكَ لِلنَّظَرَةِ الْأُولَى ثُمَّ سَأَلَتْ عَنْكَ
فَعَرَفْتُ مَنْ أَمْرِكَ كُلِّ شَيْءٍ وَعَلِمْتُ أَنَّكَ تَعِيشِينَ مُنْذُ شُهُورٍ عَيْشَةً لَا مَطْمَعِ
فِيهَا

لِطَامِعٍ وَلَا أَمَلٍ لِأَمَلٍ فَانْقَطَعَ أَمَلِي مِنْكَ إِلَّا أَنْ حُبِّي إِلَيْكَ لَمْ يَنْقَطِعْ ثُمَّ رَأَيْتُكَ
بَعْدَ ذَلِكَ فِي مَلْعَبِ التَّمَثِيلِ وَرَأَيْتُ هَذَا الْقِنَاعَ الْأَصْفَرَ الَّذِي نَسَجْتَهُ يَدُ الْمَرَضِ
عَلَى وَجْهِكَ الْجَمِيلِ فَاسْتَحَالَ جِي إِلَيْكَ رَحْمَةً وَشَفَقَةً وَأَصْبَحْتَ أَبْكِي لِمَرَضِكَ
أَكْثَرَ مِمَّا

أَبْكِي لِحُبِّكَ وَأَصْبَحَ كُلُّ مَا أَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ فِي حَيَاتِي أَنْ أَرَكَ بَارئَةً نَاعِمَةً
مَوْفُورًا لَكَ حَظُّكَ مِنْ سَعَادَةِ الْعَيْشِ وَهَنَائِهِ ثُمَّ لَا أَطْمَعُ بَعْدَ ذَلِكَ فِي شَيْءٍ مِمَّا
يَطْمَعُ فِيهِ الْمُحِبُّونَ الْمَغْرَمُونَ فَأَنَا أَقِفُ السَّاعَةَ بَيْنَ يَدَيْكَ لَا لِأَطَارِحُكَ الْحُبَّ
وَالْغَرَامَ بَلْ لِأَسْأَلَ أَنْ تَأْذِنِي لِي بِالْوُقُوفِ عَلَى بَابِكَ كُلَّمَا جِئْتَهُ أَسْأَلُ خَادِمَتَكَ
عَنْكَ ثُمَّ أَمْضِي لِسَبِيلِي مِنْ حَيْثُ لَا تَرِيمُ وَجْهِي وَلَا تَشْعُرِينَ بِمَكَانِي فَسَرَّتْ فِي

أَعْضَائِهَا رَعْدَةٌ غَيْرُ الرَعْدَةِ الَّتِي تُعَرِّفُهَا مِنَ الْحُمَى وَخَيْلٍ إِلَيْهَا أَنَّهَا تَسْمَعُ
نَغْمَةً

فِي الْحُبِّ غَيْرِ النِّعْمَةِ الَّتِي كَانَتْ تَسْمَعُهَا مِنْ قَبْلِ الْيَوْمِ مِنْ أَفْوَاهِ الرِّجَالِ
فَنَظَرَتْ

إِلَيْهِ نَظْرَةً لَا تَأْوِيلَهَا إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى ثُمَّ قَالَتْ لَهُ إِنِّي آذَنُ لَكَ بِذَلِكَ يَا سَيِّدِي
وَأَشْكُرُهُ لَكَ شُكْرًا جَزِيلًا بَلْ آذَنُكَ أَنْ تَرُورَنِي كُلَّمَا شِئْتُ عَلَى أَنْ تَقْدِرَ إِلَيَّ
صَدِيقًا

مُسَاعِدًا لَا مُحِبًّا مُغْرَمًا فَإِنِّي إِلَى الْأَصْدِقَاءِ الْمُخْلِصِينَ أَحُوجُ مِنِّي إِلَى الْمُحِبِّينَ
الْمُغْرَمِينَ وَمَدَّتْ إِلَيْهِ يَدَهَا فَعَلِمَ أَنَّهَا قَدْ آذَنَتْهُ بِالْإِنْصِرَافِ فَقَبِلَهَا وَأَنْصَرَفَ
مَسْرُورًا مُغْتَبِطًا فَاتَّبَعَتْهُ نَظَرُهَا حَتَّى غَابَ عَنْهَا فَسَقَطَتْ وَسَادَتْ بِجَانِبِهَا وَقَالَتْ
:

رَحِمْتُكَ اللَّهُمَّ فَإِنِّي أَخْشِي أَنْ أُحِبَّهُ .

لَقَدْ أَحْبَبْتَهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَدْرِي فَإِنَّ الْخَوْفَ مِنَ الْحُبِّ هُوَ الْحُبُّ نَفْسُهُ بَلْ شَعَرْتُ
فِي

حُبِّهِ بِسَعَادَةٍ لَمْ تَشْعُرْ بِمِثْلِهَا مِنْ قَبْلِ فَاصْبَحَتْ تَسْتَقْبِلُهُ كُلَّ يَوْمٍ فِي مَنْزِلِهَا
وَتَأْنَسُ

بِهِ وَبِحَدِيثِهِ أَنَا كَثِيرًا وَتَقْضِي إِلَيْهِ بِذَاتِ نَفْسِهَا إِفْضَاءَ الصَّدِيقِ إِلَى صَدِيقِهِ
وَتَقْصُّ عَلَيْهِ قِصَّةَ مَاضِيهَا وَحَاضِرِهَا وَلَا تُكْذِبُهُ شَيْئًا وَلَا تَكْتُمُ عَنْهُ أَمْرًا ثُمَّ
تَرَامِي بِهَا الْأَمْرَ حَتَّى أَصْبَحَتْ تَشْعُرُ بِالْوَحْشَةِ إِنْ تُخْلِفَ عَنْ مِيعَادِ زِيَارَتِهِ
بِضْعٍ

دَقَائِقُ ثُمَّ حَدَّثَ أَنْ انْقَطَعَ عَنْ زِيَارَتِهَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ لِأَمْرِ عَرَضَ لَهُ لَمْ يَتِمَّكَ مِنْ

إِخْبَارَهَا بِهِ فَحَزِنْتُ لِانْقِطَاعِهِ حُزْنًا عَظِيمًا وَذَهَبَتْ بِهَا الْوَسَاوِسُ وَالظُّنُونُ كُلُّ مَذْهَبٍ

ثُمَّ ذَكَرْتُ أَنَّ ذَلِكَ الْحُزْنَ وَهَذَا الْوَسَاوِسَ لَيْسَ مِنْ شَأْنِهَا قَبْلَ الْيَوْمِ فَقَلِقْتُ لِذَلِكَ قَلَقًا شَدِيدًا وَخَفَقَ قَلْبُهَا خَفَقَةً الرُّعْبِ وَالْخَوْفِ وَعَلِمْتُ أَنَّهَا قَدْ وَقَفَتْ عَلَى حَافَةِ الْهُوَّةِ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ تَتَرَدَّى فِيهَا فَسَهَرْتُ لَيْلَةً طَوِيلَةً عَالَجْتُ فِيهَا نَوَازِعَ النَّفْسِ وَخَوَالِجَهَا مَا عَالَجْتُ حَتَّى أَصْبَحَ الصَّبَّاحَ وَقَدْ أَضْمَرْتُ فِي نَفْسِهَا أَمْرًا .

جَاءَ أَرْمَانُ فِي صَبَاحِ الْيَوْمِ الرَّابِعِ فَوَجَدَهَا طَرِيحَةً فِرَاشِهَا وَفِي عَيْنَيْهَا حُمْرَةً الْبُكَاءِ وَالسَّهَرِ فَارْتَاعَ لِمَنْظَرِهَا وَقَالَ لَهَا لَعَلَّكَ سَهَرْتَ بِالْأَمْسِ كَثِيرًا يَا سَيِّدَتِي أَوْ بَكَيْتَ فَإِنِّي أَرَى فِي عَيْنَيْكَ أَثَرَ وَاحِدٍ مِنْهُمَا قَالَتْ هُمَا مَعًا يَا أَرْمَانُ قَالَ وَهَلْ حَدَّثَ شَيْءٌ جَدِيدٌ ؟ قَالَتْ اجْلِسْ بِجَانِبِي قَلِيلًا أَيُّهَا الصَّدِيقُ أُحَدِّثُكَ حَدِيثًا قَصِيرًا وَرُبَّمَا كَانَ آخِرَ حَدِيثٍ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ثُمَّ لَا أَرَاكَ بَعْدَ ذَلِكَ وَلَا تَرَانِي فَذُعِرَ ذُعْرًا شَدِيدًا وَدَاخِلَهُ مِنَ الرُّعْبِ وَالْهُوْلِ مَا مَلَكَ عَلَيْهِ عَقْلُهُ وَلِسَانُهُ فَلَمْ يَسْتَطِيعْ أَنْ يَقُولَ شَيْئًا وَسَقَطَ بِجَانِبِهَا وَاهِيًا مُتَضَعِّعًا وَظَلَّ يَنْظُرُ إِلَى وَجْهِهَا نَظَرَ الْمُتَّهَمِ إِلَى وَجْهِ قَاصِيهِ .

سَاعَةً نَطَفَهُ بِالْحُكْمِ فَأَقْبَلَتْ عَلَيْهِ تُحَدِّثُهُ وَتَقُولُ :

عَرَفْتُكَ يَا أَرْمَانُ فَعَرَفْتُ فِيكَ الرَّجُلَ الْكَرِيمَ الَّذِي أَحَبَّنِي لِنَفْسِي أَكْثَرَ مِمَّا أَحَبَّنِي لِنَفْسِهِ وَالصَّدِيقَ الْوَفِيَّ الَّذِي امْتَرَجَتْ فِي قَلْبِهِ عَاطِفَةُ الْحُبِّ بِعَاطِفَةِ الرَّحْمَةِ وَالْحَنَانَ فَأَوَى إِلَيَّ مَرِيضُهُ حِينَمَا جَفَانِي النَّاسُ لِمَرَضِي وَعَاشَ مَعِيَ بِلَا أَمَلٍ حِينَمَا

انْقَطَعَ النَّاسُ عَنِّي لِانْقِطَاعِ أَمَلِهِمْ مِنِّي فَأَضْمَرْتُ لَكَ فِي قَلْبِي مِنَ الْحُبِّ
وَالْحَتَرَامِ

مَا لَمْ أَضْمِرْهُ أَحَدٌ سِوَاكَ وَسَعِدْتَ بِكَ سَعَادَةً لَمْ أَشْعُرْ بِمِثْلِهَا فِي يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ
حَيَاتِي

وَلَكِنَّ اللَّهَ الَّذِي كَتَبَ لِي الشَّقَاءَ فِي لَوْحِ مَقَادِيرِهِ مِنْ ضَجْعَةِ الْمَهْدِ إِلَى رَقْدَةِ
الْحَدِّ لَمْ يَشَأْ أَنْ يُمَتِّعَنِي طَوِيلًا بِهَذِهِ السَّعَادَةِ وَأَبَى إِلَّا أَنْ يَسْلُبْنِيهَا وَشَيْكَأً
فَقَدْ أَصْبَحْتُ أَشْعُرُ مُنْذُ أَيَّامٍ أَنَّ تِلْكَ الْعَاطِفَةَ الشَّرِيفَةَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كُنْتُ أَسْتَمِدُّ
مِنْهَا سَعَادَتِي وَهَنَائِي قَدْ أَخَذَتْ تَسْتَحِيلَ فِي أَعْمَاقِ قَلْبِي إِلَى عَاطِفَةٍ أُخْرَى
غَيْرَهَا

لَا أُرِيدُهَا لِنَفْسِي وَلَا أَرَى إِلَّا أَنَّهَا سَتَكُونُ سَبَبَ شِقَائِي وَبَلَائِي فَخَادَعَتْ نَفْسِي
عَنْهَا حِينًا أَكْذَبَهَا مَرَّةً وَأَصْدَقَهَا أُخْرَى حَتَّى كَانَ مَا كَانَ مِنْ انْقِطَاعِكَ عَنِّي تِلْكَ
الْأَيَّامَ الثَّلَاثَةَ فَشَعَرْتُ لَغِيَابِكَ بِحُزْنٍ قَلْبِيٍّ وَأَمْضِي وَمَلِكٍ عَلَيَّ جَمِيعِ عَوَاطِفِي
وَمَشَاعِرِي وَلَوْ شِئْتُ أَنْ أَقُولَ لَقُلْتُ إِنَّهُ أَبْكَانِي كَثِيرًا وَأَسْهَرَنِي طَوِيلًا فَعَلِمْتُ
وَأَسْفَاهُ أَنَّي قَدْ أَصْبَحْتُ عَاشِقَةً وَأَنْ هَذَا الَّذِي يَخْتَلِجُ فِي قَلْبِي وَيُقِيمُنِي وَيُقْعِدُنِي
إِنَّمَا هُوَ الْحُبُّ وَالْغَرَامُ فَقَضَيْتُ لَيْلَةَ اللَّأْمَسِ كُلَّهَا أَفْكَرَ فِي طَرِيقِ الْخَلَاصِ مِنْ
هَذِهِ

النَّكْبَةِ الْعُظْمَى الَّتِي نَزَلَتْ بِي فَلَمْ أَجِدْ أَحَدًا يُخَلِّصُنِي مِنْهَا سِوَاكَ فَأَنَا أَسْأَلُكَ
يَا أَرْمَانَ بِاسْمِ الصَّدَاقَةِ وَالْوَدِّ الَّذِي تَعَاقَدْنَا عَلَيْهِ بِالْأَمْسِ بَلْ بِاسْمِ الدُّمُوعِ
الَّتِي طَالَمَا كُنْتُ تَسْكُبُهَا رَحْمَةً بِي وَإِشْفَاقًا عَلَيَّ أَنْ تَنْقُطِعَ عَنْ زِيَارَتِي مُنْذُ
الْيَوْمِ وَأَنْ تُسَافِرَ إِلَى أَهْلِكَ اللَّيْلَةَ إِنْ اسْتَطَعْتَ ثُمَّ لَا تُعَدَّ إِلَيَّ بُعْدَ ذَلِكَ فَأَحْمِلْ
نَفْسِي عَلَى الصَّبْرِ عَنْكَ حَتَّى يَمُنَّ اللَّهُ بِرَاحَةِ الْيَأْسِ مِنْكَ .

ثُمَّ نَظَرْتُ إِلَيْهِ لِتَرَى مَا يَقُولُ فَإِذَا هُوَ جَامِدٌ مُصْفَرٌّ كَأَنَّ وَجْهَهُ وَجْهَ تِمْثَالٍ
مَنْحُوتٍ

وَإِذَا عَيْنَاهُ شَاخِصَتَانِ إِلَيْهَا شُخُوصُ الْعَيْنِ الْقَائِمَةِ الَّتِي تَنْتَظِرُ إِلَى الشَّيْءِ وَلَا
تَرَاهُ وَبَعْدَ لَأَيٍّ مَا اسْتَطَاعَ أَنْ يُحَرِّكَ شَفَتَيْهِ وَيَقُولَ لَهَا بِصَوْتٍ خَافِتٍ كَصَوْتِ
الضَّمِيرِ

وَمَا يُخْفِيكَ مِنَ الْحُبِّ يَا مَرْغَرِيتَ قَالَتْ يُخْفِينِي مِنْهُ الْعِقَابُ اللَّالِيمُ الَّذِي أَتَوَقَّعُ
أَنْ يُعَاقِبَنِي بِهِ اللَّهُ عَلَى مَا اقْتَرَفْتُ مِنَ الذُّنُوبِ وَالْآثَامِ فِي فَاتِحَةِ حَيَاتِي فَقَدْ
كُتِبَ لِلَّهِ لَنَا مَعَشَرُ النِّسَاءِ السَّاقِطَاتِ فِي لَوْحِ مَقَادِيرِهِ أَنْ لَا نَزَالَ نَعْبَثُ بِقُلُوبِ
الرِّجَالِ وَعُقُولِهِمْ وَنَبْتَلِيَهُمْ بِصُنُوفِ الْعَذَابِ وَأَنْوَاعِ اللَّأَمِ حَتَّى يَغْضَبَ اللَّهُ لَهُمْ
وَيَغَارَ عَلَيْهِمْ فَيَبْتَلِيَنَا بِحُبِّ نَحْمِلُ فِيهِ الْعَذَابَ جَمِيعَ مَا حَمَلْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَنَشْقَى
فِيهِ شِقَاءَ لَا يَنْتَهِي إِلَّا بِانْتِهَاءِ حَيَاتِنَا فَنَمُوتَ بَيْنَ يَدَيِ أَنْفُسِنَا مُهْمَلَاتٍ
مُغْفَلَاتٍ لَا يَنْعَانَا نَاعٍ وَلَا يُبْكِي عَلَيْنَا بَكَ فَهَذَا الَّذِي أَخَافُهُ وَأَخْشَاهُ وَأُحِبُّ أَنْ
يَسْبِقَ إِلَيَّ أَجْلِي قَبْلَ أَنْ أَرَاهُ .

أَنَا لَا أَتَّهِمُكَ بِالْخِيَانَةِ وَالْغَدْرِ يَا أَرْمَانَ فَأَنْتَ أَجَلَ مَنْ ذَلِكَ عِنْدِي وَلَكِنِّي أَعْلَمُ
أَنَّكَ بَاقٍ فِي هَذَا الْبَلَدِ إِلَى أَجَلٍ فَإِذَا انْقَضَى الْأَجَلُ سَافَرْتَ إِلَى أَهْلِكَ سَفَرًا لَا
تَمْلِكُ بَعْدَهُ الْعَوْدَةَ إِلَيَّ فَإِنَّ أَبَيْتَ إِلَّا الْبَقَاءَ بِجَانِبِي حَالِ أَهْلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَ ذَلِكَ
لِأَنَّهُمْ قَوْمٌ شُرَفَاءُ يَضُنُّونَ بِكَ وَبِشَرِّكَ أَنْ تَلَوُّتَهُمَا امْرَأَةٌ مُومِسَ بَعَارَهَا

وشنارها

أَقِفْ مَوْقِفَ الْحَيَرَةِ وَاللَّوْعَةِ أَطْلُبُ السَّبِيلَ إِلَيْكَ فَلَا أَجِدُكَ وَالسُّلُوكَ عَنْكَ فَلَا
أَسْتَطِيعُهُ وَرُبَّمَا حَاوَلْتُ بَعْدَ ذَلِكَ الْعَوْدَةَ إِلَى كَنَفِ ذَلِكَ الشَّيْخِ الْكَرِيمِ الَّذِي
أَحْسَنَ

إِلَيَّ إِحْسَانًا كَبِيرًا فَطَرَدَنِي مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ عِقَابًا لِي عَلَى خِيَانَةِ عَهْدِهِ وَكَفَرِ نِعْمَتِهِ
فَلَا أَجِدُ لِي بُدًّا مِنَ الرُّجُوعِ إِلَى حَيَاتِي الْأُولَى حَيَاةَ الشُّرُورِ وَالْآثَامِ وَالْهُمُومِ
وَالْأَلَامِ الَّتِي أَبْغَضْتُهَا بَغْضَ الْأَرْضِ لِلدَّمِ وَهُنَالِكَ الْعَذَابِ الدَّائِمِ وَالشَّقَاءِ
وَالطَّوِيلِ .

أَنِّي أَعْلَمُ يَا أَرْمَانَ أَنَّكَ تُحِبُّنِي حُبًّا جَمًّا وَأَنَّكَ سَتُكَابِدُ فِي ابْتِعَادِكَ عَنِّي عَذَابًا
كَثِيرًا وَلَكِنِّي أَعْلَمُ أَنَّ قَلْبًا طَرِيفًا يَحْتَمِلُ الْعَذَابَ فِي سَبِيلِ الرَّحْمَةِ فَاحْتَمَلَ هَذَا
الْعَذَابَ مِنْ أَجْلِي فَإِنَّكَ أَقْدَرُ مِنِّي عَلَى إِحْتِمَالِ الْأَلَامِ وَالْأَوْجَاعِ وَسَأَعُودُ اللَّهُ
تَعَالَى لَيْلِي وَنَهَارِي أَنْ يَمْنَحَنِي الصَّبْرَ عَنْكَ وَيَرْزُقَنِي رَاحَةَ النَّفْسِ وَسُكُونَهَا
مِنْ

بَعْدِكَ وَأَنْ يَمْنَحَكَ مِنْ ذَلِكَ مِثْلَ مَا يَمْنَحَنِي فَلَعَلَّهُ يَرْحَمُنَا جَمِيعًا .
فَلَمْ يَكُنْ لَهُ جَوَابٌ عَلَى كَلِمَتِهَا هَذِهِ سِوَى أَنْ نَهَضَ مِنْ مَكَانِهِ مُتَضَعِّعًا
مُتَهَالِكًا

وَمَشَى إِلَى بَابِ الْقَاعَةِ يَسُوقُ نَفْسَهُ سُوقًا حَتَّى بَلَغَهُ فَوْقَ عَلَى عَتَبَتِهِ وَالتَفَتَ
إِلَى

مَرْغَرِيثَ وَأَلْقَى عَلَيْهَا تِلْكَ النَّظْرَةَ الَّتِي يُلْقِيهَا الْمُحْتَضِرُ عَلَى أَهْلِهِ فِي آخِرِ
لَحَظَاتِ حَيَاتِهِ وَقَالَ لَهَا الْوَدَاعَ يَا مَرْغَرِيثَ وَمَضَى فَمَا غَابَ شَخْصُهُ عَنْ
عَيْنَيْهَا حَتَّى

نَهَضَتْ مِنْ فِرَاشِهَا هَائِمَةً مُخْتَبِلَةً وَانْدَفَعَتْ إِلَى الْبَابِ تُرِيدُ اللَّحَاقَ بِهِ ثُمَّ
تَرَاجَعَتْ

ثُمَّ حَاوَلَتْ ذَلِكَ مَرَّةً أُخْرَى فَأَدْرَكَهَا شَدِيدًا وَتَدَوَّرَ فِي أَنْحَاءِ الْغُرْفَةِ دَوْرَانِ
الْثَاكِلَةِ الْمَفْجُوعَةِ وَهِيَ تَصِيحُ أَرْجَعُوهُ إِلَيَّ لَا أَسْتَطِيعُ فِرَاقَهُ سَأَمُوتُ مِنْ بَعْدِهِ

وَأَنَّهَا لَكَذَلِكَ إِذَا سَمِعَتْ صَرْخَةَ عُظْمَى آتِيَةً مِنْ نَاحِيَةِ الْحَدِيقَةِ فَخَرَجَتْ تَعْدُو
إِلَى

حَيْثُ سَمِعَتْ الصَّوْتَ حَتَّى بَلَغَتْ بَابَ الْمَنْزِلِ فَرَأَتْ أَرْمَانَ سَاقِطًا تَحْتَ عَتَبَتِهِ
مَغْشِيًّا

عَلَيْهِ فَرَفَعَتْ طَرْفَهَا إِلَى السَّمَاءِ وَقَالَتْ لِيَكُنْ مَا أَرَادَ اللَّهُ ثُمَّ أَلْقَتْ نَفْسَهَا عَلَيْهِ
وَلَثَمَتْ ثَغْرَهُ لَثْمَةً هِيَ أَوَّلُ لَثْمَةٍ ذَاقَتْ فِيهَا لَذَّةَ الْعَيْشِ فِي حَيَاتِهَا فَشَعَرَ بِهَا
أَرْمَانٌ فَاسْتَفَاقَ وَضَمَّهَا إِلَى صَدْرِهِ ضَمًّا لَوْ مَاتَ عَلَى أَثَرِهَا مَا بَكَى عَلَى
شَيْءٍ مِنْ

نَعِيمِ الدُّنْيَا وَهَنَائِهَا .

انْقَضَى الشِّتَاءُ فَانْقَضَى بِانْقِضَائِهِ شَقَاءُ مَرْغَرِيَّتٍ وَعَنَاؤُهَا فَقَدْ أَبْلَتْ مِنْ
مَرْضَاهَا

وَأَصْبَحَتْ سَعِيدَةً بِحُبِّهَا فَلَمْ يَبْقَ بَيْنَ يَدَيْهَا إِلَّا أَنْ تَبْلُغَ مِنْ تِلْكَ السَّعَادَةِ
نِهَايَتَهَا فَاقْتَرَحَتْ عَلَى أَرْمَانَ أَنْ يَتْرُكَ بَارِيسَ وَضَوْضَاءَهَا وَمُزْدَحِمَ الْحَيَاةِ
فِيهَا

إِلَى مَصِيفٍ يَخْتَارَانِهِ لِنَفْسِهِمَا فِي بَعْضِ الْأَمَاكِنِ الْخَالِيَةِ فَقَبْلَ مُقْتَرَحِهَا وَسَافِرًا
مَعًا يُفْتَشَانِ عَنْ الْمَكَانِ الَّذِي يُرِيدَانِ حَتَّى بَلَغَا قَرْيَةً وَهِيَ ضَاحِيَةٌ مِنْ ضَوَاحِي
بَارِيسَ عَلَى بُعْدِ سَاعَتَيْنِ مِنْهَا فَوَجَدَا فِي بَعْضِ أَرْبَاضِهَا مَنْزِلًا صَغِيرًا مُنْفَرِدًا
وَاقِعًا عَلَى رَأْسِ هَضْبَةٍ عَالِيَةٍ فِي سَفْحِ جَبَلٍ مُخْضَرٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِ بُحَيْرَةٌ
صَافِيَةٌ

بَدِيعَةٌ كَأَنَّهَا بَنَاهُ بَنَاهُ لَهُمَا فَاشْتَرِيَاهُ وَنَقَلَتْ مَرْغَرِيَّتُ إِلَى مِنْزِلِهَا فِي

بَارِيسَ بَعْضَ مَا يَحْتَاجَانِ إِلَيْهِ مِنْ أَثَاثٍ وَمَتَاعٍ ثُمَّ عَاشَا فِيهِ بَعْدَ ذَلِكَ عَيْشًا
نَاعِمًا

هَنِيئًا لَا تَضْطَرُّ فِي سَمَائِهِ غَيْمَةٌ وَلَا تَمُرُ بِصَفْحَتِهِ غَبْرَةٌ وَلَا يُكَدِّرُ عَلَيْهِمَا
مُكَدِّرٌ

مِنْ خَوَاطِرِ الشَّقَاءِ وَوَسَاوِسِهِ فَكَانَا يَقْضِيَانِ نَهَارَهُمَا صَاعِدَيْنِ إِلَى قِمَّةِ الْجَبَلِ
أَوْ

مُنْحَدَرَيْنِ إِلَى سَفْحِهِ أَوْ رَاكِبَيْنِ زَوْرَقًا صَغِيرًا يَسْبَحُ بِهِمَا عَلَى صَفْحَةِ الْبَحِيرَةِ
جِبَّةً وَذَهَابًا أَوْ جَالِسَيْنِ تَحْتَ شَجَرَةٍ فَرَعَاءٍ تُظِلُّهَا مِنْ لَفَحَاتِ الْهَجِيرِ
وَتَضُمُّهُمَا

إِلَيْهَا كَمَا تَضُمُّ ثَمَارَهَا أَوْ مُضْطَجِعَيْنِ عَلَى بَسَاطٍ مِنَ الْعُشْبِ الْمُمْتَدِّ فِي تَلْمَكِ
الْبَطْحَاءِ الْفَسِيحَةِ يَتَنَاجِيَانِ وَيَلْهُوَانِ بِمَنْظَرِ الْجَمَالِ الْمَائِلِ فِي الشَّاطِئِ
وَالْأَمْوَاجِ وَالْأَخَادِيدِ وَالْوُدْيَانِ وَالْغَابَاتِ وَالْحُجُرَاتِ وَالْكُهُوفِ وَالْأَغْوَارِ وَالْغُيُومِ
وَالسُّحُبِ وَالْأَضْوَاءِ فِي تَشَكُّلِهَا وَتَلَوْنِهَا وَالظُّلَالِ فِي نُحُولِهَا وَانْقِلَافِهَا وَفِي
رُءُوسِ

الْجِبَالِ اللَّاصِقَةِ بِجِلْدَةِ السَّمَاءِ كَأَنَّهَا بَعْضُ سَحْبِهَا وَفِي قِطْعِ الصُّخُورِ الْمُبْعَثَةِ
عَلَى جَوَانِبِ الْغَدْرَانِ كَأَنَّهَا بَعْضُ أَمْوَاجِهَا وَفِي تِلْكَ الْمَعْرَكَةِ الَّتِي تَدُورُ فِي كُلِّ
يَوْمٍ مَرَّتَيْنِ بَيْنَ ج - يَشِي الْأَنْوَارِ وَالظُّلُمَاتِ فَيَنْتَصِرُ فِي صَدْرِ النَّهَارِ فِي كُلِّ
يَوْمٍ

مَرَّتَيْنِ بَيْنَ جَيْشِي الْأَنْوَارِ وَالظُّلُمَاتِ فَيَنْتَصِرُ فِي صَدْرِ النَّهَارِ أَوَّلَهُمَا ثُمَّ يَدَالُ
فِي

آخِرِهِ لِثَانِيهِمَا حَتَّى إِذَا جَاءَ اللَّيْلُ عَادَا إِلَى مَنْزِلِهِمَا فَنَعِمَتَا فِيهِ بِالْوَانِ

النَّعِيمَ وَضُرُوبَهُ وَرَشَفًا مِنْ كُلِّ ثَغْرٍ مِنْ ثُغُورِ السَّعَادَةِ رَشْفَةً تَسْرِي حَلَاوَتَهَا فِي قَلْبِهِمَا حَتَّى تُصِيبَ صَمِيمَهُ مُرٌّ بِهِمَا عَلَ ذَلِكَ عَامٌ كَامِلٌ هُوَ كُلُّ مَا اسْتَطَاعَا أَنْ يَخْتَلِسَاهُ مِنْ يَدِ الدَّهْرِ فِي غَفْلَتِهِ ثُمَّ انْتَبَهَ لَهُمَا بَعْدَ ذَلِكَ وَوَيْلٌ لِلسُّعْدَاءِ مِنْ انْتِبَاهِهِ بَعْدَ إِغْفَائِهِ فَقَدْ نَضَبَ أَوْ أَوْشَكَ أَنْ يَنْصَبَ مَا كَانَ فِي يَدِ أَرْمَانَ مِنَ الْمَالِ

وَكَانَ فِي يَدِهِ الْكَثِيرُ مِنْهُ فَكُتِبَ إِلَى أَبِيهِ يَطْلُبُ إِلَيْهِ أَنْ يَبْعَثَ إِلَيْهِ بِمَا يَسْتَعِينُ عَلَى الْبَقَاءِ فِي بَارِيسَ مُدَّةَ أُخْرَى زَاعِمًا أَنَّهُ لَا يَزَالُ مَرِيضًا مُتَأَلِّمًا لَا يَسْتَطِيعُ السَّفَرَ وَكَذَلِكَ كَانَ يَفْعَلُ مِنْ حِينٍ إِلَى حِينٍ فَلَمَّ يَأْتِهِ الرَّدُّ فَأَقْلَقَهُ ذَلِكَ قَلَقًا شَدِيدًا وَظَلَّ يَخْتَلِفُ إِلَى الْمَدِينَةِ فِي كُلِّ يَوْمٍ يَسْأَلُ فِي فُنْدُقٍ تَوْرِينَ الَّذِي كَانَ يَنْزِلُ بِهِ قَبْلَ اتِّصَالِهِ بِمَرْغَرِيَتٍ عَنِ الْكِتَابِ الَّذِي يَنْتَظِرُهُ فَلَا يَجِدُهُ فَيَعُودُ حَرِينًا مُنْقَبِضًا حَتَّى إِذَا وَصَلَ إِلَى بوجيفالَ وَرَأَى مَرْغَرِيَتَ بَيْنَ يَدَيْهِ تُطْلِقُ وَتَبْسِمُ

كَأَنَّهُ لَا يُضْمِرُ فِي نَفْسِهِ هُمَا قَاتِلًا وَلَكِنْ عَيْنَ مَرْغَرِيَتٍ أَقْدَرُ مِنْ أَنْ يُعْجِزَهَا النَّفَازَ إِلَى أَعْمَاقِ قَلْبِهِ فَانْتَهَكَتْ سِرَّهُ فَكَاشَفَتْهُ بِهِ وَقَالَتْ لَا يُحْزِنُكَ شَأْنُ الْمَالِ يَا أَرْمَانَ فَإِنَّ عِنْدِي مِنْهُ مَا يَكْفِينَا الْعَيْشَ مَعَ سِنِينَ طَوَالًا وَلَمْ تَكُنْ صَادِقَةً فِيمَا تَقُولُ لِأَنَّ الدُّوقَ قَاطِعَهَا وَمَنَعَ عَنْهَا رَفْدَهُ مُنْذُ عُرِفَ قِصَّتُهَا فِيمَا تَقُولُ لِأَنَّ الدُّوقَ قَاطِعَهَا وَمَنَعَ عَنْهَا رَفْدَهُ مُنْذُ وَعِلِمَ أَنَّهَا خَانَتْهُ وَخَانَتْ بَعْدَهُ بَلْ كَانَتْ مَدَنِيَّةً بِمَالٍ كَثِيرٍ لِبَعْضِ تَجَّارِ الْجَوَاهِرِ وَالْثِيَابِ بَلْ أَصْبَحَ دَائِنُوهَا يَتَقَاضَوْنَهَا دُيُونَهُمْ بَعْدَ مَا عَلِمُوا أَنَّ الدُّوقَ قَاطِعَهَا وَنَفَضَ يَدَهُ مِنْهَا وَلَكِنَّهَا خَاطَرَتْ بِكَلِمَتِهَا مُخَاطَرَةً لَمْ تُفَكِّرْ فِي عَاقِبَتِهَا فَأَكْبَرَ أَرْمَانَ ذَلِكَ وَأَعْظَمَهُ وَأَنْفَ مِنْهُ أَنْفَةً شَدِيدَةً وَأَبَى أَنْ يَعِيشَ مَعَهَا بِمَالٍ غَيْرِ مَالِهِ وَعَزَمَ أَنْ يُسَافِرَ إِلَى نِيسٍ لِيَأْتِيَ مِنْهَا

بِالْمَالِ الَّذِي يُرِيدُهُ فَأَزْعَجَهَا عَزْمُهُ هَذَا إِزْعَاجًا شَدِيدًا وَخَافَتْ عَاقِبَتَهُ فَجَنَّتْ بَيْنَ يَدَيْهِ تَسْتَغْفِرُهُ وَتَسْتَرْحِمُهُ وَتَبْذُلُ فِي ضَرَاعَتِهَا وَرَجَائِهَا فِي سَبِيلِ بَقَائِهِ أَكْثَرَ مِمَّا

بَذَلَتْ قَبْلَ الْيَوْمِ فِي سَبِيلِ رَحِيلِهِ حَتَّى أَذْعَنَ وَاسْتَقَادَ وَرَضِيَ بِالَّتِي لَمْ يَكُنْ يَرْضَى

بِمِثْلِهَا لَوْلَا لَهْفَةُ الْحُبِّ وَضَرَاةُ الدُّمُوعِ وَقَدْ أَضْمَرَ فِي نَفْسِهِ أَنْ يَتَنَازَلَ لَهَا عَنْ نَصِيبِهِ فِي الْمِيرَاثِ الَّذِي وَرِثَهُ مِنْ أُمِّهِ مُكَافَأَةً لَهَا وَوَفَاءً بِحَقِّهَا فَلَمْ يَكُنْ لِمَرْغَرِيْتِ بَعْدَ ذَلِكَ بُدٌّ مِنْ أَنْ تَمُدَّ يَدَهَا إِلَى جَوَاهِرِهَا وَذَخَائِرِهَا فَأَنْشَأَتْ تَبِيعَ الْقِطْعَةِ بَعْدَ الْقِطْعَةِ لَتَسُدَّ بَعْضَ دَيْنِهَا وَتَقُومَ بِنَفَقَةِ بَيْتِهَا مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُ أَرْمَانُ وَاسْتِمْرَارَ عَلَى ذَلِكَ بَضْعَةِ أَشْهُرٍ حَتَّى دَخَلَ عَلَيْهِمَا فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ فِي

سَاعَاتِ أَنْسَهُمَا وَصَفَائِهِمَا خَادِمٍ فُنْدُقٍ تَوْرِينَ الَّذِي كَانَ يَنْزِلُ بِهِ أَرْكَانُ فِي بَارِيسَ

وَقَالَ لَهُ إِنَّ وَالِدَهُ قَدْ وَصَلَ السَّاعَةَ إِلَى الْفُنْدُقِ وَإِنَّهُ يَنْتَظِرُهُ هُنَاكَ قَالَ دُوْفَالُ لَوْلَدِهِ لَقَدْ كَذَبْتَ عَلَيَّ كَثِيرًا يَا أَرْمَانُ وَكَأَنْتَ قَبْلَ الْيَوْمِ كَذَّابًا وَلَا خَادِعًا وَرَضِيَتْ لِنَفْسِكَ بِحَيَاةِ كُنْتُ أَضُنُّ النَّاسَ بِنَفْسِكَ عَلَى مِثْلِهَا مِنْ قَبْلُ وَمَزَقَتْ بِيَدِكَ ذَلِكَ

الْقِنَاعَ الْجَمِيلَ مِنَ الْحَيَاءِ الَّذِي لَا يَزَالُ مُسْبِلًا عَلَى وَجْهِكَ وَأَصْبَحَتْ تَبْذُلُ فِي الْعَيْشِ مَعَ امْرَأَةٍ عَاهِرَةٍ كُلَّ مَا لَهَا مِنَ الشَّأْنِ عِنْدَ نَفْسِهَا .

وَعِنْدَ النَّاسِ جَمِيعًا أَنَّهَا نُفَايَةُ الرِّجَالِ وَفَضْلَةٌ مِنْ فَضْلَاتِ الْفُسَّاقِ وَفُتَاتِ الْمَائِدَةِ الْعَامَّةِ الَّتِي يَجْلِسُ عَلَيْهَا النَّاسُ جَمِيعًا صَبَاحَهُمْ وَمَسَاءَهُمْ فَحَسْبُكَ هَذَا

وَقُمْ السَّاعَةَ لَتُعَدَّ نَفْسُكَ لِلسَّفَرِ مَعِيَ إِلَى نَيْسٍ فَلَسْتُ بِتَارِكِكَ بَعْدَ الْيَوْمِ فِي هَذَا
الْبَلَدِ سَاعَةً وَاحِدَةً .

فَرَفَعَ أَرْمَانَ رَأْسَهُ إِلَى أَبِيهِ وَقَالَ لَهُ بِصَوْتٍ هَادِئٍ مُطْمَئِنٍّ .
فَنَظَرَ إِلَيْهِ أَبُوهُ نَظْرَةً شِزْرَاءَ وَقَالَ لَهُ وَتِلْكَ سَيِّئَةٌ أُخْرَى فَقَدْ أَصْبَحْتَ لَا تَعْبَأُ بِي
وَلَا تُبَالِي بِمُخَالَفَةِ أَمْرِي مِنْ أَجْلِ امْرَأَةٍ سَاقِطَةٍ لَا شَأْنَ لَهَا مَعَكَ إِلَّا أَنْ تَعْبَثَ
بِعَقْلِكَ وَتَسْلُبَكَ مَالِكَ وَشَرْفَكَ وَتَفْسِدَ عَلَيْكَ حَاضِرَكَ وَمُسْتَقْبَلَكَ .
قَالَ لَا يَا أَبَتَاهُ إِنَّهَا لَيْسَتْ بِعَابِثَةٍ وَلَا خَادِعَةٍ وَلَكِنَّهَا تُحِبُّنِي حُبًّا لَمْ يُحِبَّهُ
أَحَدٌ مِنْ قَبْلِهَا أَحَدًا وَأَحْسَبُ أَنِّي أَنْ فَارَقْتُهَا قَتَلْتُهَا وَجَنَيْتُ عَلَيْهَا جُنَايَةَ لَا
يُفَارِقُنِي النَّدَمُ عَلَيْهَا حَتَّى الْمَوْتِ .

قَالَ ذَلِكَ مَا يَخْدَعُ بِهِ أَمْثَالُهَا أَمْثَالُكَ فَلَيْسَ لِلنِّسَاءِ الْعَاهِرَاتِ قُلُوبٌ يُحِبُّنَ بِهَا
بَلْ لَهُنَّ أَلْسُنٌ يَخْتَلْنَ بِهَا الرِّجَالُ وَيَسْلُبْنَهَا حَجَبًا بَيْنَ بَعْضِهِمْ وَبَعْضٍ حَتَّى يَظُنُّ
كُلُّ

وَاحِدٌ مِنْهُمْ أَنَّهُ الْأَثِيرُ عِنْدَهَا وَصَاحِبُ الْخُطْوَةِ لَدَيْهَا مِنْ دُونِ أَصْحَابِهِ جَمِيعًا .
قَالَ رَبَّمَا كَانَ ذَلِكَ شَأْنَهَا قَبْلَ الْيَوْمِ أَمَّا الْيَوْمُ فَهِيَ لَا تُحِبُّ أَحَدًا غَيْرِي بَلْ لَا
تَعْرِفُ أَحَدًا سِوَايَ فَهِيَ تَعِيشُ عَيْشَةً تُشَبِّهُ عَيْشَةَ النِّسَاءِ الشَّرِيفَاتِ بَلْ أَشْرَفَ
مِنْ عَيْشَةٍ

الكَثِيرَاتِ مِنْهُنَّ لِأَنَّ الْخَلِيلَةَ الَّتِي تَخْلُصُ لَخَلِيلِهَا أَشْرَفَ مِنَ الزَّوْجَةِ الَّتِي تَخُونُ
زَوْجَهَا وَأَخْشَى إِنْ فَارَقْتُهَا أَنْ تَتَوَّرَّ فِي نَفْسِهَا ثَوْرَةٌ مِنْ ثَوَرَاتِ الْيَأْسِ فَتَرُدَّهَا
إِلَى

تِلْكَ الْحَيَاةَ الْأُولَى حَيَاةَ الشَّرِّ وَالْفَسَادِ وَالشَّقَاءِ .

وَالْعَذَابَ بَعْدَ مَا اسْتَنْقَذَتْ نَفْسَهَا .

قَالَ وَهَلْ تَرَى أَنَّ وَظِيفَةَ الرَّجُلِ الشَّرِيفِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ إِصْلَاحُ النِّسَاءِ
الْفَاسِدَاتِ
؟

قَالَ ذَلِكَ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ تَكُونَ وَظِيفَتُهُ إِفْسَادُهُنَّ فَإِنَّ الْأَشْرَافَ فِي هَذَا الْعَصْرِ
يَفْخَرُونَ بِإِفْسَادِ النِّسَاءِ الصَّالِحَاتِ وَاسْتِذْرَاجِهِنَّ إِلَى مُوَاطِنِ الْفُسْقِ وَالْفُجُورِ
وَإِصْلَاحِ الْمَرْأَةِ الْفَاسِدَةِ أَدْنَى إِلَى الشَّرَفِ مِنْ إِفْسَادِ الْمَرْأَةِ الصَّالِحَةِ .
قَالَ لَقَدْ أَصْبَحَتْ كَثِيرُ الرَّحْمَةِ يَا أَرْمَانَ .

قَالَ لِمَ لَا أَرْحَمُ فَتَاةَ مَرِيضَةٍ مَسْكِينَةٍ لَيْسَ لَهَا فِي النَّاسِ مَنْ يَعُولُهَا مِنْ ذِي
قُرَابَةٍ أَوْ ذِي رَحِمٍ وَقَدْ نَزَلَ دَاوُهَا مِنْ صَدْرِهَا مَنْزِلَةٌ لَا يَبْرَحُهَا وَلَا يَتَحَلَّلُ عَنْهَا
إِلَّا أَنْ يَهْدَأَ عَنْهَا حِينًا وَيَسْتَيْقِظَ أَحْيَانًا فَهِيَ تُكَابِدُ أَلَمَ مَرَّةٍ وَالْخَوْفَ مِنْ
الْأَلَمِ أُخْرَى وَلَا عَزَاءَ لَهَا فِي حَالَتَيْهَا إِلَّا هَذِهِ السَّعَادَةُ الَّتِي تَتَوَهَّمُهَا فِي
الْحُبِّ وَتَرَى أَنَّهَا نَاعِمَةٌ بِهَا فَإِنْ فَقَدَتْهَا فَقَدَتْ كُلَّ شَيْءٍ فِي الْحَيَاةِ وَعَظُمَ حُزْنُهَا
وَبُؤْسُهَا وَثَقُلَتْ وَطَأَةُ الدَّاءِ عَلَيْهَا حَتَّى كَادَتْ تَأْتِي عَلَى الْبَقِيَّةِ الْبَاقِيَةِ مِنْ
حَيَاتِهَا فَدَعَنِي مَعَهَا يَا أَبْتَاهُ عَامًا آخَرَ أَوْ عَامَيْنِ أَهْوَنَ عَلَيْهَا فِيهِمَا شَقَاءُهَا
فَرُبَّمَا كَانَ ذَلِكَ آخِرَ مَا قَدَّرَ لَهَا أَنْ تَقْضِيَهُ مِنْ أَيَّامِهَا فِي هَذَا الْعَالَمِ ثُمَّ أَعُودَ
بَعْدَ ذَلِكَ إِلَيْكَ هَادِي الْقَلْبِ سَاكِنِ الضَّمِيرِ رَاضِيًا عَنْ نَفْسِي وَعَنْ عَمَلِي أَبْكِيهَا
بِدُمُوعِ الْحُزْنِ لَا بِدُمُوعِ النَّدَمِ وَيُهَوِّنُ وَجْدِي عَلَيْهَا كُلَّمَا ذَكَرْتُهَا أَنَّنِي لَمْ أَخُنْهَا
وَلَمْ أَغْدِرْ بَعْدَهَا .

فَاطَرُقُ دُوفَالٍ هُنِيئَةً كَأَنَّمَا يُعَالِجُ فِي نَفْسِهِ هُمًا مَعْتَلِجًا ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَنَظَرَ إِلَى
وَلَدِهِ نَظْرَةً تُشَبِّهُ نَظْرَةَ الْعَطْفِ وَالرَّحْمَةِ وَقَالَ .

لَهُ لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَسَافِرَ بِدُونِكَ يَا بَنِي فَحَسْبِي مَا كَابَدْتُ مِنْ أَلَمٍ لِفِرَاقِكَ قَبْلَ

الْيَوْمَ وَقَدْ تَرَكْتَ أُخْتَكَ وَرَأَيْتَنِي تَتَذُبُّكَ وَتَبْكِي عَلَيَّ صَبَاحَهَا وَمَسَاءَهَا وَتَحِنُّ إِلَيَّ
لِقَائِكَ حَنِينَ الظَّامِئِ إِلَى الْوُرُودِ وَاعْلَمْ أَنَّ جَمِيعَ مَا تَعْتَذِرُ بِهِ عَنْ نَفْسِكَ فِي هَذَا
الشَّانِ لَا يُغْنِي عَنْكَ وَلَا عَنِّي شَيْئًا يَوْمَ يَقُولُ النَّاسُ كَلِمَتَهُمُ الَّتِي لَا بُدَّ أَنْ
يَقُولَهَا غَدًا تَالِيرَانْدُ يَعِيشُ كَثِيرٌ مِنْهُمْ قَبْلَ الْيَوْمِ إِنَّ أَرْمَانَ دُوْفَالَ سُلَّالَةَ آلِ
تَالِيرَانْدِ يَعِيشُ مَعَ امْرَأَةٍ مُومِسَ فِي بَيْتٍ وَاحِدٍ فَعَدَّ إِلَيَّ نَفْسَكَ يَا بَنِي وَاسْتَلَّهَمَ
اللَّهُ الرُّشْدَ يُلْهِمُكَ وَلَا تَجْعَلْ لِهَوَاكَ سَبِيلًا عَلَى عَقْلِكَ وَدَعْ هَذِهِ الْحَيَاةَ السَّاقِطَةَ
الَّتِي يَحْيَاهَا مَنْ لَيْسَتْ لَهُ هِمَّةٌ مِثْلَ هِمَّتِكَ وَلَا مُجْدٍ وَلَا بَيْتٍ مِثْلَ مَجْدِكَ وَبَيْتِكَ
وَإِنِّي تَارَكَكَ الْآنَ وَحَدَّكَ وَذَاهَبَ عَنْكَ لِبَعْضِ شَأْنِي لِتَخْلُوَ بِنَفْسِكَ سَاعَةً تَسْتَرِدُّ
فِيهَا

مَا عَرَّبَ عَنْكَ مِنْ صَوَابِكَ ثُمَّ أَعُوذُ إِلَيْكَ بَعْدَ قَلِيلٍ لِأَسْمَعَ مِنْكَ الْكَلِمَةَ الَّتِي
أَرْجُو

أَنْ تَكُونَ شِفَاءَ نَفْسِي وَرَوَاءَ غَلَّتِي .

ثُمَّ تَرَكَّهُ وَنَزَلَ فَمَشَى إِلَى قَهْوَةٍ قَرِيبَةٍ مِنَ الْفُنْدُقِ فَكَتَبَ فِيهَا لِبَعْضِ النَّاسِ كِتَابًا
خَاصًّا ثُمَّ طَافَ بِبَعْضِ أَصْدِقَائِهِ الَّذِينَ يَعْرِفُهُمْ فِي بَارِيسَ فزارَهُمْ زِيَارَةً طَوِيلَةً
فَلَمْ

يَعُدَّ إِلَى الْفُنْدُقِ حَتَّى أَظْلَّ اللَّيْلَ فَرَأَى أَرْمَانَ لَا يَزَالُ فِي مَكَانِهِ فَسَأَلَهُ مَاذَا
رَأَى فَلَمْ يُجِبْهُ إِلَّا بِدُمُوعِهِ تَنَحَّدِرُ عَلَى خَدَّيْهِ تَحْدِرُ الْقَطْرُ عَلَى أَوْرَاقِ الزَّهْرِ
وَجَنَّا

بَيْنَ يَدَيْهِ يَسْتَعْظِفُهُ وَيَسْتَرْحِمُهُ وَيَكْشِفُ لَهُ مِنْ خَبِيئَةِ نَفْسِهِ مَا كَانَ يَكْتُمُهُ مِنْ قَبْلُ
يَقُولُ وَاللَّهِ يَا أَبْتَ لَوْ عَلِمْتُ أَنِّي أَسْتَطِيعُ الْحَيَاةَ بِدُونِهَا لَفَارَقْتُهَا بَرًّا بِكَ
وَإِنِّارًا لِمَطَاعَتِكَ وَلَكِنِّي أَعْلَمُ أَنِّي إِنْ فَعَلْتُ فَقَدْ وَضَعْتُ أَمْرِي فِي مَوْضِعِ الْغُرْرِ

وَخَاطَرْتُ بِعَقْلِي أَوْ بِحَيَاتِي مُخَاطَرَةً لَا أَعْلَمُ مَاذَا يَكُونُ خَطِي فِيهَا وَلَا أَحْسِبُهُ
إِلَّا

أَسْوَأَ الْحَظِّينَ وَأَنْحَسَ النَّجْمَيْنِ وَلَوْ أَنَّ أَحَدًا مِنْ قَبْلِي اسْتَطَاعَ أَنْ يَدْفَعَ هَوَاهُ عَنْ
قَلْبِهِ أَوْ يَمْحُو مَا قُدِّرَ لَهُ فِي صَحِيفَةِ قَضَائِهِ مِنْ شَقَاءِ الْحُبِّ وَبَلَاءِهِ لَسَلَكْتُ سَبِيلَهُ
الَّتِي سَلَكَهَا وَلَكِنَّهُ بَلَاءٌ بَلِيَّتْ بِهِ الْحَيْنُ أُرِيدُ لِي فَلَا رَأْيَ لِي فِي رَدِّهِ وَلَا حِيلَةَ
لِي فِي اتِّقَائِهِ وَقَدْ نَزَلَتْ هَذِهِ الْفَتَاةُ مِنْ نَفْسِي مَنْزِلَةً هِيَ الْحَيَاةُ مِنَ الْجِسْمِ
وَالْغَيْثُ مِنَ التُّرْبَةِ الْقَاحِلَةُ فَإِنْ كُنْتُ لَابُدَّ أَخْذِي فَخُذْ مَعَكَ جِسْمًا هَامِدًا لَا حَرَكَ
بِهِ وَنَبْتَةً ذَاوِيَةً لَا حَيَاةَ فِيهَا فَوَضَعَ أَبُوهُ يَدَهُ عَلَى عَاتِقِهِ وَقَالَ لَهُ الْآنَ يَا
بَنِي وَادْهَبْ لِشَأْنِكَ وَعُدْ إِلَى صَبَاحِ الْغَدِ لِأَتَمِّمَ حَدِيثِي مَعَكَ وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ فِي
غَدِكَ

خَيْرًا مِنْكَ فِي أَمْسِكَ فَخَرَجَ مَحْزُونًا مَكْتَنِبًا يَمْشِي مِشْيَةَ الذَّاهِلِ الْمَشْدُوهِ لَا يُرَى
مَا أَمَامَهُ وَلَا يَشْغُرُ بِمَا حَوْلَهُ حَتَّى رَأَى عَرَبَةً فَرَكِبَهَا إِلَى بُوْجِيْفَالٍ حَتَّى بَلَغَهَا
بَعْدَ هَذَاهُ مِنَ اللَّيْلِ فَلَمْ يَرَ مَرْغَرِيْتَ فِي شُرْفَةِ الْبَيْتِ تَنْتَظِرُهُ كَعَادَتِهَا فَدَخَلَ
عَلَيْهَا غُرْفَتَهَا فَرَأَاهَا مَكْبَةً عَلَى مِنْضَدَةٍ بَيْنَ يَدَيْهَا كَأَنَّمَا هِيَ نَائِمَةٌ أَوْ ذَاهِلَةٌ
فَشَعَرَتْ بِهِ عِنْدَ دُخُولِهِ فَهَضَّتْ مَذْعُورَةً مُتَلَهِّفَةً فَخِيلَ إِلَيْهِ عِنْدَ نُهُوضِهَا أَنَّهُ
لَمَحَ فِي

يَدِهَا رِسَالَةً تَضُمُّ عَلَيْهَا أَصَابِعَهَا فَظَنَّهَا بَعْضُ تِلْكَ الرِّسَائِلِ الَّتِي كَانَ يُرْسِلُهَا
إِلَيْهَا الْمُرْكِيزُ جَانَ فِيلِيبَ مِنْ حَيْنٍ إِلَى حَيْنٍ وَهُوَ فَتَى مِنْ أَبْنَاءِ الْأَشْرَافِ
الْأَثَرِيَاءِ كَانَ يُحِبُّهَا فِي عَهْدِهَا الْأَوَّلِ حُبًّا شَدِيدًا وَيُنْفِقُ عَلَيْهَا أَمْوَالًا طَائِلَةً
فَلَمَّا انْقَطَعَتْ عَنْهُ لَمْ يَنْقَطِعْ مِنْهَا أَمَلُهُ فَظَلَّ يُرْسِلُ إِلَيْهَا رِسَائِلَ كَثِيرَةً يَعْرِضُ
فِيهَا حُبَّهُ وَمَالَهُ وَيُؤْمِنُهَا الْأَمَانِي الْحَسَانَ فِي عَوْدَتِهَا إِلَيْهِ وَاتِّصَالَ حَيَاتِهَا

بِحَيَاتِهِ فَكَانَتْ تُمَزِّقُهَا عِنْدَ إِطْلَاعِهَا عَلَيْهَا أَوْ عَلَى عُثْوَانِهَا فَلَمْ يَحْفُلْ أَرْمَانَ
 بِذَلِكَ وَمَشَى إِلَيْهَا فَقَبِلَهَا فَقَالَتْ لَهُ مَاذَا جَرَى يَا أَرْمَانَ قَالَ أَرَادَنِي أَبِي عَلَى
 السَّفَرِ مَعَهُ فَأَبَيْتُ وَبَكَيْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ كَثِيرًا فَلَمْ أُنَلْ مِنْهُ مَنَالًا وَقَدْ أَمَرَنِي
 بِالْعُودَةِ إِلَيْهِ غَدًا وَلَا أُرِيدُ أَنْ أَفْعَلَ لِأَنِّي لَا أُحِبُّ حَظِّي مِنْهُ فِي الْغَدِ خَيْرًا
 مِنْهُ الْيَوْمَ وَقَدْ أَصْبَحْتُ نَفْسِي تُحَدِّثُنِي بِعِصْيَانِهِ وَالْبَقَاءِ هُنَا عَلَى الرَّغْمِ مِنْهُ لِأَنِّي
 أَعْلَمُ أَنِّي قَدْ تَجَاوَزْتُ السَّنَّ الَّتِي تَحْتَاجُ فِيهَا الْأَبْنَاءَ إِلَى إِرْشَادِ الْأَبَاءِ وَلِأَنِّي
 لَا أَعْرِفُ أَحَدًا بَيْنَ النَّاسِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَرْسُمَ لِي خُطَّةَ سَعَادَتِي كَمَا أُرْسُمُهَا
 لِنَفْسِي

ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُصُّ عَلَيْهَا قِصَّتَهُ مَعَ أَبِيهِ حَتَّى أَتَمَّهَا وَنَظَرَ إِلَيْهَا فَإِذَا هِيَ مِطْرَقَةٌ
 صَامِتَةٌ وَإِذَا وَجْهَهَا أَصْفَرُ مَرَبِدٍ كَأَنَّمَا قَدْ نَفَضَ الْمَوْتُ عَلَيْهِ غُبَارَهُ فَقَالَ مَا بِكَ
 يَا مَرْغَرِيتَ .

قَالَتْ أَشْعَرُ بِالْأَلَمِ شَدِيدٍ فِي رَأْسِي وَأُرِيدُ الذَّهَابَ إِلَى مَخْدَعِي فَأَخْذُ بِيَدِهَا إِلَيْهِ
 وَجَدَعَهَا بِضَعِّ قَطْرَاتٍ مِنَ الدَّوَاءِ فَاسْتَفَاقَتْ قَلِيلًا ثُمَّ نَامَتْ فَغَيَّ مَخْدَعُهَا نَوْمًا
 مُشَرَّدًا مَذْغُورًا .

لَمْ يَزَلْ أَرْمَانَ سَائِرًا فِي سَبِيلِهِ حَتَّى وَصَلَ إِلَى بَارِيسَ فَذَهَبَ إِلَى فُنْدُقِ تَوْرِينِ
 فَلَمْ

يُجِدْ أَبَاهُ هُنَاكَ وَوَجَدَ رِسَالَةً تَرْكُهَا لَهُ قَبْلَ ذَهَابِهِ يَأْمُرُهُ فِيهَا أَنْ يَنْتَظِرَهُ حَتَّى
 يَعُودَ فَلَبِثَ يَنْتَظِرُهُ حَتَّى يَعُودَ فَلَبِثَ طَوِيلًا حَتَّى عَادَ بَعْدَ مُنْتَصَفِ النَّهَارِ وَقَدْ
 رَقَّتْ

قَلِيلًا تِلْكَ الْعِمَامَةُ السَّوْدَاءُ الَّتِي كَانَتْ تُلْبَسُ وَجْهَهُ بِالْأَمْسِ فَتَقْدِّمُ نَحْوَهُ أَرْمَانَ
 فَحَيَّاهُ فَقَالَ لَهُ لَقَدْ فَكَّرْتُ لَيْلَةً أَمْسَ فِي أَمْرِكَ كَثِيرًا يَا بَنِي فَرَأَيْتَ أَنِّي قَدْ قَسَوْتُ

عَلَيْكَ وَغَلَوْتُ فِي أَمْرِكَ غُلُوءًا كَبِيرًا وَنَظَرْتُ إِلَى مَسْأَلَتِكَ بَعَيْنٌ أَقْصَرَ مِنَ الَّتِي
كَانَ

يَجِبُ عَلَيَّ أَنْ أَنْظُرَ إِلَيْهَا فَإِنَّ لِلشَّبَابِ شَأْنًا غَيْرَ شَأْنِ الْكُهُولَةِ وَالشَّيْخُوخَةِ وَحَالًا
خَاصَّةً بِهِ لَا يُخْرِجُ عَنْ حُكْمِهَا شَرِيفٌ وَلَا وَضِيعٌ وَلَا يَخْتَلِفُ فِيهَا سُوقَةٌ عَنْ
مَلِكٍ أَنْ

تُبْقِي يَا بَنِي كَمَا تَشَاءُ وَأَنْ تُعَاشِرَ الْفَتَاةَ الَّتِي تُحِبُّهَا كَمَا تُرِيدُ عَلَى أَنْ تَعِدَنِي
بِالْعَوْدَةِ إِلَى فِي الْيَوْمِ الَّذِي تَنْقَطِعُ فِيهِ الصَّلَاةُ بَيْنَكَ وَبَيْنَهَا انْقِطَاعَ حَيَاةٍ أَوْ
مَوْتٍ فَإِنِّي إِنْ مَنَيْتُ عَلَيْكَ شَرًّا فَلَا أَمِنْ عَلَيْكَ شَرٌّ غَيْرَهَا مِنْ النِّسَاءِ فَاسْتَطِيرَ
أَرْمَانُ فَرَحًا وَسُرُورًا وَأَهْوَى عَلَى يَدِ أَبِيهِ يُقَلِّبُهَا وَيُبَلِّلُهَا بِدُمُوعِهِ وَيَقُولُ أَعْدَكَ
بِذَلِكَ يَا أَبْتَاهُ وَعَدَا لَا أَخَالَفُهُ وَلَا أَخِيسُ بِهِ وَلَكِ حُكْمُكَ مَا تَشَاءُ إِنْ رَأَيْتَنِي
بَعْدَ الْيَوْمِ كَاذِبًا أَوْ خَائِنًا .

ثُمَّ نَهَضَ يُرِيدُ الذَّهَابَ فَقَالَ لَهُ أَيْنَ تُرِيدُ قَالَ أُرِيدُ الذَّهَابَ إِلَى مَرْغَرِيثَ
لِلْبُشْرَى

بِهَذَا النَّبَأِ وَأَمْسَحَ عَنْ فُؤَادِهَا مَا أَلَمَ بِهِ مِنَ الرَّوْعِ مُنْذُ الْأَمْسِ فَانْتَفَضَ أَبُوهُ
انْتِفَاضَةً خَفِيفَةً لَمْ يَشْعُرْ بِهَا أَرْمَانٌ ثُمَّ آدَارَ وَجْهَهُ لِيُغَالِبَ دَمْعَةً كَانَتْ تَتَرَقَّرُ
فِي عَيْنَيْهِ ثُمَّ انْتَفَتَحَ إِلَيْهِ وَقَالَ ابْقِي مَعِيَ الْيَوْمَ يَا بَنِي فَرُبَّمَا سَافَرْتَ غَدًا وَلَا
أَعْلَمُ بَعْدَ ذَلِكَ مَتَى أَرَاكَ فَبَقِيَ مَعَهُ الْيَوْمَ كُلَّهُ حَتَّى جَاءَ اللَّيْلُ فَاسْتَأْذَنَهُ فِي
الذَّهَابِ عَنْ عَيْنَيْهِ فَانْحَدَرَتْ مِنْ جَفْنِهِ تِلْكَ الدَّمْعَةُ نَظَرَهُ حَتَّى غَابَ عَنْ عَيْنَيْهِ
فَانْحَدَرَتْ مِنْ جَفْنِهِ تِلْكَ الدَّمْعَةُ الَّتِي كَانَ يَحْبِسُهَا مِنْ قَبْلُ وَقَالَ وَارْحَمَتَاهُ لَكَ
أَيُّهَا الْوَالِدُ الْمِسْكِينُ !

حَمَلَ أَرْمَانٌ بَيْنَ جَنْبَيْهِ أَمَالَهُ وَأَمَالَ مَرْغَرِيثَ وَسَعَادَتَهُمَا الَّتِي يَرْجُوَانِهَا فِي

مُسْتَقْبَل حَيَاتِهِمَا وَطَارَ بِهَا إِلَيْهَا لِيُقَاسِمَهَا إِيَّاهَا حَتَّى دَنَا مِنْ بوجيفال فَأَذْهَشَهُ
أَنْ أَرَى الْبَيْتَ مُظْلِمًا سَاكِنًا لَا يَضْطَرِبُ فِيهِ شُعَاعٌ وَلَا يَتَرَاءَى فِيهِ ظِلٌّ فَمَشَى
إِلَى

الْبَابَ فَرَأَاهُ مُرْتَجًّا فَوَضَعَ أُذُنَهُ عَلَى خِصَاصٍ فَلَمْ يَسْمَعْ حَرَكَةً فَأَخَذَ يَقْرَعُهُ
قِرْعًا

شَدِيدًا وَيَهْتِفُ بِاسْمِ مَرْغَرِيْتِ مَرَّةً وَاسْمِ بَرُودَنْسِ أُخْرَى فَلَمْ يَجِبْهُ أَحَدٌ فَقَالَ فِي
نَفْسِهِ

لَعَلَّهَا ذَهَبَتْ إِلَى بَيْتِهَا فِي بَارِيسَ لِبَعْضِ شَأْنِهَا وَاسْتَصْحَبَتْ خَادِمَتَهَا وَلَا بُدَّ أَنْ
تَعُودَ الْآنَ فَجَلَسَ عَلَى صَخْرَةٍ أَمَامَ بَابِ الْمَنْزِلِ يَنْتَظِرُهَا حَتَّى مَضَتْ هَذَاهُ مِنَ
الَّيْلِ

فَلَمْ تَعُدْ فَحَدَّثَتْهُ نَفْسُهُ بِالْعُودَةِ إِلَى بَارِيسَ لِلْبَحْثِ عَنْهَا فِي مَكَانٍ وَجُودَهَا ثُمَّ
مَنَعَهُ مِنْ ذَلِكَ خَوْفُهُ أَنْ يَسْلُكَ فِي ذَهَابِهِ طَرِيقًا غَيْرَ الطَّرِيقِ الَّتِي تَسْلُكُهَا فِي
عُودَتِهَا فَاسْتَمَرَّ فِي مَكَانِهِ يَقْعُدُ مَرَّةً وَيَقُومُ أُخْرَى وَيَقِفُ حِينًا وَيَتَمَشَّى أحيانًا
وَيُحَدِّثُ نَفْسَهُ بِكُلِّ حَدِيثٍ يَمُرُّ بِخَاطِرِ الْقَلْقِ الْمُرْتَاعِ إِلَّا حَدِيثَ خِيَانَتِهَا وَغَدْرَهَا
وَلَمْ يَزَلْ فِي حَيْرَتِهِ وَاضْطِرَابِهِ حَتَّى رَأَى جَذْوَةَ الْفَجْرِ تَدْبُ فِي فَحْمَةِ الظَّلَامِ
فَسَاءَ

ظَنَّهُ وَانْتَشَرَتْ عَلَيْهِ وَسَاوِسُهُ وَأَوْهَامُهُ وَقَالَ فِي نَفْسِهِ مَا لِمَرْغَرِيْتِ بُدٌّ مِنْ شَأْنٍ
وَلَا

بُدٌّ لِي مِنَ الْمَصِيرِ إِلَيْهَا وَالنَّظَرِ فِي الشَّأْنِ الَّذِي شَغَلَهَا وَكَانَ الْقَلْقُ وَالسَّهَرُ قَدْ
أَخَذَا مَأْخِذَهُمَا مِنْ جِسْمِهِ وَنَفْسِهِ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ فَمَشَى فِي طَرِيقِهِ إِلَى

بَارِيسَ

يَتَرَنَّحُ الشَّارِبُ النَّمْلَ حَتَّى وَصَلَ إِلَى مَنْزِلِ مَرْغَرِيثَ وَقَدْ عَلَا صَدْرُ النَّهَارِ
فَرَأَى

حَارِسَ الْمَنْزِلِ قَدْ اسْتَيْقَظَ مِنْ نَوْمِهِ وَوَقَفَ بِفَأْسِهِ عَلَى شَجَرَةٍ مِنْ أَشْجَارِ
الْحَدِيقَةِ

بَشَذَبَ أَغْصَانَهَا فَسَأَلَهُ عَنْ مَرْغَرِيثَ فَقَالَ إِنَّهَا حَضَرَتْ هُنَا بِالْأَمْسِ فِي
مُنْصَرَفِ النَّهَارِ

وَوَرَاءَهَا خَادِمَتُهَا تَحْمِلُ حَقِيْبَةً كَبِيرَةً فَصَعِدَتْ إِلَى الْمَنْزِلِ فَلَبِثَتْ فِيهِ سَاعَةً ثُمَّ
نَزَلَتْ وَقَدْ لَبِسَتْ ثَوْبًا مِنْ أَنْثَابِ الْوَلَائِمِ فَأَعْطَنِي كُتَّابًا وَقَالَتْ لِي إِذَا جَاءَ
الْمَسِيوُ أَرْمَانَ لِلِسُّوَالِ عَنِّي فَأَعْطُهُ إِيَّاهُ ثُمَّ رَكِبَتْ عَرَبَتَهَا هِيَ وَخَادِمَتُهَا
وَأَنْصَرَفَتْ

قَالَ أَلَا تَعْلَمُ أَيْنَ ذَهَبَتْ قَالَ أَحْسَبُ أَنِّي سَمِعْتُهَا تَقُولُ لِلْحُوذِيِّ عِنْدَ رُكُوبِهَا إِلَى
مَنْزِلِ الْمَرْكِيزِ جَانَ فِيلِيْبَ فَجَمَى أَرْمَانُ فِي مَكَانِهِ جُمُودَ الصَّنَمِ وَاسْتَحَالَ لَوْنُهُ
إِلَى

صُفْرَةِ الْمَوْتِ وَمَرَّ بِخَاطِرِهِ مُرُورُ الْبَرْقِ ذَلِكَ الْكِتَابُ الَّذِي رَأَاهُ فِي يَدِهَا بَعْدَ
عَوْدَتِهِ

إِلَيْهَا مِنْ مُقَابَلَةِ أَبِيهِ فَتَرَكَهُ الْحَارِسُ مَكَانَهُ وَذَهَبَ إِلَى غُرْفَتِهِ وَعَادَ إِلَيْهِ
بِالْكِتَابِ فَتَنَاوَلَهُ مِنْهُ بِيَدٍ مُرْتَجِفَةٍ وَنَشَرَهُ وَأَمَرَ نَظْرَهُ عَلَيْهِ إِمْرَارًا فَأَحَاطَ بِمَا
فِيهِ لِلنَّظَرَةِ الْأُولَى فَارْتَعَدَ جِسْمُهُ ارْتِعَادًا شَدِيدًا وَتَرَاجُعَ خُطْوَةٍ أَوْ خُطْوَتَيْنِ إِلَى
بَابِ الْقَصْرِ فَاسْتَنْدَ ظَهْرَهُ إِلَيْهِ وَأَعَادَ قِرَاعَتَهُ فَإِذَا هُوَ مُشْتَمِلٌ عَلَى هَذِهِ الْكَلِمَاتِ
هَذَا آخِرُ مَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ يَا أَرْمَانُ فَلَا تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بِمُعَاوَدَةِ الْإِتِّصَالِ بِي وَلَا
تَسْأَلْنِي عَنْ السَّبَبِ فِي ذَلِكَ فَلَا سَبَبَ عِنْدِي إِلَّا أَنِّي هَكَذَا أَرَدْتُ لِنَفْسِي وَالسَّلَامَ .

فَعَلَّقَ نَظْرَهُ بِالْكِتَابِ سَاعَةً لَا يَرْفَعُ طَرْفَهُ عَنْهُ وَلَا يَقْرَأُ مِنْهُ حَرْفًا كَأَنَّمَا هُوَ
تِمْتَالٌ مِنْ تَمَائِيلِ الْحَدِيقَةِ وَكَانَ الْحَارِسُ قَدْ عَادَ إِلَى شَجَرَتِهِ يُشَذِّبُ أَغْصَانَهَا
وَيَتَغَنَّى فِي صُغُودِهِ إِلَيْهَا وَانْحِدَارِهِ عَنْهَا بِقِطْعَةٍ مِنَ الشَّعْرِ الْغَرَامِيِّ يُعْجِبُهُ
لَحْنُهَا

وَإِنْ كَانَ لَا يَفْهَمُ مَعْنَاهَا فَإِنَّهُ لَكَذَلِكَ إِذْ سَمِعَ صَوْتَ جِسْمٍ ثَقِيلٍ قَدْ سَقَطَ عَلَى
مَعْنَاهَا فَإِنَّهُ لَكَذَلِكَ إِذْ سَمِعَ صَوْتَ جِسْمٍ ثَقِيلٍ قَدْ سَقَطَ عَلَى الْأَرْضِ فَرَمَى بِفَأْسِهِ
وَهَرَعَ

إِلَى نَاحِيَةِ الصَّوْتِ فَرَأَى أَرْمَانَ صَرِيحًا مُعَفَّرًا تَحْتَ عَتَبَةِ الْبَابِ فَفَزَعَ فَزَعًا
شَدِيدًا وَظَنَّهَا الصَّرْعَةَ الْكُبْرَى فَأَهْوَى بِأُذُنِهِ إِلَى صَدْرِهِ فَسَمِعَ مَا بَقِيَ مِنْ دَقَّاتِ
قَلْبِهِ فَاطْمَأَنَّ قَلْبًا وَعَمَدَ إِلَى جَرَّةٍ بَيْنَ يَدَيْهِ فَأَخَذَ يَنْضَحُ بِمَائِهَا وَجْهَهُ يَدُلُّكَ
بِرَاحَةِ يَدِهِ صَدْرَهُ وَصُدُغِيهِ حَتَّى اسْتَفَاقَ بَعْدَ قَلِيلٍ فَفَتَحَ عَيْنَيْهِ فَرَأَى الْحَارِسَ
جَالِسًا

بِجَانِبِهِ وَرَأَى الْكِتَابَ لَا يَزَالُ فِي يَدِهِ فَدَارَ بِعَيْنَيْهِ حَوْلَ نَفْسِهِ فَمَرَّتْ بِخَاطِرِهِ فِي
الْحَالِ ذِكْرُ مَصْرَعِهِ الْقَدِيمِ فِي هَذَا الْمَكَانِ عَيْنُهُ مُنْذُ خَمْسَةِ عَشَرَ شَهْرًا يَوْمَ
أَلْقَتْ

مَرْغَرِيْتُ بِنَفْسِهَا عَلَيْهِ وَرَسَمَتْ عَلَى ثَغْرِهِ أَوَّلَ قُبْلَةٍ مِنْ قُبُلَاتِ الْحُبِّ فَهَاجَتْهُ
تِلْكَ

الذَّكْرِيَّ وَصَاحَ مَا أَبْعُدَ الْيَوْمَ مِنَ الْأَمْسِ وَأَنْشَأَ يَبْكِي بُكَاءَ الطِّفْلِ الَّذِي حِيلَ
بَيْنَهُ

وَبَيْنَ ثَدْيِ أُمِّهِ حَتَّى بَكَى الْحَارِسُ لِبُكَائِهِ وَأَقْبَلَ عَلَيْهِ يُعْزِيهِ عَنْ مُصَابِهِ وَيُهِوِّنُهُ
عَلَيْهِ حَتَّى هَذَا قَلِيلًا فَأَمْرُهُ أَنْ يَسْتَدْعِيَ لَهُ عَرَبَةً فَفَعَلَ فَقَامَ يَتَوَكَّأُ عَلَى يَدِ

الْحَارِسِ حَتَّى بَلَغَهَا فَرَكِبَ وَقَالَ لِلْسَائِقِ إِلَى فُنْدُقٍ تَوْرِينَ فَسَارَتْ بِهِ الْعَرَبَةُ
إِلَيْهِ

حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ إِلَّا مُنْعَطَفٌ وَاحِدٌ مَرَّتْ بِجَانِبِهِ عَرَبَةٌ فَخَمَةُ مُرُورِ
الْبَرْقِ الْخَاطِفِ تَحْمِلُ رَجُلًا وَامْرَأَةً لَمْ يَتَبَيَّنْهُمَا لِلنَّظَرَةِ الْأُولَى ثُمَّ رَاجِعُ
صُورَتَهُمَا فِي خَيَالِهِ فَإِذَا هُمَا جَانٌّ فِيلِيبٍ وَمَرْغَرِيتٍ وَكَانَتْ مَرْكَبَتُهُ قَدْ وَصَلَتْ
بِهِ

إِلَى الْفُنْدُقِ فَدَخَلَ عَلَى أَبِيهِ هَائِمًا مُخْتَبِلًا فَقَالَ مَا دَهَاكَ يَا بَنِي قَالَ قَدْ
خَانَتْنِي يَا أَبَتَاهُ قَالَ ذَلِكَ مَا أَنْذَرْتُكَ مِنْ قَبْلِ يَا بَنِي .
ثُمَّ انْقَضَى النَّهَارُ وَجَاءَ اللَّيْلُ فَقَضَاهُ أَرْمَانٌ سَاهِرًا فِي مَخْدَعِهِ يُرَاجِعُ فَهْرِسَ
حَيَاتِهِ مَعَ مَرْغَرِيتٍ صَفْحَةَ صَفْحَةٍ وَيَسْتَعْرِضُ فِي نَفْسِهِ جَمِيعَ أَطْوَارِهَا
وَشُؤُونَهَا فَلَمْ تَبْقَ
حَرَكَةٌ مِنْ حَرَكَاتِهَا وَلَا كَلِمَةٌ مِنْ كَلِمَاتِهَا وَلَا صُورَةٌ مِنْ صُورِ أَعْمَالِهَا كَانَ
يَرَاهَا

بِالْأَمْسِ حَسَنَةً مِنْ حَسَنَاتِ الْإِخْلَاصِ وَالْوَفَاءِ إِلَّا رَأَاهَا الْيَوْمَ سَيِّئَةً مِنْ سَيِّئَاتِ
الْخَدِيعَةِ وَالْمَكْرِ حَتَّى وَصَلَ فِي مُرَاجَعَتِهِ إِلَى الْأَمْسِ وَالْيَوْمِ الَّذِي قَبْلَهُ .
فَذَكَرَ عَدَمَ انْتِظَارِهَا إِيَّاهُ فِي شُرْفَةِ الْبَيْتِ كَعَادَتِهَا يَوْمَ عَادَ إِلَيْهَا مِنْ مُقَابَلَةِ
أَبِيهِ وَشِدَّةَ احْتِفَاطِهَا بِكِتَابِ الْمَرْكِيزِ فِي يَدِهَا عِنْدَمَا دَخَلَ عَلَيْهَا غُرْفَتَهَا وَضَنَهَا
بِهِ ضَنًا شَدِيدًا وَلَمْ تَكُنْ تَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْ قَبْلِ وَإِعْرَاضِهَا عَنِ التَّبَسُّطِ مَعَهُ فِي
الْحَدِيثِ بَعْدَ مَا قَصَّ عَلَيْهَا مِنْ قَبْلِ وَإِعْرَاضِهَا عَنِ التَّبَسُّطِ مَعَهُ فِي الْحَدِيثِ بَعْدَ
مَا

قَصَّ عَلَيْهَا قِصَّتَهُ مَعَ أَبِيهِ وَزَعَمَهَا أَنَّهَا مَرِيضَةٌ خَائِرَةٌ لَا تَسْتَطِيعُ الْبَقَاءَ مَعَهُ

وَالْحَاحَهَا عَلَيْهِ فِي صَبَاحِ الْيَوْمِ الثَّانِي إِحَاحًا شَدِيدًا فِي الْعُودَةِ إِلَى مُقَابَلَةِ
 أَبِيهِ وَاسْتِعْطَافِهِ وَقَوْلَهَا إِنَّهَا لَا تَكُونُ رَاضِيَةً عَنْ نَفْسِهَا وَلَا هَانِيَةً بِعَيْشِهَا إِنْ
 لَمْ يَكُنْ أَبُوهُ رَاضِيًا عَنْهُ فَاسْتَنْتَجَ مِنْ هَذَا كُلِّهَا أَنَّهَا مُنْذُ شَعَرَتْ بِفِرَاقِ يَدِهِ مِنْ
 الْمَالِ وَأَنَّ أَبَاهُ إِمَّا أَنْ يَحُولَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا وَإِمَّا أَنْ يُقْتَرَّ عَلَيْهِ الرِّزْقُ تَقْتِيرًا
 مَلَّتُهُ وَاجْتَوَيْهِ وَفَكَّرَتْ فِي سَبِيلِ الْخَلَّاصِ مِنْهُ وَلَمْ تَزَلْ تَنْتَظِرُ مَا يَأْتِيهَا بِهِ الْقَدَرُ
 حَتَّى أَتَاهَا بِكِتَابِ الْمَرْكِزِ فَكَانَ هُوَ طَرِيقَ خَلَّاصِهَا .
 وَلَمْ يَزَلْ هَانِمًا مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَهَيِّمَ فِي تَصَوُّرَاتِهِ وَأَوْهَامِهِ حَتَّى غَلَبَتْهُ فَهَجَعَ
 قَلِيلًا ثُمَّ اسْتَيْقَظَ فِي الصَّبَّاحِ فَدَخَلَ عَلَى أَبِيهِ فِي مَخْدَعِهِ وَقَالَ لَهُ لِي عِنْدَكَ أُمْنِيَّةٌ
 يَا أَبَتَاهُ لَا أُرِيدُ غَيْرَهَا وَأُرِيدُ أَنْ أَبْتَاعَهَا مِنْكَ بِخُضُوعِي لَكَ وَنَزُولِي عَلَى
 حُكْمِكَ

أَبَدَ الدَّهْرِ فِيمَا سَرَّنِي أَوْ سَاءَنِي فَهَلْ لَكَ أَنْ تَبْلُغْنَهَا قَالَ وَمَا هِيَ قَالَ أُرِيدُ أَنْ
 تُعْطِيَنِي السَّاعَةَ خَمْسَةَ عَشَرَ أَلْفَ فِرَنْكٍ قَالَ وَمَا تُرِيدُ مِنْهَا قَالَ أَحَبُّ أَنْ أُسْتَأْثِرَ
 بِهَذَا السِّرِّ لِنَفْسِي مِنْ دُونِ النَّاسِ جَمِيعًا حَتَّى مِنْ دُونِكَ فَنَظَرَ إِلَيْهِ أَبُوهُ نَظْرَةً
 الْمُلِمِّ بِمَا دَارَ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُعَاوِدْهُ وَأَعْطَاهُ صُكُوكًا بِالْمَالِ الَّذِي أَرَادَ فَأَخَذَهَا
 وَأَرْسَلَهَا إِلَى مَرْغَرِيْتِ وَأَرْسَلَ مَعَهَا كِتَابًا طَوِيلًا خَتَمَهُ بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ أَمَّا قَدْ
 عَرَفْتُ

أَنْنِي كُنْتُ أَعِيشُ مَعَ امْرَأَةٍ عَاهِرٍ سَاقِطَةٍ لَا أَمَّا وَقَدْ عَرَفْتُ أَنْنِي كُنْتُ أَعِيشُ مَعَ
 امْرَأَةٍ عَاهِرٍ سَاقِطَةٍ لَا عُهْدَ لَهَا وَلَا ذِمَامَ فَهَا هِيَ ذِي أُجْرَةٍ لِيَا لِيكَ الْمَاضِيَةِ
 مُرْسَلَةٍ إِلَيْكَ .

ثُمَّ خَرَجَ لِيَعِدَّ نَفْسَهُ لِلْسَفَرِ فَقَضَى الْيَوْمَ كُلَّهُ خَارِجَ الْفُنْدُقِ ثُمَّ عَادَ إِلَيْهِ دُبُرَ
 النَّهَارِ فَوُجِدَ فِيهِ كِتَابًا بِاسْمِهِ فَفَضَّ خَتَامَهُ فَإِذَا الْأَوْرَاقُ الَّتِي أَرْسَلَهَا إِلَى

مَرْغَرِيْتُ عَائِدَةً إِلَيْهِ كَمَا هِيَ وَلَيْسَ مَعَهَا كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ فَحَاوَلَ أَنْ يُعِيدَهَا إِلَيْهَا
مَرَّةً أُخْرَى فَمَنَعَهُ أَبُوهُ مِنْ ذَلِكَ وَقَالَ لَهُ قَدْ وَعَدْتَنِي أَلَّا تُخَالِفَنِي فِي أَمْرٍ بَدَّلَكَ
مِنْ الْإِذْعَانِ فَأُذْعِنُ ثُمَّ سَافَرَا مَعًا تِلْكَ اللَّيْلَةَ إِلَى نَيْسَ .

وَكَذَلِكَ قُضِيَ اللَّهُ أَنْ يَفْتَرِقَ ذَلِكَ الصَّدِيقَانِ الْوَفِيَّانِ وَالْعَاشِقَانِ الْمُخْلِصَانِ فَعَادَ
الْفَتَى إِلَى أَحْضَانِ أَبِيهِ وَعَادَتْ الْفَتَاةُ إِلَى حَيَاتِهَا الْأُولَى الَّتِي كَانَتْ تَأْبَاهَا
الْإِبَاءُ كُلُّهُ وَتَخَافُهَا الْخَوْفُ الشَّدِيدُ وَفِي نَفْسِ كُلِّ مِنْهُمَا مِنَ الْوَجْدِ بِصَاحِبِهِ
وَالْحَسْرَةِ عَلَيْهِ مَا لَا تَلِيهِ الْأَيَّامُ وَلَا تَنْتَقِصُ مِنْهُ السُّنُونُ وَالْأَعْوَامُ .

الْأَشْقِيَاءُ فِي الدُّنْيَا كَثِيرٌ وَأَعْظَمُهُمْ شَقَاءُ ذَلِكَ الْحَزِينِ الصَّابِرِ الَّذِي قَضَتْ عَلَيْهِ
ضَرُورَةٌ مِنْ ضَرُورِيَّاتِ الْحَيَاةِ أَنْ يَهْبِطَ بِأَلَامِهِ وَأَحْزَانِهِ إِلَى قَرَارَةٍ نَفْسِهِ
فِيُودِّعَهَا

هُنَاكَ ثُمَّ يُغْلِقُ دُونَهَا بَابًا مِنَ الصَّمْتِ وَالْكَتْمَانِ ثُمَّ يَصْنَعُ إِلَى النَّاسِ بَاشَ الْوَجْهِ
بِاسْمِ الثَّغْرِ مُتَطَلِّقًا مُتَهَلِّلًا كَأَنَّهُ لَا يَحْمِلُ بَيْنَ جَنْبَيْهِ هَمًّا وَلَا كَمَدًا :

ذَلِكَ كَانَ شَأْنِ مَرْغَرِيْتُ بَعْدَ عَوْدَتِهَا إِلَى حَيَاتِهَا الْأُولَى فَقَدْ أَصْبَحَتْ تَعِيشُ مَعَ
النَّاسِ بِصُورَةٍ غَيْرِ الصُّورَةِ الَّتِي تَعِيشُ بِهَا مَعَ نَفْسِهَا أَمَّا حَيَاتُهَا مَعَ النَّاسِ
فَحَيَاةٌ ضَاكِكَةٌ لَاعِبَةٌ مَرِحَةٌ وَثَابِتَةٌ تُضِيءُ الْمَجَامِعَ وَالْمَحَافِلَ وَتَمَلَأُ الْأَنْظَارَ
وَالْأَسْمَاعَ فَإِذَا ضَمَّهَا مَخْذَعُهَا وَخَلَا لَهَا وَجْهَ اللَّيْلِ مَرَّتْ أَمَامَ عَيْنَيْهَا صُورَةٌ
تِلْكَ

السَّاعَاتِ السَّعِيدَةِ الَّتِي قَضَتْهَا بِجَانِبِ أَرْمَانَ ثُمَّ ذَكَرَتْ أَنَّهَا قَدْ أَفْلَتَتْ مِنْ يَدِهَا
إِفْلَاتَ الطَّائِرِ مِنْ يَدِ صَائِدِهِ وَصَارَتْ بَعِيدَةً عَنْهَا بَعْدَ الشَّمْسِ عَنْ يَدِ مُتَتَاوَلِهَا
وَأَنَّهَا قَدْ أَصْبَحَتْ تَعِيشُ بَيْنَ أَقْوَامٍ لَا تَعْرِفُهُمْ وَلَا تَجِدُ فِي نَفْسِهَا لَذَّةَ الْإِنْسِ بِهِمْ
ثُمَّ لَا تَجِدُ لَهَا بُدًّا مِنْ مِمَّا ذُكِرَتْ وَالتَّحَبُّبِ إِلَيْهِمْ وَالتَّجَمُّلِ لَهُمْ بِمَا يُرِيدُونَ

وَيَسْتَهُونَ فَتَقْبَلُ الْأَفْوَاهُ الَّتِي لَا تَشْتَهِيهَا وَتَعْتَنِقُ الْقَامَاتِ الَّتِي لَا تُطِيقُ
رُؤْيَيْهَا وَتَشْرَبُ مَعَ كُلِّ شَارِبٍ وَالشَّرَابُ يَحْرِقُ أَحْشَاءَهَا وَتَرْقُصُ مَعَ كُلِّ
رَاقِصٍ وَالرَّقْصُ

يُمزِقُ أَوْصَالَهَا وَتَضْحَكُ ضِحَكَاتِ السُّرُورِ مِنْ قَلْبٍ بِأَكْ وَتَنْشِدُ أُنَاشِيدَ الْهِنَادِ
مِنْ فُؤَادِ

مُحْتَرِقٍ فَكَأَنَّهَا فِي يَدِ النَّاسِ وَالْعُودِ فِي يَدِ الْمُغْنِيِّ يَقْطَعُ أَوْتَارَهُ ضَرْبًا لِيُطْرِبَ
لِنِغَمَاتِهِ أَوْ الزَّهْرَةَ فِي يَدِ الْمُقْتَطَفِ يَعْصِرُ أَوْرَاقَهَا عَصْرًا لِيَنْعَمَ بِشَذَاهَا فَتُهَيِّجُهَا
ذِكْرِي ذَلِكَ الْمَاضِي السَّعِيدِ وَهَذَا الْحَاضِرِ الشَّقِيَّ فَتُطْلِقُ السَّبِيلَ لِرِزْفَرَاتِهَا
وَعَبْرَاتِهَا يَصْعَدُ مِنْهَا مَا يَصْعَدُ وَيَنْحَدِرُ مَا يَنْحَدِرُ حَتَّى تَشْتَفِي نَفْسَهَا فَتَقُومَ إِلَى
خِزَانَةِ مَلَابِسِهَا فَتَسْتَخْرِجُ مِنْهَا صُورَةَ تَضَعُهَا بَيْنَ سِجْرِهَا وَنَحْرِهَا ثُمَّ تَأْوِي
إِلَى

مَضْجَعَهَا فَتَجِدُ بَرْدَ الرَّاحَةِ فِي صَدْرِهَا لِأَنَّهَا صُورَةُ أَرْمَانَ .
وَلَمْ تَزَلْ تُكَادِ مِنَ الشَّقَاءِ فِي تِلْكَ الْحَيَاةِ السَّاقِطَةِ وَالْأَمَهَا مَا لَا طَاقَةَ
لِمِثْلِهَا بِاحْتِمَالِ مِثْلِهِ حَتَّى اسْتَيْقَظَ فِي صَدْرِهَا دَاوُهَا الْقَدِيمَ بَعْدَ مَا نَامَ عَنْهَا
حِينَ مِنَ الدَّهْرِ فَهَزَلَ جَسْمَهَا وَشَحِبَ لَوْنُهَا وَغَاضَ مَاءُ ابْتِسَامَاتِهَا وَانْطَفَأَ
شُعَاعُ

نَظَرَاتِهَا وَشَغَلَهَا شَأْنُ نَفْسِهَا عَنْ شَأْنِ الْمُرَكِّزِ فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ مَلَّهَا وَفَارَقَهَا
وَاسْتَبَدَلَ بِهَا أُخْرَى غَيْرَهَا ثُمَّ اخْتَلَفَ عَلَيْهَا مِنْ بَعْدِهِ الْأَخِلَاءُ الرَّفُفَاءُ فَكَانَ
شَأْنُهُمْ مَعَهَا شَأْنَهُ لَا يَلْبَثُ أَحَدُهُمْ أَنْ يَعْرِفَهَا حَتَّى يَهْجُرَهَا فَكَسَدَتْ سِلْعَتُهَا فِي
سُوقِ

الْجَمَالِ وَطَمَعَ فِيهَا مَنْ لَمْ يَكُنْ يَطْمَعُ قَبْلَ الْيَوْمِ فِي لَثَمِ مَوَاطِئِ أَقْدَامِهَا وَخَلَّتْ

مَنْهَا الْمَجَامِعُ وَالْمَحَافِلُ ثُمَّ خَلَتْ مِنْ ذِكْرِهَا وَحَدِيثِهَا وَأَعُوذُهَا الْمَالَ إِعْوَازَ
 شَدِيدًا فَمَدَّتْ يَدَهَا إِلَى مَا كَانَ بَاقِيًا عِنْدَهَا مِنْ جَوَاهِرِهَا وَلَالِئِهَا فَبَاعَتْهُ فَلَمْ
 يَفِ بِدِينِهَا فَطَلَبَتْ الْمَعُونَةَ مِنْ كَثِيرٍ مِنْ أَصْدِقَائِهَا الْمَاضِينَ فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا قَلِيلٌ
 مِنْهُمْ الْقَلِيلَ فَلَمْ يُغْنِ عَنْهَا شَيْئًا وَاخْتَلَفَتْ إِلَيْهَا جَرَائِدُ الْحِسَابِ يَطْلُبُ أَصْحَابُهَا
 سَدَادَ مَا فِيهَا فَدَافِعْتَهُمْ عَنْهَا حِينًا ثُمَّ عَجَزَتْ فَحَجَزُوا عَلَى جَمِيعِ مُقْتَنِيَّاتِهَا
 وَذَخَائِرِهَا وَأَثَاثَ بَيْتِهَا وَرِيَاشَهُ وَلُؤْمُوا فِي مَقَاضَاتِهَا لَوْمًا ضَاعَفَ حُرْنَهَا
 وَمَرَّضَهَا

وَقُضِيَ عَلَى بَقَّةٍ مَا كَانَتْ تُضْمِرُهُ فِي نَفْسِهَا مِنَ الْأَمَلِ فِي الْحَيَاةِ وَالسَّعَادَةِ فِيهَا
 فَنَسِيَتْ الْعَالَمَ خَيْرَهُ وَشَرَّهُ وَالْحَيَاةَ سَعَادَتِهَا وَشَقَاءِهَا وَأَصْبَحَتْ لَا تُفَكِّرُ إِلَّا فِي
 أَمْرٍ وَاحِدٍ تَقُومُ وَتَقْعُدُ بِهِ لَيْلَهَا وَنَهَارَهَا وَهُوَ أَنْ تَرَى أَرْمَانَ سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ قَبْلَ
 مَوْتِهَا ثُمَّ تَذْهَبُ إِلَى رَبِّهَا .

وَلَمْ تَكُنْ قَدْ كَتَبَتْ إِلَيْهِ قَبْلَ الْيَوْمِ كَلِمَةً وَاحِدَةً مُنْذُ فَارَقَهَا وَلَا كُتِبَ إِلَيْهَا
 فَنَهَضَتْ تَتَحَامَلُ عَلَى نَفْسِهَا حَتَّى وَصَلَتْ إِلَى مِنْصَدَتِهَا فَكَتَبَتْ إِلَيْهِ هَذَا الْكِتَابَ
 تَعَالٍ إِلَيَّ يَا أَرْمَانَ رَاضِيًا كُنْتُ أَوْ غَاضِبًا فَإِنِّي مَرِيضَةٌ مُشْرِفَةٌ وَأَحَبُّ أَنْ
 أَرَكَ

قَبْلَ مَوْتِي لِأَقْضِيَ لَكَ بِسِرِّ الذَّنْبِ الَّذِي أَدْنَبْتَهُ إِلَيْكَ فِيمَا مَضَى وَالَّذِي لَا تَزَالُ
 وَاجِدًا عَلَى بِسَبَبِهِ حَتَّى الْيَوْمِ فَلَعَلَّكَ تَعْفُو عَنِّي فِي سَاعَتِي الْأَخِيرَةِ فَيَكُونُ عَفْوُكَ
 وَرِضَاكَ هُوَ كُلُّ مَا أَتْرُودُهُ مِنْ هَذِهِ الْحَيَاةِ لِقَبْرِ يَ وَادْكُرْ يَا أَرْمَانَ أَنْ أَوَّلَ
 عَاطِفَةٍ

جَمَعَتْ بَيْنِي وَبَيْنَكَ وَالْفَتْ بَيْنَ قَلْبِي وَقَلْبِكَ كَانَتْ عَاطِفَةُ الرَّحْمَةِ وَالشَّفَقَةِ فَهَا
 هِيَ

الْفَتَاةَ الْمَرِيضَةَ الْمَسْكِينَةَ الَّتِي رَحِمْتَهَا بِالْأَمْسِ وَعَظَفَتْ عَلَيْهَا قَبْلَ أَنْ تُحِبَّهَا
تَدْعُوكَ الْيَوْمَ أَنْ تَرْحَمَهَا وَتَعْطِفَ عَلَيْهَا وَإِنْ تَكُنْ قَدْ سَلَوْتَهَا أَمَّا كِتَابُكَ الَّذِي
كَتَبْتَهُ إِلَيَّ قَبْلَ سَفَرِكَ فَقَدْ اغْتَفَرْتُ لَكَ كُلَّ مَا فِيهِ حَتَّى قَوْلِكَ إِنِّي كُنْتُ كَاذِبَةً فِي
حُبِّكَ طَامِعَةً فِي مَالِكَ لِأَنِّي أَعْلَمُ أَنَّ الْمَرْأَةَ الَّتِي كَذَبَ النَّاسُ فِي حُبِّهَا طَوَالَ
حَيَاتِهَا لَا يُمَكِّنُ أَنْ تَجِدَ مَنْ يُصَدِّقُهَا إِذْ صَدَقَتْ فِيهِ وَعَدَلَ مِنَ اللَّهِ كُلَّ مَا صَنَعَ .
ثُمَّ لَبِثْتُ تَنْتَظِرُ حُضُورَهُ أَيَّامًا طَوِيلًا فَلَمْ يَأْتِ فَأَحْزَنِي ذَلِكَ حُزْنًا شَدِيدًا وَسَاءَ
ظَنُّهَا بِهِ وَوَقَعَ فِي نَفْسِهَا أَنَّهُ قَدْ سَلَّاهَا وَاطْرَحَهَا وَأَصْبَحَ لَا يَعْأُ بِهَا وَلَا يُبَالِي
بِحَيَاتِهَا أَوْ مَوْتِهَا وَسَعَادَتِهَا أَوْ شَقَائِهَا وَكَانَتْ مُخْطِئَةً فِيمَا ظَنَّتْ فَإِنَّ أَرْمَانَ لَمْ
يَطَّلِعْ عَلَى الْكِتَابِ الَّذِي أَرْسَلْتَهُ إِلَيْهِ مِنْذُ فَارَقَهَا فِي الْعَامِ الْمَاضِي وَسَافَرَ إِلَى
نَيْسٍ وَلَمْ يَسْتَطِعْ الْبَقَاءَ فِيهَا إِلَّا أَيَّامًا قَلِيلًا ثُمَّ مَلَكَه الضَّجَرُ وَأَحَاطَتْ بِهِ
الْوَحْشَةُ وَضَاقَتْ فِي وَجْهِهِ مَذَاهِبُ السَّلْوَى فَاسْتَأْذَنَ مِنْ أَبِيهِ أَنْ يُسَافِرَ إِلَى
بَعْضِ

بِلَادِ الْمَشْرِقِ تَرْوِيحًا عَنْ نَفْسِهِ وَتَفْرِيحًا مِنْ كُرْبَتِهِ فَأَذِنَ لَهُ فَسَافَرَ إِلَى
الْإِسْكَندَرِيَّةِ فَأَقَامَ بِهَا بَضْعَةَ أَشْهُرٍ كَاتِبَ أَبَاهُ فِيهَا قَلِيلًا ثُمَّ تَرَكَهَا وَأَخَذَ
يَنْتَقِلُ فِي أَنْحَاءِ الْبِلَادِ لَمْ يَنْزِلْ بِبَلَدَةٍ حَتَّى يَطِيرَ بِهِ الضَّجَرُ إِلَى غَيْرِهِ فَانْقَطَعَتْ
رَسَائِلُهُ عَنْ أَبِيهِ فَأَصْبَحَ لَا يُعْلَمُ مَكَانَ وَجُودِهِ فَلَمَّا أُرْسِلَتْ مَرْغَرِيْتُ إِلَيْهِ كِتَابَهَا
فِي نَيْسٍ قَرَأَهُ أَبُوهُ وَحَفَّظَهُ عِنْدَهُ وَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُرْسِلَهُ إِلَيْهِ وَمَرْغَرِيْتُ لَا تَعْلَمُ
بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ فَحَزِنَتْ لِحَبِيبَةِ أَمَلِهَا حُزْنًا شَدِيدًا وَدَبَّ الْيَأْسُ فِي قَلْبِهَا رَبِيبِ
الْمَوْتِ فِي الْحَيَاةِ وَوَقَعَ فِي نَفْسِهَا أَنَّهَا سَتُخْرِجُ مِنَ الدُّنْيَا فَارِغَةً الْيَدِ مِنْ كُلِّ
شَيْءٍ

حَتَّى مِنْ هَذِهِ الْأُمْنِيَةِ الَّتِي بَقِيَتْ فِي يَدِهَا مِنْ بَيْنِ جَمِيعِ آمَالِهَا الضَّائِعَةِ فَتُتَكَرَّرُ

شأنها واستحالت جالها ولجأت إلى صمت طويل لا تقول فيه خيراً ولا شراً
وأصبحت تنظر إلى نفسها وإلى ما يحيط بها من الأشياء كأنها تنظر إلى شيء
تكره ولا تعرفه فربما دخل عليها طبيبها وهي في أشد حالات ألمها فلما تشكو
له ألم أو سمعت ضوضاء الدائنين وصخبهم من الراحة والسكون ركبت

عربتها

إلى بوجيفال فزارت البيت الذي قضت فيه أيام سعادتها الذهبية وكان لا يزال
باقياً على الصورة التي تركتها عليها يوم فارقتهم ومررت بغرفه وقاعاته
وجلست

في كل مكان كانت تجلس فيه مع أرمان وأشرفت من كل نافذة كان يشرف
منها

معها وقبلت جميع آثاره وبقاياه ولثمت الكأس التي كان يشرب بها والزهرة
التي كان يحبها والقلم الذي كان يكتب به والكتاب الذي كان يقرأ فيه فإذا
نال منها التعب جلست على بعض المقاعد لتأخذ لنفسها راحتها فربما طار بها
خيالها إلى ذلك العهد القديم فتمثل لها أن أرمان جالس تحت قدميها يسرد
عليها حادثة من حوادث طفولته في نيس أو يبتئها ما يضمنه لها في نفسه من
الوجد والغرام فتبتسم لحديثه ابتسام السعيد الهانئ وتستشعر في نفسها لذة
لا يشعر بمثلها إلا المتقون في جنات النعيم ثم تفتح عينيها فلا ترى
أمامها غير الوحشة والسكون والوحدة والانعزاد فتبكي ما شاء الله أن تفعل
ثم تعود إلى بيتها في باريس فتجلس على كرسيها بجانب منضدتها وتتأجج
أرمان

في مذكراتها جميع ما تحدثت به بنفسه كأنه حاضر بين يديها يراها ويسمعها

مُذَكَّرَاتٍ مَرَّغَرِيَّت

أَرْمَان :

لَمْ تَكْتُبْ إِلَيَّ وَلَمْ تَأْتِنِي كَأَنَّمَا ظَنَنْتُ أَنِّي أُرِيدُ أَنْ أَسْتَعِيدَ مَعَكَ عَهْدَ الْمَاضِي
وَأَيْنَ أَنَا مِنْ ذَلِكَ الْعَهْدِ فَلَوْ رَأَيْتَنِي لَرَأَيْتُ امْرَأَةً ذَاهِبَةً مُدْبِرَةً لَا تُصْلِحُ لَشَأْنٍ
مِنْ شُؤْنِ الْحَيَاةِ وَلَمْ يَبْقَ فِيهَا مِنْ صُورَتِهَا الْمَاضِيَةِ إِلَّا كَمَا بَقِيَ مِنَ الزَّهْرَةِ
السَّاقِطَةِ عَنْ غُصْنِهَا بَعْدَ مَا عَصَفَتْ الرِّيحُ بِأَوْرَاقِهَا وَكُلُّ مَا كُنْتُ أُرِيدُهُ مِنْكَ
أَنَّ

أَرَاكَ بِجَانِبِ فِرَاشِي فِي سَاعَتِي الْأَخِيرَةِ لِأَعْتَذِرَ لَكَ عَنْ ذَنْبِي الَّذِي أَذْنَبْتَهُ إِلَيْكَ
ثُمَّ أَمْ طَرِظْتُ وَدَاعَ أَغْمَضَ عَلَيْهَا جَفْنِي وَاذْهَبْ بِهَا إِلَيَّ قَبْرِي !
مَا أَنَا بِخَائِنَةٍ يَا أَرْمَانُ وَلَا خَادِعَةٍ فَإِنَّ الرِّسَالَةَ الَّتِي رَأَيْتَهَا فِي يَدِي يَوْمَ
عُدْتُ إِلَيَّ مِنْ مُقَابَلَةِ أَبِيكَ لَيْسَتْ رِسَالَةَ الْمُرَكِّزِ كَمَا ظَنَنْتُ بَلْ رِسَالَةُ أَبِيكَ
نَفْسُهُ

وَصَلْتُ مِنْهُ قَبْلَ وَصُولِكَ إِلَى بوجيفال بِسَاعَةِ وَاحِدَةٍ وَهَذَا نَصَّهَا الَّذِي لَا يَزَالُ
عَالِقًا بِذَهْنِي حَتَّى السَّاعَةِ :
سَيِّدَتِي :

أُرِيدُ أَنْ أَقَابِلَكَ غَدًا فِي مَنْزِلِكَ فِي السَّاعَةِ الْعَاشِرَةِ صَبَاحًا فِي شَأْنٍ خَاصٍّ بِي
وَبِكَ

وَأُرِيدُ أَلَّا يَكُونَ أَرْمَانُ حَاضِرًا تِلْكَ الْمُقَابَلَةَ وَلَا عَالِمًا بِهَا وَلَا بَانِي أَرْسَلْتُ
هَذِهِ الرِّسَالَةَ إِلَيْكَ وَلِي مِنْ حُسْنِ الرَّأْيِ فِيكَ مَا يُطْمَعُنِي فِي أَنْ يَكُونَ مَا سَأَلْتُكَ
إِيَّاهُ سِرًّا بَيْنِي وَبَيْنِكَ حَتَّى نَلْتَقِيَ وَالسَّلَامُ .

فَلَمَّا قَرَأْتُهَا عَلِمْتُ مَاذَا يُرِيدُ مِنْ تِلْكَ الْمُقَابَلَةِ وَشَعَرْتُ بِمَا وَرَاءَهَا بَلْ عَلِمْتُ بِمَا

دَارَ بَيْنِكَ وَبَيْنَهُ مِنَ الْحَدِيثِ وَأَنَّكَ أَمْتَعْتَ عَلَيْهِ حَتَّى يَيْسَ مِنْكَ فَحَاوَلَ أَنْ يُدْخَلَ
عَلَيْكَ مِنْ بَابِي فَحَدَّثْتَنِي نَفْسِي أَنْ أَرْفُضَ مُقَابَلَتَهُ وَأَنْ أُكَاشِفَكَ بِكُلِّ شَيْءٍ ثُمَّ
اسْتَحْيَيْتَ مِنْ نَفْسِي وَأَكْبَرْتَ السِّرَّ فَلَا يَجْحَدُنِي عِنْدَ ظَنِّهِ وَطَمَعْتُ فِي أَنْ أَنَالَ
مِنْهُ

عِنْدَ الْمُقَابَلَةِ مَا يَطْمَعُ أَنْ يَنَالَهُ مِنِّي فَكَلَّمْتُكَ أَمْرَ الرِّسَالَةِ وَكَتَمْتُكَ مَا فِي
نَفْسِي مِنْهَا وَلَمْ أَكُنْ كَاذِبَةً فِي شِكَايَتِي وَالْمِي حِينَمَا قُلْتَ لَكَ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ إِنِّي
لَا أَسْتَطِيعُ الْبَقَاءَ بِجَانِبِكَ وَسَأَلْتُكَ أَنْ تَقُودَنِي إِلَى مَخْدَعِي فَقَدْ قَضَيْتَ فِي فِرَاشِي
بَعْدَمَا فَارَقْتُكَ لَيْلَةً لَمْ أَقْضِ مِثْلَهَا فِي جَمِيعِ مَا مَرَّ بِي مِنْ لَيَالِي الْهُمُومِ
وَالْأَحْزَانِ حَتَّى أَصْبَحَ الصَّابِحَ فَالْحَحْتُ عَلَيْكَ أَنْ تَذْهَبَ لِمُقَابَلَةِ أَبِيكَ وَأَنَا أَعْلَمُ
أَنَّكَ ذَهَبْتَ إِلَيْهِ لَا تَرَاهُ وَلَا تَتَفَعَّ بِمُقَابَلَتِهِ إِنْ رَأَيْتَهُ وَلَكِنِّي خِفْتُ أَنْ يَزُورَنِي
فَيَرَاكَ عِنْدِي فَأَصْغَرَ فِي عَيْنَيْهِ وَلَا أَشَدَّ عَلَيَّ مِنْ ذَلِكَ وَمَا هِيَ إِلَّا لَحَظَاتٌ قَلِيلَةٌ
حَتَّى وَصَلَ إِلَى بُوْجِيْفَالِ فِي الْمَوْعِدِ الَّذِي ضَرَبَهُ فِي كِتَابِهِ فَاسْتَأْذَنَ عَلَى فَأَذِنْتُ
لَهُ

فَدَخَلَ فَرَأَيْتُ فِي عَيْنَيْهِ جَمْرَةً مِنَ الْغَضَبِ تَلْتَهَبُ الْتِهَابًا فَلَمْ أَحْقُلْ بِهَا وَدَعَوْتَهُ
لِلْجُلُوسِ فَلَمْ يَفْعَلْ وَلَمْ يُحِينِي بِيَدِهِ وَلَا بَوْلَدِي أَيْتُهَا السَّيِّدَةَ وَظَلَّ نَاطِرًا إِلَى
نَظَرًا جَامِدًا سَاكِنًا لَا وَلَهْجَتِهِ الْجَافَّةُ الْخَشِينَةُ وَامْتَعَضْتُ فِي نَفْسِي امْتِعَاضًا
شَدِيدًا

حَتَّى كِدْتُ أَقُولُ لَهُ وَلَا أَكْتُمُكَ ذَلِكَ تَذَكَّرْ يَا سَيِّدِي أَنَّكَ فِي مَنْزِلِي وَأَنَّنِي لَمْ
أَدْعُكَ

إِلَى زِيَارَتِي بَلْ أَنْتَ الَّذِي دَعَوْتَ نَفْسَكَ بِنَفْسِكَ ثُمَّ ذَكَرْتَ مَكَانَهُ مِنْكَ فَأَمْسَكَتُ
عَنْ كُلِّ

شَيْءٍ حَتَّى عَنْ الْجَوَابِ عَلَى سُؤَالِهِ فَمَشَى يَضْرِبُ الْأَرْضَ بِعَصَاهُ وَبَقَدَمِهِ
حَتَّى دَنَا مِنِّي

وَأَلْقَى عَلَيَّ تِلْكَ النَّظْرَةَ الَّتِي إِعْتَادَ الْأَشْرَافُ الْمُتَرَفِّعُونَ أَنْ يُلقَوْهَا فِي طَرِيقِهِمْ
عَلَى وُجُوهِ النِّسَاءِ الْعَاهِرَاتِ وَقَالَ لَقَدْ أَنْفَقَ وَلَدِيَّ عَلَيْكَ جَمِيعَ مَا كَانَ بِيَدِهِ مِنْ
الْمَالِ وَكَانَ فِي يَدِهِ الْكَثِيرُ مِنْهُ ثُمَّ جَمِيعَ مَا أَرْسَلْتُهُ إِلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ وَقَدْ أَرْسَلْتُ
إِلَيْهِ فَوْقَ طَاقَتِي فَلَمْ يَبْقَ فِي إِسْتِطَاعَتِهِ أَنْ يَمُدَّكَ بِأَكْثَرِ مِمَّا أَمُدُّكَ وَلَا فِي
إِسْتِطَاعَتِي أَنْ أَسْتَنْزِلَ لَهُ مِنْ السَّمَاءِ ذَهَبًا يُمَطِّرُهُ عَلَيْكَ وَلَا فِي إِسْتِطَاعَتِي أَنْ
أَسْتَنْزِلَ لَهُ مِنْ السَّمَاءِ ذَهَبًا يُمَطِّرُهُ عَلَيْكَ فَدَعِيهِ وَشَأْنُهُ فَالْبَلَدُ مَمْلُوءٌ بِالْأَبْنَاءِ
الَّذِينَ لَا يَحْتَاجُ آبَاؤُهُمْ إِلَيْهِمْ فَدَعِيهِ وَشَأْنُهُ وَالَّذِينَ لَا يَحْتَاجُونَ إِلَى أَنْفُسِهِمْ
أَمَّا أَنَا فَإِنِّي فِي حَاجَةٍ إِلَى وَلَدِي لِأَنِّي لَمْ أُرْزَقْ وَلَدًا سِوَاهُ وَمَنْ كَانَتْ بِيَدِهِ هَذِهِ
الثَّرْوَةُ مِنَ الْجَمَالِ الَّتِي تَمْلِكِينَهَا لَا يَضِيقُ بِهِ مَذْهَبٌ مِنْ مَذَاهِبِ الْعَيْشِ وَلَا
يَتَلَوَّى عَلَيْهِ مَأْرَبٌ مِنْ مَأْرَبِ الْحَيَاةِ فَسَرَّتْ كَلِمَاتُهُ فِي نَفْسِي سُرْيَانِ الْحُمَى فِي
عِظَامِ

الْمَحْمُومِ وَخُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّ هَذَا الْمَائِلَ أَمَامِي لَا يُحَدِّثُنِي وَإِنَّمَا يَجْزِي عَنِي السُّمُّ بِيَدِهِ
تَجْرِيعًا وَشَعَرْتُ بِذِلَّةٍ لَمْ أَشْعُرْ بِمِثْلِهَا فِي يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ حَيَاتِي إِلَّا أَنِّي تَجَلَّدْتُ
وَاسْتَمْسَكْتُ وَرَدَدْتُ نَفْسِي عَلَى بِالْإِغْوَاءِ وَقَلْتُ لَهُ بِصَوْتِ هَادِيٍّ سَاكِنٍ لَا
يَمَازِجُهُ غَضَبٌ

وَلَا نَزَقَ يَا سَيِّدِي نَعَمَ إِنَّنِي أَحَبُّ وَلَدِكَ وَلَكِنِّي لَا أَطْمَعُ فِيهِ وَلَوْ كَانَ الَّذِي يَعْنِينِ
مِنْهُ الطَّمَعُ فِي مَالِهِ لِفَارِقَتِهِ مُنْذُ ثَلَاثَةِ شُهُورٍ أَيْ مُنْذُ خَلَّتْ يَدُهُ مِنَ الْمَالِ وَأَصْبَحَ
لَا يَجِدُ السَّبِيلَ إِلَيْهِ بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ بَلْ لِفَارِقَتِهِ قَبْلَ ذَلِكَ لِأَنَّ الَّذِينَ لَا
يَزَالُونَ يُسَاوِمُونَنِي فِي نَفْسِي مِنْ أَشْرَافِ هَذَا الْبَلَدِ وَنُبَلَاءِهِ مُنْذُ اتَّصَلْتُ بِهِ حَتَّى

الْيَوْمَ أَفْضَلَ مِنْهُ وَأَكْثَرَ رَغَدًا عَلَى أَنْ وَلَدَكَ لَمْ يُنْفِقْ عَلَيَّ مِنْ هَذَا الْمَالِ
 الَّذِي تَذَكَّرُهُ إِلَّا النَّزْرَ الْقَلِيلَ وَرَبِّمَا أَنْفَقَ بَاقِيَهُ عَلَى نَفْسِهِ وَلَوْ اسْتَطَعْتَ أَنْ
 أَرْفُضَ ذَلِكَ الْقَلِيلَ وَأَبَاهُ لَفَعَلْتُ وَلَكِنِّي كُنْتُ أَضِنُّ بِهِ أَنْ يَدْخُلَ نَفْسَهُ مَا يُرِيدُهَا
 أَوْ يُؤْلِمَهَا فَقَبِلْتُ مِنْهُ هَدَايَاهُ الصَّغِيرَةَ الَّتِي كَانَ يُقَدِّمُهَا إِلَيَّ مِنْ حِينٍ إِلَى حِينٍ
 إِرْعَاءَ عَلَيْهِ وَإِبْقَاءَ عَلَى عِزَّةِ نَفْسِهِ وَكَرَامَتِهَا وَلَوْ أَنَّ مَا كَانَ بِيَدِهِ مِنْ لِمَالٍ
 انْتَقَلَ إِلَى يَدَيَّ كَمَا تَقُولُ لَأَصْبَحْتُ غَنِيَّةً مَوْفُورَةً لَا أَحْمِلُ هُمًا مِنْ هُمُومِ الْعَيْشِ
 وَلَا أَعَانِي مِنْ بَأْسَاءِ الْحَيَاةِ وَضُرَائِهَا مَا أَعَانِيهِ الْيَوْمَ فَإِنِّي لَوْ تَبَيَّنْتُ أَمْرِي
 امْرَأَةً فَقِيرَةً مَعُوزَةً لَا أَمْلِكُ مِنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا إِلَّا حَلَايَ وَمَرْكَبَتِي وَأَثَاثَ بَيْتِي
 وَلَيْتَهَا كَانَتْ خَالِصَةً لِي فَقَدْ امْتَدَّتْ يَدُ الضَّرُورَةِ إِلَيْهَا مُنْذُ عَهْدٍ قَرِيبٍ فَأَصْبَحَ
 الْكَثِيرُ مِنْهَا سِلْعَةً فِي يَدِ الْمُرَابِّينَ وَلَا أُعْلَمُ مَا يَأْتِي بِهِ الْغَدُ وَإِنْ أَبَيْتُ إِلَّا
 أَنْ أَتَعَرَّفَ ذَلِكَ بِنَفْسِكَ بِالْإِغْوَاءِ عَلَى مَا كَتَمْتَهُ عَنِ النَّاسِ جَمِيعًا حَتَّى عَنْ
 وَلَدِكَ ثُمَّ

قُمْتُ إِلَى خِزَانَةِ أَوْرَاقِي فَجِئْتُهُ مِنْهَا بِالصُّكُوكِ وَالْوَتَائِقِ الْمُشْتَمِلَةِ عَلَى بَيْعِ مَا
 بَعْتُ مِنْ جَوَاهِرِي وَخِيُولِي وَأَثَاثَ بَيْتِي وَرَهْنِ مَا رَهَنْتُ مِنْهَا فَظَلَّ يَقْبَلُهَا بَيْنَ
 يَدَيْهِ

سَاعَةً وَيَتَأَمَّلُ فِي تَارِيخِهَا طَوِيلًا ثُمَّ طَوَاهَا وَأَعَادَهَا إِلَيَّ مُطَرِّقًا صَامِتًا لَا
 يَقُولُ شَيْئًا وَمَدَّ يَدَهُ إِلَيَّ كُرْسِيَّ بَيْنَ يَدَيْهِ فَاجْتَذَبَهُ إِلَيْهِ وَجَلَسَ عَلَيْهِ مُعْتَمِدًا
 بِرَأْسِهِ عَلَى عَصَاهُ وَقَدْ هَدَّأَتْ فِي نَفْسِهِ تِلْكَ الثَّوْرَةَ الَّتِي كَانَتْ تَضْطَرِمُ وَتَعْتَلِجُ
 مُنْذُ

دُخُولِهِ وَطَارَتْ عَنْ وَجْهِهِ تِلْكَ الْغَيْرَةُ السَّوْدَاءُ الَّتِي كَانَتْ تُظِلُّهُ مِنْ قَبْلِ فَعَدْتُ
 إِلَى

حَدِيثِي مَعَهُ أَقُولُ عَلَى أَنَّنِي يَا سَيِّدِي غَيْرُ شَاكِيَةٍ وَلَا نَاقِمَةٍ فَقَدْ مَرَّ بِي مِنْ نُوبِ
الْأَيَّامِ وَأَرْزَائِهَا مَا مَحَا مِنْ نَفْسِي كُلَّ شَهْوَةٍ مِنْ شَهَوَاتِ الْحَيَاةِ وَأُنْسَانِي جَمِيعَ
مَظَاهِرِ الدُّنْيَا وَمَفَاخِرِهَا فَأَصْبَحْتُ لَا أُبَالِي بِمَا تَأْتِي بِهِ الْأَيَّامُ وَسَوَاءٌ لَدَيَّ
الْفَقْرُ وَالْغِنَى وَالْحُلْيُ وَالْعِطْرُ وَسُكْنَى الْقَصْرِ وَسُكْنَى الْكُوخِ وَرُكُوبُ الْمَرْكَبَةِ
وَرُكُوبُ

النَّعْلِ وَكُلِّ مَا أَرْجُوهُ مِنْ حَيَاتِي وَأَضْرَعُ إِلَى اللَّهِ وَإِلَيْكَ فِيهِ أَنْ أَرَى أَرْمَانَ
يُقَاسِمُنِي هُمْ الْحَيَاةِ وَبُؤْسَهَا وَيَعِينُنِي عَلَى شِدَّتِهَا فَسُحَّةَ قَضِيَّتِهَا فِي شُكْرِكَ
وَحَمْدِكَ

وَالْإِخْلَاصَ لَكَ فِي سَرَى وَعَلَنِي وَإِنْ كَانَتْ الْآخِرَى كَانَ آخِرَ مَا ; طَلَّقَ بِهِ فِي
سَاعَتِي

الْآخِرَةَ أَنْ أَدْعُو لَكَ اللَّهُ تَعَالَى ضَارِعَةً مُبْتَهِلَةً أَنْ يُبَارِكَ لَكَ فِي نَفْسِكَ وَفِي
أَهْلِكَ وَأَنْ يُسَبِّلَ سِتْرَهُ الضَّافِي عَلَيْكَ فِي حَاضِرِكَ وَمُسْتَقْبَلِكَ .
ثُمَّ جَثَوْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَعَلَّقْتُ بِأَهْدَابِ ثَوْبِهِ وَقَدْ عَجَزْتُ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ عَنْ أَنْ
أَمْلَكَ

مِنْ دُمُوعِي مَا كُنْتُ مَالِكَةً مِنْ قَبْلِ فَظَلَلْتُ أَبْكِي وَأَقُولُ .
رَحِمَاكَ يَا مَوْلَايَ إِنَّنِي امْرَأَةٌ بَائِسَةٌ مِسْكِينَةٌ قَدْ قَضَتْ عَلَيَّ بَعْضَ ضَرُورَاتِ
الْعَيْشِ فِي

فَاتِحَةِ حَيَاتِي أَنْ أَقِفَ عَلَى حَافَةِ تِلْكَ الْهُوَّةِ الَّتِي يَقِفُ عَلَى رَأْسِهَا النِّسَاءُ
الْجَائِعَاتُ فَسَقَطَتْ فِيهَا كَارِهَةً مُرْغَمَةً ثُمَّ أَرَدْتُ نَفْسِي عَلَى الرِّضَا بِتِلْكَ الْحَيَاةِ
الَّتِي قَدَّرَهَا اللَّهُ لِي فَلَمْ أَسْتَطِعْ فَأَصْبَحْتُ فِي مَنْزِلَةٍ بَيْنَ الْمَنْزِلَتَيْنِ لَا أَنَا
شَرِيفَةٌ أَنْعَمَ بَعِيشَ النِّسَاءِ الشَّرِيفَاتِ وَلَا مَيِّتَةٌ الْقَلْبِ أَسْعَدَ سَعَادَةَ الْفَتَيَاتِ

السَّاقِطَاتِ وَقَدْ وَجَدَتْ فِي وَلَدِكَ الرَّجُلَ الْوَحِيدَ الَّذِي أَحَبَّنِي لِنَفْسِي وَمَنْحَنِي مِنْ
وَدِّهِ

وَإِخْلَاصِهِ مَا ضَنَّ بِهِ عَلَى النَّاسِ جَمِيعًا فَأَنْسَتُ بِهِ أَنْسًا أَنْسَانِي سُقُوطِي
وَعَارِي

وَحَبَبَ إِلَيَّ الْحَيَاةَ بَعْدَ مَا أَبْغَضْتُهَا وَبَرَمْتُ بِهَا وَكِدْتُ أَقْضِي عَلَى نَفْسِي
بِالْخُلَاصِ

مِنْهَا فَلَا تَحْرِمْنِي جِوَارِهِ وَلَا تُفَرِّقْ بَيْنِي وَبَيْنِهِ فَإِنَّكَ إِنِ فَعَلْتَ أَشَقَيْتَنِي وَبَرَحْتَ
بِي وَمَلَأْتَ حَيَاتِي هَمًّا وَكَمَدًا وَأَنْتَ أَجَلُ مَنْ أَنْ تَرْضِيَ لِنَفْسِكَ بِأَنْ تَبْنِي
سَعَادَتَكَ

وَهَنَاءَكَ عَلَى شَقَاءِ امْرَأَةٍ مَسْكِينَةٍ مِثْلِي .

مَاذَا يَكُونُ مَصِيرِي غَدًا إِذَا أَصْبَحْتُ وَحِيدَةً مُنْقَطِعَةً فِي هَذَا الْعَالَمِ لَا صَدِيقَ لِي
وَلَا مُعَيَّنَ أَعُودَ إِلَى حَيَاتِي الَّتِي أَبْغَضْتُهَا وَأَخْشَاهَا فَأَعُودَ إِلَى جَرَائِمِي وَأَثَامِي
أُمُّ

أَقْتُلْ نَفْسِي بِيَدِي فِرَارًا مِنْ شَقَاءِ الدُّنْيَا وَبِرَّئِهَا فَأَخْتِمَ حَيَاتِي بِأَقْبَحِ مَا خَتَمَ
إِمْرُؤُ بِهِ حَيَاتِهِ لَا اسْتَطِيعَ وَاحِدَةٌ مِنْ هَاتَيْنِ فَأُمَدِّدَ إِلَيَّ يَدَكَ الْبَيْضَاءَ وَأُنْقِذَنِي
مِنْ هَذِهِ الْهُوَّةِ الْعَمِيقَةِ الَّتِي لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يُنْقِذَنِي مِنْهَا سِوَاكَ .
أَنَا أَعْلَمُ فِي حَاجَةٍ إِلَى وَلَدِكَ وَأَنْكَ أَوْلَى بِهِ مِنْ كُلِّ مَخْلُوقٍ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ
وَلَكِنِّي

أَعْلَمُ أَنَّكَ شَفِيقٌ رَحِيمٌ لَا تَأْبِي أَنْ تَتَصَدَّقَ عَلَى امْرَأَةٍ مَرِيضَةٍ بَائِسَةٍ مِثْلِي
بِسَاعَاتِ

مِنْ السَّعَادَةِ تَتَعَلَّلُ بِهَا فِي مَرَضِهَا الَّذِي تُكَابِدُهُ حَتَّى يُوَفِّيَهَا أَجَلَهَا لَا أَسْأَلُكَ

يَا سَيِّدِي مَالًا وَلَا نَسَبًا وَلَا عِرْضًا مِنْ أَعْرَاضِ الْحَيَاةِ بَلْ أَسْأَلُكَ أَنْ تَأْذَنَ لِلرِّمَانِ
بِالْبَقَاءِ مَعِي فَإِنَّ بَقَائِهِ بَقَاءُ حَيَاتِي وَسَعَادَتِي فَتَصَدَّقْ بِهِمَا عَلَيَّ إِنَّكَ مِنَ
الْمُحْسِنِينَ .

وَهُنَا شَعَرْتُ كَأَنَّهُ يَتَحَدَّثُ فِي كُرْسِيَةٍ فَخَفَقَ قَلْبِي خَفَقَانًا شَدِيدًا ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ
وَنَظَرَ

إِلَى نَظْرَةٍ أَهْدَأَ نَارًا وَأَقْصَرَ شُعَاعًا مِنْ نَظَرَتِهِ الْأُولَى وَقَالَ وَمِنْ أَيْنَ تَعِيشَانِ ؟
قُلْتُ عِنْدِي بَقِيَّةٌ مِنْ جَوَاهِرِي وَحَلَايَ سَائِبِغُهَا وَأَعِيشُ بِثَمَنِهَا مَعَهُ فِي زَاوِيَةٍ مِنْ
زَوَايَا بَارِيسَ عَيْشَ الْفُقَرَاءِ الْمُقْلِينَ لَا يَرَانَا أَحَدٌ وَلَا يَشْعُرُ بِوُجُودِنَا شَاعِرٌ
وَحَسْبُنَا الْحُبُّ سَعَادَةً نَعْنِي بَعَا عَنْ كُلِّ سَعَادَةٍ فِي هَذَا الْعَالَمِ وَهَنَاءَهُ .
قَالَ : ذَلِكَ هُوَ الشَّقَاءُ بَعَيْنُهُ فَإِنَّ الْحُبَّ نَبَاتٌ ظِلِّي تَقْتُلُهُ شَمْسُ الشَّقَاءِ الْحَارَةِ
وَكُلُّ سَعَادَةٍ فِي الْعَالَمِ غَيْرُ مُسْتَمَدَّةٍ مِنْ سَعَادَةِ الْمَالِ أَوْ لَاجِئَةٍ إِلَى ظِلَالِهِ فَهِيَ
كَاذِبَةٌ لَا وَجُودَ لَهَا إِلَّا فِي سَوَانِحِ الْخِيَالِ .

أَنْتُمَا الْيَوْمَ سَعِيدَانِ لِأَنَّ فِي يَدِكُمَا مَالًا تَعِيشَانِ بِهِ وَلِأَنَّكُمَا تَسْكُنَانِ هَذَا
الْمَنْزِلَ الْبَدِيعَ فَوْقَ هَذِهِ الْهَضْبَةِ الْعَالِيَةِ بِجَانِبِ هَذِهِ الْبُحَيْرَةِ الْجَمِيلَةِ فَإِذَا
خَلَّتْ يَدُكُمَا مِنَ الْمَالِ وَحَرَمْتُمَا هَذَا النِّعِيمَ لِذِي تَنْعَمَانِ بِهِ بِالْإِغْوَاءِ وَلَكُمَا
شَأْنُ نَفْسَيْكُمَا عَنْ شَأْنِ الْحُبِّ وَلِذَائِذِهِ وَسَرَى إِلَى نَفْسَيْكُمَا الضَّجَرُ وَالْمَلَلُ
وَرُبَّمَا

إِمْتَدَّتْ تِلْكَ السَّامَةُ بَيْنَكُمَا إِلَى أَبْعَدَ غَايَتِهَا .

إِنَّ لِلْحُبِّ فُنُونًا مِنَ الْجُنُونِ وَأَفْبَحَ فُنُونُهُ أَنْ يَعْتَقِدَ الْمُتَحَابَّانِ أَنَّ حُبَّهُمَا دَائِمٌ
لَا تَغْيِرُهُ حَوَادِثُ الْأَيَّامِ وَلَا تَنَالُ مِنْهُ الصُّرُوفُ وَالْغَيْرُ وَلَوْ عَقَلَا لَعَلَّمَا أَنَّ

الْحُبُّ لَوْنٌ مِنَ أَلْوَانِ النَّفْسِ وَعَرَضٌ مِنْ أَعْرَاضِهَا الطَّائِرَةُ تَأْتِي بِهِ شَهْوَةٌ
وَتَذْهَبُ بِهِ

أُخْرَى وَلَا يَذْهَبُ بِهِ الْمَثَلُ مِثْلُ الْفَاقَةِ إِذَا إِشْتَدَّتْ وَاسْتَحْكَمَتْ حَلَقَاتُهَا فَإِنَّ النَّفْسَ
تُطَالِبُ حَيَاتَهَا وَبَقَاءَهَا قَبْلَ أَنْ تَطْلُبَ لَذَائِذَهَا وَشَهَوَاتَهَا ؟
أَنَا أَعْلَمُ مِنْ شَأْنِ وَلَدِي يَا سَيِّدَتِي مَا لَا تَعْلَمِينَ وَأَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَعِيشَ
هَذِهِ الْعَيْشَةَ الْنَكَدَاءَ الَّتِي تَطْنِينُ وَهُوَ فَتَى فَقِيرٌ لَا يَمْلِكُ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا قِطْعَةً
صَغِيرَةً مِنَ الْأَرْضِ وَرِثَتِهَا عَنْ أُمِّهِ لَا تُغْنِي عَنْهُ وَلَا عَنْكَ شَيْئًا وَمَا أَنَا بِذِي
ثَرْوَةٍ

طَائِلَةٌ اسْتَطِيعَ أَنْ أَحْفَظَ لَهُ بِهَا زَمَنًا طَوِيلًا هَذَا الْعَيْشُ السَّعِيدُ الرَّغْدُ الَّذِي
يَعِيشُهُ الْيَوْمَ فِي بَارِيسَ فَلَمْ يَبْقَ بَيْنَ يَدَيْهِ إِلَّا أَنْ يَعِيشَ بِمَالِكَ وَهُوَ مَا لَا
أَرْضَاهُ لَهُ وَلَا يَرْضَاهُ لِنَفْسِهِ وَاسْمَحِي لِي يَا سَيِّدَتِي أَنْ أَقُولَ لَكَ إِنَّ جَمِيعَ
مَصَائِبِ

الدُّنْيَا وَأَرْزَائِهَا أَهْوَنُ عَلَيَّ وَعَلَيْهِ أَنْ يَقُولَ النَّاسُ إِنَّ خَلِيلَةَ أَرْمَانَ دُوْفَالٍ قَدْ
بَاعَتْ جَوَاهِرَهَا وَحَلَّاهَا الَّتِي أَهْدَاهَا إِلَيْهَا عُشَّاقُهَا الْمَاضُونَ لِنِتْفَقِ ثَمَنَهَا عَلَيْهِ
سَامِحِينَ يَا بُنَيَّتِي وَاغْتَفِرِي لِي حَدَّثَتِي وَخَشُونَتِي فَإِنَّ شَدِيدًا جِدًّا عَلَى وَالِدِ شَيْخٍ
مَثَلِي أَنْ يَرَى وَلَدَهُ الَّذِي وَضَعَ فِيهِ كُلَّ آمَالِ بَيْتِهِ يَهْوَى أَمَامَ عَيْنَيْهِ فِي هَذِهِ
الْهُوَّةِ السَّحِيقَةِ الَّتِي لَا قَرَارَ لَهَا دُونَ أَنْ يَطِيرَ قَلْبُهُ خَوْفًا وَهَلَعًا .
أَنَّهُ مُنْذُ عَرَفَكَ نَسِينِي وَنَسِيَ أُخْتَهُ فَلَا يُذَكِّرُنِي وَلَا يُذَكِّرُهَا وَقَدْ مَرِضْتُ مُنْذُ
شُهُورٍ

رِضًا مُشْرِفًا فَكَتَبْتُ إِلَيْهِ أَنْ يَأْتِيَ لِيَعُودَنِي فَلَمْ يَفْعَلْ وَلَمْ يُرِدْ عَلَى كِتَابِي أَيْ

أَنَّنِي كُنْتُ عَلَى وَشْكَ أَنْ أَمُوتَ وَلَا أَرَاهُ وَلَوْ تَمَّ ذَلِكَ لَذَهَبْتُ إِلَى قَبْرِ بِي بِحَسْرَةٍ
لَمْ

يَحْمِلَ مَثَلَهَا فِي صَدْرِهِ رَاحِلٌ عَنِ الدُّنْيَا مِنْ قَبْلِي .
أَنْتِ صَادِقَةٌ يَا سَيِّدَتِي فَدَقَوْلِكَ إِنَّهُ لَمْ يُنْفِقْ عَلَيْكَ جَمِيعَ مَا كَانَ بِيَدِهِ مِنَ الْمَالِ
لِأَنَّنِي عَلِمْتُ بِالْأَمْسِ أَنَّهُ قَامَرَ مُنْذُ عَهْدٍ قَرِيبٍ وَخَسِرَ فِي مُقَامَرَتِهِ كَثِيرًا كَمَا
عَلِمْتُ

أَنَّكَ لَا تُعَلِّمِينَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَمَا يُؤَمِّنُنِي إِنْ أَنَا تَرَكْتُهُ فِي هَذَا الْبَلَدِ أَلَّا
يَسْتَمِرَّ فِي هَذِهِ الْغَوَايَةِ الْجَدِيدَةِ الَّتِي خَطَا الْخَطَوَاتِ الْأُولَى فِي طَرِيقِهَا وَلَا
يَخْسِرَ فِي بَعْضِ مَوَاقِفِهِ خَسَارَةً عَظُمَى لَا أَجِدُ لِي بَدَأً مِنْ أَنْ أَخْذَ بِيَدِهِ فِيهَا
فَأُقَدِّمَ

إِلَيْهِ ذُخْرَ شَيْخُوحَتِي وَمَهْرَ ابْنَتِي فَهَلْكَ نَحْنُ الثَّلَاثَةُ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ ؟
مِنْ أَيْنَ لَكَ يَا بُنَيَّتِي أَنَّهُ إِنْ طَالَ عَهْدُكَ بِكَ لَا يَمْلِكُ وَلَا تَمْتَدَّ عَيْنُهُ إِلَى امْرَأَةٍ
سِوَاكَ فَتَكُونُ فَجِيعَتَكَ فِيهِ غَدًا شَرًّا مِنْ فَجِيعَتِكَ فِيهِ الْيَوْمَ وَمِنْ أَيْنَ لَهُ أَنَّكَ لَا
تَضِيقِينَ ذَرْعًا يَوْمًا مِنَ الْأَيَّامِ بِعَيْشَةِ الْوَحْشَةِ وَالْوَحْدَةِ فَتَحْنِينَ إِلَى حَيَاتِكَ
الْأُولَى حَيَاةَ الْإِنْسِ وَالْإِجْتِمَاعِ وَالضَّوْضَاءِ وَاللَّجْبِ وَهُوَ فَتَيٌّ غَيُورٌ مُسْتَطَارٌ
فَرُبَّمَا

أَنْفَتَ نَفْسَهُ أَنْ يُزَاحِمَهُ فِيكَ مُزَاحِمٌ وَرُبَّمَا امْتَدَّتْ يَدُهُ بِشَرٍّ إِلَى ذَلِكَ الَّذِي يُزَاحِمُهُ
فَتَتَازَلَا فَأَصَابَتْهُ مِنْ يَدِ مَنْزِلِهِ ضَرْبَةٌ تَقْضِي عَلَى حَيَاتِهِ وَتُفْجِعُنِي فِيهِ ؟
كَيْفَ يَكُونُ مَوْقِفُكَ يَا سَيِّدَتِي غَدًا إِنْ نَفَذَ فِيهِ هَذَا السَّهْمُ مِنَ الْقَضَاءِ أَمَامَ هَذَا
الْأَبِ الثَّائِلِ الْمُسْكِينِ إِذَا جَاءَكَ يَسْأَلُكَ عَنْ دَمٍ وَلَدَهُ ؟ وَكَيْفَ تَكُونُ أَلَامُ نَفْسِكَ
وَلَوْ أَعْجَبَهَا أَمَامَ مَشْهَدِ بُكَائِهِ وَتُفْجِعُهُ ؟

ثُمَّ أَرْتَعِشْ إِرْتِعَاشًا شَدِيدًا وَظَلَّ نَظْرُهُ حَائِرًا مُضْطَرِبًا كَأَنَّمَا يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ
يَرَى أَمَامَ عَيْنَيْهِ ذَلِكَ الْمَنْظَرَ الَّذِي يَتَحَدَّثُ عَنْهُ ثُمَّ سَكَنَ قَلِيلًا وَنَظَرَ إِلَى نَظْرَةٍ
هَادِئَةٍ مَمْلُوءَةٍ عَطْفًا وَحَنَانًا وَأَنْشَأَ يَقُولُ :

مَرَّ غَرِيتَ ؟ أَنْتَ أَعْظَمُ فِي عَيْنِي مِمَّا كُنْتُ أَظُنُّ وَأَكْرَمَ نَفْسًا مِنْ أَوْلَيْكَ النِّسَاءِ
الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّكَ وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ وَقَدْ وَجَدْتُ فِيكَ مِنْ فَضَائِلِ النَّفْسِ وَمَزَايَاهَا
مَا

لَمْ أَجِدْهُ إِلَّا قَلِيلًا فِي أَفْذَانِ الرِّجَالِ وَأَقَلَّ مِنَ الْقَلِيلِ فِي فَضْلِيَّاتِ النِّسَاءِ وَلَوْ
قِسِمَ الشَّرَفُ بَيْنَ النَّاسِ عَلَى مِقْدَارِ فَضَائِلِهِمْ وَصِفَاتِهِمْ لَكَانَ نَصِيبُكَ مِنْهُ أَوْفَرَ
الْأَنْصِيبَةِ وَأَوْفَاهَا .

لَا أَنْسَى لَكَ يَا مَرَّ غَرِيتَ مَا دُمْتُ حَيًّا كِتْمَانُكَ أَمْرَ الْكِتَابِ الَّذِي أَرْسَلْتَهُ إِلَيْكَ
وَاحْتِفَاطُكَ بِسِرِّهِ فِي سَاعَةِ تَتَفَرَّجُ فِيهَا الصُّدُورُ عَنْ مَكُونَاتِهَا وَلَا سَكُوتُكَ
وإِعضاءك

وَأَنْتَ فِي مَنْزِلِكَ وَمَوْضِعِ أَمْرِكَ وَنَهْيِكَ أَمَامَ حَدَّتِي وَخُشُونَتِي وَجُنُونِ غَضَبِي
وَلَا بِذَلِكَ

مَا بِذَلِكَ مِنْ ذَاتِ نَفْسِكَ وَذَاتِ يَدِكَ لَوْلَدِي مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُ وَفَاءَ لَهُ إِبْقَاءَ عَلَى
عِزَّةِ نَفْسِهِ وَكَرَامَتِهَا .

لَقَدْ كَانَتْ ضَحِيَّتُكَ الَّتِي قَدَّمْتَهَا لَوْلَدِكَ بِالْأَمْسِ عَظِيمَةً جِدًّا وَالْيَوْمَ جِئْتُكَ أَطْلُبُ
إِلَيْكَ أَنْ تُقَدِّمِي ضَحِيَّةَ أَعْظَمَ مِنْهَا لِابْنَتِي وَلَا مُعْتَمِدَ لِي أَعْتَمِدَ عَلَيْهِ فِي تَلْبِيَةِ
رَجَائِي عِنْدَكَ إِلَّا شَرَفَ نَفْسِكَ وَفَضِيلَتِهَا .

لَقَدْ تَرَكْتُ سَوْسَانَ وَرَأْيِي تَتَقَلَّبُ عَلَى فِرَاشِ الْمَرَضِ وَتُكَابِدُ مِنْهُ فَوْقَ مَا يَحْتَمِلُ
جِسْمُهَا النَّاسُ الْعَضُّ لَأَنَّ خَطِيبَهَا الَّذِي تُحِبُّهُ حُبًّا جَمًّا قَدْ هَجَرَهَا مِنْذُ شَهْرَيْنِ فَلَا

يَزُورَهَا وَلَا تَرَاهُ وَقَدْ كُنْتُ أَجْهَلُ قَبْلَ الْيَوْمِ سَبَبَ مَرَضِهَا إِلَّا الظَّنَّ وَالتَّقْدِيرَ
حَتَّى

سَهَرْتُ بِجَانِبِ أَجْهَلٍ قَبْلَ الْيَوْمِ سَبَبَ مَرَضِهَا إِلَّا الظَّنَّ وَالتَّقْدِيرَ حَتَّى سَهَرْتُ
بِجَانِبِ

فِرَاشِهَا لَيْلَةً كَانَتْ الْحُمَّى فِيهَا قَدْ نَالَتْ مِنْهَا مَنَالًا عَظِيمًا وَوَصَلَتْ بِهَا إِلَى
دَرَجَةِ الْخَيْلِ وَالْهَذْيَانِ فَسَمِعْتُهَا تَهْتَفُ بِاسْمِ خَطِيبِهَا مَرَّاتٍ كَثِيرَةً وَتَبْكِي كُلَّمَا
جَرَى

ذِكْرُهُ عَلَى لِسَانِهَا كَأَنَّهَا حَاضِرَةٌ مُسْتَفِيقَةٌ فَعَلِمْتُ مَوْضِعَ دَائِهَا وَذَهَبْتُ فِي الْيَوْمِ
الثَّانِي إِلَى وَالِدِ ذَلِكَ الْخَطِيبِ أَسْأَلُهُ عَمَّا وَلَدَهُ مِنْ أَمْرِ ابْنَتِي وَقَطَعَهُ عَنْ
زِيَارَتِهَا فَذَكَرْتُ لِي سَبَبًا غَرِيبًا لَكَ فِيهِ يَا سَيِّدَتِي بَعْضُ الشَّأْنِ فَإِنْ أَذْنَتْ لِي
حَدَّثْتُكَ

حَدِيثُهُ .

فَخَفَقَ قَلْبِي خَفَقَانًا شَدِيدًا وَأَحْسَسْتُ بِالشَّرِّ يَدْنُو مِنِّي رُوَيْدًا رُوَيْدًا إِلَّا أَنِّي
تَمَاسَكْتُ وَقُلْتُ لَهُ نَعَمْ أَذْنُ لَكَ يَا سَيِّدِي قَالَ لَقَدْ أَجَابَنِي الرَّجُلُ عَلَى سُؤَالِي
بِقَوْلِهِ

إِنَّ أُسْرَتِي أُسْرَةٌ شَرِيفَةٌ لَا تُصَاهِرُ إِلَّا أُسْرَةً شَرِيفَةً مِثْلَهَا مِنْ جَمِيعِ وُجُوهِهَا وَقَدْ
عَرَفْتُ أَسْلُوبَ الْمَعِيشَةِ السَّافِلَةِ الَّتِي يَعِيشُهَا وَلَدُكَ فِي بَارِيسَ إِنَّهُ يُعَاشِرُ مِنْذُ
عَهْدٍ

طَوِيلٍ امْرَأَةً مُؤَمِّسًا مَعْرُوفَةً هُنَاكَ مُعَاشَرَةً تَهْنَأُكَ وَتُبْذَلُ يَشْهَدُهَا النَّاسُ جَمِيعًا
وَلَا

أَسْمَحْ لِنَفْسِي إِنْ يَكُونُ مِثْلُ وَلَدِكَ فِي تَبَدُّلِهِ وَاسْتِهْتَارِهِ وَصِغَرِ نَفْسِهِ وَفَسُولَتِهَا
صِهْرًا

لَوْلَدِي وَلَا عَارًا عَلَى ابْنَتِي فَاسْتَقْبَلَتْ خُشُونَتَهُ وَجَفَاءَهُ بِصَبْرٍ وَاحْتِمَالٍ لِأَنَّ
الْخَوْفَ عَلَى ابْنَتِي شَغَلَنِي عَنِ الْغَضَبِ لِنَفْسِي وَقُلْتُ لَهُ أَوَانِقِ أَنْتَ مِمَّا تَقُولُ
فَأَدَّلِي

لِي بِمَا أَقْنَعَنِي فَلَمْ أَرْ بُدًّا مِنْ أَنْ أَسْلَمَ لَهُ بِصَوَابِ مَا فُعِلَ وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يَبُتَّ
فِي أَمْرِ الْخُطْبَةِ شَيْئًا حَتَّى أُسَافِرَ إِلَى بَارِيسَ وَأَعُودَ مِنْهَا .
ذَلِكَ مَا حَمَلَنِي عَلَى الْمَجِيءِ إِلَى بَارِيسَ وَهَذِهِ هِيَ قِصَّتِي الَّتِي جِئْتُ أُعْرِضُهَا
عَلَيْكَ

وَأَنْتَظِرُ حُكْمَكَ فِيهَا وَقَدْ كَتَمْتُهَا عَنِ النَّاسِ جَمِيعًا حَتَّى عَنْ وَلَدِي أَرْمَانَ
فَأَنْظُرِي

مَاذَا تَأْمُرِينَ ؟

وَهُنَا أَطْرُقُ بِرَأْسِهِ طَوِيلًا ثُمَّ رَفَعَهَا فَإِذَا عَبْرَةٌ تَتَرَقَّرِقُ فِي عَيْنَيْهِ وَإِذَا هُوَ
يُحَاوِلُ

الْكَلَامَ فَلَا يَسْتَطِيعُهُ فَرَحْمَتَهُ مِمَّا بِهِ وَأَعْظَمَتْ مُصَابَهُ حَتَّى نَسِيَتْ مُصَابِي
بِجَانِبِهِ

وَسَادَ السُّكُونُ بَيْنَنَا سَاعَةً لَا يُوقِلُ لِي شَيْئًا وَلَا أَدْرِي مَاذَا أَقُولُ لَهُ حَتَّى هَذَا
ثَائِرُهُ قَلِيلًا فَمَدَّ يَدَهُ إِلَيَّ فَأَخَذَهَا بَيْنَ ذِرَاعَيْهِ وَعَادَ إِلَيَّ حَدِيثَهُ يَقُولُ :
مَرَّ غَرِيتُ إِنْ حَيَاةَ ابْنَتِي بَيْنَ يَدَيْكَ فَاْمُنْحِنِي إِيَّاهَا تَتَّخِذِي عِنْدِي يَدًا لَا أَنْسَاهَا
لَكَ حَتَّى الْمَوْتِ .

إِنِّي لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَرَاهَا تَمُوتُ بَيْنَ يَدَيْ وَلَوْ تَمَّ ذَلِكَ لَمَتَّ عَلَى أَثَرِهَا حُزْنًا

وَكَمَدًا وَضِمْنًا فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ قَبْرٍ وَاحِدٍ لَقَدْ رَأَيْتَ مَصْرَعَ أُمِّهَا مُنْذُ خَمْسِ سِنِينَ
وَلَا

يَزَالُ أَثَرُهُ بَاقِيًا فِي نَفْسِي حَتَّى الْيَوْمِ وَلَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَرَى هَذَا الْمَشْهَدَ مَرَّةً
أُخْرَى فِي ابْنَتِهَا وَصُورَتِهَا الْبَاقِيَةِ عِنْدَ مَنْ بَعْدَهَا .
إِنِّي أَحِبُّهَا حُبًّا جَمًّا وَلَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَرَاهَا فِي سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِهَا حَزِينَةً أَوْ
مُكْتَنِبَةً فَكَيْفَ أَنْ أَرَاهَا تُعَالِجُ سَكَرَاتِ الْمَوْتِ !
إِنَّكَ لَا تُعْرِفُ فِيهَا يَا مَرْغَرِيتَ وَأَعْتَقِدُ أَنَّكَ لَوْ رَأَيْتَهَا لِأَحْبَبْتَهَا كَمَا أَحَبَّهَا
وَلِرَحْمَتِهَا كَمَا أَرْحَمَهَا وَلِفِدْيَتِهَا بِمَا تَسْتَطِيعِينَ رَأْفَةً إِنَّهَا جَمِيلَةٌ جِدًّا وَبَيَاضًا
مِثْلَ الْكَوْكَبِ وَطَاهِرَةٌ طَهَارَةَ الْمَلِكِ وَغَرِيرَةٌ غَرَارَةُ الطِّفْلِ فَاسْمَحِي لِهَذِهِ الْحَيَاةِ
الْغَضَّةِ الزَّاهِرَةِ بِالْبَقَاءِ وَالسَّعَادَةِ فَإِنَّهَا لَا تَسْتَحِقُّ الشَّقَاءَ .
إِنَّهَا الْيَوْمَ تَعِيشُ بِالْأَمَلِ الَّذِي أَوْدَعَتْهُ قَلْبُهَا يَوْمَ سَفَرِي فَإِنْ عُدْتُ إِلَيْهَا
بِالْخَبِيَةِ عُدْتُ إِلَيْهَا بِالْيَأْسِ الْقَاتِلِ وَالْقَضَاءِ النَّازِلِ .
إِنَّكَ تُحِبِّينَ أَرْمَانَ يَا مَرْغَرِيتَ وَقَدْ أَصْبَحْتَ أَعْتَقِدُ أَنَّكَ مُخْلِصَةٌ فِي حُبِّهِ
إِخْلَاصًا

عَظِيمًا فَاصْنَعِي مَا يَصْنَعُ الْمُحِبُّونَ الْمُخْلِصُونَ وَضَحِّي حُبَّكَ مِنْ أَجَلِهِ وَمِنْ
أَجَلِ مُسْتَقْبَلِهِ

فَالِإِذَا تَفَعَّلِي ذَلِكَ مِنْ أَجَلِهِ فَافْعَلِيهِ مِنْ أَجَلِي .
لَقَدْ قُلْتُ لِي إِنَّهُ الرَّجُلُ الْوَحِيدَ الَّذِي أَحَبَّكَ لِنَفْسِكَ أَكْثَرَ مِمَّا أَحَبَّكَ لِنَفْسِهِ
فَبَادِلِيهِ هَذَا الْحُبَّ بَلْ كَوْنِي خَيْرًا مِنْهُ فِيهِ وَلَيْكُنْ عَزَاؤُكَ عَمَلًا تَلْأَقِيهِ بَعْدَ
فِرَاقِهِ مِنْ حُزْنٍ وَأَلَمٍ أَنَّهُ قَدْ أَصْبَحَ سَعِيدًا مَنْ بَعْدَكَ وَأَنَّكَ قَدْ أَنْقَذْتَ مِنْ يَدِ
الْمَوْتِ

فَتَاةٌ مِسْكِينَةٌ وَمِنْ يَدِ الشَّقَاءِ شَيْخًا حَرِينًا وَهُنَا أَخْتَنِقُ صَوْتَهُ بِالْبُكَاءِ فَهَبَطَ عَلَى
 كُرْسِيِّهِ بَيْنَ يَدَيَّ وَقَالَ بِنِعْمَةِ الْمُشْرِفِ الْمُحْتَضِرِ :
 اِرْحَمِينِي يَا مَرْغَرِيْتِ وَاشْفَقِي عَلَى ضِعْفِي وَشَيْخُوحَتِي وَتَصَدَّقِي عَلَيَّ
 بِمُسْتَقْبَلِ وَلَدِي

وَحَيَاةِ ابْنَتِي .

ثُمَّ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَقُولَ بَعْدَ ذَلِكَ شَيْئًا فَأَلْقَى رَأْسَهُ عَلَى كُرْسِيِّهِ الَّذِي كَانَ جَالِسًا
 عَلَيْهِ وَانْفَجَرَ بَاكِيًا .

آه لَوْ رَأَيْتَنِي يَا أَرْمَانَ فِي مَوْقِفِي هَذَا وَرَأَيْتَ لَوْعَتِي وَتَفْجَعِي وَدُمُوعِي
 الْمُنْهَمِرَةَ

فِي خَدَيَّ اِنْهَمَارَ الدِّيمَةِ الْوُطْفَاءِ رَحْمَةً بِأَبِيكَ وَإِشْفَاقًا عَلَيْهِ .
 لَقَدْ كَانَ يَتَكَلَّمُ فَتَسِيلُ مَدَامِعِي مَعَ حُرُوفِهِ وَكَلِمَاتِهِ كَأَنَّمَا هُوَ يَنْشُدُ مَرِثَةً مُحْزِنَةً
 أَنَا الْمُبْكِيَّةُ عَلَيْهَا فِيهَا ؟

إِنَّ الْعَظِيمَ عَظِيمٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى فِي أَحْزَانِهِ وَآلَامِهِ فَلَقَدْ كَانَ يُخَيَّلُ إِلَيَّ
 وَأَبُوكَ

يُبْكِي بَيْنَ يَدَيَّ وَيَنْتَحِبُ أَنَّ كُلَّ دَمْعَةٍ مِنْ دُمُوعِهِ تَسْتَنْزِلُ غَضَبَ اللَّهِ عَلَى
 الْأَرْضِ وَكُلِّ

زَفْرَةٍ مِنْ زَفَرَاتِهِ تَلْتَهِبُ بِهَا آفَاقَ السَّمَاءِ .

لَقَدْ أَكْبَرْتُ فِي نَفْسِي جَدًّا أَنْ يَجُثُو مِثْلَ هَذَا الشَّيْخِ الشَّرِيفِ الطَّاهِرِ بَيْنَ يَدَيَّ
 فَتَاةٌ سَاقِطَةٌ مَتَلِّي بِالْإِغْوَاءِ مِنْ ذَلِكَ حَيَاءً تَمَنِّيْتُ مَعَهُ أَنْ لَوْ انْشَقَّتْ الْأَرْضُ تَحْتَ
 قَدَمِي فَسَخَتْ فِيهَا أَبَدَ الدَّهْرِ .

وَبَيْنَمَا هُوَ مُطَرِّقٌ صَامِتٌ أَخَذَتْ أَفْكَرٌ فِيهِ وَفِي مُصَابِهِ وَفِي قِصَّتِهِ الَّتِي قَصَّهَا
عَلَيَّ وَفِي

الشَّانَ الَّذِي لِي فِيهَا فَعَلِمْتُ أَنِّي قَدْ أَصْبَحْتُ شَوْمًا عَلَى هَذِهِ الْأُسْرَةِ السَّعِيدَةِ
جَمِيعَهَا أَبِيهَا وَابْنَهَا وَابْنَتَهَا فَتَقَلَّتْ نَفْسِي عَلَيَّ وَسَمِجَ مَنْظَرُهَا فِي عَيْنِي حَتَّى
خُيِّلَ

إِلَيَّ أَنَّهَا لَوْ كَانَتْ حَاضِرَةً بَيْنَ يَدَيَّ لَرُمِيتْ بِهَا مِنْ حَالِقٍ إِلَى حَيْثُ لَا يَجْمَعُنِي
وَأَيَّاهَا مَكَانَ بَعْدَ الْيَوْمِ ثُمَّ قُلْتُ فِي نَفْسِي إِنَّ حَيَاتِي الْمَاضِيَةَ الَّتِي قَضَيْتُهَا فِي
الشَّرُّورِ وَاللَّئَامِ قَدْ قَطَعْتُ عَلَى طَرِيقِ الشَّرَفِ فَلَا حَقَّ لِي فِي أَنْ أَطْمَعَ فِي حَيَاةِ
الشَّرَفَاءِ وَلَا أَنْ أُنَازِعَهُمْ سَعَادَتَهُمْ وَهَنَاءَهُمْ وَإِنَّ اللَّائِمَ الَّذِي اقْتَرَفْتُهُ فِي مَاضِي
قَدْ بِالْإِغْوَاءِ وَحَدِي فَلَا بُدَّ لِي أَنْ أَسْتَقِلَّ بِعَيْتِهِ دُونَ أَنْ أُلْقِيَهُ عَلَى عَاتِقِ أَحَدٍ
غَيْرِي

فَإِنْ كَانَ مُقَدَّرًا عَلَيَّ أَنْ أَمُوتَ مَوْتِ النِّسَاءِ السَّاقِطَاتِ فَذَلِكَ لِي أَنِّي امْرَأَةٌ سَاقِطَةٌ
أَوْ أُلَاقِي فِي مُسْتَقْبَلِ حَيَاتِي شَقَاءَ وَالْمَا فَذَلِكَ لِأَنَّ الْمُسْتَقْبَلَ نَتِيجَةُ الْمَاضِي
وَتَمَرَّتْهُ الطَّبِيعِيَّةُ .

هَذَا ذَكَرْتُكَ يَا أَرْمَانَ وَذَكَرْتُ فِرَاقَكَ وَكَيْفَ أَسْتَطِيعُهُ وَذَكَرْتُ أَنَا الَّتِي سَأَتَوَلَّى
قَتْلَ

نَفْسِي بِيَدِي لِأَنَّ الطَّرِيقَ الَّتِي لَا طَرِيقَ غَيْرِهَا إِلَى بُلُوغِ رِضَا أَبِيكَ وَمُوَافَاةِ
رَغْبَتِهِ أَنْ أَقَاطِعَكَ وَأَغَاضِبَكَ وَأَظْهَرَ أَمَامَكَ بِمَظْهَرِ الْخَائِنَةِ الْغَادِرَةِ وَرَبِّمَا
إِضْطَرَّرْتُ

إِلَى الْإِتِّصَالِ بِغَيْرِكَ عَلَى مَرَأَى مِنْكَ وَمَسْمَعٍ حَتَّى تَتَصَرَّفَ عَنِّي إِنْصِرَافَ
يَأْسٍ مَغْلُوبٍ

عَلَى أَمْرِهِ مِنْ حَيْثُ لَا يَكُونُ لِأَبِيكَ مُدْخَلٌ فِي ذَلِكَ فَأَكُونُ قَدْ جَمَعْتُ عَلَى نَفْسِي
بَيْنَ

فِرَاقِكَ وَغَضَبِكَ فِي آنٍ وَاحِدٍ وَذُكِّرْتُ أَنَّ لَا بُدَّ لِي مَتَى فَارَقْتُكَ أَنْ أَعُودَ إِلَى
حَيَاتِي

الْأُولَى الَّتِي أَبْغَضْتُهَا وَأَمَقْتُهَا لِأَنَّ لَمْ يَسْتَطِيعَ أَنْ يَنْسَى ذَنْبِي الَّذِي
أَذْنَبْتُهُ إِلَيْهِ حَتَّى الْيَوْمِ وَلِأَنِّي فِي حَاجَةٍ إِلَى بَسْطَةِ مِنَ الْعَيْشِ أَسْتَعِينُ بِهَا عَلَى
مُعَالَجَةِ مَرَضِي وَوَفَاءِ دِينِي فَدَارَتْ هَذِهِ الْخَوَاطِرُ فِي رَأْسِي سَاعَةً وَطَالَتْ
دَوْرَتُهَا حَتَّى

كَادَتْ تَغْلِبُنِي عَلَى أَمْرِي ثُمَّ وَقَعَ نَظْرِي عَلَى وَجْهِ أَبِيكَ الْمَخْصَلِ بِدُمُوعِهِ
فَتَجَلَدْتُ

وَجَمَعْتُ أَمْرِي وَمَضَيْتُ قُدُمًا لَا أَلُوي عَلَى شَيْءٍ مِمَّا وَرَائِي .
لَقَدْ كَانَ شَدِيدًا عَلَيَّ جِدًّا أَنْ أَفَارِقَكَ يَا أَرْمَانَ وَلَكِنَّ كَأَنَّ أَشَدَّ عَلَى مِنْهُ أَنْ أَرَى
أَبَاكَ يَبْكِي بَيْنَ يَدَيَّ وَأَنْ أَكُونَ سَبَبًا فِي مَوْتِ أُخْتِكَ أَوْ شَقَائِهَا .
إِنِّي أَحِبُّ يَا أَرْكَانَ وَأَعْرِفُ أَلَامَ الْحُبِّ وَلَوْ عَتَهُ فِي الْنُفُوسِ وَلَقَدْ كَانَ يُخَيَّلُ
إِلَيَّ

وَأَبُوكَ يُحَدِّثُنِي عَنْ أُخْتِكَ وَشَقَائِهَا أَنَّنِي أَرَاهَا مِنْ خِلَالِ دُمُوعِي طَرِيحَةً فِرَاشِهَا
وَهِيَ

تَمُدُّ يَدَهَا إِلَى ضَارِعَةٍ مُتَوَسِّلَةٍ وَتَقُولُ بِالْإِغْوَاءِ يَا سَيِّدَتِي وَارْحَمِي ضِعْفِي
وَشَبَابِي

فَأَجِدُ لِكَلِمَاتِهَا مِنَ الْأَثَرِ فِي نَفْسِي مَا لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَشْعُرَ بِهِ إِلَّا مَنْ كَانَ لَهُ
شَأْنٌ مِثْلُ شَأْنِي .

إِنِّي حَرَمْتُ فِي مَبْدَأِ حَيَاتِي سَعَادَةَ الزَّوْجِيَّةِ وَهَنَاءَهَا وَلَقِيتُ بِسَبَبِ ذَلِكَ مِنْ
الشَّقَاءِ

مَا لَا أزال أُبْكِيهِ حَتَّى الْيَوْمَ فَلَا يُهَيِّجُ حُزْنِي وَلَا يَسْتَثِيرُ كَامِنٌ لَوْعَتِي مِثْلَ أَنْ
أَرَى بَيْنَ النَّاسِ فَتَاةَ مَحْرُومَةِ السَّعَادَةِ مِثْلِي .
إِنِّي أُحِبُّ وَهِيَ تُحِبُّ وَلَا بُدَّ لِوَاحِدَةٍ مِنَّا أَنْ تَمُوتَ فِدَاءَ عَنِ الْآخَرَى فَلَأُمُتَ أَنَا
فِدَاءَ عَنْهَا لِأَنَّهَا أُخْتُكَ وَلِأَنَّهَا لَمْ تَقْتَرِفِ فِي حَيَاتِهَا ذَنْبًا تَسْتَحِقُّ بِسَبَبِهِ الشَّقَاءَ .
وَكُنْتُ كُلَّمَا ذَكَرْتُ أَنَّهَا سَتُصْبِحُ سَعِيدَةً هَانِئَةً مِنْ بَعْدِي وَتَرَأَى لِي شَبَحَهَا
وَهِيَ

لَابِسَةً ثَوْبَ عُرْسِهَا اللَّابِئِضِ الْجَمِيلِ وَسَائِرَةَ إِلَى الْكَنِيسَةِ بِجَانِبِ خَطِيبِهَا طَارَ
قَلْبِي

فَرَحًا وَسُرُورًا وَهَانَ عَلَيَّ كُلُّ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ غِطَّتِهَا وَهَنَائِهَا .
نَعَمْ إِنَّ الضَّرْبَةَ الَّتِي سَأَسْتَقْبِلُهَا شَدِيدَةٌ جِدًّا وَلَا يَقْوَى عَلَيْهَا قَلْبِي وَلَكِنِّي
سَأَحْتَمِلُهَا بِصَبْرٍ وَسُكُونٍ لِأَنَّ أَبَاكَ سَيُصْبِحُ رَاضِيًا عَنِّي وَلِأَنَّكَ سَتَعْلَمُ فِي
مُسْتَقْبَلِ

الْأَيَّامِ سِرَّ تَضَحِّيَتِي فَتَحَبِّتِي فَوْقَ مَا أَحْبَبْتَنِي وَلِأَنَّ أُخْتُكَ سَتُصْبِحُ سَعِيدَةً مُغْتَبِطَةً
بِعَيْشِهَا وَحُبِّهَا وَسَيَكُونُ أَمْسِي بَيْنَ الْأَسْمَاءِ الَّتِي تَدْعُو لَهَا اللَّهُ فِي صَلَوَاتِهَا
بِالرَّحْمَةِ وَالرِّضْوَانِ .

جَاءَتْ السَّاعَةُ الَّتِي أَقُولُ فِيهَا لِأَبِيكَ كَلِمَتِي الْآخِرَةَ لَقَدْ كَانَتْ شَدِيدَةً هَائِلَةً
أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُعْفِرَ لِي بِمَا لَقِيتُ فِيهَا مِنْ أَلَامٍ مَاضِي ذُنُوبِي وَآتِيهَا كَمَا
أَسْأَلُهُ أَلَّا يُذِيقَ مَرَارَتَهَا قَلْبَ امْرَأَةٍ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِي .

قُمْتُ مِنْ مَكَانِي كَأَنِّي أَنْتَرِعَ نَفْسِي مِنَ الْأَرْضِ أَنْتَزَاعًا وَمَشَيْتُ إِلَى أَبِيكَ كَمَا
يَمْشِي

الحائن إِلَى مَصْرَعِهِ حَتَّى جَثَوْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَخَذْتُ بِيَدِهِ فَاسْتَفَاقَ مَنْ غَشِيَتْهُ
وَنَظَرَ إِلَيَّ

ذَاهِلًا مَشْدُوهًا فَقُلْتُ لَهُ أَعْتَقِدُ يَا سَيِّدِي أَنَّي أَحَبُّ وَلَدِكَ ؟ قَالَ نَعَمْ قَالَتْ حُبًّا هُوَ
مُنْتَهَى مَا تَسْتَطِيعُ امْرَأَةٌ أَنْ تَحْتَمِلَ قَالَ نَعَمْ قُلْتُ وَأَنْ هَذَا الْحُبُّ هُوَ كُلُّ آمَالِي
وَسَعَادَتِي وَمَا أَمَلْتُ فِي الْحَيَاةِ قَالَ نَعَمْ يَا بُنَيَّتِي قُلْتُ قَدْ ضَحَيْتَهُ مِنْ أَجْلِ ابْنَتِكَ
فَعَدَّ إِلَيْهَا وَبَشَّرَهَا بِسَعَادَةِ الْمُسْتَقْبَلِ وَهَنَائِهِ وَقُلَّ لَهَا إِنَّ امْرَأَةً لَا تَعْرِفُكَ وَلَمْ
تَتْرُكْ فِي يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ حَيَاتِهَا وَلَكِنَّهَا تُحِبُّكَ وَتُشْفِقُ عَلَيْكَ تَمُوتُ الْآنَ مِنْ أَجْلِكَ
فَاسْأَلِي اللَّهَ لَهَا الرَّحْمَةَ وَالْغُفْرَانَ .

فَتَهَلَّلَ وَجْهَهُ بِشْرًا وَسُرُورًا وَلَمْ يَدْعُ كَلِمَةً مِنْ كَلِمَاتِ الشُّكْرِ وَالثَّنَاءِ إِلَّا أَفْضَى
بِهَا إِلَيَّ فَأَنْسَانِي سُرُورُهُ وَاعْتِبَاطُهُ أَلَمَ الضَّرْبَةِ الَّتِي أَصَابَتْ كَبِدِي وَاسْتَحَالَ
حُزْنِي

بِالْإِغْوَاءِ إِلَى رَاحَةٍ وَسُكُونٍ فَحَمِدْتُ اللَّهَ عَلَى أَنْ لَمْ يَرَ فِي وَجْهِي فِي تِلْكَ
السَّاعَةِ

مَا يُنْغِصُ عَلَيْهِ سُرُورُهُ وَاعْتِبَاطُهُ .

وَهُنَا شَعَرْتُ بِحَرَكَةٍ عِنْدَ بَابِ الْغُرْفَةِ فَالْتَقَتُ فَإِذَا بَرُودَنسٌ تُشِيرُ إِلَى بِيَدِهَا
فَذَهَبَتْ

إِلَيْهَا فَأَعْطَتْنِي كِتَابًا جَاءَ بِهِ الْبَرِيدُ فَقَرَأْتُ عَنْوَانَهُ فَإِذَا هُوَ بِخَطِّ الْمُرْكُزِ جَانِّ
فِيلِيبَ فَعَلِمْتُ مَا يَتَضَمَّنُهُ قَبْلَ أَنْ أَرَاهُ وَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَوْحَى إِلَيَّ بِمَا

أَفْعَلْ فَذَهَبْتُ مُسْرِعَةً إِلَى غُرْفَةِ مَكْتَبِي كَأَنِّي أَخَافُ أَنْ يَعْضِدَ لِي فِي طَرِيقِي
مَا

يُزَعِرُ عَزِيمَتِي وَهُنَاكَ قَرَأْتُ الْكِتَابَ وَكَتَبْتُ لِصَاحِبِهِ فِي بَطَاقَةٍ صَغِيرَةٍ هَذِهِ
الْكَلِمَةَ

سَأَتَعَشَّى عِنْدَكَ اللَّيْلَةَ ثُمَّ أُعْطِيَتْهَا بَرُودَنسَ لِتَلْقِيَهَا فِي صُنْدُوقِ الْبَرِيدِ وَعُدْتُ
إِلَى

أَبِيكَ فَوَجَدْتُهُ حَيْثُ تَرَكْتُهُ فَقُلْتُ لَهُ إِنَّ أَرْمَانَ لَا يَعْلَمُ شَيْئًا مِنْ أَمْرِ زِيَارَتِكَ هَذِهِ
فَاكْتُمَهَا عَنْهُ حِينَ نَلْقَاهُ وَسَأَكْتُبُ إِلَيْهِ كِتَابَ مُقَاطَعَةٍ لَا يَشْكُ فِي أَنَّ صَاحِبَةَ
الرَّأْيِ فِيهِ وَأَنْ لَا يَدَّ لَكَ فِيهَا كَانَ وَسَيَعْلَمُ الْيَوْمَ أَوْ غَدًا أَنَّنِي قَدْ بَرَجُلٌ
غَيْرُهُ فَيَرَى أَنَّنِي قَدْ خُنْتُهُ وَغَدَرْتُ بِعَهْدِهِ فَلَا يَجِدُ لَهُ بُدًّا مِنْ أَنْ يُسَافِرَ مَعَكَ
قَاطِعًا رَجَاءَهُ مِنِّي وَرُبَّمَا تَأَلَّمَ لِهَذِهِ الصَّدْمَةِ بَضْعَةَ أَيَّامٍ أَوْ بَضْعَةَ أَسَابِيعٍ فَلَا
تَحْقُلُ بِذَلِكَ بِالْإِغْوَاءِ حُبِّي فِي قَلْبِهِ كَمَا يَبْلَى كُلُّ حُبٍّ فِي كُلِّ قَلْبٍ غَيْرِ أَنْ لِي
عِنْدَكَ

طَلَبَةٌ وَاحِدَةٌ لَا أُرِيدُ مِنْكَ سِوَاهَا فَهَلْ تَسْمَحُ لِي بِهَا قَالَ نَعَمْ أَسْمَحُ لَكَ بِكُلِّ شَيْءٍ
قُلْتُ إِنِّي مَرِيضَةٌ مُشْرِفَةٌ وَإِنَّ الْعِلَّةَ الَّتِي أَكْبَدَهَا كَثِيرًا مَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ عَنْهَا
أَنَّهَا لَا تَتْرُكُ صَاحِبَهَا طَالَتْ أَمْ قَصُرَتْ حَتَّى تَذْهَبَ بِهِ إِلَى قَبْرِهِ فَكُلُّ مَا أَسْأَلُكَ
إِيَّاهُ أَنْ تَأْذَنَ لِلْأَرْكَانِ فِي الْيَوْمِ الَّذِي تَعْلَمُ فِيهِ أَنَّنِي قَدْ أَصْبَحْتُ عَلَى حَافَةِ قَبْرِي
أَنْ يَأْتِيَنِي لِأَرَاهُ وَأُودِّعَهُ الْوَدَاعَ الْأَخِيرَ وَأَعْتَذِرُ لِعَنْ ذَنْبِي الَّذِي أَذْنَبْتُهُ
إِلَيْهِ حَتَّى لَا أَخْسَرَ حُبَّهُ وَاحْتِرَامَهُ حَيَّةً وَمَيِّتَةً فَنَظَرَ إِلَيَّ نَظْرَةً دَامِعَةً وَقَالَ
وَارْحَمْتَاهُ لَكَ يَا بُنَيَّتِي أَنَّنِي أَعِدُّكَ بِمَا أَرَدْتُ وَأَسْأَلُ اللَّهَ لَكَ الشِّفَاءَ وَالْعِزَّاءَ .

ثُمَّ حَاوَلَ أَنْ يَعْرِضَ عَلَيَّ شَيْئًا مِنَ الْمَعُونَةِ فَأَبَيْتُ ذَلِكَ إِبَاءً شَدِيدًا وَقُلْتُ لَهُ إِنِّي
لَمْ أَبِعْ نَفْسِي يَا سَيِّدِي بِيَعًا بَلْ وَهَبْتُهَا هِبَةً فَأَخَذَ رَأْسِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَقُبِّلَتِي فِي
جَبِينِي قُبْلَةً كَانَتْ خَيْرَ جَزَاءٍ لِي عَلَى تَضَحِّيَتِي الَّتِي ضَحَّيْتُ بِهَا وَوَدَّعَنِي
وَمَضَى .

فَمَا أَبْعَدُ إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى قُمْتُ إِلَى خِزَانَتِي فَجَمَعْتُ ثِيَابِي وَمَا بَقِيَ لِي مِنْ حَلَايَ
وَوَضَعْتُهَا فِي حَقِيبَتِي وَسَافَرْتُ مَعَ بَرودنس إِلَى بَارِيس وَذَهَبْتُ إِلَى مَنْزِلِي
هُنَاكَ

فَكَتَبْتُ إِلَيْكَ فِيهِ ذَلِكَ الْكِتَابَ الَّذِي تَعَلَّمَهُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ كَمْ سَكَبْتُ مِنَ الدُّمُوعِ وَكَمْ
وَقَفَ قَلْبِي بَيْنَ كُلِّ كَلِمَةٍ وَمَا يَلِيهَا أَثْنَاءَ كِتَابَتِهِ حَتَّى أَتَمَّمْتُهُ فَأَعْطَيْتُهُ حَارِسَ
الْمَنْزِلِ وَأَوْصَيْتُهُ أَنْ يُسَلِّمَهُ إِلَيْكَ عِنْدَ مَجِيئِكَ ثُمَّ ذَهَبْتُ لِلْوَفَاءِ بَعْدَهُ الْمُرَكِّزِ .
أَمَّا حَيَاتِي مَعَ ذَلِكَ الرَّجُلِ فَلَا اسْتَطِيعُ أَنْ أَقْصَّ عَلَيْكَ مِنْهَا شَيْئًا عَلَيْكَ مِنْهَا
سِوَى

أَنْ أَقُولَ لَكَ إِنَّهُ لَمْ يَرِ فِي الْمَرْأَةِ الَّتِي كَانَ يَتَخَيَّلُهَا وَيُمْنِي نَفْسَهُ بِهَا وَلَمْ أَرِ
فِيهِ الرَّجُلَ الَّذِي يُؤْنِسُنِي وَيُخَلِّطُ نَفْسَهُ بِنَفْسِي فَافْتَرَقْنَا فَأَصْبَحْتُ لَا أَعْرِفُ لِي
فِي

الْعَالَمِ صَدِيقًا صَادِقًا وَلَا كَاذِبًا .

هَذِهِ قِصَّتِي يَا أَرْمَانَ كَمَا هِيَ وَهَذَا ذَنْبِي الَّذِي أَذْنَبْتُهُ إِلَيْكَ فَهَلْ تَرَى بَعْدَ ذَلِكَ
أَنِّي خَائِنَةٌ أَوْ خَادِعَةٌ ؟

قَلْبِي يُحَدِّثُنِي أَنَّنِي سَأَمُوتُ قَبْلَ أَنْ أَرَكَ وَأُمْلِي يُخَيِّلُ لِي أَنَّ مَا فِي نَفْسِكَ مِنْ
الْمَوْجِدَةِ عَلَيَّ يَسْتَمِرُّ إِلَى مَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَأَنَّكَ سَتَعُودُ إِلَى بَارِيس فِي السَّاعَةِ
الَّتِي

يَنَعَانِي لَكَ فِيهَا النَّاعِي لِتَزُورَ قَبْرَ تِلْكَ الْمَزَاةِ الْمِسْكِينَةِ الَّتِي تَوَلَّتْ سَعَادَةَ
قَلْبِكَ وَهِنَاءَ حِقْبَةِ مِنْ أَيَّامِ حَيَاتِكَ ثُمَّ خَدَجْتَ مِنَ الدُّنْيَا فَارِغَةً أَلَيْدَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ
حَتَّى مِنْ حُبِّكَ وَعَطْفِكَ وَرُبَّمَا بَلَغَ بِكَ الْإِهْتِمَامُ بِشَأْنِهَا أَنْ تُحَاوِلَ مَعْرِفَةَ مَا تَمَّ
لَهَا

مِنْ بَعْدِكَ إِلَى أَنْ ذَهَبَ بِهَا الْمَوْتُ إِلَى قَبْرِهَا .
فَهَذَا أَكْتُبُ هَذِهِ الْمَذْكُرَاتِ وَأَتْرُكُهَا لَكَ عِنْدَ بَرُودِنْسَ لَعَلَّكَ تَقْرَأُهَا فِي مُسْتَقْبَلِ
الْأَيَّامِ فَتَنْتَظِرُ إِلَيْهَا كَمَا تَنْتَظِرُ إِلَى كِتَابِ اعْتِرَافٍ مُقَدَّسٍ قَدْ أَلْبَسَهُ الْمَوْتُ ثَوْبَ
الطَّهَارَةِ وَالْبِرَاءَةِ فَتُصَدِّقُ مَا فِيهَا وَتَعْفُو عَنِّي فَيُنِيرَ ثَوْبَ الطَّهَارَةِ وَالْبِرَاءَةِ
فَتُصَدِّقُ مَا فِيهَا وَتَعْفُو عَنِّي فَيُنِيرَ عَفْوُكَ ظُلُمَاتِ قَبْرِي وَيُونُسَ وَحُشَّةَ نَفْسِي .
أَيْنَ أَنْتَ يَا أَرْمَانَ ؟ أَنْتَ بَعِيدٌ عَنِّي جَدًّا بَعِيدٌ بِجِسْمِكَ وَبِقَلْبِكَ لِأَنَّكَ لَمْ تُهْمَلْ
كِتَابِي الَّذِي كَتَبْتَهُ لَكَ وَدَعَوْتُكَ فِيهِ لِزِيَارَتِي وَسَمَاعِ اعْتِرَافِي الْأَخِيرِ إِلَّا لِأَنَّ
مَا كَانَ فِي نَفْسِكَ مِنَ الْعَتَبِ وَالْمُوجِدَةِ عَلَيَّ قَدْ اسْتَحَالَ إِلَى نِسْيَانٍ وَإِغْفَالٍ
فَأَصْبَحْتُ

لَا تَذْكُرْنِي كَمَا يَذْكُرُ الْمُحِبُّ حَبِيبَهُ وَلَا تَعْطِفْ عَلَيَّ كَمَا يَعْطِفُ الصَّدِيقُ عَلَى
صَدِيقِهِ

فَلْيَكُنْ مَا أَرَادَ اللَّهُ وَلْتَدُمْ لَكَ تِلْكَ السَّعَادَةُ الَّتِي يُنْعَمُ بِهَا بَيْنَ أَهْلِكَ وَقَوْمِكَ
فَإِنِّي غَيْرُ وَاجِدَةٍ عَلَيْكَ وَلَا نَاقِمَةٍ مِنْكَ شَيْئًا وَلَا حَامِلَةٌ لَكَ فِي نَفْسِي إِلَّا الْحُبَّ
وَالْإِخْلَاصَ وَالرِّضَا بِكُلِّ مَا تَأْتِي وَمَا تَدَعُ .
لِي عِدَّةُ أَيَّامٍ لَمْ أُرِ فِيهَا أَحَدًا مِنَ النَّاسِ لِأَنَّ الطَّبِيبَ مَنَعَنِي مِنَ الْخُرُوجِ وَلِأَنَّ
أَصْدِقَائِي الَّذِينَ كَانُوا يَعْرِفُونَنِي فِيمَا مَضَى قَدْ أَصْبَحُوا يَقْنَعُونَ مِنْ زِيَارَتِي
بِإِرْسَالِ بَطَاقَاتِهِمْ إِلَيَّ مَعَ خَادِمَتِي ثُمَّ يَنْصَرِفُونَ مُسْرِعِينَ كَأَنَّمَا يَفْرُونَ مِنْ أَمْرِ

يُخْفِيهِمْ وَلَقَدْ كَانُوا قَبْلَ الْيَوْمِ إِذَا أُرْسِلُوا لِبَثْوَا يَنْتَظِرُونَ السَّاعَاتِ الطُّوَالَ
حَتَّى آذَنَ لَهُمْ بِالْمُقَابَلَةِ فَإِذَا ظَفِرُوا بِهَا طَارُوا بِهَا فَرَحًا وَسُرُورًا وَإِنْ حَرَمُوهَا
عَادُوا آسِفِينَ مَحْزُونِينَ .

وَلَا أُدْرِي لِمَ لَا يَقْطَعُونَ بِطَاقَاتِهِمْ كَمَا قَطَعُوا زِيَارَاتِهِمْ فَقَدْ كَانُوا يَنْظُرُونَ أَنَّهُمْ
سَيَرَوْنِي بَيْنَهُمْ فِي مُسْتَقْبَلِ الْأَيَّامِ صَحِيحَةَ الْجِسْمِ طَيِّبَةَ النَّفْسِ أَصْلَحَ لِلْمُعَاشَرَةِ
وَالْمَخَادَنَةِ كَمَا كَانُوا يَعْهَدُونِي مِنْ قَبْلُ فَهُمْ فِي ظَنِّهِمْ مُخْطِئُونَ .
لَقَدْ أَحْسَنُوا فِيمَا عَلِمُوا فَإِنِّي أَصْبَحْتُ لَا أَنَسُ بِأَحَدٍ فِي الْعَالَمِ سِوَى نَفْسِي وَلَا
أَنَسُ بِنَفْسِي إِلَّا لَأَنِّي أَسْتَطِيعُ مَتَى خَلَوْتُ بِهَا أَنْ أُسْأَلَ عَنْكَ فَتُذَكِّرَنِي بِكَ
وَبِتِلْكَ

الْأَيَّامِ السَّعِيدَةِ الَّتِي قَضَيْتَهَا مَعَكَ فِي بوجيفال وَذِكْرِي تِلْكَ الْأَيَّامِ هِيَ الْعِزَاءُ
الْبَاقِي لِي عَنْ جَمِيعِ مَا خَسِرْتُ يَدِي .
مَا كُنْتُ أَظُنُّ يَا أَرْمَانَ أَنَّ جِسْمَ الْإِنْسَانِ يَحْتَمِلُ كُلَّ هَذِهِ الْأَلَامِ الَّتِي أَكَابِدَهَا
فَلَقَدْ تَمَرَّ بِسَاعَاتٍ أَعْتَقِدُ فِيهَا أَنَّ الْأَلَمَ الَّذِي أَكَابِدُهُ إِنَّمَا هُوَ أَلَمُ النَّزْعِ
وَأَنَّنِي فِي السَّاعَةِ الْآخِرَةِ مِنْ سَاعَاتِ حَيَاتِي فَإِذَا اسْتَفَقْتُ قُلْتُ فِي نَفْسِي هَذَا أَلَمُ
الْمَرَضِ وَقَدْ عَجَزْتُ عَنْهُ فَمَنْ لِي بِاحْتِمَالِ أَلَمِ الْمَوْتِ ؟
عَلَى أَنْ نَفْسِي تُحَدِّثُنِي أَحْيَانًا أَنَّهُ إِنْ قَدَّرَ لِي أَنْ أَرَكَ بِجَانِبِي فِي يَوْمٍ مِنْ
أَيَّامِ بَرِئْتُ مِنْ مَرَضِي وَتَرَجَعْتُ نَفْسِي وَعُدْتُ إِلَى رَاحَتِي وَسُكُونِي فَهَلْ يَقْدِرُ
لِي اللَّهُ
ذَلِكَ ؟

لَا أَعْلَمُ فَالْمُسْتَقْبَلُ بِيَدِ اللَّهِ فَلْيَقْدِرْ اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَلْيَفْعَلْ مَا يُرِيدُ .
لَمْ أَفَارِقْ سَرِيرِي مُنْذُ أَيَّامٍ إِلَّا صَبَاحَ هَذَا الْيَوْمِ فَجَلَسْتُ قَلِيلًا بِجَانِبِ نَافِذَتِي

وَأَشْرَقَتْ مِنْهَا عَلَى الْحَيَاةِ الْعَامَّةِ فَوْقَ نَظَرِي عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ كُنْتُ أَعْرِفُهُمْ مِنْ قَبْلُ

شائرين في طَرِيقِهِمْ لَاهِينَ مُغْتَبِطِينَ وَلَمْ أَرْ مَنْ وَقَعَ نَظَرُهُ إِلَيَّ نَوَافِذَ غُرْفَتِي مَرَّةً

وَاحِدَةً كَأَنَّمَا يَمُرُّونَ بَبَيْتٍ يُعْرِفْنَهُ وَلَا عَهْدَ لَهُمْ بِهِ مِنْ قَبْلُ .
مَا أَشَدَّ وَحْشَتِي وَمَا أَضْيَقَ صَدْرِي وَمَا اتَّقَلَ هَذَا الْجِدَارَ الَّذِي يَدُورُ حَوْلِي ؟
لَا أَطِيقُ النَّظَرَ إِلَى سَرِيرِي لِأَنَّ نَفْسِي تُحَدِّثُنِي أَنَّهُ سَيَكُونُ عَمَّا قَلِيلٍ سِلْمُ قَبْرِي
وَلَا الْوُقُوفَ أَمَامَ مِرَاتِي لِأَنَّهَا تُحَدِّثُنِي نَفْسِي أَسْوَأَ الْأَحَادِيثِ وَأَشْأَمَهَا وَلَا
الْإِشْرَافَ مِنْ نَافِذَتِي لِأَنَّهَا تُذَكِّرُنِي بِحَيَاتِي الْمَاضِيَةِ السَّعِيدَةِ الَّتِي حِيلَ بَيْنِي
وَبَيْنَهَا فَأَيْنَ أَذْهَبَ وَكَيْفَ أَعِيشَ ؟

لَا أَكُلُ إِلَّا طَعَامًا وَاحِدًا وَلَا أَرَى إِلَّا مَنْظَرًا مُتَكَرِّرًا وَلَا أَسْمَعُ إِلَّا صَوْتَ طَبِيبِي
وَخَادِمَتِي حِينَمَا يَسْأَلُهَا عَنِّي صَبَاحَ كُلِّ يَوْمٍ وَمَسَاءَهُ فَتُجِيبُهُ بِجَوَابٍ وَاحِدٍ حَتَّى
مَلَلْتُ

وَسَمِئْتُ وَأَصْبَحْتُ أَشْعُرُ أَنَّ نَفْسِي سَجِينُهُ فِي صَدْرِي سَجَنُ جِسْمِي فِي غُرْفَتِي
وَرُبَّمَا مَرَّتْ بِي

سَاعَاتٌ يَقِفُ فِيهَا ذَهْنِي عَنِ التَّفْكِيرِ وَخَاطِرِي عَنِ الْحَرَكَةِ وَيَنْقَطِعُ مَا بَيْنِي
وَبَيْنَ

يَوْمِي وَأَمْسِي وَغَدِي .

وَكُلُّ شَيْءٍ فِي الْحَيَاةِ حَتَّى نَفْسِي .

السُّعَالُ يَهْدِمُ أَرْكَانَ صَدْرِي هَدْمًا وَالنَّوْمُ لَا يُلِمُّ بِعَيْنِي إِلَّا قَلِيلًا وَالطَّبِيبُ
يُعَذِّبُنِي بِمَشَارِطِهِ وَضَمَادَاتِهِ عَذَابًا أَلِيمًا وَكُلُّ يَوْمٍ أَشْعُرُ أَنَّ نَفْسِي يَزْدَادُ ضَيْقًا

وَبَصْرِي يَزْدَادُ ظُلْمَةً وَأَنَّ الْحَيَاةَ تَبْعُدُ عَن نَّاظِرِي شَيْئًا فَشَيْئًا حَتَّى أَكَادُ أَحْسَبَهَا
شَبَحًا مِّنَ الْأَشْبَاحِ النَّائِيَةِ فَمَتَى يَنْقُضِي عَذَابِي ؟

سَمِعْتُ صَبَاحَ الْيَوْمِ كَثِيرًا فِي فَنَاءِ الْمَنْزِلِ فَسَأَلْتُ بَرُودَنسَ :
مَا الْخَبَرُ فَذَهَبْتَ وَعَادْتَ إِلَيَّ تَبْكِي وَتَقُولُ إِنَّهُمْ يَحْجِزُونَ أَثَاثَ الْمَنْزِلِ يَا سَيِّدَتِي
فَقُلْتُ دَعِيهِمْ يَفْعَلُونَ مَا يَشَاؤُونَ وَمَا هِيَ إِلَّا لَحَظَاتٌ قَلِيلَةٌ حَتَّى دَخَلُوا غُرْفَتِي
مُنْدَفِعِينَ مُتَصَاحِحِينَ وَلَمْ يَمُرَّ بِخَاطِرٍ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَنْ يَرْفَعَ قُبْعَتَهُ عَن رَأْسِهِ
إِحْتِرَامًا

لِصَاحِبَةِ الْمَنْزِلِ أَوْ يَخْفِضَ صَوْتَهُ إِشْفَاقًا عَلَى الْمَرِيضَةِ الْمُعَذَّبَةِ فَمَشَوْا
يُسْجَلُونَ كُلُّ

مَا وَقَعَ نَظَرُهُمْ عَلَيْهِ وَخَفَتْ أَنْ يُسْجَلُوا دَفْتَرُ مُذَكِّرَاتِي فَأَشَرْتُ إِلَى بَرُودَنسَ أَنَّ
تَخْفِيهِ عَنْهُمْ فَفَعَلْتُ فَحَمِدْتُ اللَّهَ عَلَى ذَلِكَ ثُمَّ وَصَلُوا إِلَيَّ سَرِيرِي فَطَلَبَ أَحَدُ
الدَّائِنِينَ حَاجِرَهُ وَقَالَ إِنَّهُ ثَمِينٌ سَيَكُونُ لَهُ يَوْمَ الْبَيْعِ شَأْنٌ عَظِيمٌ فَأَفْهَمَهُ الْحَاجِزُ
أَنَّ الْقَانُونَ يَسْتَنْتِجِي الْأُسْرَةَ وَفَرَشَهَا وَأُلْقِي فِي أُذُنِهِ كَلِمَةً أَحْسَبُ أَنِّي سَمِعْتُهُ يَقُولُ
فِيهَا إِنَّكَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَفْعَلَ ذَلِكَ بَعْدَ مَوْتِهَا ثُمَّ أَنْصَرَفُوا بَعْدَ مَا تَرَكُوا عَلَى بَابِ
بَيْتِي حَارِسًا لَا يُفَارِقُهُ لَيْلُهُ وَنَهَارُهُ كَتَبْتُ إِلَى الدُّوقِ مُوَهَّانَ وَهِيَ أَوَّلُ مَرَّةٍ
كَتَبْتُ إِلَيْهِ فِيهَا أَسْتَغْفِرُ ذَنْبِي الَّذِي أَذْنَبْتُهُ إِلَيْهِ وَاشْكُو لَهُ مَا نَالَتُهُ يَدُ
الْأَيَّامِ مِنِّي وَأَسْتَخْلِفُهُ بِذِكْرِي ابْنَتَهُ الْكَرِيمَةَ عَلَيْهِ أَنْ يَأْتِيَ لَزِيَارَتِي فَفَعَلَ فَبَكَى
عِنْدَمَا رَأْنِي وَلَا أَدْرِي هَلْ بَكَانِي أَوْ ذَكَرَ عِنْدَ رُؤْيَايَ مَصْرَعِي مَصْرَعِ ابْنَتِهِ
الْأَخِيرَ

فَبَكَاهَا ثُمَّ قُضِيَ بِجَانِبِ فِرَاشِي سَاعَةٌ مُطَرِّقًا صَامِتًا لَا يُحَدِّثُنِي إِلَّا قَلِيلًا وَلَا

يُذَكِّرُ الْمَاضِي بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ ذَهَبَ وَتَرَكَ فِي يَدِ بَرودنس ضَمَّةَ أَوْرَاقِ
اسْتَبَقَتْ

بَعْضُهَا لِلنَّفَقَةِ وَاسْتَعَانَتْ بِالْإِغْوَاءِ عَلَى تَأْجِيلِ بَيْعِ الْأَثَاثِ بِضَعَةِ أَشْهُرٍ .
لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَكْتُبَ إِلَيْكَ أَكْثَرَ مِمَّا كَتَبْتُ فَإِنَّ الطَّبِيبَ مَا زَالَ يُلِحُّ عَلَيَّ جِسْمِي
بِالْقَصْدِ حَتَّى أَوْهَا وَاسْتَنْزَفَ فَأَصْبَحْتُ لَا أَتَحَرَّكُ حَرَكَةَ إِلَّا شَعَرْتُ بِأَلَمٍ عَظِيمٍ .
إِنَّ هَذَا الْيَوْمَ أَسْعَدَ أَيَّامِي وَأَهْنَأَهَا فَقَدْ وَصَلَ إِلَيَّ مِنْ أَبِيكَ كِتَابٌ هَذَا نَصَّهُ .
سَيِّدَتِي :

إِنِّي أَتَوَجَّعُ لَكَ تَوَجُّعًا شَدِيدًا فَقَدْ عَلِمْتُ بِالْأَمْسِ مِنْ بَعْضِ الْوَأَفِدِينَ إِلَى نَيْسِ أَنَّكَ
مَرِيضَةٌ مَرَضًا شَدِيدًا مُنْذُ شَهْرَيْنِ وَأَنَّكَ لَا تُخْرِجِينَ مَنْ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا قَلِيلًا فَاسْأَلِ
اللَّهَ لَكَ الشِّفَاءَ وَالْعِزَاءَ وَأَضْرَعِ إِلَيْهِ أَنْ يَجْزِيكَ خَيْرًا بِمَا قَاسَيْتِ مِنَ اللَّأَلَامِ
وَالْأَوْجَاعِ فِي سَبِيلِي وَابْنَتِي وَأَبْشُرْكَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ تَقَبَّلَ قُرْبَانَكَ الَّذِي قَدَّمْتَهُ إِلَيْهِ
فَإِنَّ سُورَانَ قَدْ تَزَوَّجَتْ مِنْ خَطِيبِهَا مُنْذُ عِشْرِينَ يَوْمًا وَأَصْبَحَتْ هَانِئَةً بِحُبِّهَا
وَعَيْشِهَا

كَمَا أَرَدْتُ لَهَا وَأَنَّهَا وَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ مِنْ أَمْرِ تِلْكَ الْقِصَّةِ الَّتِي تَعْلَمُهَا شَيْئًا
فَقَدْ قُلْتُ لَهَا إِنَّ بَعْضَ النَّاسِ وَلَمْ إِسْمِهِ لَهَا قَدْ ضَحَّى بِنَفْسِهِ وَبِسَعَادَتِهِ فِي سَبِيلِ
سَعَادَتِكَ وَهَنَائِكَ فَلَا تَتْرُكِي الدُّعَاءَ لَهُ فِي جَمِيعِ صَلَوَاتِكَ بِجَزِيلِ الْأَجْرِ وَحَسَنِ
الْمَثُوبَةِ فَهِيَ لَا تَزَالُ تَدْعُو لَكَ صَبَاحَهَا وَمَسَاءَهَا أَنْ يُحْسِنَ اللَّهُ إِلَيْكَ أَحْسَنَتْ
إِلَيْهَا .

أَمَّا الْكِتَابُ الَّذِي أَرْسَلْتَهُ إِلَى أَرْمَانَ فِي أَوَائِلِ الشَّهْرِ الْمَاضِي فَلَمْ يَصِلْ إِلَيْهِ
الْيَوْمَ لِأَنَّهُ مُنْذُ فَارَقَكَ وَسَافَرَ إِلَى نَيْسِ لَمْ يَسْتَطِيعِ الْبَقَاءَ فِيهَا إِلَّا بِضَعَةِ أَيَّامٍ
ثُمَّ رَحَلَ عَنْهَا إِلَى الشَّرْقِ حَزِينًا مَهْمُومًا مِنْ أَجْلِكَ وَكُنْتُ لَا أَعْرِفُ الْجِهَةَ الَّتِي

بَقِيَّةُ الْمَذْكُرَاتِ

لَمْ تَسْتَطِعْ مَرْغَرِيْتُ يَا سَيِّدِي أَنْ تَكْتُبَ لَكَ أَكْثَرَ مِمَّا كَتَبْتُ لِأَنَّ الطَّبِيبَ مَنَعَهَا الْحَرَكَةَ وَلَوْ إِرَادَتَهَا لَعَجَزَتْ عَنْهَا .

أَتَذَكَّرُ يَا سَيِّدِي ذَلِكَ الْجِسْمَ الْغَضَّ النَّاعِمَ الَّذِي كَانَ يَمُوجُ بِالنُّورِ مَوْجًا وَيُشْرِقُ وَرَاءَ بَشَرَتِهِ إِشْرَاقَ الْخَمْرِ فِي كَأْسِهَا لَقَدْ صَبَحَ الْيَوْمَ عَظْمًا مُجَلَّدًا وَهَيْكَلًا قَائِمًا لَا يُسَاوِي ثَمَنَ نَظَرٍ إِلَيْهِ !

وَارْحَمَتَاهُ لَكَ لَقَدْ مَاتَ كُلُّ شَيْءٍ فِيهَا إِلَّا قَلْبَهَا وَشُعُورَهَا وَلَيَّتَهُمَا مَاتَا مَعًا فَإِنَّهَا لَا عَذَبَهَا شَيْءٌ مِثْلَ خَوَاطِرِهَا وَأَفْكَارِهَا .

وَلَا يَدْخُلُ مِنْ بَابِ غُرْفَتِهَا دَاخِلٌ حَتَّى تَرْفَعَ نَظْرَهَا إِلَيْهِ تَظُنُّ أَنَّكَ قَدْ جِئْتَهَا فَإِذَا دَنَا وَرَأَتْهُ أَطْبَقَتْ جَفْنَيْهَا عَلَى دَمْعَةٍ تَتَحَدَّرُ مِنْ بَيْنَهُمَا بِالرَّغَمِ مِنْهَا .

إِنَّهَا لَا تَتَكَلَّمُ كَثِيرًا فَإِذَا تَكَلَّمَتْ كَانَ أَوَّلَ حَدِيثِهَا أَلَمْ يَأْتِ أَرْمَانَ فَإِذَا أَجَبَتْهَا أَنْ لَا سَأَلَتْ عَنْ أَمْرِ آخِرٍ تَتَلَهَّى بِهِ أَوْ عَادَتْ إِلَى ضَمَّتِهَا مَرَّةً أُخْرَى .

لَقَدْ رَابَهَا الْيَوْمَ أَنَّ طَبِيبَهَا لَمْ يَأْتِهَا فَلَمَّا أَرَدَتْ أَنْ أَعْتَذِرَ لَهُ عَنْهُ لَمْ تَصْدُقْنِي وَقَالَتْ الْآنَ عَرَفْتُ كَلِمَتَهُ الَّتِي أَلْقَاهَا إِلَيْكَ بِالْأَمْسِ فَسَكَتَ وَلَمْ أَعْرِفْ مَاذَا أَقُولُ .

41 فبراير :

أَصْبَحَ الْيَوْمَ صَوْتُهَا ضَعِيفًا جِدًّا لَا أَكَادُ أَسْمَعُهُ وَأُظْلِمُ بَصَرَهَا فَهِيَ تَنْتَظِرُ إِلَيَّ وَلَا تَرَانِي وَقَدْ أَشَارَتْ إِلَيَّ فِي الصَّبَاحِ مِرَارًا أَنْ أَفْتَحَ لَهَا نَوَافِذَ الْغُرْفَةِ لِنَسْتَنْشِقَ الْهَوَاءَ وَتُرَوِّحَ عَنْ نَفْسِهَا وَنَوَافِذَ الْغُرْفَةِ مَفْتُوحَةً يَجْرِي مِنْهَا الْهَوَاءُ مُتَدَفِّقًا وَلَكِنَّهُ لَا يَصِلُ إِلَى صَدْرِهَا .

أَهْ لَوْ أَسْتَطِيعُ يَا سَيِّدِي أَنْ أَبِيعَ حَيَاتِي لِأَشْتَرِي لَهَا بِضْعَةَ أَنْفَاسٍ تَتَرَدَّدُ فِي

صَدْرَهَا أَوْ بَعْضَ سَنَاتٍ مِنَ النَّوْمِ تَأْوِي إِلَى جَفْنِهَا فَإِنَّ تَنَفُّسَهَا يُؤْلِمُنِي وَيُعَذِّبُنِي
عَذَابًا شَدِيدًا وَقَدْ مَرَّتْ بِهَا ثَلَاثَ لَيَالٍ لَمْ تَنْمَ فِيهَا لَحْظَةً وَاحِدَةً .

51 فبراير

بَعْدَ صَمْتٍ طَوِيلٍ لَمْ تَنْطِقْ فِيهِ بِحَرْفٍ وَاحِدٍ فَتَحَتْ عَيْنَيْهَا وَنَادَتْنِي بِصَوْتِهَا
الْخَافِتِ

الضَّعِيفَ فَدَنَوْتُ مِنْهَا فَقَالَتْ لِي أُرِيدُ الْكَاهِنَ فَأَتِينِي بِهِ فَعَلِمْتُ أَنَّهَا قَدْ أَصْبَحَتْ
عَلَى يَقِينٍ مِنْ أَمْرِهَا فَغَالَبْتُ عِبْرَاتِي حَتَّى خَرَجْتُ مِنَ الْغُرْفَةِ فَبَكَيْتُ مَا شَاءَ
اللَّهُ

أَنْ أَفْعَلَ ثُمَّ ذَهَبَتْ إِلَى الْكَاهِنِ فَتَرَدَّدَ عِنْدَمَا ذَكَرْتُ لَهُ اسْمَ الْمَرْأَةِ الَّتِي يُرِيدُ
الذَّهَابَ لَمْ يَسْتَحِقِّهَا أَحَدٌ مِثْلَ الْآثِمِينَ الْمُسْرِفِينَ فَذَعَنَ بَعْدَ لَأْيٍ وَجَاءَ مَعِيَ فَخَلَا
بِهَا سَاعَةً ثُمَّ خَرَجَ فَسَأَلْتُهُ أَيْرَحْمَهَا يَا سَيِّدِي قَالَ إِنَّهَا عَاشَتْ عِيشَ الْآثِمِينَ
وَلَكِنَّهَا سَتَمُوتُ مَوْتُ الْمُؤْمِنِينَ فَحَمِدْتُ اللَّهَ عَلَى ذَلِكَ :
وَمِنْذُ تِلْكَ السَّاعَةِ لَمْ أَعُدْ أَسْمَعُ مِنْهَا كَلِمَةً وَاحِدَةً وَلَا أَرَى عُضْوًا مِنْ أَعْضَائِهَا
يَتَحَدَّثُ إِلَّا مَا كَانَ فِي صَدْرِهَا يَتَرَجَّحُ بَيْنَ الصُّعُودِ وَالْهُبُوطِ .
فَبَرَّائِرَ سَاعَةِ الْغُرُوبِ :

إِنَّ مَرَّ غَرِيبٍ تَتَعَذَّبُ كَثِيرًا يَا سَيِّدِي وَأَحْسَبُ أَنَّهَا تُعَالِجُ سَكَرَاتِ الْمَوْتِ .
لَمْ يُقَاسِ إِنْسَانٌ فِي حَيَاتِهِ مِثْلَ مَا تُقَاسِيهِ الْآنَ مِنَ الْآلَمِ وَأَوْجَاعِهَا .
إِنَّهَا تَصْرُخُ مِنْ حِينٍ إِلَى حِينٍ صَرَخَاتٍ تَذُوبُ لَهَا حَبَّاتُ الْقُلُوبِ .
وَلَقَدْ اسْتَدْبَّ بِهَا الْآلَمُ السَّاعَةَ فَهَبْتُ مِنْ مَكَانِهَا صَارِخَةً وَانْتَبَهْتُ عَلَى قَدَمَيْهَا فِي
سَرِيرِهَا حَتَّى كَادَتْ تَيَقُّظُ عَنْهُ فَأَدْرَكَتَهَا وَأَضْجَعْتُهَا فِي مَكَانِهَا فَفَتَحْتُ عَيْنَيْهَا
فَسَقَطَتْ مِنْهُمَا دَمْعَانِ كَبِيرَتَانِ وَكَأَنَّمَا أَحَسَّتْ بِي فَاعْتَنَقَتْنِي وَضَمَّتْنِي إِلَيْهَا

شَدِيدًا ثُمَّ مَا لَبِثَ أَنْ تَرَخَتْ يَدَاهَا وَعَادَتْ إِلَى نِزَاعِهَا وَجِهَادِهَا .
قُضِيَ الْأَمْرُ وَمَاتَتْ مَرُغَرِيَتْ وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا عَلَى سَرِيرِهَا إِلَّا جُثَّتُهَا الَّتِي
سَتَذْهَبُ

إِلَى قَبْرِهَا تِلْكَ غَايَتُهَا وَغَايَةُ كُلِّ حَيٍّ فَصَبْرًا عَلَى قَضَاءِ اللَّهِ وَبَلَاءِهِ .
لَقَدْ هَتَفْتُ بِاسْمِكَ كَثِيرًا يَا سَيِّدِي فِي سَاعَتِهَا الْأَخِيرَةِ وَكَانَ آخِرَ عَهْدِهَا بِالْحَيَاةِ
أَنْ نَظَرْتُ إِلَى نَظْرَةٍ طَوِيلَةٍ مَمْلُوءَةٍ حُزْنًا وَدُمُوعًا حَرَّكَتْ أُصْبُعَهَا حَرَكَةً
خَفِيفَةً

وَأَشَارَتْ إِلَى دَفْتَرِ مُذَكِّرَاتِهَا الَّذِي كَانَ مُلْفِي بِجَانِبِهَا وَقَالَتْ أَرْمَانَ فَفَهِمْتُ أَنَّهَا
تُوصِينِي أَنْ أَبْلُغَهُ إِلَيْكَ ثُمَّ أَسْلَمْتُ رُوحَهَا .
عَزِيزَ عَلَيَّ يَا سَيِّدَتِي مَا لَقِيتُ مِنَ الْعَذَابِ قَبْلَ مَوْتِكَ وَعَزِيزَ عَلَيَّ أَنْ تَمُوتِي وَلَا
تَجِدِي بِجَانِبِكَ مَنْ يُغْمِضُ عَيْنَيْكَ وَيُلْقِي رِدَاءَكَ عَلَيْكَ سِوَايَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ
تِلْكَ

النَّفْسُ الطَّاهِرَةُ الْكَرِيمَةُ الَّتِي مَا جَمَلْتُ فِي حَيَاتِهَا شَرًّا لِمُحْسِنٍ وَلَا لِمُسِيءٍ
وَذَلِكَ

الْصَّدْرُ الرَّحْبُ الَّذِي كَانَ يَسَعُ الدُّنْيَا بِأَرْضِهَا وَسَمَائِهَا فَلَا يَضِيقُ عَنْهَا وَذَلِكَ
الْقَلْبُ النَّقِيُّ الْأَبْيَضُ الَّذِي مَا اضْمُرَ فِي حَيَاتِهِ غَيْرَ الْخَيْرِ أَوْ الْإِحْسَانِ وَلَا
فَاضَ

إِلَّا بِالرَّحْمَةِ وَالْحَنَانِ .

بَكَتْ بَرُودَنْسُ بِجَانِبِ جُثَّةِ سَيِّدَتِهَا مَا بَكَتْ ثُمَّ أَنْارَتْ حَوْلَهَا الشُّمُوعَ وَبَعَثَتْ إِلَى
الْكَاهِنِ فَجَاءَ وَجَثَا عِنْدَ رَأْسِهَا يَقْرَأُ فِي كِتَابِهِ وَمَشَتْ هِيَ إِلَى الْمَكْتَبِ فَجَلَسَتْ
إِلَيْهِ

تَكْتُبُ آخِرَ مُذَكِّرَاتِهَا حَتَّى فَرَّغَتْ مِنْهَا ثُمَّ قَامَتْ مِنْ مَكَانِهَا فَرَاعَهَا أَنْ رَأَتْ
شَبَحًا

مَاتِلًا وَقَدْ أُلْقِيَ مِنْ مَكَانِهِ عَلَى سَرِيرِ الْمَيِّتَةِ نَظْرَةً غَرِيبَةً هَائِلَةً كَتِلِكَ النَّظْرَةِ
الَّتِي تَسْبِقُ صَرَاعَاتِ الْجُنُونِ ثُمَّ اسْتَرَدَّهَا وَأَقْلَاهَا عَلَيْهَا وَسَأَلَهَا مِنْ هَذَا الْمَسْجِي
عَلَى هَذَا السَّرِيرِ فَبَكَتْ بِرُودَنْسٍ وَلَمْ تَقُلْ شَيْئًا فَسَقَطَتْ حَقِيبَةً مِنْ يَدِهِ وَجَمَدَ فِي
مَكَانِهِ لَحْظَةً لَا يَنْطَبِقُ وَلَا يَتَحَرَّكُ

ثُمَّ انْدَفَعَ إِلَى سَرِيرِ الْمَيِّتَةِ صَارِخًا يُرِيدُ أَنْ يُلْقِيَ بِنَفْسِهِ عَلَيْهِ ادْرَكَتْهُ بِرُودَنْسٍ
وَوَقَفَ الْكَاهِنُ فِي وَجْهِهِ وَقَالَ لَهُ احْتَرَمَ الْمَوْتَ أَيُّهَا الْفَتَى فَاخْتَنَقَتْ عِبْرَاتِهِ فِي
صَدْرِهِ وَارْتَعَدَ ارْتِعَادًا شَدِيدًا وَسَقَطَ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ فَلَمْ يَسْتَفِقْ إِلَّا مَطْلَعُ الْفَجْرِ
حِينَمَا شَعَرَ أَنَّهُمْ قَدْ أَقْبَلُوا يَحْمِلُونَ الْجَنَّةَ فَقَامَ يَتَحَامَلُ عَلَى نَفْسِهِ حَتَّى دَنَا مِنْ
السَّرِيرِ وَقَالَ رَحْمَةً بِي أَيُّهَا النَّاسُ فَقَدْ فَاتَنِي أَنْ أُودَّعَهَا وَهِيَ حَيَّةٌ فَأَذِنُوا لِي
أَنْ أُوَدَّعَهَا مَيِّتَةً فَرَحِمُوهُ وَأَفْرَجُوا لَهُ عَنْهَا حَتَّى دَانَاهَا وَرَفَعَ الْغِطَاءَ عَنْ وَجْهِهَا
وَقَبَّلَهَا فِي جَبِينِهَا وَقَالَ الْوَدَاعُ يَا أَعَزَّ النَّاسِ عِنْدِي الْوَدَاعُ يَا خَيْرَ فَتَاةٍ فِي
الْأَرْضِ وَأَشْرَفَ رُوحٍ فِي السَّمَاءِ ثُمَّ أَعَادَ الْغِطَاءَ عَلَى وَجْهِهَا وَتَرَاجَعَ عَنْهَا
وَأَذْنَهُمْ

بِحَمْلِهَا .

ثُمَّ مَشَى وَرَاءَ نَعْشِهَا يَبْكِي وَيَنْتَحِبُ وَلَمْ يَمْشِ وَرَاءَ النَّعْشِ غَيْرُهُ وَغَيْرُ الْخَادِمَةِ
بِرُودَنْسٍ وَالْذُّوقِ مُوَهَانَ وَهُوَ يَتَوَكَّأُ عَلَى عَصَاهُ وَيَقُولُ فِي نَدْبِهِ وَبُكَائِهِ هَذَا
أَرَى

إِبْنَتِي تَمُوتُ أَمَامِي مَرَّةً أُخْرَى وَلَا أَزَالُ حَتَّى السَّاعَةِ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ وَبَعْضِ
نِسْوَةٍ

بَائِسَاتٍ مِنْ ضَحَايَا تِلْكَ الْمَقَادِيرِ .

وَمَا انْقَضَى النَّهَارُ حَتَّى انْقَضَى مَلَّ شَيْءٍ وَأَصْبَحَتْ مَرْغَرِيْتُ رَهِينَةً قُرْبَهَا
وَأَرْمَانَ

ضَرِيحٍ فِرَاشِهِ يَقْرَأُ فِي مُذَكِّرَاتِهَا وَيُبْكِي بُكَاءَ الثَّائِلِ الْمَفْجُوعِ . .
ثُمَّ اشْتَدَّ بِهِ الْمَرَضُ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَمْ تَرَ بَرُودَنْسُ بَدَأَ مِنْ أَنْ تَكْتُبَ إِلَى أَبِيهِ تَشْرَحَ لَهُ
سُوءَ حَالِهِ فَحَضَرَ وَحَضَرَتْ مَعَهُ ابْنَتُهُ وَزَوْجُهَا وَلَبِثُوا بِجَانِبِهِ شَهْرًا يُعَلِّلُونَهُ
وَيَسْتَشْفُونَ لَهُ حَتَّى أَبُلَّ وَنَجَا مِنْ خَطَرِهِ ثُمَّ ذَهَبُوا جَمِيعًا إِلَى قَبْرِ مَرْغَرِيْتُ
لِيُودِّعُوهَا قَبْلَ سَفَرِهِمْ فَبَكَوْا حَوْلَهُ بُكَاءَ شَدِيدٍ وَكَانَتْ سَوْسَانُ أَشَدَّهُمْ بُكَاءَ عَلَيْهَا
وَإِنْ كَانَتْ لَا تَعْلَمُ أَنَّهَا تَبْكِي الْمَرْأَةَ الَّتِي ضَحَّتْ بِنَفْسِهَا فِي سَبِيلِهَا .
ثُمَّ تَقَدَّمَ الْمَسِيوُ دُوفَالٌ إِلَى وَلَدِهِ وَقَالَ لَهُ أَتُغْفِرُ لِي ذَنْبِي يَا بَنِي قَالَ نَعَمْ يَا
أَبْتَاهُ لِأَنَّهَا غَفَرَتْ لَكَ ذَنْبَكَ إِلَيْهَا ثُمَّ انْصَرَفُوا .

مَرَّتِ الْأَيَّامُ وَانْقَضَتْ الْأَعْوَامُ وَمَاتَ الْمَسِيوُ دُوفَالُ وَسَعَدَ لَدَهُ كَمَا أَرَادَ لَهُ أَبُوهُ
وَلَكِنْ بَقِيََتْ بَيْنَ جَبِينِهِ لَوْعَةٌ مَعْتَلِجَةٌ لَا يَرُوحُهَا عَنْهُ كُلَّمَا سَاوَرَتْهُ إِلَّا قِرَاءَةُ
مُذَكِّرَاتِ مَرْغَرِيْتُ وَمُحَادَثَةِ بَرُودَنْسٍ عَنْهَا وَزِيَارَةِ قَبْرِهَا مِنْ حِينٍ إِلَى حِينٍ .

منتدى حديث المطابع

موقع الساخر

www.alsakher.com